

صَحِيحُ قِصَصِ الْأَنْبِيَاءِ

تَأَلَّفَ

الْحَافِظُ الْمُسْتَرَحِدُّ الْحَدِيثُ الْفَقِيهُ الْمُرْتَضَى الْأَعْلَمُ

أَبِي الْفَرَادِوَعَادِ الدِّينِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ عُمَرَ بْنِ كَثِيرٍ الْقُرَشِيِّ

(٧٠١ هـ - ٧٧٤ هـ)

رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى، وَاتَّقَى اللَّهَ الْغَرُوسَ الْأَعْلَى مِنْهُ وَكَرَّمَهُ

بِقَوْلِهِ

أَبِي إِسْمَاعِيلَ سَائِمِ بْنِ عُمَرَ بْنِ إِسْمَاعِيلَ السَّافِيِّ الْأُسْرِيِّ

كَانَ اللَّهُ لَهُ، وَفَقَّاهُ مِنْهُ وَكَرَّمَهُ



لِلْبَيْتِ وَالْبَيْتِ وَالْبَيْتِ وَالْبَيْتِ وَالْبَيْتِ

جميع حقوق الملكية الأدبية والفنية
محفوظة لدار غراس - الكويت
ويحظر طبع أو تصوير أو ترجمة أو إعادة تنضيد
الكتاب كاملاً أو مجزأ أو تسجيله على اشرطة
كاسيت أو إدخاله على الكمبيوتر أو برمجته على
اسطوانات ضوئية إلا بموافقة خطية من الناشر.

الطبعة الأولى

١٤٢٢ هـ

٢٠٠٢ م

الناشر

مؤسسة غراس للنشر والتوزيع

الكويت - شارع الصحافة - مقابل مطابع الرأي العام التجارية
هاتف : ٨١٩٠٣٧ - فاكس : ٨٣٨٤٩٥ - هاتف و فاكس : ٥٧٨٨٦٨
الجهراء : ص.ب : ٢٨٨٨ - الرمز البريدي : ٠١٠٣٠

website : www.gheras.com

E-Mail : info@gheras.com

صَحِيحُ قِصَصِ الْأَنْبِيَاءِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الحمد لله؛ نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من سرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله؛ فلا مضل، ومن يضلل؛ فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له. وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

أما بعد: فإن قصص الأنبياء غيب لا يعلم إلا بالوحي المنزل على رسول الله ﷺ: قرآناً أو سنة.

وقال: ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَفْلَمْهُمْ أَيْهْمُ يَكْفُلْ مَزِيمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران: ٤٤].

وقال الله -تعالى-: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَقِيبَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٩].

وقال -سبحانه وتعالى-: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [١٦] وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ [القصص: ٤٤ و٤٥].

ومقاصد قصص الأنبياء، هو: تقديم العبر للمؤمنين على كر الأيام ومرّ الدهور وتوالي السنين؛ لتكون لأتباعهم الصادقين المخلصين زاداً ترتشف رحيقه أرواحهم، وتتضلع منه قلوبهم وعقولهم؛ فتُخَدِّثُ في كيانهم دافعاً للخير وحافزاً للبر والتقوى، وشوقاً للعمل الصالح والكلم الطيب.

ولقد وجدت أن أحسن من كتب في هذا الميدان هو الإمام العلامة السلفي والحافظ النقاد الأثري عماد الدين ابن كثير الدمشقي -رحمه الله- في كتابه المستطاب المسمى: «قصص الأنبياء» المستل من كتابه العجائب «البداية والنهاية» وسبق أني اعتنيت بهذا الكتاب توثيقاً وتحقيقاً لنصوصه وتخريجاً لأحاديثه وآثاره؛ فميزت بين الصحيح والضعيف والسليم والسقيم؛ فرأيت أنه يحتوي على مادة كثيرة لا تليق بأخبار سادات الخلق وأصفياء الله من عباده ممن صنعهم على عينه

وغيرهم بيده؛ فعمدت إلى حذفها والاكتفاء بالصحيح؛ فقيه غنية عما سواه؛ لأنه لا يجوز نسبة ذلك إلى رسول الله ﷺ، ولا يجوز التساهل في ذلك؛ بدعوى أنها قصص وأخبار؛ لأنها أحداث إيمانية ووقائع غيبية.

والغيب نقطة ارتكاز في دائرة الإيمان ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ [البقرة: ٣]؛ فإدخال ما لا يصح عن المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى إلى هذه الدائرة زيغ في التصور وانحراف في المسار؛ فالقصص المنحول يحمل مفاصد في العقيدة والتعبد والأخلاق والقيم والسلوك والتربية والسياسة تسري في الأمة كالنار في هشيم المحتظر؛ فتضعف كيانه، وتهدم أركانها، وتفرق جمعها، وتشتت شملها؛ لأن ذلك القصص مركب حبور وعبور سهل للذين يريدون بالمسلمين شراً من غير كد ولا عناء ولا إعلان عداة.

ومنهجي العلمي كالآتي:

١- أبقيت النصوص القرآنية؛ كما ساقها الإمام ابن كثير -رحمه الله-؛ لأن القصص القرآني لا تكرر فيه؛ ففي كل سياق زيادة معنى لا تجدها في غيره. وأما تفسيرها؛ فاكتفيت بالصحيح والصواب إلا ما كان لذكره ضرورة؛ لسلامة السياق وفهم المراد.

٢- الاكتفاء بما صح رواية ودراية ورعاية من الأحاديث النبوية والآثار السلفية، وأما الضعيف الذي أبقيته -مع التنبيه عليه-؛ فهو لبيان ذلك وإن كان مشهوراً ومتداولاً، أو لأن السياق لا يفهم إلا به.

وأما الإسرائيليات؛ فما شهد لها الكتاب والسنة أو أحدهما؛ فتقبل، وما دون ذلك؛ فقد أغنانا الله عنها بفضله.

٣- حذف الأسانيد ولم أبق إلا صحابي الحديث، أو ما لا بد من ذكره؛ ليتم السياق.

٤- حذف الروايات المكررة إذا لم يكن فيها زيادة معنى.

٥- حذف اختلافات أهل العلم التي لا تقوم على أصل ثابت.

٦- حافظت على عبارة الإمام ابن كثير؛ فإنها سلسلة شيقة وسهلة مائعة، وقد أضفت بعض الجمل؛ لربط الكلام، أو لخصت معنى صحيحاً في رواية لا يصح سندها.

٧- وضعت عناوين فرعية تعين على الفهم، وتسهل ضبط المراد، وتقرب العبر والفوائد.

٨- صنعت فهرساً تحليلياً للموضوعات والفوائد.

وسميت: «صحيح قصص الأنبياء».

أخي القارئ الكريم هذا عملي بين يديك؛ فلك غنمه، وعلي غرمه؛ فإن وجدت خيراً؛ فلا تأل جهداً في الدعاء لي؛ فإن دعاء المؤمن لأخيه بظهر الغيب مستجاب، وإن وجدت خللاً؛ فأصلحه، أو عيباً؛ فاستره، أو نصيحة؛ فلا تبخل علي بها؛ فإنني متقلد مئة من أهدى إلى شيئاً ينفعني في ديني ويصلح عيوبي.

وأسأل الله العلي العظيم أن يتقبل جهد المقل خدمة لدينه الخفيف، وصيانة لجناب النبوة الشريف، وأن يدخر لي ثواب ذلك إلى يوم لقائه؛ يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، والله الموعود.

وكتب

سليم بن عيد الهلالي السلفي الأثري

أبو أسامة

[قصة آدم عليه السلام]

باب ما ورد في خلق آدم - عليه السلام -

[في القرآن الكريم]

قال الله - تعالى - : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۚ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١﴾ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢﴾ قَالُوا سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣﴾ قَالَ يَتَادَمُ أَنْبِئُهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٤﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٥﴾ وَقُلْنَا يَتَادَمُ أَسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٦﴾ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتْنَعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٧﴾ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٨﴾ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٠﴾ [البقرة: ٣٠-٣٩].

وقال - تعالى - : ﴿ إِنِّ مَثَلٌ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿١﴾ [آل عمران: ٥٩].

وقال - تعالى - : ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ آتِقُورًا رَّيَكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ [النساء: ١].

كما قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَنُّكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ [الحجرات: ١٣].

وقال - تعالى -: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ ﴿١٨٩﴾﴾ [الأعراف: ١٨٩].

وقال - تعالى -: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿١٩٠﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴿١٩١﴾ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٩٢﴾ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يَبْعَثُونَ ﴿١٩٣﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿١٩٤﴾ قَالَ فِيمَا أُغْوَيْتَنِي لِأَفْعِدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٩٥﴾ ثُمَّ لَا يَتَّبِعُهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَنِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٩٦﴾ قَالَ أَخْرَجَ مِنْهَا مَذَّةً وَمَا مَذْخُورًا لِّمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٩٧﴾ وَيَتَذَكَّرُ أَنَّكَ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَوَسَّسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءِ تَهُمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿١٩٩﴾ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢٠٠﴾ فَدَلَّلَهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَتُهُمَا وَطَفَفَا بِخِصْفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلَّ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠١﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٠٢﴾ قَالَ أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٠٣﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾ [الأعراف: ١١-٢٥].

كما قال في الآية الأخرى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾ [طه: ٥٥].

وقال - تعالى -: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٥٦﴾ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَّارِ السُّمُورِ ﴿٥٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي

خَلَقَ بَشَرًا مِّن صَلَاسِلٍ مِّن حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَتَابِعُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلَاسِلٍ مِّن حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَا أُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَن اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾ [الحجر: ٢٦-٤٤].

وقال -تعالى-: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾ ﴿٢٨﴾ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَنُ أَخْرُجَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا تَخِنَكُنْ ذُرِّيَّتُهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٩﴾ قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَاءً مُّوَفُورًا ﴿٣٠﴾ وَأَسْتَغْفِرُ مَنَ اسْتَطَعْتُ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدَّتِهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٣١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٣٢﴾ [الإسراء: ٦١-٦٥].

وقال -تعالى-: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴾ ﴿٣٠﴾ [الكهف: ٥٠].

وقال -تعالى-: ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسَى وَلَمْ يَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴾ ﴿٣٠﴾ ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى ﴾ ﴿٣١﴾ فَقُلْنَا يَسْأَدُمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِرَوْحِكَ فَلَا تَخْرُجَنَّكَمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ﴿٣٢﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ﴿٣٣﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى ﴿٣٤﴾ فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَسْأَدُمُ هَلْ أَذُنُكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٌ لَّآ يَبْلَى ﴿٣٥﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ

الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴿١٢٠﴾ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢١﴾ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٢﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٣﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴿١٢٤﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَىٰ ﴿١٢٥﴾ ﴿طه: ١٢١-١٢٦﴾.

وقال -تعالى:- ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ﴿١٢٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿١٢٨﴾ مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿١٢٩﴾ إِنْ يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي خَلِقُ بَشَرًا مِنْ طِينٍ ﴿١٣١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿١٣٢﴾ فَسَجَدَ الْمَلَكَةُ كُلُّهُمْ أَسْجُدُونَ ﴿١٣٣﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٣٤﴾ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي اسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴿١٣٥﴾ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴿١٣٦﴾ قَالَ فَاهْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿١٣٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿١٣٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿١٤٠﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿١٤١﴾ قَالَ فَابْعِزْكَ لِأَعْيُنِهِمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٤٣﴾ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ ﴿١٤٤﴾ لَا مَلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٥﴾ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴿١٤٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿١٤٧﴾ وَلِتَعْلَمَنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴿١٤٨﴾﴾ [ص: ٦٧-٨٨].

فهذا ذكر هذه القصة من مواضع متفرقة من القرآن، وقد تكلمنا على ذلك كله في «التفسير»^(١)، ولنذكر هاهنا مضمون ما دلّت عليه هذه الآيات الكريمات، وما يتعلق بها من الأحاديث الواردة في ذلك عن رسول الله ﷺ، والله المستعان.

(١) المسمى: «تفسير القرآن العظيم»، وهو من أصح كتب التفسير السلفية.

[الملائكة الكرام يسألون عن حكمة خلق آدم - عليه السلام -]

فأخبر - تعالى - أنه خاطب الملائكة قائلاً لهم: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ ﴾ [البقرة: ٣٠] أعلم بما يريد أن يخلق من آدم وذريته الذين يخلف بعضهم بعضاً؛ كما قال: ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ ﴾ [الأنعام: ١٦٥] ، وقال - تعالى - : ﴿ وَجَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ﴾ [النمل: ٦٢] ^(١)؛ فأخبرهم بذلك على سبيل التنويه بخلق آدم وذريته؛ كما يخبر بالأمر العظيم قبل كونه.

فقالت الملائكة سائلين على وجه الاستكشاف والاستعلام عن وجه الحكمة، لا على وجه الاعتراض والتقصص لبني آدم والحسد لهم؛ كما قد يتوهمه بعض جهلة المفسرين؛ قالوا: ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ﴾ [البقرة: ٣٠].

قيل: علموا أن ذلك ^(٢) كائن بما رأوا ممن كان قبل آدم - عليه السلام - من الجن؛ فعلموا أن الأرض لا يخلق منها إلا ما يكون بهذه المثابة غالباً. والله أعلم. ﴿ وَتَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾؛ أي: نعبدك دائماً لا يعصيك منا أحد، فإن كان المراد بخلق هؤلاء أن يعبدوك فهذا نحن أولاء لا نفتر ليلاً ولا نهاراً. ﴿ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٣٠]؛ أي: أعلم من المصلحة الراجحة في خلق هؤلاء ما لا تعلمون؛ أي: سيوجد منهم الأنبياء والمرسلون والصديقون والشهداء والصالحون. ثم بيّن لهم شرف آدم عليهم في العلم؛ فقال: ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ [البقرة: ٣١].

(١) هذا تصريح بفساد ذاك القول: إن الإنسان خليفة الله في الأرض؛ كما يهرف بذلك الأدباء القصاصون والصحفيون؛ فليس له نقل مستند صحيح أو قول معتمد صريح.

(٢) الفساد وسفك الدماء.

والصحيح: أنه علّمه أسماء الذوات وأفعالها؛ مكبرها ومصغرها؛ كما أشار إليه ابن عباس -رضي الله عنهما-^(١).

وذكر البخاري عن أنس بن مالك، عن رسول الله ﷺ؛ قال: «يجتمع المؤمنون يوم القيامة؛ فيقولون: لو استشفعنا إلى ربّنا؛ فيأتون آدم فيقولون: أنت أبو البشر^(٢)؛ خلقك الله بيده، وأسجد لك ملائكته، وعلّمك أسماء كل شيء...» وذكر تمام الحديث^(٣).

(١) وقال المصنف -رحمه الله- في «تفسير القرآن العظيم» (١/٧٦): «والصحيح: أنه علّمه أسماء الأشياء كلها؛ وذواتها وصفاتها وأفعالها؛ كما قال ابن عباس: حتى الفسوة والفسية؛ يعني: أسماء الذوات والأفعال المكبر والمصغر». قلت: ما روي عن ابن عباس -رضي الله عنهما- لا يصح سنده، وإنما يدل عليه عموم اللفظ القرآني، والله أعلم.

(٢) هذا دليل قاطع، وبرهان جامع على أن آدم أبو البشر جميعهم، وليس كما شكك في ذلك الشيخ محمد عبده المصري، ومن المؤسف حقاً أن يقره على باطله الشيخ محمد رشيد رضا في «المنار» (٤/٣٢٣ و٣٢٤ و٣٢٥).

ثم رأيت كتاباً للدكتور الدجال عبد الصبور شاهين: «أبي آدم: قصة الخليقة بين الأسطورة والحقيقة» يدندن حول هذه الفرية والخرافة؛ فجعل آدم أول إنسان وليس أبا البشر^(١).

ولا يخوض في هذا الغيب إلا المضلون؛ كما قال -تعالى-: ﴿مَّا أَشْهَدُتُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسَهُمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ [الكهف: ٥١]. أشهد هؤلاء الأفاكون خلق آدم -عليه السلام- حتى يفرقوا بين البشر والإنسان ويقولون: آدم من البشر وليس أبا البشر ولكنه أول إنسان.

إن هذه الضلالة المليئة بالجهالة ترويح لإفك داروين وأنصاره: أن أصل الإنسان قرد^(١). (٣) أخرجه البخاري (٤٤٧٦)، ومسلم (١٩٣).

ووجه إيراد المصنف - رحمه الله - الحديث أنه دلّ على أن الله - عز وجل - علّم آدم - عليه السلام - جميع أسماء المخلوقات.

وهذا يدل على أن مذهب الإمام ابن كثير - رحمه الله - كمذهب البخاري - رحمه الله - في المسألة.

﴿ ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [البقرة: ٣١]؛ قال الحسن البصري: لما أراد الله خلق آدم؛ قالت الملائكة: لا يخلق ربنا خلقاً؛ إلا كنا أعلم منه! فابتلوا بهذا، وذلك قوله: ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ^(١).

قالوا: ﴿ سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ [البقرة: ٣٢]؛ أي: سبحانك أن يحيط أحد بشيء من علمك من غير تعليمك؛ كما قال: ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

﴿ قَالَ يَتَذَكَّرُ أَنْبِئُهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ [البقرة: ٣٣]؛ أي: أعلم السر؛ كما أعلم العلانية.

وقوله: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ ﴾ [البقرة: ٣٤]: هذا إكرام عظيم من الله - تعالى - لآدم حين خلقه بيده، ونفخ فيه من روحه؛ كما قال: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ [الحجر: ٢٩]؛ فهذه أربع تشريفات: خلقه بيده الكريمة، ونفخه من روحه، وأمره الملائكة بالسجود له، وتعليمه أسماء الأشياء.

ولهذا قال له موسى الكليم حين اجتمع هو وإياه في الملأ الأعلى وتناظرا: «أنت آدم أبو البشر؛ الذي خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأسجد لك ملائكته، وعلمك أسماء كل شيء» ^(٢). وهكذا يقول له أهل المحشر يوم القيامة ^(٣).

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١/١٧٣) بسند جيد.

(٢) سيأتي تخريجه (ص ٢٨).

(٣) مضى تخريجه (ص ١٤).

[حسد إبليس لأدم - عليه السلام -]

وقال في الآية الأخرى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴾ ① قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ② [الأعراف: ١١-١٢].

قال الحسن البصري: قاس إبليس، وهو أول من قاس.

وقال محمد بن سيرين: أول من قاس إبليس، وما عبت الشمس ولا القمر إلا بالمقاييس.

رواهما ابن جرير^(١).

ومعنى هذا: أنه نظر نفسه بطريق المقايسة بينه وبين آدم؛ فرأى نفسه أشرف من آدم؛ فامتنع من السجود له، مع وجود الأمر له ولسائر الملائكة بالسجود! والقياس إذا كان مقابلاً بالنص كان فاسد الاعتبار^(٢).

ثم هو فاسد في نفسه؛ فإن الطين أنفع وخير من النار؛ لأن الطين فيه الرزانة والحلم والأناة والنمو، والنار فيها الطيش والخفة والسرعة والإحراق^(٣).

ثم إن آدم شرفه الله بمخلقه له بيده ونفخه فيه من روحه؛ ولهذا أمر الملائكة بالسجود له؛ كما قال: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي خَلِّقُ بَشَرًا مِّن صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ③ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ④ فَسَجَدَ الْمَلَكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ⑤ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ⑥ قَالَ يَبْنَئُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ⑦ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ⑧ قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا

(١) في «جامع البيان» (٩٨/٧) وصححهما الحافظ ابن كثير - رحمه الله - في «تفسير

القرآن العظيم» (٢/٢١٢).

(٢) وانظر - لزماً -: «حجة إبليس» للإمام ابن قيم الجوزية (ص ١١) - وما بعدها -

بتحقيقي).

(٣) وقد بين ذلك مفصلاً الإمام ابن قيم الجوزية - رحمه الله - في «الصواعق المرسلة»

(٣/١٠٠٢-١٠٠٣).

فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٢٨﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿٢٩﴾ [الحجر: ٢٨-٣٥]: استحق هذا من الله - تعالى؛ لأنه استلزم تنقصه لآدم وازدراؤه به وترفعه عليه مخالفة الأمر الإلهي ومعاندة الحق في النص على آدم على الثعنين، وشرع في الاعتذار بما لا يجدي عنه شيئاً، وكان اعتذاره أشد من ذنبه.

كما قال - تعالى - في سورة سبحان: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتُ طِينًا ﴿٣٠﴾ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَنْ أَخْضَتْنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَأُحْتَنِكَ ذُرِّيَّتُهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٣١﴾ قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا ﴿٣٢﴾ وَأَسْتَفْزِرُ مَنْ أَسْتَطَعَتْ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبَ عَلَيْهِمْ بِخِيلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدَّتِهِمْ وَمَا يَعْدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٣٣﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٣٤﴾ [الإسراء: ٦١-٦٥].

وقال في سورة الكهف: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ﴿٥٠﴾ [الكهف: ٥٠]: أي: خرج عن طاعة الله عمداً وعناداً واستكباراً عن امتثال أمره.

وما ذاك إلا لأنه خانه طبعه ومادته الخبيثة أحوج ما كان إليه؛ فإنه مخلوق من نار؛ كما قال، وكما قد روينا في «صحيح مسلم»^(١) عن عائشة، عن رسول الله ﷺ قال: «خلقت الملائكة من نور، وخلقت الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم».

قال الحسن البصري: لم يكن إبليس من الملائكة طرفة عين قط^(٢).

(١) (برقم ٢٩٩٦).

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١/١٧٩)، وأبو الشيخ في «العظمة» (١١٢٩)، وغيرهما بطرق عن عوف الأعرابي عن الحسن به. قلت: وسنده صحيح.

هذه المسألة من المسائل التي اختلف فيها أهل العلم من السلف والخلف اختلافاً كبيراً، والراجع: أن إبليس - لعنه الله - من الجن وليس من الملائكة للوجوه الآتية:
١ - قوله - تعالى - : ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾ [الكهف: ٥٠]؛ فهذا نص جلي في المسألة؛ لأن الجن قسيمو الإنس في الخلق، وعندما تطلق هذه اللفظة لا يراد بها الملائكة أو حيي منهم.

وقال في سورة ص: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي خَلِيقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَاذْأَسَوِّتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ الْمَلَأِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَبْنَئِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي اسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَاجِعٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَلُوتِ الْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [ص: ٧١-٨٥].

وقال في سورة الأعراف: ﴿قَالَ فِيمَا آغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الأعراف: ١٦-١٧]؛ أي: بسبب

٢- أن إبليس مخلوق من نار، وأما الملائكة؛ فمخلوقات نورانية، ويا بعد ما بينهما!
٣- أن إبليس له ذرية: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي﴾ [الكهف: ٥٠]،
والملائكة لا تتناسل.

٤- أن إبليس عصى الله واستكبر وكفر، والملائكة عباد مكرمون لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

فإن قيل: كيف أمر بالسجود مع الملائكة وهو ليس منهم؟
فالجواب: أنه رفع إلى مصافهم بفضل علمه واجتهاده وعبادته وتشبهه بالملائكة؛ كما جاء عن كثير من السلف، وهو ما رجحه الحافظ ابن كثير -رحمه الله-، ولا غرابة أن يكون معهم وليس منهم؛ فهذا آدم -عليه السلام- كان في مصاف الملائكة عند ربه -تبارك وتعالى-.

وإن قيل: كيف استثناء الله منهم وهو ليس كذلك؟
فالجواب: إن هذا الاستثناء من باب الاستثناء المنقطع الذي لا يشترط أن يكون المستثنى جزءاً من المستثنى منه؛ كقولك: شرب القوم إلا ماشيتهم! وجاؤوا إلا إيلهم!!.

إغوائك إياي؛ لأقعدن لهم كل مرصد، ولآتينهم من كل جهة منهم، فالسعيد من خالفه، والشقي من اتبعه.
عن سبرة بن أبي الفاكه؛ قال: سمعت رسول الله ﷺ قال: «إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه» وذكر الحديث^(١).

[الملائكة الذين سجدوا لآدم عليه السلام]

وقد اختلف المفسرون في الملائكة المأمورين بالسجود لآدم؛ أهم جميع الملائكة كما دلّ عليه عموم الآيات؟ -وهو قول الجمهور- أو المراد بهم ملائكة الأرض.

ولكن الأظهر من السياقات الأول، ويدل عليه الحديث: «وأسجد له ملائكته»^(٢)، وهذا عموم -أيضاً-، والله أعلم^(٣).

[إبليس كان في السماء]

وقوله -تعالى- لإبليس: ﴿ فَاهْبِطْ مِنْهَا ﴾ [الأعراف: ١٣]، و﴿ أَخْرِجْ مِنْهَا ﴾ [الأعراف: ١٨] دليل على أنه كان في السماء، فأمر بالهبوط منها، والخروج من المنزل.

(١) صحيح- أخرجه أحمد (٤٨٣/٣)، والنسائي (٢١/٦-٢٢)، وابن حبان في «صحيحه» (١٠/٤٥٣/٤٥٩٣)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٥/٢٩٣)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٧/رقم ٦٥٥٨) بسند صحيح، وصححه شيخنا الإمام الألباني -رحمه الله- في «صحيح النسائي» (٢٩٣٧)، و«صحيح الجامع» (١٦٤٨).

(٢) مضي تخريجه (ص ١٤).

(٣) وقد فصل المصنف -رحمه الله- في «تفسير القرآن العظيم» (١/٢٨٧) هذه المسألة بعض الشيء؛ فانظره غير مأمور.

والمكانة التي كان قد نالها بعبادته، وتشبهه بالملائكة في الطاعة والعبادة، ثم سلب ذلك بكبره وحسده ومخالفته لربه، فأهبط إلى الأرض مذؤوماً مدحوراً^(١).

[حواء - عليها السلام - وقصة خلقها]

وأمر الله آدم - عليه السلام - أن يسكن هو وزوجته الجنة، فقال: ﴿ وَقُلْنَا يٰٓآدَمُ اَسْكُنْ اَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة: ٣٥].

وقال في سورة الأعراف: ﴿ قَالَ اَخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ وَيَتَّأَدَمُ اَسْكُنْ اَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [الأعراف: ١٨-١٩].

وقال - تعالى -: ﴿ وَاِذْ قُلْنَا لِلْمَلٰٓئِكَةِ اَسْجُدُوْا لِآدَمَ فَسَجَدُوْا اِلَّا ابْلٰسَ اَبٰى ﴿١٦﴾ فَقُلْنَا يٰٓآدَمُ اِنَّ هٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقٰى ﴿١٧﴾ اِنَّ لَكَ اَلًا تَجُوْعُ فِيْهَا وَلَا تَعْرِىٰ ﴿١٨﴾ وَاَنْتَ لَا تَظْمُوْا فِيْهَا وَلَا تَضْحٰى ﴿١٩﴾ ﴾ [طه: ١١٦-١١٩].

وسباق هذه الآيات يقتضي أن خلق حواء كان قبل دخول آدم إلى الجنة لقوله: ﴿ وَيَتَّأَدَمُ اَسْكُنْ اَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ﴾، وهذا قد صرح به محمد بن إسحاق بن يسار، وهو ظاهر هذه الآيات.

وذكر محمد بن إسحاق عن ابن عباس: أنها خلقت من ضلعه الأقصر الأيسر وهو نائم، ولأم مكانه لحماً.

ومصدق هذا: في قوله - تعالى -: ﴿ يٰٓأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوْا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيْرًا وَنِسَاءً

(١) هذا يسدل على أن ابن كثير رحمه الله - يرجع أن إبليس من الجن؛

كما تقدم (ص ١٧-١٨).

وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾
[النساء: ١].

وفي قوله -تعالى-: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ﴾
[الأعراف: ١٨٩].

وفي «الصحيحين» عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه قال: «استوصوا بالنساء خيراً؛ فإن المرأة خلقت من ضلع، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه؛ فإذا ذهبت تقيمه؛ كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج؛ فاستوصوا بالنساء خيراً»^(١).
هذا لفظ البخاري.

[الشجرة التي نهي عنها آدم وزوجته -عليهما السلام-]

وقد اختلف المفسرون في قوله -تعالى-: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾
[البقرة: ٣٥].

وهذا الخلاف قريب، وقد أبهم الله ذكرها وتعيينها، ولو كان في ذكرها مصلحة تعود إلينا لعينها لنا، كما في غيرها من المحال التي تُبْهَم في القرآن^(٢).

[حقيقة الجنة التي كان فيها آدم وزوجته -عليهما السلام-]

ولنما الخلاف الذي ذكره في أن هذه الجنة التي أدخلها آدم: هل هي في السماء أو في الأرض؟ هو الخلاف الذي ينبغي فصله والخروج منه.

(١) أخرجه البخاري (٣٣٣١)، ومسلم (١٤٦٨).

(٢) هذا أصل سلفي في تفسير القرآن؛ فلا ينبغي للمفسر أن يبحث في تعيين مبهمات القرآن ما لم يأت في ذلك نقل صحيح صريح عن رسول الله ﷺ؛ لأنه غيب لا يعلم إلا بوحى؛ فتدبر.

والجمهور على أنها هي التي في السماء، وهي جنة المأوى؛ لظاهر الآيات والأحاديث؛ كقوله -تعالى-: ﴿وَقُلْنَا يٰٓأَدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٣٥]، والألف واللام ليست للعموم ولا لمعهود لفظي، وإنما تعود على معهود ذهني، وهو المستقر شرعاً من جنة المأوى.

وكقول موسى -عليه السلام- لآدم -عليه السلام-: «علام أخرجتنا ونفسك من الجنة...؟» الحديث كما سيأتي الكلام عليه^(١).

وروى مسلم في «صحيحه»^(٢) من حديث أبي هريرة وحذيفة قالوا: قال رسول الله ﷺ: «يجمع الله الناس فيقوم المؤمنون حين تزلف لهم الجنة، فيأتون آدم، فيقولون: يا أبانا! استفتح لنا الجنة، فيقول: وهل أخرجكم من الجنة إلا خطيئة أبيكم؟» وذكر الحديث بطوله.

هذا فيه قوة جيدة ظاهرة في الدلالة على أنها جنة المأوى.

[إبليس يوسوس لآدم وحواء -عليهما السلام-]

وقوله -تعالى-: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾ [البقرة: ٣٦]؛ أي: عن الجنة ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ [البقرة: ٣٦]؛ أي: من النعيم والنصرة والسرور إلى دار التعب والكد والنكد، وذلك بما وسوس لهما وزيّنة في صدورهما.

كما قال -تعالى-: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءِ إِتِهَمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠] يقول: ما نهاكما عن أكل هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين؛ أي: لو أكلتما منها لصرقتا كذلك. ﴿وَقَاسَمَهُمَا﴾ [الأعراف: ٢١]؛ أي: حلف لهما على ذلك ﴿إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٢١]؛ كما قال في الآية الأخرى: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ

(١) (ص ٢٨).

(٢) برقم (١٩٥).

الشَّيْطَانُ قَالَ يَتَّأَدُّمْ هَلْ أَذُوكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى ﴿١٢٠﴾
[طه: ١٢٠] أي: هل أدلك على الشجرة التي إذا أكلت منها حصل لك الخلد فيما
أنت فيه من النعيم، واستمررت في ملك لا يبيد ولا ينقضي؟ وهذا من التغرير
والتزوير والإخبار بخلاف الواقع.

والمقصود: أن قوله: ﴿ شَجَرَةِ الْخُلْدِ ﴾ [طه: ١٢٠] التي إذا أكل منها خلدت،
وقد تكون هي الشجرة التي قال رسول الله ﷺ: «إن في الجنة شجرة يسير الراكب
في ظلها مائة عام لا يقطعها»^(١).

وقوله: ﴿ فَدَلَّلَهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَتُهُمَا وَطَفِقَا
يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ ﴾ [الأعراف: ٢٢]؛ كما قال في طه: ﴿ فَأَكَلَا
مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ ﴾
[طه: ١٢١].

[حواء - عليها السلام - والشجرة]

وكانت حواء أكلت من الشجرة قبل آدم، وهي التي حثته على أكلها، والله
أعلم.

وعليه يحمل الحديث، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ: «لولا بنو إسرائيل؛ لم
يخنز اللحم، ولولا حواء لم تخن أنثى زوجها»^(٢).

(١) أخرجه البخاري (٣٢٥٢)، ومسلم (٢٨٢٦).

(٢) أخرجه البخاري (٣٣٣٠ و ٣٣٩٩)، ومسلم (١٤٧٠).

قلت: خيانة حواء لآدم -عليهما السلام- تزيينها لآدم الأكل من الشجرة لا معنى لها
غير ذلك. أفاده الحافظ ابن حجر - رحمه الله - في «فتح الباري» (٣٦٨/٦).

وقال شيخ مشايخنا العلامة أبو الأشبال أحمد شاكر - رحمه الله - في تعليقه على في
«المسند» (٨٠١٩): «وأزيد: إنه لم يكن هناك رجال غير آدم حتى يوجد احتمال أن تكون
الخيانة بارتكاب الفواحش».

قلت: هذا قول مكين وتوجيه متين؛ فما زنت امرأة نبي، وآدم -عليه السلام- نبي مكلم.

[لباس آدم وحواء -عليهما السلام-]

وفي كتاب التوراة^(١) التي بأيدي أهل الكتاب: أن الذي دلّ حواء على الأكل من الشجرة هي الحية، وكانت من أحسن الأشكال وأعظمها، فأكلت حواء عن قولها، وأطعمت آدم -عليه السلام-، وليس فيها ذكر لإبليس؛ فعند ذلك انفتحت أعينها وعلمتا أنهما عريانان، فوصلا من ورق التين وعملا مآزر، وفيها أنهما كانا عريانين.

وكذا قال وهب بن منبه: وكان لباسهما نوراً على فرجه وفرجها. وهذا الذي في هذه التوراة التي بأيديهم غلط منهم، وتحريف وخطأ في التعريب؛ فإن نقل الكلام من لغة إلى لغة لا يتيسر لكل أحد، ولا سيما ممن لا يكاد يعرف كلام العرب جيداً، ولا يحيط علماً بفهم كتابه أيضاً، فلهذا وقع في تعريبهم لها خطأ كثير لفظاً ومعنى^(٢).

وقد دلّ القرآن العظيم على أنه كان عليهما لباس في قوله: ﴿يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَ تَهِمًا﴾ [الأعراف: ٢٧]؛ فهذا لا يرد لغيره من الكلام، والله -تعالى- أعلم.

عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أباكم آدم كان كالنخلة السحوق؛ ستين ذراعاً، كثير الشعر مواري العورة، فلما أصاب الخطيئة في الجنة بدت له سواته، فخرج من الجنة؛ فلقيته شجرة؛ فأخذت بناصيته، فناداه ربه: أفراراً مني يا آدم؟ قال: بل حياء منك والله يا رب مما جئت به»^(٣).

(١) «العهد القديم» (سفر التكوين/الإصحاح ٣).

(٢) هذه قاعدة علمية فريدة يجب على المترجمين أن يفقهوها، وبخاصة الذين يعملون في ترجمة الكتب العلمية الشرعية.

فكم رأيت في عملهم من جهل وعبث؛ لأنهم لم يعرفوا لغة العرب على مراد أهلها وكذلك علمهم الشرعي ضحل إلا من رحم ربك، وقليل ما هم.

(٣) حسن - أخرجه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (١/ ٣١)، والحاكم (٢/ ٢٦٢)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٧/ ٤٠٥) من طريق عبد الوهاب بن عطاء الخفاف العجلي عن سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن الحسن عن عتي عن أبي به.

[ندم الأبوين -عليهما السلام- واستغفارهما]

﴿ وَتَادِبْنَهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْتُ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ ۝ ﴾ قَالََا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ۝ ﴾ [الأعراف: ۲۲-۲۳]، وهذا اعتراف ورجوع إلى الإنابة، وتذلل وخضوع واستكانة، وافتقار إليه - تعالى - في الساعة الراهنة، وهذا السرُّ ما سرى في أحد من ذريته؛ إلا كانت عاقبته إلى خير في دنياه وأخراه.

[إخراج آدم وحواء -عليهما السلام- من الجنة]

﴿ قَالَ أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتْنَعٌ إِلَىٰ حِينٍ ۝ ﴾ [الأعراف: ۲۴]، وهذا خطاب لآدم وحواء وإبليس - قيل: والحية معهم - أمروا أن يهبطوا من الجنة في حال كونهم متعادين متحاربين. وقد يستشهد لذكر الحية معهما بما ثبت في الحديث عن رسول الله ﷺ: أنه أمر بقتل الحيات، وقال: « ما سالمناهن منذ حاربناهن »^(۱).

= قلت: ورجاله ثقات؛ لكن قتادة والحسن البصري مدلسان، وقد عنعننا، وابن أبي عروبة اختلط بأخرة؛ لكن رواية عبد الوهاب عنه قبل اختلاطه.

وخالف عبد الوهاب العجلي عباد بن العوام؛ فرواه عن سعيد بن أبي عروبة بسنده به موقوفاً؛ أخرجه ابن سعد (۳۱/ ۱)، وأبو نعيم في «الحلية» (۲۵۴/ ۱)، والحاكم (۵۴۳/ ۲- ۵۴۴).

لكن عباد هذا مضطرب الحديث عن سعيد بن أبي عروبة؛ كما قال الإمام أحمد. انظر: «هدي الساري» (ص ۴۱۲).

لكن رواه إسحاق بن الربيع -وهو صدوق- عن الحسن بن موقوفاً؛ أخرجه ابن سعد (۳۲/ ۱). وبالجمل؛ فالحديث من هذه الطريق ضعيف، لكن له طريق آخر سيذكره المصنف -رحمه الله- بعد هذا مباشرة، فيرتقي الحديث -إن شاء الله- بمجموعها إلى درجة الحسن.

(۱) صحيح - أخرجه أبو داود (۵۲۴۸)، وأحمد (۲/ ۲۴۷ و ۴۳۲ و ۵۲۱)، وابن حبان (۵۶۴۴) من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه-.

وقوله في سورة طه: ﴿ قَالَ أَهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ [طه: ١٢٣] هو أمر لآدم وإبليس، واستتبع آدم حواء وإبليس الحيّة. وقيل: هو أمر لهم بصيغة التثنية؛ كما في قوله - تعالى -: ﴿ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَخْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴾ [الأنبياء: ٧٨].

والصحيح: أن هذا لما كان الحاكم لا يحكم إلا بين اثنين مدّع ومدّعى عليه، قال: ﴿ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴾.

وأما تكريره الإهباط في سورة البقرة في قوله: ﴿ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴾ [البقرة: ٣٦] فتلقّى آدم من ربه كلمت فتأب عليه إنه هو الثّواب الرّجيم ﴿ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: ٣٦] ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [البقرة: ٣٦-٣٩]؛ فقال بعض المفسرين: المراد بالإهباط الأول: الهبوط من الجنة إلى السماء الدنيا، وبالثاني: من السماء الدنيا إلى الأرض.

وهذا ضعيف؛ لقوله في الأول: ﴿ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴾ [البقرة: ٣٦]؛ فدل على أنهم أهبطوا إلى الأرض بالإهباط الأول، والله أعلم.

والصحيح: أنه كرره لفظاً وإن كان واحداً، وناط مع كل مرة حكماً؛ فناط بالأول: عداوتهم فيما بينهم، وبالثاني: الاشتراط عليهم أن من تبع هداه الذي ينزله عليهم بعد ذلك؛ فهو السعيد، ومن خالفه؛ فهو الشقي، وهذا الأسلوب في الكلام له نظائر في القرآن الحكيم.

= وله شاهد من حديث ابن عباس - رضي الله عنه - أخرجه أبو داود (٥٢٥٠)، وأحمد

عن أبي موسى الأشعري؛ قال: إن الله حين أهبط آدم من الجنة إلى الأرض؛ علمه صنعة كل شيء، وزوده من ثمار الجنة، فتماركم هذه من ثمار الجنة، غير أن هذه تتغير وتلك لا تتغير^(١).

عن أبي هريرة؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة؛ فيه خلق آدم، وفيه أدخل الجنة، وفيه أخرج منها»^(٢). وفي «الصحيح» من وجه آخر: «وفيه تقوم الساعة».

[توبة آدم عليه السلام -]

وقوله: ﴿فَتَلَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧]؛ قيل: هي قوله: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

روي هذا عن مجاهد، وسعيد بن جبير، وأبي العالية، والربيع بن أنس، والحسن، وقتادة، ومحمد بن كعب، وخالد بن معدان، وعطاء الخراساني، وعبدالرحمن بن زيد بن أسلم^(٣).

عن ابن عباس: ﴿فَتَلَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ٣٧]؛ قال: قال آدم: يا رب! ألم تخلقني بيدك؟ قيل له: بلى. ونفخت في من روحك؟

(١) أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (١/١/٤٣-٤٤)، والطبري في «جامع البيان» (١/١٧٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٣٨/٤٢١)، والبزار في «البحر الزخار» (٨/٤٥/٣٠٣٠)، والحاكم (٢/٥٤٣)، والبيهقي في «البعث» (١٤١/١٨٠) وسنده صحيح موقوفاً.

وقد ثبت مرفوعاً عند البزار (٨/٤٥/٣٠٢٩) بسند صحيح.

(٢) أخرجه مسلم في «صحيحه» (٨٥٤).

(٣) انظر: «تفسير عبد الرزاق» (١/١/٤٤)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (٤١٤)، و«جامع البيان» (١/١٩٣-١٩٤)، و«تفسير القرآن العظيم» للمصنف (١/٨٥)، و«الدر المشهور» (١/٥٩).

قيل له: بلى. وعطست؛ فقلت: يرحمك الله، وسبقت رحمتك غضبك؟ قيل له: بلى. وكتبت علي أن أعمل هذا؟ قيل له: بلى، قال: أفرأيت إن تبت؛ هل أنت راجعي إلى الجنة؟ قال: نعم^(١).

وهذه الآية؛ كقوله -تعالى-: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ أَجْتَبَهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى ﴿١٢٢﴾ [طه: ١٢١-١٢٢].

[احتجاج آدم وموسى عليهما السلام -]

عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «حاج موسى آدم -عليهما السلام-؛ فقال له: أنت الذي أخرجت الناس بذنبك من الجنة وأشقيتهم؟! قال آدم: يا موسى! أنت الذي اصطفاك الله برسالاته وبكلامه، أتلومني على أمر قد كتبه الله علي قبل أن يخلقني». قال رسول الله ﷺ: «فحج آدم موسى»^(٢).

عن عمر بن الخطاب، عن النبي ﷺ قال: «قال موسى -عليه السلام-: يارب! أرنا آدم الذي أخرجنا ونفسه من الجنة؛ فأراه آدم -عليه السلام-؛ فقال: أنت آدم؟ فقال له آدم: نعم. فقال: أنت الذي نفخ الله فيك من روحه، وأسجد لك ملائكته، وعلمك الأسماء كلها؟ قال: نعم. قال: فما حملك على أن أخرجتنا ونفسك من الجنة؟! فقال له آدم: من أنت؟ قال: أنا موسى. قال: أنت موسى نبي بني إسرائيل؟ أنت الذي كلمك الله من وراء الحجاب؛ فلم يجعل بينك وبينه رسولا من خلقه؟ قال: نعم. قال: تلومني على أمر قد سبق من الله -عز وجل- القضاء به قبل؟! قال رسول الله ﷺ: «فحج آدم موسى، فحج آدم موسى»^(٣).

وقد اختلفت مسالك الناس في هذا الحديث:

(١) أخرجه الحاكم (٥٤٥/٢)، وابن أبي حاتم (٤١١/١٣٥)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٩٣/١)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤٣٣/٧) بإسناد حسن.

(٢) أخرجه البخاري (٤٧٣٨)، ومسلم (٢٦٥٢).

(٣) صحيح - أخرجه أبو داود (٤٧٠٢)، وأبو يعلى في «المسند» (٢٤٣) بإسناد جيد.

وله طريق آخر - سيذكرها المصنف عقب هذا - عند أبي يعلى (٢٤٤)، وفيه ضعف.

وبالجملة؛ فالحديث بهما صحيح، والله أعلم.

فردّه قوم من القدرية لما تضمن من إثبات القدر السابق.
واحتج به قوم من الجبرية، وهو ظاهر لهم بادي الرأي؛ حيث قال: «فحج آدم موسى» لما احتج عليه بتقديم كتابه، وسيأتي الجواب عن هذا.
وقال آخرون: إنما حجّه؛ لأنه لأمه على ذنب قد تاب منه، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له.

وقيل: إنما حجّه؛ لأنه أكبر منه وأقدم.

وقيل: لأنه أبوه.

وقيل: لأنهما في شريعتين متغايرتين.

وقيل: لأنهما في دار البرزخ؛ وقد انقطع التكليف فيما يزعمون.

والتحقيق: أن هذا الحديث رُوي بالفاظ كثيرة، بعضها مروى بالمعنى، وفيه نظر، ومدار معظمها في «الصحيحين» وغيرهما على أنه لأمه على إخراج نفسه وذريته من الجنة؛ فقال له آدم: أنا لم أخرجكم، وإنما أخرجكم الذي رتب الإخراج على أكل من الشجرة، والذي رتب ذلك وقدره وكتبه قبل أن أخلق هو الله - عز وجل -؛ فانت تلومني على أمر ليس له نسبة إلي أكثر من أني نهيت عن الأكل من الشجرة؛ فأكلت منها، وكون الإخراج مترتباً على ذلك ليس من فعلي؛ فأنا لم أخرجكم ولا نفسي من الجنة، وإنما كان هذا من قدر الله وصنعه، وله الحكمة في ذلك؛ فلهذا حج آدم موسى.

ومن كذب بهذا الحديث؛ فمعانده؛ لأنه متواتر عن أبي هريرة - رضي الله عنه -، وناهيك به عدالة وحفظاً وإتقاناً، ثم هو مروي عن غيره من الصحابة، كما ذكرنا.

ومن تأوله بتلك التأويلات المذكورة آنفاً، فهو بعيد من اللفظ والمعنى، وما فيهم من هو أقوى مسلكاً من الجبرية، وفيما قالوه نظر من وجوه:

أحدها: أن موسى - عليه السلام - لا يلوم على أمر قد تاب عنه فاعله.

الثاني: أنه قد قتل نفساً لم يؤمر بقتلها، وقد سأل الله في ذلك بقوله: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي﴾ [القصص: ١٦].

الثالث: أنه لو كان الجواب عن اللوم على الذنب بالقدر المتقدم كتابته على العبد؛ لا نفتح هذا لكل من ليم على أمر قد فعله، فيحتج بالقدر السابق؛ فينسدد باب القصاص والحدود.

ولو كان القدر حجة؛ لاحتج به كل أحد على الأمر الذي ارتكبه في الأمور الكبار والصغار، وهذا يفضي إلى لوازم فظيعة! فلهذا قال من قال من العلماء^(١): بأن جواب آدم إنما كان احتجاجاً بالقدر على المصيبة لا على المعصية، والله -تعالى- أعلم بالصواب، وهو حسي ونعم الوكيل^(٢).

(١) كشيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية -رحمهما الله-، وكلام المصنف -رحمه الله- يلتقي معهما ولا يختلف؛ فتدبر.

وانظر -لزماً- «الاحتجاج بالقدر» لشيخ الإسلام، و«التمهيد» (١٨/١٢)، و«الاستذكار» (٢٦/٨٥ و٨٨) كلاهما لابن عبد البر.

(٢) وجلة القول: أن القدر يؤمن به ولا يحتج به.

ذكر الأحاديث الواردة في خلق آدم - عليه السلام -

عن أبي موسى، عن النبي ﷺ قال: «إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض؛ فجاء بنو آدم على قدر الأرض، جاء منهم الأبيض والأحمر والأسود وبين ذلك، والخبيث والطيب، والسهل والحزن وبين ذلك»^(١).

عن أنس: أن النبي ﷺ قال: «لما خلق الله آدم؛ تركه ما شاء أن يدعه، فجعل إبليس يطيف به؛ فلما رآه أجوف عرف أنه خلق لا يتمالك»^(٢).

عن أنس بن مالك: أن رسول الله ﷺ قال: «لما نفخ في آدم؛ فبلغ الروح رأسه؛ عطس فقال: الحمد لله رب العالمين؛ فقال له - تبارك وتعالى - يرحمك الله»^(٣).

عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله خلق آدم من تراب، ثم جعله طيناً، ثم تركه حتى إذا كان حمأ مسنوناً خلقه الله وصوره، ثم تركه حتى إذا كان صلصالاً كالفخار.

قال: فكان إبليس يمر به فيقول: لقد خلقت لأمر عظيم!

ثم نفخ الله فيه من روحه؛ فكان أول ما جرى فيه الروح بصره وخياشيمه؛ فعطس؛ فلقاه الله حمد ربه، فقال الله: يرحمك ربك. ثم قال الله: يا آدم! اذهب إلى هؤلاء النفر؛ فقل لهم: السلام عليكم؛ فانظر ماذا يقولون؟ فجاء؛ فسلم عليهم؛ فقالوا: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته. فقال: يا آدم! هذه تحيتك وتحية ذريتك. قال: يا رب! وما ذريتي؟ قال: اختر يدي يا آدم، قال: أختار يمين ربِّي وكلتا يدي ربِّي يمين، فبسط كفه؛ فإذا من هو كائن من ذريته في كف الرحمن، فإذا رجال منهم على أفواههم النور، وإذا رجل يعجب آدم نوره، قال: يا رب! من هذا؟ قال:

(١) صحيح - أخرجه أحمد (٤/٤٠٠ و٤٠٦)، وأبو داود (٤٦٩٣)، والترمذي (٢٩٥٥)،

وابن حبان في «صحيحه» (١٤/٢٩ - ٦١٦٠ - إحصان) وغيرهم بإسناد صحيح.

(٢) أخرجه أحمد (٣/١٥٢)، ومسلم (٢٦١١).

(٣) صحيح - أخرجه ابن حبان (٦١٦٥) بإسناد صحيح.

ابنك داود، قال: يا رب! فكم جعلت له من العمر؟ قال: جعلت له ستين، قال: يا رب! فأتم له من عمري حتى يكون عمره مائة سنة. ففعل الله ذلك؛ وأشهد على ذلك.

فلما تقدم عمر آدم بعث الله إليه ملك الموت؛ فقال آدم: أولم يبق من عمري أربعون سنة؟ قال له الملك: أو لم تعطها ابنك داود؟! فجحد ذلك، فجحدت ذريته، ونسي؛ فنسيت ذريته^(١).

عن أبي الدرداء، عن النبي ﷺ قال: «خلق الله آدم حين خلقه؛ فضرب كتفه اليمنى؛ فأخرج ذريته بيضاء كأنهم الدر، وضرب كتفه اليسرى؛ فأخرج ذرية سوداء كأنهم الحمم؛ فقال للذي في يمينه: إلى الجنة ولا أبالي، وقال للذي في كتفه اليسرى إلى النار ولا أبالي»^(٢).

عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ؛ قال: «خلق الله آدم؛ وطوله ستون ذراعاً، ثم قال: اذهب، فسلم على أولئك النفر من الملائكة؛ فاستمع ما يجيبونك؛ فإنها تحيتك وتحية ذريتك.

فقال: السلام عليكم.

فقالوا: السلام عليك ورحمة الله؛ فزادوه: ورحمة الله.

فكل من يدخل الجنة على صورة آدم، فلم يزل الخلق ينقص حتى الآن»^(٣).

(١) صحيح- أخرجه أبو يعلى (٦٥٨٠)، والترمذي (٣٠٧٦ و ٣٣٦٨)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (٢١٩ و ٢٢٠)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٢٠٦)، وابن حبان (٦١٦٧)، والحاكم (١/٦٤ و ٢/٥٨٥ و ٤/٢٦٣)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (٥/١٦١٤ و ٨٥٣٥) من طرق عنه به.

قلت: وهو مجموعها صحيح، والله أعلم.

(٢) صحيح- أخرجه أحمد (٤٤١/٦)، وابنه في «الزوائد» ومن طريقهما ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٣٩٧/٧)، والبزار في «مسنده» (٢١٤٤-كشف)، بسند صحيح، وصححه شيخنا الألباني - رحمه الله - في «الصحيحة» (٤٩).

(٣) أخرجه البخاري (٣٣٢٦ و ٦٢٢٧)، ومسلم (٢٨٤١).

عن مسلم بن يسار الجهني: أن عمر بن الخطاب سئل عن هذه الآية: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢] الآية؛ فقال عمر بن الخطاب: سمعت رسول الله ﷺ يُسأل عنها؛ فقال: «إن الله خلق آدم -عليه السلام-، ثم مسح ظهره يمينه؛ فاستخرج منه ذرية؛ قال: خلقت هؤلاء للجنة، ويعمل أهل الجنة يعملون. ثم مسح ظهره، فاستخرج منه ذرية؛ قال: خلقت هؤلاء للنار، ويعمل أهل النار يعملون».

فقال رجل: يا رسول الله! ففيم العمل؟ قال رسول الله ﷺ: «إذا خلق الله العبد للجنة؛ استعمله بعمل أهل الجنة، حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة؛ فيدخل به الجنة. وإذا خلق الله العبد للنار، استعمله بعمل أهل النار، حتى يموت على عمل أهل النار؛ فيدخل به النار»^(١).

[مسألة الميثاق والاستنطاق بالتوحيد]

وهذه الأحاديث كلها دالة على استخراجه -تعالى- ذرية آدم من ظهره كالذر، وقسمتهم قسمين: أهل اليمين وأهل الشمال.
وقال: «هؤلاء للجنة ولا أبالي، وهؤلاء للنار ولا أبالي»^(٢).

(١) صحيح لغيره -أخرجه مالك (٢/٨٩٨)، وأحمد (١/٤٤)، وأبو داود (٤٧٠٣)، والترمذي (٣٠٧٥)، وابن حبان (٦١٦٦)، والحاكم (١/٢٧ و ٢/٣٢٤ و ٥٤٤) وغيرهم من طريق مالك به.

وأخرجه أبو داود (٤٧٠٤)، وابن أبي عاصم (٢٠١)، وابن عبد البر في «التمهيد» (٦/٥٤-٥) من طريق زيد بن أبي أنيسة.

قلت: إسناده ضعيف؛ كما بينه الترمذي في «سننه»؛ ولكن له شواهد من حديث أبي هريرة وابن عباس وعبد الرحمن بن قتادة وأنس وأبي -رضي الله عنهم-، يرتقي بها إلى درجة الصحة؛ كما قرر ذلك ابن عبد البر في «التمهيد»، وأقره المنذري في «مختصر السنن» (٧/٧٣).

(٢) صحيح -أخرجه أحمد (٤/١٨٦)، وابن سعد (١/١٠)، وابن حبان (٣٣٨)، والحاكم (١/٣١) من حديث عبد الرحمن بن قتادة بإسناد صحيح.

فأما الإشهاد عليهم واستنطاقهم بالإقرار بالوحدانية، فلم يجيء في الأحاديث الثابتة، وتفسير الآية التي في سورة الأعراف وحملها على هذا فيه نظر؛ كما بيناه هناك، وذكرنا الأحاديث والآثار مستقصاة بأسانيدھا وألفاظ متونها؛ فمن أراد تحريره؛ فليراجعه ثم، والله أعلم^(١).

فأما الحديث: عن ابن عباس، عن النبي ﷺ؛ قال: «إن الله أخذ الميثاق من ظهر آدم عليه السلام بنعمان (يعني: عرفة)^(٢)، فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها، فشرها بين يديه كالذر، ثم كلمهم قبلاً قال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ ﴿وَقَدْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾» [الأعراف: ١٧٢-١٧٣]»^(٣).

روي موقوفاً ومرفوعاً، والموقوف أصح^(٤).

واستأنس القائلون بهذا القول -وهو أخذ الميثاق على الذرية، وهم الجمهور- بما قال عن أنس بن مالك، عن النبي ﷺ قال: «يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة: لو كان لك ما على الأرض من شيء؛ أكنت مفقدياً به؟». قال:

(١) في هذا نظر، وقد تعقب شيخنا الإمام الألباني -رحمه الله- ابن كثير وشيخه ابن القيم -رحمهما الله-، وبين خطأ ما ذهبوا إليه في هذه المسألة في «الصحيحة» (٤/ ١٦٠ / ١٦٢٣)؛ فانظره؛ فإنه من ضنائن العلم الغاليات التي تضرب لها أكباد المطي.

(٢) في جميع الأصول: «يوم عرفة»، والصواب ما أثبتته؛ كما في مصادر التخريج.

(٣) صحيح - أخرجه أحمد (١/ ٢٧٢)، والنسائي في «الكبرى» (٤/ ٤٤٠ / ٥٦٠٢ - تحفة الأشراف)، والطبري في «جامع البيان» (٦/ ١١٠ / ١٥٣٤٩)، والحاكم (٢/ ٥٤٤)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٢٠٢) من طريق محمد بن حسين المروزي به.

قلت: إسناده صحيح؛ كما قال المصنف - رحمه الله-، وأقره شيخنا الإمام الألباني - رحمه الله- في «الصحيحة» (١٦٢٣).

(٤) تعقبه شيخنا الإمام الألباني في «الصحيحة» (١٦٢٣) بكلام نفيس، ويبين أن له حكم المرفوع من عدة أوجه؛ فلا اختلاف ولا تعارض!.

«فیقول: نعم؛ فیقول: قد أردت منك ما هو أهون من ذلك، قد أخذت عليك في ظهر آدم ألا تشرك بي شيئاً، فأبيت إلا أن تشرك بي»^(۱).

[حسرة إبليس من توبة آدم - عليه السلام -]

وتقدم أنه - تعالى - لما أمر الملائكة بالسجود لآدم؛ امتثلوا كلهم الأمر الإلهي، وامتنع إبليس من السجود له حسداً وعداوة له؛ فطرده الله وأبعده وأخرجه من الحضرة الإلهية ونفاه عنها، وأهبطه إلى الأرض طريداً ملعوناً شيطاناً رجيماً. عن أبي هريرة؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد؛ اعتزل الشيطان يبكي، يقول: يا ويله! أمر ابن آدم بالسجود؛ فسجد؛ فله الجنة، وأمرت بالسجود؛ فعصيت؛ فلي النار»^(۲).

[مدة مقام آدم - عليه السلام - في الجنة]

ثم لما أسكن آدم الجنة التي أسكنها؛ أقام بها هو وزوجته حواء - عليهما السلام - يأكلان منها رغداً حيث شاءا، فلما أكلا من الشجرة التي نهاها عنها؛ سلبا ما كانا فيه من اللباس وأهبطا إلى الأرض. وقد ذكرنا الاختلاف في مواضع هبوطه منها^(۳).

واختلفوا في مقدار مقامه في الجنة: واختلفوا؛ هل ولد لهما بالجنة شيء من الأولاد؟^(۴)

وذكروا أنه كان يولد له في كل بطن ذكر وأنثى، وأمر أن يزوج كل ابن أخت أخيه التي ولدت معه، والآخر بالأخرى، وهلم جرا، ولم يكن تحل أخت لأخيها الذي ولدت معه.

(۱) البخاري (۳۳۳۴)، ومسلم (۲۸۰۵).

(۲) مسلم (۸۱).

(۳) ولا يصح في هذا الباب شيء.

ذكر قصة ابني آدم

قابيل وهابيل

قال الله - تعالى -: ﴿ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبِلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَنَّكَ إِنَّنِي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِيمِي وَإِيمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاؤُ الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورِي سَوْءَ أَخِيهِ قَالَ يُنَوِّتُنِي أَعِزَّتْ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُورِيَ سَوْءَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [المائدة: ٢٧-٣١].

وقوله لما توعدته بالقتل: ﴿ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَنَّكَ إِنَّنِي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ ﴿٣١﴾ [المائدة: ٢٨] دل على خلق حسن، وخوف من الله - تعالى -، وخشية منه، وتورع أن يقابل أخاه بالسوء الذي أراد منه أخوه مثله.

ولهذا ثبت في «الصحيحين» عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا تواجه المسلمان بسيفيهما؛ فالقاتل والمقتول في النار».

قالوا: يا رسول الله! هذا القاتل؛ فما بال المقتول؟! قال: «إنه كان حريصاً على قتل صاحبه»^(١).

وقوله: ﴿ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِيمِي وَإِيمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاؤُ الظَّالِمِينَ ﴾ ﴿٢٩﴾ [المائدة: ٢٩]؛ أي: إني أريد ترك مقاتلتك - وإن كنت أشد منك وأقوى - إذ قد عازمت على ما عازمت عليه.

(١) أخرجه البخاري (٣١)، ومسلم (٢٨٨٨) من حديث أبي بكرة - رضي الله عنه -.

﴿ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ ﴾؛ أي: تتحمل إثم قتلي مع ما لك من الآثام المتقدمة قبل ذلك؛ قاله مجاهد والسدي وابن جرير وغير واحد.

وليس المراد أن آثام المقتول تتحول بمجرد قتله إلى القاتل؛ كما قد توهمه بعض الناس؛ فإن ابن جرير حكى الإجماع على خلاف ذلك.

وأما الحديث الذي يورده بعض من لا يعلم عن النبي ﷺ؛ أنه قال: «ما ترك القاتل على المقتول من ذنب»؛ فلا أصل له، ولا يعرف في شيء من كتب الحديث بسند صحيح ولا حسن ولا ضعيف أيضاً^(١).

ولكن قد يتفق في بعض الأشخاص يوم القيامة أن يطالب المقتول القاتل؛ فتكون حسنات القاتل لا تفي بهذه المظلمة؛ فتحول من سيئات المقتول إلى القاتل؛ كما ثبت به الحديث الصحيح في سائر المظالم^(٢)، والقتل من أعظمها. والله أعلم.

عن سعد بن أبي وقاص: أنه قال عند فتنة عثمان بن عفان: أشهد أن رسول الله ﷺ قال: «إنها ستكون فتنة: القاعد فيها خير من القائم، والقائم خير من الماشي، والماشي خير من الساعي».

قال: أفرايت إن دخل علي بيتي فبسط يده إلي ليقتلني؛ قال: «كن كابن آدم»^(٣).

عن حذيفة بن اليمان مرفوعاً، وقال: «كن كخير ابني آدم»^(٤).

وروى مسلم وأهل السنن إلا النسائي عن أبي ذر نحو هذا^(٥).

-
- (١) انظر -لزماً- «الضعيفة» (٢٨٧) لشيخنا الإمام الألباني - رحمه الله - حيث نقل كلام المصنف - رحمه الله -، وأقره عليه.
- (٢) هو حديث المفلس: أخرجه مسلم (٢٥٨١).
- (٣) صحيح - أخرجه أحمد (١/١٦٩ و١٨٥)، وأبو داود (٤٢٥٧)، والترمذي (٢١٩٤) بإسناد صحيح على شرط مسلم.
- (٤) صحيح لغيره - أخرجه ابن مردويه في «التفسير»؛ كما في «تفسير القرآن العظيم» (٤٢/٢) بإسناد ضعيف؛ فيه رجل لم يسمه.
- لكن له شواهد صحيحة من حديث سعد وأبي ذر يرتقي بها إلى درجة الصحة.
- (٥) يريد أصل الحديث وليس فيه ذكر الفتنة.

وأما الآخر^(۱)؛ فقد قال ابن مسعود: قال رسول الله ﷺ: «لا تقتل نفس ظلماً؛ إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها؛ لأنه كان أول من سن القتل»^(۲).
وبجبل قاسيون شمالي دمشق مغارة يقال لها: مغارة الدم، مشهورة بأنها المكان الذي قتل قابيل أخاه هابيل عندها، وذلك مما تلقوه عن أهل الكتاب؛ فאלله أعلم بصحة ذلك^(۳).

وقوله - تعالى -: ﴿ قَبَعَتْ أَلَهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورِي سَوَاءَ أَخِيهِ قَالَ يَوَيْلَتَى أَعْجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوْرِي سَوَاءَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴾ [المائدة: ۳۱].

ذكر بعضهم: أنه لما قتله؛ حمله على ظهره ولم يزل كذلك حتى بعث الله غرابين، فتقاتلا؛ فقتل أحدهما الآخر، فلما قتله؛ عمد إلى الأرض يحفر له فيها، ثم ألقاه ودفنه وواراه؛ فلما رآه يصنع ذلك؛ ﴿ قَالَ يَوَيْلَتَى أَعْجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوْرِي سَوَاءَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴾ [المائدة: ۳۱]؛ ففعل مثل ما فعل الغراب؛ فواراه ودفنه.

وقد ذكر: أن قابيل عوجل بالعقوبة يوم قتل أخاه، تنكيلاً به، وتعجيلاً؛ لذنبة وبغيه وحسده لأخيه؛ لأبويه.

= وأخرجه - في حديث طويل - أحمد (۵/ ۱۴۹ و ۱۶۳)، وأبو داود (۴۲۶۱)، وابن ماجه (۳۹۵۸)، وابن حبان (۵۹۶۰)، والحاكم (۲/ ۱۵۶ و ۴/ ۴۲۳) بإسناد صحيح على شرط مسلم.

وأخرجه مسلم في «صحيحه» (۶۴۸)، وأبو داود (۴۳۱)، والترمذي (۱۷۶)، وابن ماجه (۱۲۵۶) مختصراً بذكر قصة الصلاة فقط.

(۱) من ابني آدم، وهو الذي ليس بخيرهما.

(۲) أخرجه البخاري (۳۳۳۵)، ومسلم (۱۶۶۷)، وأحمد (۱/ ۳۸۳ و ۴۳۰ و ۴۳۳)، والترمذي (۲۶۷۳)، والنسائي (۳۹۹۶)، وابن ماجه (۲۶۱۶).

(۳) وكذلك أسماء ابني آدم إنما تلقيت من أهل الكتاب، ولا يصح في ذلك شيء.

وقد جاء في الحديث عن رسول الله ﷺ : « ما من ذنب أجدر أن يجعل الله عقوبته في الدنيا مع ما يدخر لصاحبه في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم »^(١).

ثم انتشر الناس بعد ذلك وكثروا، وامتدوا في الأرض ونموا؛ كما قال -تعالى-: ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ آتِقُوا رَبَّكُمْ أَلَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝ ﴾ [النساء: ١].

[قصة منكورة في وقوع آدم وحواء عليهما السلام - في الشر]

وقال -تعالى-: ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيًّا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَالِحًا لَنُكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ۝ ﴾ فَلَمَّا ءَاتَيْنَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا ءَاتَيْنَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝ ﴾ [الأعراف: ١٨٩-١٩٠].

فهذا تنبيه أولاً بذكر آدم، ثم استطرد إلى الجنس؛ وليس المراد بهذا ذكر آدم وحواء بل لما جرى ذكر الشخص؛ استطرد إلى الجنس؛ كما في قوله -تعالى-: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ۝ ﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ۝ ﴾، وقال -تعالى-: ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ۝ ﴾ [الملك: ٥] ومعلوم أن رجوم الشياطين ليست هي أعيان مصابيح السماء، وإنما استطرد من شخصها إلى جنسها. فأما الحديث عن الحسن، عن سمرة، عن النبي ﷺ قال: «لما حملت حواء طاف بها إبليس وكان لا يعيش لها ولد؛ فقال: سميه عبد الحارث؛ فإنه يعيش؛ فسمته عبد الحارث؛ فعاش؛ وكان ذلك من وحي الشيطان وأمره»^(٢).

(١) صحيح - أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٢٩)، وأحمد (٣٦/٥ و٣٨)، وأبو داود (٤٩٠٢)، والترمذي (٢٥١١)، وابن ماجه (٤٢١١) من حديث أبي بكرة بإسناد صحيح.
(٢) ضعيف - أخرجه أحمد (١١/٥)، والترمذي (٣٠٧٧)، وابن جرير في «جامع البيان» (٩٩/٩)، وابن أبي حاتم (١٦٣١/٥)، والحاكم (٥٤٥/٢) من حديث سمرة بإسناد ضعيف؛

وقد فسر الحسن البصري هذه الآيات بخلاف هذا؛ فلو كان عنده عن سمرة مرفوعاً؛ لما عدل منه إلى غيره، والله أعلم.

وأيضاً: فالله - تعالى - إنما خلق آدم وحواء ليكونا أصل البشر، وليبث منهما رجالاً كثيراً ونساء؛ فكيف كانت حواء لا يعيش لها ولد ذكر في هذا الحديث إن كان محفوظاً؟!

ثم قد كان آدم وحواء أتقى الله مما ذكر عنهما في هذا؛ فإن آدم أبو البشر؛ الذي خلقه الله بيده، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، وعلمه أسماء كل شيء، وأسكنه جنته.

عن أبي ذر؛ قال: قلت: يا رسول الله! كم الأنبياء؟ قال: «مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً». قلت: يا رسول الله! كم الرسل منهم؟ قال: «ثلاثمائة وثلاثة عشر: جم غفير» قلت: يا رسول الله! من كان أولهم؟ قال: «آدم» قلت: يا رسول الله! نبي مرسل؟ قال: «نعم؛ خلقه الله بيده، ثم نفخ فيه من روحه، ثم سواه قبلاً»^(١).

وفي حديث الإسراء الذي في «الصحيحين»: أن رسول الله ﷺ لما مرّ بآدم وهو في السماء الدنيا؛ قال له: مرحباً بالابن الصالح والنبي الصالح. وقال: «وإذا كان يمينه أسودة وعن يساره أسودة؛ فإذا نظر عن يمينه؛ ضحك، وإذا نظر عن

= كما بينه المصنف - رحمه الله - في «تفسير القرآن العظيم» (٢/٢٥٣)، وشيخنا الإمام الألباني - رحمه الله - في «الضعيفة» (٣٤٢).

(١) صحيح - أخرجه ابن حبان (٣٦١)، والطبراني في «الكبير» (١٦٥١)، وأبو نعيم في «الحلية» (١٦٦/١)، والطيالسي (٤٧٨)، وأحمد (١٧٨/٥ و ١٧٩ و ٢٦٥)، والنسائي في «الكبرى» (١٨٠/٩ - ١١٩٦٨ - تحفة الأشراف)، والحاكم (٢/٥٩٧)، والبيهقي (٩/٤) وغيرهم من طرق عن أبي ذر.

قلت: وهو بمجموعها صحيح، وإن كان بعضها لا يخلو من مقال. وصححه شيخنا الإمام الألباني - رحمه الله - في «المشكاة» (٥٧٣٧)، و«الصحيحة» (٢٦٦٨).

شماله؛ بكى! فقلت: يا جبريل! ما هذا؟ قال: هذا آدم وهؤلاء نسّم^(١) بنيه، فإذا نظر قبل أهل اليمين - وهم أهل الجنة -؛ ضحك، وإذا نظر قبل أهل الشمال - وهم أهل النار -؛ بكى^(٢). وهذا معنى الحديث.

وقال بعض العلماء في قوله ﷺ: «فمررت بيوسف، وإذا هو قد أعطى شطر الحسن»^(٣)، قالوا: معناه أنه كان على النصف من حسن آدم - عليه السلام - وهذا مناسب؛ فإن الله خلق آدم وصوره بيده الكريمة، ونفخ فيه من روحه؛ فما كان ليخلق إلا أحسن الأشياء.

عن عبد الله بن عمرو وابن عمر - أيضاً - موقوفاً ومرفوعاً: «أن الله - تعالى - لما خلق الجنة؛ قالت الملائكة: يا ربنا! اجعل لنا هذه؛ فإنك خلقت لبني آدم الدنيا يأكلون فيها ويشربون؛ فقال الله - تعالى -: وعزتي وجلالي؛ لا أجعل صالح ذرية من خلقت بيدي كمن قلت له: كن؛ فكان»^(٤).

(١) النفوس أو الأرواح.

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٩)، ومسلم (١٦٣).

(٣) أخرجه مسلم في «صحيحه» (١٦٢).

(٤) أخرجه الدارمي في «الرد على بشر المريسي» (٢٥٦/١) قال: حدثناه عبد الله بن صالح حدثني الليث، حدثني هشام، حدثني هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار عن عبد الله بن عمرو بن العاص موقوفاً به.

وهذا سند حسن؛ للخلاف في عبد الله بن صالح، وخلاصة الكلام فيه: أنه ما يجيء من رواية الحفاظ الخذاق؛ فهو من صحيح حديثه، وروايتهم عنه مستقيمة، وهذا منها؛ فإن راويه عن عبد الله بن صالح هو الإمام الدارمي؛ لكن يحتمل أن يكون أصل الحديث من الإسرائيليات التي كان يحدث بها بعض الذين أسلموا من أهل الكتاب، والله أعلم.

وللحديث شواهد؛ لكنها ضعيفة معلولة عند التحقيق، وانظر: «تفسير القرآن العظيم» (١٢٥/٥)، وتعليق شيخنا الألباني - رحمه الله - على «العقيدة الطحاوية» (ص ٣٠٥).

وقد ورد الحديث المروي في «الصحيحين» وغيرهما من طرق: أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله خلق آدم على صورته»^(١).
وقد تكلم العلماء على هذا الحديث؛ فذكروا فيه مسالك كثيرة، ليست هذا موضع بسطها، والله أعلم.

(١) أخرجه البخاري (٢٥٥٩)، ومسلم (٢٦١٢) من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه.

[ذكر وفاة آدم ووصيته إلى ابنه شيث - عليهما السلام -]

ومعنى شيث: هبة الله، وسمياه بذلك؛ لأنهما رزقاه بعد أن قتل هابيل.
ولما توفي آدم - عليه السلام - وكان ذلك يوم الجمعة؛ جاءته الملائكة بحنوط
وكفن من عند الله - عز وجل - من الجنة، وعزوا فيه ابنه ووصيه شيثاً - عليه
السلام -.

عن عُثَيٍّ - هو ابن ضمرة السعدي -؛ قال: رأيت شيخاً بالمدينة يتكلم؛
فسألت عنه؛ فقالوا: هذا أبي بن كعب؛ فقال: «إن آدم لما حضره الموت؛ قال لبنيه:
أي بني! إنني أشتهي من ثمار الجنة. قال: فذهبوا يطلبون له، فاستقبلتهم الملائكة
ومعهم أكفانه وحنوطه، ومعهم الفؤوس والمساحي والمكاتل؛ فقالوا لهم: يا بني
آدم! ما تريدون وما تطلبون؟ - أو ما تريدون وأين تطلبون؟ - قالوا: أبونا
مريض واشتهى من ثمار الجنة؛ فقالوا لهم: ارجعوا؛ فقد قضى أبوكم . فجاءوا،
فلما رأتهم حواء عرفتهم؛ فلاذت بآدم؛ فقال: إليك عني؛ فلما أتيت من
قبلك؛ فخلي بيني وبين ملائكة ربي - عز وجل -؛ فقبضوه، وغسلوه، وكفنوه،
وحنطوه، وحفروا له، ولحدوه، وصلوا عليه، ثم أدخلوه قبره؛ فوضعوه في قبره،
ثم حثوا عليه، ثم قالوا: يا بني آدم! هذه سنتكم»^(١).
إسناد صحيح إليه.

(١) صحيح - أخرجه عبد الله بن أحمد في «زوائد المسند» (١٣٦/٥)، والطبراني في
«الأوسط» (٨/١٥٧ و ٨٢٦١/٩ و ١٠٥/٩ و ١٠٦/٩ و ٩٢٥٩)، وابن سعد في «الطبقات» (١/٣٣)،
وابن جرير في «تاريخ الأمم والملوك» (١/١٠٠)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق»
(٧/٤٥٥ و ٤٥٦) عن أبي.

وهو صحيح؛ كما قاله المصنف - رحمه الله -.

وأخرجه الحاكم (١/٣٤٤) مرفوعاً وهو صحيح.

قلت: لا تعارض بين الرفع والوقف، فالموقوف مرفوع حكماً؛ لأنه لا يقال من قبل
الرأي والاجتهاد.

واختلفوا في موضع دفنه؟

وقد ماتت بعده حواء.

واختلف في مقدار عمره -عليه السلام-: فقدمنا في الحديث عن ابن عباس وأبي هريرة مرفوعاً: أن عمره اكتب في اللوح المحفوظ ألف سنة.

وهذا لا يعارضه ما في التوراة من أنه عاش تسعمائة وثلاثين سنة؛ لأن قولهم هذا مطعون فيه مردود، إذا خالف الحق الذي بأيدينا مما هو المحفوظ عن المعصوم.

وأيضاً؛ فإن قولهم هذا يمكن الجمع بينه وبين ما في الحديث؛ فإن ما في التوراة -إن كان محفوظاً- محمول على مدة مقامه في الأرض بعد الإهباط، وذلك تسعمائة سنة وثلاثون سنة شمسية، وهي بالقمرية تسعمائة وسبع وخمسون سنة، ويضاف إلى ذلك ثلاث وأربعون سنة مدة مقامه في الجنة قبل الإهباط على ما ذكره ابن جرير وغيره؛ فيكون الجميع ألف سنة.

[قصة إدريس - عليه السلام -]

قال الله - تعالى -: ﴿ وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ۝ ﴾ [مريم: ٥٦-٥٧].

فإدريس - عليه السلام - قد أثنى عليه ووصفه بالنبوة والصدقية. وقد قال طائفة من الناس: إنه المشار إليه في حديث معاوية بن الحكم السلمي لما سأل رسول الله ﷺ عن الخط بالرمل؛ فقال: «إنه كان نبي يخط به؛ فمن وافق خطه؛ فذاك»^(١).

ويزعم كثير من علماء التفسير والأحكام: أنه أول من تكلم في ذلك، ويسمونه: هرمس الهرامسة، ويكذبون عليه أشياء كثيرة؛ كما كذبوا على غيره من الأنبياء والعلماء والحكماء والأولياء.

وقوله - تعالى -: ﴿ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ۝ ﴾ [مريم: ٥٧] هو كما ثبت في «الصحيحين»^(٢) في حديث الإسراء: أن رسول الله ﷺ مر به وهو في السماء الرابعة.

عن مجاهد في قوله: ﴿ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ۝ ﴾؛ قال: إدريس رفع ولم يمت؛ كما رفع عيسى^(٣)!

إن أراد أنه لم يمت إلى الآن؛ ففي هذا نظر، والحديث المتفق عليه من أنه في السماء الرابعة أصح، وهو قول مجاهد^(٤) وغير واحد.

(١) أخرجه مسلم (٥٣٧).

(٢) مضى تخريجه (٤١).

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٧٢/١٦) بسند صحيح.

(٤) أخرجه الثوري في «تفسيره» (٥٧٥)، وابن أبي شيبة في «المصنف»

(١١/١١٩٣٣)، والطبري في «جامع البيان» (٧٣/١٦) بسند صحيح.

قال البخاري^(١): ويذكر عن ابن مسعود وابن عباس: أن إلياس هو إدريس.
واستأنسوا في ذلك بما جاء في حديث الزهري عن أنس في الإسراء: أنه لما
مرّ به -عليه السلام-؛ قال له: «مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح»، ولم يقل؛
كما قال آدم وإبراهيم: «مرحباً بالنبي الصالح والابن الصالح».
قالوا: فلو كان في عمود نسبه؛ لقال كما قالوا له.
وهذا لا يدل ولا بد؛ لأنه قد لا يكون الراوي حفظه جيداً، أو لعله قاله
على سبيل الهضم والتواضع، ولم ينتصب له في مقام الأبوة كما انتصب لآدم أبي
البشر، وإبراهيم الذي هو خليل الرحمن وهو أكبر أولي العزم بعد محمد -صلوات
الله عليهم أجمعين-.

(١) (٦/٣٧٣-فتح)، وقال الحافظ ابن حجر-رحمه الله-: «أما قول ابن مسعود؛ فوصله
عبد بن حميد وابن أبي حاتم بإسناد حسن عنه؛ قال: إلياس هو إدريس، ويعقوب هو إسرائيل،
وأما قول ابن عباس؛ فوصله جويبر في «تفسيره» عن الضحاك عنه، وإسناده ضعيف».

قصة نوح - عليه السلام -

كان مولده بعد وفاة آدم ، وكان بينهما عشرة قرون؛ عن أبي أمامة: أن رجلاً قال: يا رسول الله! أنبي كان آدم ؟ قال: «نعم، مكلم». قال: فكس كان بينه وبين نوح ؟ قال: «عشرة قرون»^(١).

قلت: وهذا على شرط مسلم ولم يخرججه.

عن ابن عباس قال: «كان بين آدم ونوح عشرة قرون، كلهم على الإسلام»^(٢).

فإن كان المراد بالقرن: مائة سنة - كما هو المتبادر عند كثير من الناس -؛ فبينهما ألف سنة لا محالة، لكن لا ينفي أن يكون أكثر باعتبار ما قيد به ابن عباس بالإسلام؛ إذا قد يكون بينهما قرون آخر متأخرة لم يكونوا على الإسلام، لكن حديث أبي أمامة يدل على الحصر في عشرة قرون، وزادنا ابن عباس: أنهم كانوا على الإسلام.

وهذا يرد قول من زعم من أهل التواريخ وغيرهم من أهل الكتاب: أن قابيل وبنيه عبدوا النار، والله أعلم.

وإن كان المراد بالقرن: الجيل من الناس؛ كما في قوله -تعالى-: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ ﴾ [الإسراء: ١٧]، وقوله: ﴿ ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ۝ ﴾ [المؤمنون: ٣١]، وقال -تعالى-: ﴿ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ﴾ [الفرقان: ٣٨]، وقال: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ ﴾ [مريم: ٧٤]،

(١) صحيح - أخرجه ابن حبان (٦١٩٠)، والطبراني في «الكبير» (٧٥٤٥)، و«الأوسط» (٤٠٥)، والحاكم (٢٦٢/٢)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤٤٥-٤٤٦).

وصححه الحاكم والذهبي والهيتمي وشيخنا الألباني -رحمهم الله -.

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٩٤/٢)، والحاكم (٥٤٦/٢) بإسناد على

شرط البخاري؛ كما قال الحاكم ووافقه الذهبي وشيخنا الألباني -رحمهم الله -.

وكقوله -عليه السلام-: «خير القرون قرني..» الحديث^(١)؛ فقد كان الجيل قبل نوح يعمررون الدهور الطويلة؛ فعلى هذا يكون بين آدم ونوح ألوف من السنين! والله أعلم.

وبالجملة؛ فنوح -عليه السلام- إنما بعثه الله -تعالى- لما عبدت الأصنام والطواغيت، وشرع الناس في الضلالة والكفر؛ فبعثه الله رحمة للعباد، فكان أول رسول بعث إلى أهل الأرض؛ كما يقول أهل الموقف يوم القيامة^(٢).

[قصة نوح -عليه السلام- في القرآن الكريم]

وقد ذكر الله قصته، وما كان من قومه، وما أنزل بمن كفر به من العذاب بالطوفان، وكيف أنجاه وأصحاب السفينة، في غير ما موضع من كتابه العزيز؛ ففي الأعراف ويونس وهود والأنبياء والمؤمنون والشعراء والعنكبوت والصافات واقتربت، وأنزل فيه سورة كاملة.

فقال في سورة الأعراف [٥٩-٦٤]: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَنْقُومِرِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرْنَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ قَالَ يَنْقُومِرِ لَيْسَ بِي ضَالَّةً وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣﴾ أَبَلْغُكُمْ رَسُولِي فَإِنْ أَبَىٰ قَوْمٌ فَكُفُّوا عَنْهُمْ فَقَالَ نَحْنُ نَحْمِلُ صَلَاتَهُمْ وَنَحْمِلُ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَنصَحُهُمْ وَأَعَلَّمَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ أَوْعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّنْ رَبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ﴾

(١) أخرجه البخاري (٢٦٥١ و٢٦٥٢)، ومسلم (٢٥٣٣ و٢٥٣٥) من حديث ابن

مسعود وعمران بن حصين -رضي الله عنهما-.

وله شواهد عن جمع من الصحابة -رضي الله عنهم-؛ ولذلك حكم عليه الحافظ في «الإصابة» (١٢/١) بالتواتر، وقد خرجتها في كتابي: «بصائر ذوي الشرف بشرح مرويات منهج السلف» (ص ٩-١٦)، وبينت هناك أن لفظ «خير القرون» غير محفوظ!

(٢) سيأتي تخريجه (ص ٥٧).

وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴿٤٩﴾

وقال-تعالى- في سورة يونس [٧١-٧٣]: ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَنْقُومِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجِرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأَمَرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَتَبَايَعُوا فِئْتًا فَلَمَّا نَظَرَ كَيْفَ جَاءَ الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ ﴿٧٣﴾﴾

وقال-تعالى- في سورة هود [٢٥-٤٩]: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ أَلَمَلَأَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا تَرْنَكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا تَرْنَكَ أَتَبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّئِ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَنْقُومِ آرَاءُيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمْوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَاهِرُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَنْقُومِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجِرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُّلتَقُوا رَبَّهُمْ وَلَكِنِّي أَرَىٰكُمْ قَوْمًا جَٰهِلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَنْقُومِ مَن يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبِ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا يَنْوُحُ قَدْ جَدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيَكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نَصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرَنَاهُ قُلْ إِنْ أَفْتَرَيْتُهُ فَعَلَىٰ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾ وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ

عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٢٦﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُثْقِمٌ ﴿٢٧﴾ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٢٨﴾ * وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِبَهَا وَمُرسِنَهَا إِنَّ رَبِّي لَعَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٩﴾ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَبْنَىٰ أَرَكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُن مَعَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٠﴾ قَالَ سَتَأَوَىٰ إِلَىٰ جِبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿٣١﴾ وَقِيلَ يَتَّزِشْ أَيْلَعِي مَاءَكَ وَيَسْمَاءُ أَقْلَعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودَىٰ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ يَبْنُوخُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلَن مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعْطُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٥﴾ قِيلَ يَبْنُوخُ أَهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٧﴾ ﴿٣٨﴾

وقال - تعالى - : ﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴾ ﴿٣٨﴾ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمٌ سَوَاءٌ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ ﴿٣٩﴾ [الأنبياء: ٧٦-٧٧] .

وقال - تعالى - في سورة المؤمنون [٢٣-٣٠] : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَنْقُومِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ ﴿٣٨﴾ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴾ ﴿٣٩﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فْتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَبُونَ ﴿٤١﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوْحَيْنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا

وَفَارَ التَّشْوُرَ فَاسْلَكْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ
الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿١٠٧﴾ فَإِذَا
أَسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلِّ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّيْنَا مِنَ الْقَوْمِ
الظَّالِمِينَ ﴿١٠٨﴾ وَقُلِ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّ فِي
ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿١١٠﴾

وقال - تعالى - في سورة الشعراء [١٠٥-١٢٢]: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ
الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾
فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ
الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا ﴿١١٠﴾ * قَالُوا أَنْتُمْ لَكُمْ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾
قَالَ وَمَا عَلِمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾
وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿١١٥﴾ قَالُوا لَنْ لَمْ تَنْتَهِ
بِنُوحٍ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنْ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَانْفُخْ
بَنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ
فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا
كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾

وقال - تعالى - في سورة العنكبوت [١٤-١٥]: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى
قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٤﴾
فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَبَ السَّفِينَةَ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿١٥﴾

وقال - تعالى - في سورة الصافات [٧٥-٨٢]: ﴿ وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوحًا فَلَنِعْمَ
الْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمْ
الْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي
الْعَالَمِينَ ﴿٧٩﴾

وقال - تعالى - في سورة القمر [٩-١٧]: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ
فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبُّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْتَصِرْ ﴿١٠﴾
فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى
الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدَرٍ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ الْأَوْجِ وَدُسِّرَ ﴿١٣﴾ تَجَرَّى بِأَعْيُنِنَا

جَزَاءَ لِمَنْ كَانَ كُفِرًا ۖ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿١٠٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي ﴿١٠١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿١٠٢﴾ ۞

وقال-تعالى:- ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ قَالَ يَقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿١٠٤﴾ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا أَمْرِي ۖ يَغْفِرَ لَكُمْ دُنُوبَكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿١٠٦﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ﴿١٠٧﴾ وَإِنِّي كَلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لَتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْنَاعَهُمْ فِيْءًا ذُنُوبَهُمْ وَاسْتَعْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴿١٠٨﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿١٠٩﴾ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿١١٠﴾ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١١١﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١١٢﴾ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴿١١٣﴾ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١١٤﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١١٥﴾ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١١٦﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١١٧﴾ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١١٨﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١١٩﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٢٠﴾ لَتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿١٢١﴾ قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مِنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالَهُ وَوَلَدَهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿١٢٢﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا كَبِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿١٢٤﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴿١٢٥﴾ مِمَّا خَطَبْتَهُمْ أَغْرَقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا ﴿١٢٦﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿١٢٧﴾ إِنَّكَ إِنْ تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿١٢٨﴾ رَبِّ آغْفِرْ لِي وَلِوَلَدِي وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴿١٢٩﴾ ۞ [نوح: ١٠-٢٨].

وقد تكلمنا على كل موضع من هذه في «التفسير»، وسنذكر مضمون القصة مجموعاً من هذه الأماكن المتفرقة، وما دلت عليه الأحاديث والآثار.

[مدح نوح عليه السلام - والثناء عليه]

وقد جرى ذكره - أيضاً - في مواضع متفرقة من القرآن فيها مدحه وذم من خالفه، فقال - تعالى - في سورة النساء [١٦٣-١٦٥]: ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ۖ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ۖ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۖ ﴾ .

وقال في سورة الأنعام [٧٣-٨٧]: ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفِخُ فِي الصُّورِ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ۖ ﴾ * وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ عَازِرْ أَتَخَذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ۖ وَكَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَيَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۖ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أَحِبُّ الْآفِلِينَ ۖ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْسَ يَهْدِينِ رَبِّي أَأَكُونُ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ۖ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يُنْقِضُ إِلَيَّ بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ۖ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۖ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحْجِجُونَنِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ۖ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ۖ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ۖ وَبَلَكَ حُجَّتْنَا ءَاتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ۖ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ

وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٨﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٦٩﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُوشَعَ وَهُنَادَ وَكَوْنَانَ وَصَالِحًا مِّنَ الْأَنْبِيَاءِ ﴿٧٠﴾ وَمِنْ آيَاتِهِمْ وَذُرِّيَّتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٧١﴾

وتقدمت قصته في الأعراف.

وقال في سورة براءة [٧٠]: ﴿الْمَ يَأْتِيهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِّن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُم رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧١﴾﴾

وتقدمت قصته في يونس وهود.

وقال في سورة إبراهيم [٩]: ﴿الْمَ يَأْتِيَكُم نَبَأُ الَّذِينَ مِّن قَبْلِكُم قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُهُم إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿١٠﴾﴾

وقال في سورة سبأ [١٧]: ﴿ذُرِّيَّةً مِّن حَمَلِنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿١٨﴾﴾ [الإسراء: ٣] وقال فيها- أيضاً-: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِّن الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿١٩﴾﴾

وتقدمت قصته في الأنبياء والمؤمنون والشعراء والعنكبوت.

وقال في سورة الأحزاب [١٢-١٤]: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٤﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُلِوا الْفِتْنَةُ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا فِيهَا إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٥﴾﴾ [الأحزاب: ١٢-١٤].

وقال في سورة ص [١٢-١٤]: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ ﴿١٣﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ ﴿١٤﴾ إِن كُلُّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٥﴾﴾

وقال في سورة غافر [٦٥]: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَدَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٦٥﴾ وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٦٦﴾﴾.

وقال في سورة الشورى [١٣]: ﴿* شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾.

وقال -تعالى- في سورة ق [١٢-١٤]: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادُ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾.

وقال في الذاريات [٤٦]: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

وقال في سورة النجم [٥٢]: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى ﴿٥٢﴾﴾ وتقدمت قصته في سورة اقتربت الساعة.

وقال -تعالى- في سورة الحديد [٢٦]: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النَّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

وقال تعالى في سورة التحريم [١٠]: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِ عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاسِخِينَ ﴿١٠﴾﴾.

[انحراف ذرية آدم - عليه السلام - وعبادتهم الأصنام]

وأما مضمون ما جرى له مع قومه مأخوذاً من الكتاب والسنة والآثار. فقد قدمنا عن ابن عباس: أنه كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام، وذكرنا أن المراد بالقرن: الجيل، أو المدة على ما سلف.

ثم بعد ذلك القرون الصالحة حدثت أمور اقتضت أن آل الحال بأهل ذلك الزمان إلى عبادة الأصنام.

وكان سبب ذلك ما رواه البخاري^(١) عن ابن عباس؛ عند تفسير قوله: -تعالى-: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢٣].

قال: هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا؛ أوحى الشيطان إلى قومهم: أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً، وسموها بأسمائهم! ففعلوا، فلم تعبد، حتى إذا هلك أولئك وانتسخ العلم؛ عبدت. قال ابن عباس: وصارت هذه الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد.

ولهم في عبادتها مسالك كثيرة جداً قد ذكرناها في مواضعها من كتابنا «التفسير»، والله الحمد والمنة.

وقد ثبت في «الصحيحين»^(٢) عن رسول الله ﷺ: أنه لما ذكرت عنده أم سلمة وأم حبيبة، تلك الكنيسة التي رأيتها بأرض الحبشة، ويقال لها: مارية، وذكرنا من حسناتها وتصاوير فيها؛ قال: «أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح؛ بنوا على قبره مسجداً، ثم صوروها فيه تلك الصورة، أولئك شرار الخلق عند الله -عز وجل-».

[نوح -عليه السلام- أول رسول إلى أهل الأرض]

والمقصود: أن الفساد لما انتشر في الأرض وعمّ البلاء بعبادة الأصنام فيها؛ بعث الله عبده ورسوله نوحاً -عليه السلام-؛ يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وينهي عن عبادة ما سواه.

(١) في «صحيحه» (٤٩٢٠).

(٢) أخرجه البخاري (٤٢٧)، ومسلم (٥٢٨) من حديث عائشة -رضي الله عنها-.

فكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض؛ كما ثبت في «الصحيحين»^(١) في حديث الشفاعة عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «فيأتون آدم؛ فيقولون: يا آدم! أنت أبو البشر، خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأمر الملائكة؛ فسجدوا لك، وأسكنك الجنة؛ ألا تشفع لنا إلى ربك؟ ألا ترى ما نحن فيه وما بلغنا؟ فيقول: ربي قد غضب غضباً شديداً لم يغضب قبله مثله، ولا يغضب بعده مثله، ونهاني عن الشجرة؛ فعصيت، نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى نوح!». فيأتون نوحاً؛ فيقولون: يا نوح! أنت أول الرسل إلى أهل الأرض، وسماك الله: عبداً شكوراً، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ ألا ترى إلى ما بلغنا؟ ألا تشفع لنا إلى ربك - عز وجل -؟

فيقول: ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولا يغضب بعده مثله، نفسي نفسي». وذكر تمام الحديث بطوله؛ كما أورده البخاري في قصة نوح^(٢).

فلما بعث الله نوحاً - عليه السلام -؛ دعاهم إلى أفراد العبادة لله وحده لا شريك له، وألا يعبدوا معه صنماً ولا تمثالاً ولا طاغوتاً؛ وأن يعترفوا بوحدانيته، وأنه لا إله غيره ولا رب سواه؛ كما أمر الله - تعالى - من بعده من الرسل الذي هم كلهم من ذريته؛ كما قال - تعالى -: ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴾ [الصافات: ٧٧].

وقال فيه وفي إبراهيم: ﴿ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ﴾ [الحديد: ٢٦]؛ أي: كل نبي من بعد نوح فمن ذريته، وكذلك إبراهيم. قال الله - تعالى -: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦].

(١) أخرجه البخاري (٤٧١٢)، ومسلم (١٩٤).

(٢) برقم (٣٣٤٠).

وقال -تعالى-: ﴿ وَسَقِّلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ [الزخرف: ٤٥]، وقال -تعالى-: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٢٥]. ولهذا قال نوح لقومه: ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الأعراف: ٥٩]، وقال: ﴿ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾ [هود: ٢٦]، وقال: ﴿ قَالَ يَنْقُومُ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا ... وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴾ [نوح: ٢-١٤] الآيات الكريمات.

فذكر أنه دعاهم إلى الله بأنواع الدعوة؛ في الليل والنهار، والسر والإجهار، بالترغيب تارة والترهيب أخرى، وكل هذا لم ينجح فيهم، بل استمر أكثرهم على الضلالة والطغيان، وعبادة الأصنام والأوثان، ونصبوا له العداوة في كل وقت وأوان، وتنقصوه وتنقصوا من آمن به، وتوعده بالرجم والإخراج، ونالوا منهم وبالغوا في أمرهم.

﴿ قَالَ أَلْمَأُتُ مِنْ قَوْمِيهِ ﴾ [الأعراف: ٦٠]؛ أي: السادة الكبراء منهم: ﴿ إِنَّا لَنَرَنَّكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ قَالَ يَنْقُومُ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأعراف: ٦٠-٦١]؛ أي: لست كما تزعمون من أنني ضال، بل على الهدى المستقيم، رسول من رب العالمين؛ أي: الذي يقول للشيء كن فيكون، ﴿ أَبْلِغُكُمْ رَسُولِي رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٦٢]، وهذا شأن الرسول أن يكون بليغاً؛ أي: فصيحاً ناصحاً، أعلم الناس بالله -عز وجل-.

وقالوا له فيما قالوا: ﴿ مَا نَرَنَّكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَنَّكَ أَتَمَعَكَ إِلَّا آلِدِينَ هُمْ أَرَادُوا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَذِبِينَ ﴾ [هود: ٢٧].

تعجبوا أن يكون بشر رسولاً، وتنقصوا من اتبعه ورأوهم أراذلهم، وقد قيل: إنهم كانوا من أفئاد الناس - وهم ضعفاؤهم -؛ كما قال هرقل: وهم أتباع الرسل^(١)، وما ذاك إلا لأنه لا مانع لهم من اتباع الحق.

وقولهم: ﴿بَادِيَ الرَّأْيِ﴾؛ أي: بمجرد ما دعوتهم استجابوا لك من غير نظر ولا روية! وهذا الذي رموهم به هو عين ما يمدحون بسببه - رضي الله عنهم -؛ فإن الحق الظاهر لا يحتاج إلى روية ولا فكر ولا نظر، بل يجب اتباعه والانقياد له متى ظهر، ولهذا مدح رسول الله الصديق، وكانت بيعته يوم السقيفة - أيضاً - سريعة من غير نظر ولا روية؛ لأن أفضليته على من عداه ظاهرة جليلة عند الصحابة - رضي الله عنهم -.

ولهذا قال رسول الله ﷺ لما أراد أن يكتب الكتاب الذي أراد أن ينص فيه على خلافته؛ فتركه؛ قال: «يأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر»^(٢).

وقول كفرة قوم نوح له ولمن آمن به: ﴿وَمَا تَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾؛ أي: لم يظهر لكم أمر بعد اتصافكم بالإيمان ولا مزية علينا ﴿بَلْ نَطُغُّكُمْ كَذِبِينَ﴾. ﴿قَالَ يَنْقُومِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِي فَعُمِّيْتَ عَلَيْكُمْ أُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كِرَاهُونَ﴾^(٣)؛ وهذا تلطف في الخطاب معهم، وترفق بهم في الدعوة إلى الحق؛ كما قال تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّيُنَا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾^(٤) [طه: ٤٤]، وقال - تعالى -: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥] وهذا منه.

يقول لهم: ﴿أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِي﴾؛ أي: النبوة والرسالة؛ ﴿فَعُمِّيْتَ عَلَيْكُمْ﴾؛ أي: فلم تفهموها ولم

(١) كما أخرجه البخاري (٧)، ومسلم (١٧٧٣) من حديث عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما -.

(٢) أخرجه مسلم (٢٣٨٧) من حديث عائشة - رضي الله عنها -.

تهتدوا إليها؛ ﴿أَنْلَزْمُكُمُوهَا﴾؛ أي: أنغصبكم بها ونجبركم عليها؟ ﴿وَأَنْتُمْ لَهَا كَرِهُونَ﴾؛ أي: ليس لي فيكم حيلة والحالة هذه.
﴿وَيَقُولُ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ [هود: ٢٩]؛ أي: لست أريد منكم أجره على إبلاغي إياكم ما ينفعكم في دنياكم وأخراكم، أن أطلب ذلك إلا من الله الذي ثوابه خير لي وأبقى مما تعطوني أنتم.
وقوله: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدٍ لِلَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلْتَقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرْسَلُكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ [هود: ٢٩] كأنهم طلبوا منه أن يبعد هؤلاء عنه، ووعدوه أن يجتمعوا به إذا هو فعل ذلك؛ فأبى عليهم ذلك، وقال: ﴿إِنَّهُمْ مُلْتَقُوا رَبِّهِمْ﴾؛ أي: فأخاف إن طردتهم أن يشكوني إلى الله - عز وجل -.

ولهذا لما سأل كفار قريش رسول الله ﷺ أن يطرد عنه ضعفاء المؤمنين؛ كعمار وصهيب وبلال وخباب وأشباههم^(١)؛ نهاه الله عن ذلك؛ كما بيناه في سورتي الأنعام والكهف.

﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾ [هود: ٣١]؛ أي: بل أنا عبد رسول، لا أعلم من علم الله إلا ما أعلمني به، ولا أقدر إلا على ما أقدرني عليه، ولا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله، ﴿وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ﴾ [هود: ٣١]؛ يعني: من أتباعه: ﴿لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذَا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ٣١]؛ أي: لا أشهد عليهم بأنهم لا خير لهم عند الله يوم القيامة، الله أعلم بهم، وسيجازيهم على ما في نفوسهم: إن خيرا؛ فخير، وإن شرا؛ فشر؛ كما قالوا في المواضع الأخرى: ﴿قَالُوا أَنْتُمْ لَكُمْ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ ﴿قَالَ وَمَا عَلَّمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَو تَشْعُرُونَ﴾ ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الشعراء: ١١١-١١٥].

(١) كما في «صحيح مسلم» (٢٤١٣) من حديث سعد - رضي الله عنه -.

[يَاسَ نُوحَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - مِنْ إِيمَانِ قَوْمِهِ]

وقد تطاول الزمان والمجادلة بينه وبينهم؛ كما قال -تعالى-: ﴿ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ١٤]؛ أي: ومع هذه المدة الطويلة؛ فما آمن به إلا القليل منهم.

وكان كلما انقرض جيل؛ وصَّوا مَنْ بعدهم بعدم الإيمان به ومحاربتة ومخالفتة، وكان الوالد إذا بلغ ولده وعقل عنه كلامه؛ وصَّاه فيما بينه وبينه ألا يؤمن بنوح أبداً ما عاش ودائماً ما بقي.

وكانت سجاياهم تأبى الإيمان واتباع الحق؛ ولهذا قال: ﴿ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ [نوح: ٢٧].

ولهذا قالوا: ﴿ يَنْوُحُ قَدْ جَدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ [هود: ٣٢ و٣٣]؛ أي: إنما يقدر على ذلك الله -عز وجل-؛ فإنه الذي لا يعجزه شيء ولا يكثره أمر، بل هو الذي يقول للشيء: كن؛ فيكون.

﴿ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [هود: ٣٤]؛ أي: من يرد الله فتنته؛ فلن يملك أحد هدايته، هو الذي يهدي من يشاء، ويضل من يشاء، وهو الفعال لما يريد، وهو العزيز الحكيم، العليم بمن يستحق الهداية ومن يستحق الغواية، وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة.

[نوح - عليه السلام - يصنع السفينة]

﴿ وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ ﴾ [هود: ٣٦]: تسلية له عما كان منهم إليه؛ ﴿ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ [هود: ٣٦]: وهذه تعزية لنوح -عليه السلام- في قومه أنه لن يؤمن منهم إلا من قد آمن؛ أي: لا يسوءنك ما جرى؛ فإن النصر قريب، والنبأ عجب عجيب.

﴿ وَأَصْنَعُ الْفُلَكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحَيْنَا وَلَا تَخْطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ﴾ [هود: ٣٧].

وذلك أن نوحاً - عليه السلام - يش من صلاحهم وفلاحهم، ورأى أنهم لا خير فيهم، وتوصلوا إلى أذيته ومخالفته وتكذيبه بكل طريق من فعال ومقال؛ دعا عليهم دعوة غضب؛ فلبى الله دعوته، وأجاب طلبته.

قال الله - تعالى -: ﴿ وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوْحًا فَلْنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴾ [١] وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾ [الصافات: ٧٥ و ٧٦]، وقال - تعالى -: ﴿ وَنُوْحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴾ [الأنبياء: ٧٦]، وقال - تعالى -: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿٣﴾ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء: ١١٧ و ١١٨]، وقال - تعالى -: ﴿ فَدَعَا رَبُّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْتَصِرْ ﴾ [الفر: ١٠]، وقال - تعالى -: ﴿ قَالَ رَبِّ أَنْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴾ [المونسون: ٢٦]، وقال - تعالى -: ﴿ مِمَّا خَطِيئَتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأَدْخَلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا ﴾ [٤] وَقَالَ نُوْحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٥﴾ إِنَّكَ إِنْ تَذَرَهُمْ يُضِلُّوْا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوْا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ [نوح: ٢٥- ٢٧].

فاجتمع عليهم خطاياهم من كفرهم وفجورهم ودعوة نبيهم عليهم؛ فعند ذلك أمره الله - تعالى - أن يصنع الفلك، وهي السفينة العظيمة التي لم يكن لها نظير قبلها، ولا يكون بعدها مثلها^(١).

وقدم الله - تعالى - إليه أنه إذا جاء أمره، وحل بهم بأسه الذي لا يرد عن القوم الجرمين؛ أنه لا يعاوده فيهم ولا يراجعهم؛ فإنه لعله قد تدركه رقة على قومه عند معاينة العذاب النازل بهم؛ فإنه ليس الخبر كالمعاينة؛ ولهذا قال: ﴿ وَلَا تَخْطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ﴾ [هود: ٣٧].

﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلَكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ ﴾ [هود: ٣٨]؛ أي: يستهزئون منه استبعاداً لوقوع ما توعدهم به، ﴿ قَالَ إِنْ

تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿ [هود: ٣٨] ؛ أي: نحن الذين
نسخر منكم في استمراركم على كفركم وعنادكم الذي يقتضي وقوع العذاب بكم
وحلوله عليكم؛ ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ
عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ [هود: ٣٩].

وقد كانت سجاياهم الكفر الغليظ والعناد البالغ في الدنيا، وهكذا في
الآخرة؛ فإنهم يجحدون -أيضاً- أن يكون جاءهم رسول؛ كما قال البخاري^(١):
عن أبي سعيد عن رسول الله ﷺ: «يجيء نوح - عليه السلام - وأمه؛ فيقول الله
- عز وجل -: هل بلغت؟ فيقول نعم، أي رب! فيقول لأمه: هل بلغكم؟
فيقولون: لا؛ ما جاءنا من نبي؛ فيقول لنوح: من يشهد لك؟! فيقول: محمد
وأمه؛ فنشهد أنه قد بلغ»، وهو قوله - تعالى -: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً
وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾
[البقرة: ١٤٣]؛ «والوسط: العدل».

فهذه الأمة تشهد على شهادة نبياها الصادق المصدق؛ بأن الله قد بعث
نوحاً بالحق، وأنزل عليه الحق وأمره به، وأنه بلغه إلى أمته على أكمل الوجوه
وأتمها، ولم يدع شيئاً مما ينفعهم في دينهم إلا وقد أمرهم به، ولا شيئاً مما قد
يضرهم إلا وقد نهاهم عنه وحذرهم منه.
وهكذا شأن جميع الرسل.

حتى إنه حذر قومه المسيح الدجال، وإن كان لا يتوقع خروجه في زمانهم؛
حذراً عليهم وشفقة ورحمة بهم؛ كما قال البخاري^(٢): قال ابن عمر: قام رسول
الله ﷺ في الناس؛ فأثنى على الله بما هو أهله، ثم ذكر الدجال؛ فقال: «إني
لأنذركموه، وما من نبي إلا وقد أنذره قومه، لقد أنذره نوح قومه، ولكني أقول
لكم فيه قولاً لم يقله نبي لقومه: تعلمون أنه أعور، وأن الله ليس بأعور».

(١) برقم (٣٣٣٩).

(٢) برقم (٣٣٣٧)، وأخرجه مسلم (١/١٥٤-١٥٦/١٦٩ و٤/٢٢٤٧/١٦٩-بنحوه).

وهذا الحديث في «الصحيحين» -أيضاً- عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «ألا أحدثكم عن الدجال حديثاً ما حدث نبي قومه؟ إنه أعور، وإنه يجيء معه بمثال الجنة والنار، والتي يقول عليها: الجنة؛ هي النار، وإنني أنذركم؛ كما أنذر به نوح قومه».

لفظ البخاري^(١).

وقد قال بعض علماء السلف: لما استجاب الله له؛ أمره أن يغرس شجراً؛ ليعمل منه السفينة؛ فغرسه، ثم نجره قالوا كلهم: وكان ارتفاعها ثلاثين ذراعاً، وكانت ثلاث طبقات، كل واحدة عشرة أذرع؛ فالسفلى للدواب والوحوش، والوسطى للناس، والعليا للطيور، وكان بابها في عرضها، ولها غطاء من فوقها مطبق عليها.

قال الله -تعالى-: ﴿ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحَيْنَا ﴿ الْمُؤْمِنُونَ: ٢٦-٢٧ ﴾ أي: بأمرنا لك، بمراى منا لصنعتك لها، ومشاهدتنا لذلك؛ لترشدك إلى الصواب في صنعتها.

[نوح - عليه السلام - والطوفان]

﴿ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنْثُورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [المؤمنون: ٢٧].

فتقدم إليه بأمره العظيم العالي: أنه إذا جاء أمره وحل بأسه؛ أن يحمل في هذه السفينة من كل زوجين اثنين من الحيوانات وسائر ما فيه روح من المأكولات وغيرها لبقاء نسلها، وأن يحمل معه أهله؛ أي: أهل بيته؛ إلا من سبق عليه القول منهم؛ أي: إلا من كان كافراً؛ فإنه قد نفذت فيه الدعوة التي لا ترد، ووجب عليه حلول البأس الذي لا يرد، وأمر أنه لا يراجعهم فيهم إذا حل بهم ما يعاينه من العذاب العظيم، الذي قد حتمه عليهم الفعال لما يريد؛ كما قدمنا بيانه قبل.

والمراد بالتنور - عند الجمهور - : وجه الأرض؛ أي: نبعت الأرض من سائر أرجائها، حتى نبعت التناير التي هي محال النار.

وقوله - تعالى -: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ۖ ﴾ [هود: ٤٠]؛ هذا أمر بأنه عند حلول النعمة بهم أن يحمل فيها من كل زوجين اثنين.

وقوله: ﴿ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ ﴾ [هود: ٤٠]؛ أي: من استجيبت فيهم الدعوة النافذة من كفر؛ فكان منهم ابنه يام الذي غرق كما سيأتي بيانه.

﴿ وَمَنْ ءَامَنَ ﴾ [هود: ٤٠]؛ أي: واحمل فيها من آمن بك من أمتك، قال الله - تعالى -: ﴿ وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ [هود: ٤٠]؛ هذا مع طول المدة والمقام بين أظهرهم، ودعوتهم الأكيدة ليلاً ونهاراً بضروب المقال وفنون التلطفات والتهديد والوعيد تارة والترغيب والوعد أخرى.

وقد اختلف العلماء في عدة من كان معه في السفينة .

قال الله - تعالى -: ﴿ فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلِّ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّيْنَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ۖ ﴾ [الشعراء: ١٢٨] وقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ۖ ﴾ [المؤمنون: ٢٨-٢٩]؛ أمره أن يحمد ربه على ما سخر له من هذه السفينة؛ فنجاه بها، وفتح بينه وبين قومه، وأقر عينه من خالفه وكذبه؛ كما قال - تعالى -: ﴿ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ۖ لِيَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ۖ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ۖ ﴾ [الزخرف: ١٢-١٤].

وهكذا يؤمر بالدعاء في ابتداء الأمر: أن يكون على الخير والبركة، وأن تكون عاقبتها محمودة؛ كما قال - تعالى - لرسوله ﷺ حين هاجر: ﴿ وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِنْ لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ۖ ﴾ [الإسراء: ٨٠]، وقد امثل نوح - عليه السلام - هذه الوصية، وقال: ﴿ وَقَالَ أَرَاكُمْ مُنْجِبًا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِبَهَا وَمُزْسِنَهَا إِنَّ رَبِّي لَعَفُورٌ رَّحِيمٌ ۖ ﴾ [هود: ٤١]؛ أي. على اسم الله ابتداء سيرها وانتهاءه ﴿ إِنَّ رَبِّي لَعَفُورٌ

رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ [هود: ٤١]؛ أي: وذو عقاب أليم؛ مع كونه غفوراً رحيماً، لا يرد بأسه عن القوم المجرمين؛ كما أحل بأهل الأرض الذين كفروا به وعبدوا غيره.

قال الله -تعالى-: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَبْنِىْ أَرْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ ﴿١٢﴾﴾ [هود: ٤٢]؛ وذلك أن الله -تعالى- أرسل من السماء مطراً لم تعهده الأرض قبله ولا تطره بعده؛ كان كأفواه القرب، وأمر الأرض فنبعت من جميع فجاجها وسائر أرجائها؛ كما قال -تعالى-: ﴿فَدَعَا رَبُّهُ أَنِّىْ مَغْلُوبٌ فَأَنْتَصِرْ ﴿١٣﴾﴾ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّثَنٍّ ﴿١٤﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرِ قُدْرٍ ﴿١٥﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ الْأَلْوَاحِ وَدُسُرُ ﴿١٦﴾﴾ [القمر: ١٠-١٣]؛ والدسر: المسامير، ﴿تَجْرَى بِأَعْيُنِنَا ﴿١٧﴾﴾ [القمر: ١٤]؛ أي: بحفظنا وكلاءنا وحراستنا ومشاهدتنا لها؛ ﴿جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٨﴾﴾ [القمر: ١٤].

وقال -تعالى-: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ﴿١٩﴾﴾ [الحاقة: ١١]؛ أي: السفينة؛ ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴿٢٠﴾﴾ [الحاقة: ١٢].

قال جماعة من المفسرين: ارتفع الماء على أعلى جبل في الأرض . وعمّ جميع الأرض؛ طولها والعرض، سهلها وحزنها، وجبالها وقفارها ورمالها، ولم يبق على وجه الأرض ممن كان بها من الأحياء عين تطرف، ولا صغير ولا كبير.

﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَبْنِىْ أَرْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ ﴿١٢﴾﴾ قَالَ سَآوِىْ إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِىْ مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿١٣﴾﴾ [هود: ٤٢-٤٣]؛ وهذا الابن كان كافراً عمل عملاً غير صالح: فخالف أباه في دينه ومذهبه؛ فهلك مع من هلك. هذا؛ وقد نجا مع أبيه الأجانب في النسب لما كانوا موافقين في الدين والمذهب؛ كما قال: ﴿وَنَجِّنِىْ وَمَنْ مَّعِىَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾﴾ [الشعراء: ١١٨].

﴿وَقِيلَ يَتَّزِىْ أَيْلَعِىْ مَاءُكَ وَيَسْمَاءُ أَقْلَعِىْ وَغِيْضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودَى وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٥﴾﴾ [هود: ٤٤]؛ أي: لما فرغ من أهل الأرض، ولم يبق بها أحد ممن عبد غير الله -عز وجل-؛ أمر الله الأرض

أن تبتلع ماءها، وأمر السماء أن تفلح؛ أي: تمسك عن المطر، ﴿وَغِيضَ الْمَاءِ﴾؛ أي: نقص عما كان، ﴿وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾؛ أي: وقع بهم الذي كان قد سبق في علمه وقدره من إحلاله بهم ما حلّ بهم.

﴿وَقِيلَ بَعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾؛ أي: نودي عليهم بلسان القدرة: بعداً لهم من الرحمة والمغفرة.

كما قال - تعالى -: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلِّ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾ [الأعراف: ٦٤]، وقال - تعالى -: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَتَبَيَّنَتْ أُمَمٌ مَعَهُ فِي الْفُلِّ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلْفًا وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ﴾ [يونس: ٧٣]، وقال - تعالى -: ﴿وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٧]، وقال - تعالى -: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِّ أَلَمْ شَاهِدْ أَنْهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾ [الشعراء: ١١٩-١٢١]، وقال - تعالى -: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت: ١٥]، وقال - تعالى -: ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ﴾ [الصافات: ٨٢]، وقال: ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ فكيف كان عذابي ونذري ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ [الفر: ١٥-١٧]؛ وقال - تعالى -: ﴿مِمَّا خَطِيئَتُهُمْ أُغْرِقُوا فَأَدْخَلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا﴾ وقال نوح رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿إِنَّكَ إِنْ تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح: ٢٥-٢٧].

وقد استجاب الله - تعالى، وله الحمد والمنة - دعوته، فلم يبق منهم عين تطرف.

والمقصود: أن الله لم يبق من الكافرين دياراً؛ فكيف يزعم بعض المفسرين: أن عوج بن عنق - ويقال: ابن عناق - كان موجوداً من قبل نوح إلى زمان موسى! ويقولون: كان كافراً متمرداً جباراً عنيداً! ويقولون: كان لغير رشدة؛ بل ولدته أمه عنق بنت آدم من زنى! وأنه كان يأخذ - من طوله - السمك من قرار البحار ويشويه في عين الشمس! وأنه كان يقول لنوح وهو في السفينة: ما هذه القُصِيعة

التي لك؟ ويستهزئ به! ويذكرون أنه كان طوله ثلاثة آلاف ذراع وثلاثمائة وثلاثة وثلاثين ذراعاً وثلاثاً إلى غير ذلك من الهذيان التي لولا أنها مسطرة في كثير من كتب التفاسير وغيرها من التواريخ وأيام الناس؛ لما تعرضنا لحكايتها؛ لسقاطتها وركاكتها، ثم إنها مخالفة للمعقول والمنقول.

أما المعقول؛ فكيف يسوغ فيه أن يهلك الله ولد نوح لكفره؛ وأبوه نبي الأمة وزعيم أهل الإيمان، ولا يهلك عوج بن عنق -ويقال: عناق-، وهو أظلم وأطغى على ماذكروا؟!

وأما المنقول؛ فقد قال الله -تعالى-: ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ﴾ [الصافات: ٨٢]، وقال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ ذِيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦].

ثم هذا الطول الذي ذكره مخالف لما في «الصحيحين»^(١) عن النبي ﷺ: أنه قال: «إن الله خلق آدم وطوله ستون ذراعاً، ثم لم يزل الخلق ينقص حتى الآن»؛ فهذا نص الصادق المصدوق المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ [النجم: ٤]: أنه لم يزل الخلق ينقص حتى الآن؛ أي: لم يزل الناس في نقصان في طولهم من آدم إلى يوم إخباره بذلك وهلم جرا إلى يوم القيامة، وهذا يقتضي أنه لم يوجد من ذرية آدم من كان أطول منه.

فكيف يترك هذا ويذهل عنه ويصار إلى أقوال الكذبة الكفرة من أهل الكتاب، الذين بدلوا كتب الله المنزلة وحرفوها وأولوها ووضعوها على غير مواضعها؟! فما ظنك بما هم يستقلون بنقله أو يؤتمنون عليه وهم الخونة والكذبة عليهم لعائن الله المتتابة إلى يوم القيامة؟! وما أظن أن هذا الخبر عن عوج بن

عناق إلا اختلاقاً من بعض زنادقتهم وفجارهم الذين كانوا أعداء الأنبياء، والله أعلم^(١).

ثم ذكر الله - تعالى - مناشدة نوح ربه في ولده، وسؤاله له عن غرقه على وجه الاستعلام والاستكشاف. ووجه السؤال: أنك وعدتني بنجاة أهلي معي، وهو منهم؛ وقد غرق؟!

فأجيب بأنه ليس من أهلك؛ أي: الذين وعدت بنجاتهم؛ أي: إنا قلنا لك: ﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾ [المؤمنون: ٢٧]، فكان هذا من سبق عليه القول منهم بأنه سيفرق بكفره؛ ولهذا ساقته الأقدار إلى أن انحاز عن حوزة أهل الإيمان؛ فغرق مع حزبه أهل الكفر والطغيان.

ثم قال - تعالى -: ﴿قِيلَ يَنُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ وَأُمٌّ سَمَّتِيَهُمْ ثُمَّ يَمْسُهُمْ مِتًا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [هود: ٤٨]: هذا أمر لنوح - عليه السلام - لما نضب الماء عن وجه الأرض، وأمكن السعي فيها والاستقرار عليها، أن يهبط من السفينة التي كانت قد استقرت بعد سيرها العظيم على ظهر جبل الجودي، وهو جبل بأرض الجزيرة مشهور. ﴿بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ﴾ [هود: ٤٨]؛ أي: اهبط سالماً مباركاً عليك، وعلى أمم ممن سيولد بعد؛ أي: من أولادك؛ فإن الله لم يجعل لأحد ممن كان معه من المؤمنين نسلًا ولا عقباً سوى نوح - عليه السلام -؛ قال - تعالى -: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ [الصافات: ٧٧]؛ فكل من على وجه الأرض اليوم من سائر أجناس بني آدم، ينسبون إلى أولاد نوح الثلاثة وهم: سام، وحام، ويافث.

(١) أحسن المصنف - رحمه الله - في تفنيد خبر عوج بن عنق، وقد زدت المسألة بسطة ونقلت اتفاق علماء الحديث على أنه حديث كذب موضوع في تعليقاتي على «تأويل مختلف الحديث» (ص ٥٢٤-٥٢٦)؛ فانظره غير مأمور.

[الرد على منكري الطوفان]

وقد أنكرت طائفة من جهلة الفرس وأهل الهند وقوع الطوفان! واعترف به آخرون منهم.

وقالوا: إنما كان بأرض بابل ولم يصل إلينا! قالوا: ولم نزل نتوارث الملك كابرًا عن كابر، من لدن كيومرث - يعنون آدم - إلى زماننا هذا! وهذا قاله من قاله من زنادقة المجوس عبّاد النيران وأتباع الشيطان. وهذه سفسطة منهم، وكفر فظيع، وجهل بليغ، ومكابرة للمحسوسات، وتكذيب لرب الأرض والسموات.

وقد أجمع أهل الأديان؛ الناقلون عن رسل الرحمن، مع ما تواتر عند الناس في سائر الأزمان، على وقوع الطوفان، وأنه عمّ جميع البلاد، ولم يبق الله أحداً من كفره العباد، استجابة لدعوة نبيه المؤيد المعصوم، وتنفيذاً لما سبق في القدر المحتوم.

ذكر شيء من أخبار نوح نفسه - عليه السلام -

قال الله - تعالى -: ﴿ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾ [الإسراء: ٣].
 قيل: إنه كان يحمد الله على طعامه وشرابه ولباسه وشأنه كله.
 عن أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ: «إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة، فيحمده عليها، أو يشرب الشربة؛ فيحمده عليها»^(١).
 والظاهر: أن الشكور هو الذي يعمل بجميع الطاعات القلبية والقولية والعملية؛ فإن الشكر يكون بهذا وبهذا؛ كما قال الشاعر:
 أفادتكم النعماء مئى ثلاثة يدي ولساني والضمير المحجبا

ذكر وصيته لولده - عليه السلام -

عن عبد الله بن عمرو قال: كنا عند رسول الله ﷺ ، فجاء رجل من أهل البادية عليه جبة سيجان^(٢) مزرورة بالديباج ؛ فقال: «ألا إن صاحبكم هذا قد وضع كل فارس ابن فارس -أو قال: يريد أن يضع كل فارس ابن فارس- ورفع كل راع ابن راع».

قال: فأخذ رسول الله ﷺ بمجامع جبته؛ وقال: «ألا أرى عليك لباس من لا يعقل؟». ثم قال: «إن نبي الله نوحاً -عليه السلام- لما حضرته الوفاة ؛ قال لابنه: إني قاص عليك الوصية: آمرك باثنتين وأنهاك عن اثنتين: آمرك بلا إله إلا الله؛ فإن السماوات السبع والأرضين السبع لو وضعت في كفة، ووضعت لا إله إلا الله في كفة رجحت بهن لا إله إلا الله، ولو أن السماوات السبع والأرضين السبع كن

(١) أخرجه أحمد (٣/ ١١٧) ، ومسلم (٢٧٣٤) ، والترمذي (١٨١٦) ، والنسائي في

«الكبرى» (٤/ ٢٠٢ / ٦٨٩٩).

(٢) طيلسان أخضر أو أسود.

حلقة مبهمه؛ قصمتهن لا إله إلا الله، وسبحان الله وبحمده؛ فإنها صلاة كل شيء، وبها يرزق الخلق، وأنهاك عن الشرك والكبر»..

قال: قلت - أو قيل - : يا رسول الله! هذا الشرك قد عرفناه؛ فما الكبر؟ أن يكون لأحدنا نعلان حستان لهما شراكان حسان؟
قال: «لا» .

قال: هو أن يكون لأحدنا حلّة يلبسها؟
قال: «لا».

قال: هو أن يكون لأحدنا دابة يركبها؟
قال: «لا».

قال: هو أن يكون لأحدنا أصحاب يجلسون إليه؟
قال: «لا».

قلت - أو قيل - : يا رسول الله! فما الكبر؟ قال: «سفه الحق وغمط الناس»^(١).

وهذا إسناد صحيح.

(١) صحيح - أخرجه أحمد (٢/١٦٩ و٢٢٥)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٥٤٨)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (ص ١٢٨) بإسناد صحيح، وصححه شيخنا العلامة الألباني - رحمه الله - في «الصحيحة» (١٣٤).

قصة هود - عليه السلام -

[قبيلة عاد وساكنهم]

وكان من قبيلة يقال لهم: عاد، وكانوا عرباً يسكنون الأحقاف - وهي جبال الرمل -، وكانت باليمن بين عُمان وحضرموت، بأرض مطلة على البحر، يقال لها: الشَّحْر، واسم واديهـم: مغيث.

وكانوا كثيراً ما يسكنون الخيام ذوات الأعمدة الضخام؛ كما قال -تعالى-: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦٠﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٦١﴾ ﴾ [الفجر: ٦-٧]؛ أي: عاد إرم، وهم عاد الأولى. وأما عاد الثانية؛ فمتأخرة؛ كما سيأتي بيان ذلك في موضعه. وأما عاد الأولى؛ فهم عاد؛ أي: مثل القبيلة، وقيل: مثل العمدة. والصحيح الأول كما بيناه في «التفسير».

ومن زعم: أن إرم مدينة تدور في الأرض؛ فتارة في الشام، وتارة في اليمن، وتارة في الحجاز، وتارة في غيرها؛ فقد أبعد النجعة، وقال ما لا دليل عليه، ولا برهان يُعوّل عليه، ولا مستند يُركن إليه.

[العرب العاربة والمستعربة]

ويقال للعرب الذين كانوا قبل إسماعيل -عليه السلام-: العرب العاربة، وهم قبائل كثيرة: منهم عاد، وثمود، وجرهم، وطسم، وجديس، وأميم، ومدين، وعملاق، وجاسم، وعييل، وقحطان، وبنو يقطن... وغيرهم.

وأما العرب المستعربة؛ فهم من ولد إسماعيل بن إبراهيم الخليل، وكان إسماعيل بن إبراهيم -عليهما السلام- أول من تكلم العربية الفصيحة البليغة، وكان قد أخذ كلام العرب من جرهم الذي نزلوا عند أمه هاجر بالحرم؛ كما سيأتي بيانه في موضعه -إن شاء الله تعالى- ولكن أنطقه الله بها في غاية الفصاحة والبيان، وكذلك كان يتلفظ بها رسول الله ﷺ.

[قصة هود - عليه السلام - في القرآن الكريم]

والمقصود: أن عاداً - وهم عاد الأولى - كانوا أول من عبد الأصنام بعد الطوفان؛ فبعث الله فيهم أخاهم هوداً - عليه السلام -؛ فدعاهم إلى الله: كما قال - تعالى - بعد ذكر قوم نوح، وما كان من أمرهم في سورة الأعراف [٦٥-٧٢]: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَنْقُومِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرْنِكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَنْقُومِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوْعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً فَاذْكُرُوا ءَالَآءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَآتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِّن رَّبِّكُمْ رَجْسٌ وَعَظْبٌ أُتُجِدُّ لُونِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ فَانظُرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِبَايِعَتِنَا وَمَا كَانُوا مَوْمِنِينَ ﴿٧٢﴾ ۝ ٧٣ ۝ ٧٤ ۝ ٧٥ ۝ ٧٦ ۝ ٧٧ ۝ ٧٨ ۝ ٧٩ ۝ ٨٠ ۝ ٨١ ۝ ٨٢ ۝ ٨٣ ۝ ٨٤ ۝ ٨٥ ۝ ٨٦ ۝ ٨٧ ۝ ٨٨ ۝ ٨٩ ۝ ٩٠ ۝ ٩١ ۝ ٩٢ ۝ ٩٣ ۝ ٩٤ ۝ ٩٥ ۝ ٩٦ ۝ ٩٧ ۝ ٩٨ ۝ ٩٩ ۝ ١٠٠ ۝ ١٠١ ۝ ١٠٢ ۝ ١٠٣ ۝ ١٠٤ ۝ ١٠٥ ۝ ١٠٦ ۝ ١٠٧ ۝ ١٠٨ ۝ ١٠٩ ۝ ١١٠ ۝ ١١١ ۝ ١١٢ ۝ ١١٣ ۝ ١١٤ ۝ ١١٥ ۝ ١١٦ ۝ ١١٧ ۝ ١١٨ ۝ ١١٩ ۝ ١٢٠ ۝ ١٢١ ۝ ١٢٢ ۝ ١٢٣ ۝ ١٢٤ ۝ ١٢٥ ۝ ١٢٦ ۝ ١٢٧ ۝ ١٢٨ ۝ ١٢٩ ۝ ١٣٠ ۝ ١٣١ ۝ ١٣٢ ۝ ١٣٣ ۝ ١٣٤ ۝ ١٣٥ ۝ ١٣٦ ۝ ١٣٧ ۝ ١٣٨ ۝ ١٣٩ ۝ ١٤٠ ۝ ١٤١ ۝ ١٤٢ ۝ ١٤٣ ۝ ١٤٤ ۝ ١٤٥ ۝ ١٤٦ ۝ ١٤٧ ۝ ١٤٨ ۝ ١٤٩ ۝ ١٥٠ ۝ ١٥١ ۝ ١٥٢ ۝ ١٥٣ ۝ ١٥٤ ۝ ١٥٥ ۝ ١٥٦ ۝ ١٥٧ ۝ ١٥٨ ۝ ١٥٩ ۝ ١٦٠ ۝ ١٦١ ۝ ١٦٢ ۝ ١٦٣ ۝ ١٦٤ ۝ ١٦٥ ۝ ١٦٦ ۝ ١٦٧ ۝ ١٦٨ ۝ ١٦٩ ۝ ١٧٠ ۝ ١٧١ ۝ ١٧٢ ۝ ١٧٣ ۝ ١٧٤ ۝ ١٧٥ ۝ ١٧٦ ۝ ١٧٧ ۝ ١٧٨ ۝ ١٧٩ ۝ ١٨٠ ۝ ١٨١ ۝ ١٨٢ ۝ ١٨٣ ۝ ١٨٤ ۝ ١٨٥ ۝ ١٨٦ ۝ ١٨٧ ۝ ١٨٨ ۝ ١٨٩ ۝ ١٩٠ ۝ ١٩١ ۝ ١٩٢ ۝ ١٩٣ ۝ ١٩٤ ۝ ١٩٥ ۝ ١٩٦ ۝ ١٩٧ ۝ ١٩٨ ۝ ١٩٩ ۝ ٢٠٠ ۝ ٢٠١ ۝ ٢٠٢ ۝ ٢٠٣ ۝ ٢٠٤ ۝ ٢٠٥ ۝ ٢٠٦ ۝ ٢٠٧ ۝ ٢٠٨ ۝ ٢٠٩ ۝ ٢١٠ ۝ ٢١١ ۝ ٢١٢ ۝ ٢١٣ ۝ ٢١٤ ۝ ٢١٥ ۝ ٢١٦ ۝ ٢١٧ ۝ ٢١٨ ۝ ٢١٩ ۝ ٢٢٠ ۝ ٢٢١ ۝ ٢٢٢ ۝ ٢٢٣ ۝ ٢٢٤ ۝ ٢٢٥ ۝ ٢٢٦ ۝ ٢٢٧ ۝ ٢٢٨ ۝ ٢٢٩ ۝ ٢٣٠ ۝ ٢٣١ ۝ ٢٣٢ ۝ ٢٣٣ ۝ ٢٣٤ ۝ ٢٣٥ ۝ ٢٣٦ ۝ ٢٣٧ ۝ ٢٣٨ ۝ ٢٣٩ ۝ ٢٤٠ ۝ ٢٤١ ۝ ٢٤٢ ۝ ٢٤٣ ۝ ٢٤٤ ۝ ٢٤٥ ۝ ٢٤٦ ۝ ٢٤٧ ۝ ٢٤٨ ۝ ٢٤٩ ۝ ٢٥٠ ۝ ٢٥١ ۝ ٢٥٢ ۝ ٢٥٣ ۝ ٢٥٤ ۝ ٢٥٥ ۝ ٢٥٦ ۝ ٢٥٧ ۝ ٢٥٨ ۝ ٢٥٩ ۝ ٢٦٠ ۝ ٢٦١ ۝ ٢٦٢ ۝ ٢٦٣ ۝ ٢٦٤ ۝ ٢٦٥ ۝ ٢٦٦ ۝ ٢٦٧ ۝ ٢٦٨ ۝ ٢٦٩ ۝ ٢٧٠ ۝ ٢٧١ ۝ ٢٧٢ ۝ ٢٧٣ ۝ ٢٧٤ ۝ ٢٧٥ ۝ ٢٧٦ ۝ ٢٧٧ ۝ ٢٧٨ ۝ ٢٧٩ ۝ ٢٨٠ ۝ ٢٨١ ۝ ٢٨٢ ۝ ٢٨٣ ۝ ٢٨٤ ۝ ٢٨٥ ۝ ٢٨٦ ۝ ٢٨٧ ۝ ٢٨٨ ۝ ٢٨٩ ۝ ٢٩٠ ۝ ٢٩١ ۝ ٢٩٢ ۝ ٢٩٣ ۝ ٢٩٤ ۝ ٢٩٥ ۝ ٢٩٦ ۝ ٢٩٧ ۝ ٢٩٨ ۝ ٢٩٩ ۝ ٣٠٠ ۝ ٣٠١ ۝ ٣٠٢ ۝ ٣٠٣ ۝ ٣٠٤ ۝ ٣٠٥ ۝ ٣٠٦ ۝ ٣٠٧ ۝ ٣٠٨ ۝ ٣٠٩ ۝ ٣١٠ ۝ ٣١١ ۝ ٣١٢ ۝ ٣١٣ ۝ ٣١٤ ۝ ٣١٥ ۝ ٣١٦ ۝ ٣١٧ ۝ ٣١٨ ۝ ٣١٩ ۝ ٣٢٠ ۝ ٣٢١ ۝ ٣٢٢ ۝ ٣٢٣ ۝ ٣٢٤ ۝ ٣٢٥ ۝ ٣٢٦ ۝ ٣٢٧ ۝ ٣٢٨ ۝ ٣٢٩ ۝ ٣٣٠ ۝ ٣٣١ ۝ ٣٣٢ ۝ ٣٣٣ ۝ ٣٣٤ ۝ ٣٣٥ ۝ ٣٣٦ ۝ ٣٣٧ ۝ ٣٣٨ ۝ ٣٣٩ ۝ ٣٤٠ ۝ ٣٤١ ۝ ٣٤٢ ۝ ٣٤٣ ۝ ٣٤٤ ۝ ٣٤٥ ۝ ٣٤٦ ۝ ٣٤٧ ۝ ٣٤٨ ۝ ٣٤٩ ۝ ٣٥٠ ۝ ٣٥١ ۝ ٣٥٢ ۝ ٣٥٣ ۝ ٣٥٤ ۝ ٣٥٥ ۝ ٣٥٦ ۝ ٣٥٧ ۝ ٣٥٨ ۝ ٣٥٩ ۝ ٣٦٠ ۝ ٣٦١ ۝ ٣٦٢ ۝ ٣٦٣ ۝ ٣٦٤ ۝ ٣٦٥ ۝ ٣٦٦ ۝ ٣٦٧ ۝ ٣٦٨ ۝ ٣٦٩ ۝ ٣٧٠ ۝ ٣٧١ ۝ ٣٧٢ ۝ ٣٧٣ ۝ ٣٧٤ ۝ ٣٧٥ ۝ ٣٧٦ ۝ ٣٧٧ ۝ ٣٧٨ ۝ ٣٧٩ ۝ ٣٨٠ ۝ ٣٨١ ۝ ٣٨٢ ۝ ٣٨٣ ۝ ٣٨٤ ۝ ٣٨٥ ۝ ٣٨٦ ۝ ٣٨٧ ۝ ٣٨٨ ۝ ٣٨٩ ۝ ٣٩٠ ۝ ٣٩١ ۝ ٣٩٢ ۝ ٣٩٣ ۝ ٣٩٤ ۝ ٣٩٥ ۝ ٣٩٦ ۝ ٣٩٧ ۝ ٣٩٨ ۝ ٣٩٩ ۝ ٤٠٠ ۝ ٤٠١ ۝ ٤٠٢ ۝ ٤٠٣ ۝ ٤٠٤ ۝ ٤٠٥ ۝ ٤٠٦ ۝ ٤٠٧ ۝ ٤٠٨ ۝ ٤٠٩ ۝ ٤١٠ ۝ ٤١١ ۝ ٤١٢ ۝ ٤١٣ ۝ ٤١٤ ۝ ٤١٥ ۝ ٤١٦ ۝ ٤١٧ ۝ ٤١٨ ۝ ٤١٩ ۝ ٤٢٠ ۝ ٤٢١ ۝ ٤٢٢ ۝ ٤٢٣ ۝ ٤٢٤ ۝ ٤٢٥ ۝ ٤٢٦ ۝ ٤٢٧ ۝ ٤٢٨ ۝ ٤٢٩ ۝ ٤٣٠ ۝ ٤٣١ ۝ ٤٣٢ ۝ ٤٣٣ ۝ ٤٣٤ ۝ ٤٣٥ ۝ ٤٣٦ ۝ ٤٣٧ ۝ ٤٣٨ ۝ ٤٣٩ ۝ ٤٤٠ ۝ ٤٤١ ۝ ٤٤٢ ۝ ٤٤٣ ۝ ٤٤٤ ۝ ٤٤٥ ۝ ٤٤٦ ۝ ٤٤٧ ۝ ٤٤٨ ۝ ٤٤٩ ۝ ٤٥٠ ۝ ٤٥١ ۝ ٤٥٢ ۝ ٤٥٣ ۝ ٤٥٤ ۝ ٤٥٥ ۝ ٤٥٦ ۝ ٤٥٧ ۝ ٤٥٨ ۝ ٤٥٩ ۝ ٤٦٠ ۝ ٤٦١ ۝ ٤٦٢ ۝ ٤٦٣ ۝ ٤٦٤ ۝ ٤٦٥ ۝ ٤٦٦ ۝ ٤٦٧ ۝ ٤٦٨ ۝ ٤٦٩ ۝ ٤٧٠ ۝ ٤٧١ ۝ ٤٧٢ ۝ ٤٧٣ ۝ ٤٧٤ ۝ ٤٧٥ ۝ ٤٧٦ ۝ ٤٧٧ ۝ ٤٧٨ ۝ ٤٧٩ ۝ ٤٨٠ ۝ ٤٨١ ۝ ٤٨٢ ۝ ٤٨٣ ۝ ٤٨٤ ۝ ٤٨٥ ۝ ٤٨٦ ۝ ٤٨٧ ۝ ٤٨٨ ۝ ٤٨٩ ۝ ٤٩٠ ۝ ٤٩١ ۝ ٤٩٢ ۝ ٤٩٣ ۝ ٤٩٤ ۝ ٤٩٥ ۝ ٤٩٦ ۝ ٤٩٧ ۝ ٤٩٨ ۝ ٤٩٩ ۝ ٥٠٠ ۝ ٥٠١ ۝ ٥٠٢ ۝ ٥٠٣ ۝ ٥٠٤ ۝ ٥٠٥ ۝ ٥٠٦ ۝ ٥٠٧ ۝ ٥٠٨ ۝ ٥٠٩ ۝ ٥١٠ ۝ ٥١١ ۝ ٥١٢ ۝ ٥١٣ ۝ ٥١٤ ۝ ٥١٥ ۝ ٥١٦ ۝ ٥١٧ ۝ ٥١٨ ۝ ٥١٩ ۝ ٥٢٠ ۝ ٥٢١ ۝ ٥٢٢ ۝ ٥٢٣ ۝ ٥٢٤ ۝ ٥٢٥ ۝ ٥٢٦ ۝ ٥٢٧ ۝ ٥٢٨ ۝ ٥٢٩ ۝ ٥٣٠ ۝ ٥٣١ ۝ ٥٣٢ ۝ ٥٣٣ ۝ ٥٣٤ ۝ ٥٣٥ ۝ ٥٣٦ ۝ ٥٣٧ ۝ ٥٣٨ ۝ ٥٣٩ ۝ ٥٤٠ ۝ ٥٤١ ۝ ٥٤٢ ۝ ٥٤٣ ۝ ٥٤٤ ۝ ٥٤٥ ۝ ٥٤٦ ۝ ٥٤٧ ۝ ٥٤٨ ۝ ٥٤٩ ۝ ٥٥٠ ۝ ٥٥١ ۝ ٥٥٢ ۝ ٥٥٣ ۝ ٥٥٤ ۝ ٥٥٥ ۝ ٥٥٦ ۝ ٥٥٧ ۝ ٥٥٨ ۝ ٥٥٩ ۝ ٥٦٠ ۝ ٥٦١ ۝ ٥٦٢ ۝ ٥٦٣ ۝ ٥٦٤ ۝ ٥٦٥ ۝ ٥٦٦ ۝ ٥٦٧ ۝ ٥٦٨ ۝ ٥٦٩ ۝ ٥٧٠ ۝ ٥٧١ ۝ ٥٧٢ ۝ ٥٧٣ ۝ ٥٧٤ ۝ ٥٧٥ ۝ ٥٧٦ ۝ ٥٧٧ ۝ ٥٧٨ ۝ ٥٧٩ ۝ ٥٨٠ ۝ ٥٨١ ۝ ٥٨٢ ۝ ٥٨٣ ۝ ٥٨٤ ۝ ٥٨٥ ۝ ٥٨٦ ۝ ٥٨٧ ۝ ٥٨٨ ۝ ٥٨٩ ۝ ٥٩٠ ۝ ٥٩١ ۝ ٥٩٢ ۝ ٥٩٣ ۝ ٥٩٤ ۝ ٥٩٥ ۝ ٥٩٦ ۝ ٥٩٧ ۝ ٥٩٨ ۝ ٥٩٩ ۝ ٦٠٠ ۝ ٦٠١ ۝ ٦٠٢ ۝ ٦٠٣ ۝ ٦٠٤ ۝ ٦٠٥ ۝ ٦٠٦ ۝ ٦٠٧ ۝ ٦٠٨ ۝ ٦٠٩ ۝ ٦١٠ ۝ ٦١١ ۝ ٦١٢ ۝ ٦١٣ ۝ ٦١٤ ۝ ٦١٥ ۝ ٦١٦ ۝ ٦١٧ ۝ ٦١٨ ۝ ٦١٩ ۝ ٦٢٠ ۝ ٦٢١ ۝ ٦٢٢ ۝ ٦٢٣ ۝ ٦٢٤ ۝ ٦٢٥ ۝ ٦٢٦ ۝ ٦٢٧ ۝ ٦٢٨ ۝ ٦٢٩ ۝ ٦٣٠ ۝ ٦٣١ ۝ ٦٣٢ ۝ ٦٣٣ ۝ ٦٣٤ ۝ ٦٣٥ ۝ ٦٣٦ ۝ ٦٣٧ ۝ ٦٣٨ ۝ ٦٣٩ ۝ ٦٤٠ ۝ ٦٤١ ۝ ٦٤٢ ۝ ٦٤٣ ۝ ٦٤٤ ۝ ٦٤٥ ۝ ٦٤٦ ۝ ٦٤٧ ۝ ٦٤٨ ۝ ٦٤٩ ۝ ٦٥٠ ۝ ٦٥١ ۝ ٦٥٢ ۝ ٦٥٣ ۝ ٦٥٤ ۝ ٦٥٥ ۝ ٦٥٦ ۝ ٦٥٧ ۝ ٦٥٨ ۝ ٦٥٩ ۝ ٦٦٠ ۝ ٦٦١ ۝ ٦٦٢ ۝ ٦٦٣ ۝ ٦٦٤ ۝ ٦٦٥ ۝ ٦٦٦ ۝ ٦٦٧ ۝ ٦٦٨ ۝ ٦٦٩ ۝ ٦٧٠ ۝ ٦٧١ ۝ ٦٧٢ ۝ ٦٧٣ ۝ ٦٧٤ ۝ ٦٧٥ ۝ ٦٧٦ ۝ ٦٧٧ ۝ ٦٧٨ ۝ ٦٧٩ ۝ ٦٨٠ ۝ ٦٨١ ۝ ٦٨٢ ۝ ٦٨٣ ۝ ٦٨٤ ۝ ٦٨٥ ۝ ٦٨٦ ۝ ٦٨٧ ۝ ٦٨٨ ۝ ٦٨٩ ۝ ٦٩٠ ۝ ٦٩١ ۝ ٦٩٢ ۝ ٦٩٣ ۝ ٦٩٤ ۝ ٦٩٥ ۝ ٦٩٦ ۝ ٦٩٧ ۝ ٦٩٨ ۝ ٦٩٩ ۝ ٧٠٠ ۝ ٧٠١ ۝ ٧٠٢ ۝ ٧٠٣ ۝ ٧٠٤ ۝ ٧٠٥ ۝ ٧٠٦ ۝ ٧٠٧ ۝ ٧٠٨ ۝ ٧٠٩ ۝ ٧١٠ ۝ ٧١١ ۝ ٧١٢ ۝ ٧١٣ ۝ ٧١٤ ۝ ٧١٥ ۝ ٧١٦ ۝ ٧١٧ ۝ ٧١٨ ۝ ٧١٩ ۝ ٧٢٠ ۝ ٧٢١ ۝ ٧٢٢ ۝ ٧٢٣ ۝ ٧٢٤ ۝ ٧٢٥ ۝ ٧٢٦ ۝ ٧٢٧ ۝ ٧٢٨ ۝ ٧٢٩ ۝ ٧٣٠ ۝ ٧٣١ ۝ ٧٣٢ ۝ ٧٣٣ ۝ ٧٣٤ ۝ ٧٣٥ ۝ ٧٣٦ ۝ ٧٣٧ ۝ ٧٣٨ ۝ ٧٣٩ ۝ ٧٤٠ ۝ ٧٤١ ۝ ٧٤٢ ۝ ٧٤٣ ۝ ٧٤٤ ۝ ٧٤٥ ۝ ٧٤٦ ۝ ٧٤٧ ۝ ٧٤٨ ۝ ٧٤٩ ۝ ٧٥٠ ۝ ٧٥١ ۝ ٧٥٢ ۝ ٧٥٣ ۝ ٧٥٤ ۝ ٧٥٥ ۝ ٧٥٦ ۝ ٧٥٧ ۝ ٧٥٨ ۝ ٧٥٩ ۝ ٧٦٠ ۝ ٧٦١ ۝ ٧٦٢ ۝ ٧٦٣ ۝ ٧٦٤ ۝ ٧٦٥ ۝ ٧٦٦ ۝ ٧٦٧ ۝ ٧٦٨ ۝ ٧٦٩ ۝ ٧٧٠ ۝ ٧٧١ ۝ ٧٧٢ ۝ ٧٧٣ ۝ ٧٧٤ ۝ ٧٧٥ ۝ ٧٧٦ ۝ ٧٧٧ ۝ ٧٧٨ ۝ ٧٧٩ ۝ ٧٨٠ ۝ ٧٨١ ۝ ٧٨٢ ۝ ٧٨٣ ۝ ٧٨٤ ۝ ٧٨٥ ۝ ٧٨٦ ۝ ٧٨٧ ۝ ٧٨٨ ۝ ٧٨٩ ۝ ٧٩٠ ۝ ٧٩١ ۝ ٧٩٢ ۝ ٧٩٣ ۝ ٧٩٤ ۝ ٧٩٥ ۝ ٧٩٦ ۝ ٧٩٧ ۝ ٧٩٨ ۝ ٧٩٩ ۝ ٨٠٠ ۝ ٨٠١ ۝ ٨٠٢ ۝ ٨٠٣ ۝ ٨٠٤ ۝ ٨٠٥ ۝ ٨٠٦ ۝ ٨٠٧ ۝ ٨٠٨ ۝ ٨٠٩ ۝ ٨١٠ ۝ ٨١١ ۝ ٨١٢ ۝ ٨١٣ ۝ ٨١٤ ۝ ٨١٥ ۝ ٨١٦ ۝ ٨١٧ ۝ ٨١٨ ۝ ٨١٩ ۝ ٨٢٠ ۝ ٨٢١ ۝ ٨٢٢ ۝ ٨٢٣ ۝ ٨٢٤ ۝ ٨٢٥ ۝ ٨٢٦ ۝ ٨٢٧ ۝ ٨٢٨ ۝ ٨٢٩ ۝ ٨٣٠ ۝ ٨٣١ ۝ ٨٣٢ ۝ ٨٣٣ ۝ ٨٣٤ ۝ ٨٣٥ ۝ ٨٣٦ ۝ ٨٣٧ ۝ ٨٣٨ ۝ ٨٣٩ ۝ ٨٤٠ ۝ ٨٤١ ۝ ٨٤٢ ۝ ٨٤٣ ۝ ٨٤٤ ۝ ٨٤٥ ۝ ٨٤٦ ۝ ٨٤٧ ۝ ٨٤٨ ۝ ٨٤٩ ۝ ٨٥٠ ۝ ٨٥١ ۝ ٨٥٢ ۝ ٨٥٣ ۝ ٨٥٤ ۝ ٨٥٥ ۝ ٨٥٦ ۝ ٨٥٧ ۝ ٨٥٨ ۝ ٨٥٩ ۝ ٨٦٠ ۝ ٨٦١ ۝ ٨٦٢ ۝ ٨٦٣ ۝ ٨٦٤ ۝ ٨٦٥ ۝ ٨٦٦ ۝ ٨٦٧ ۝ ٨٦٨ ۝ ٨٦٩ ۝ ٨٧٠ ۝ ٨٧١ ۝ ٨٧٢ ۝ ٨٧٣ ۝ ٨٧٤ ۝ ٨٧٥ ۝ ٨٧٦ ۝ ٨٧٧ ۝ ٨٧٨ ۝ ٨٧٩ ۝ ٨٨٠ ۝ ٨٨١ ۝ ٨٨٢ ۝ ٨٨٣ ۝ ٨٨٤ ۝ ٨٨٥ ۝ ٨٨٦ ۝ ٨٨٧ ۝ ٨٨٨ ۝ ٨٨٩ ۝ ٨٩٠ ۝ ٨٩١ ۝ ٨٩٢ ۝ ٨٩٣ ۝ ٨٩٤ ۝ ٨٩٥ ۝ ٨٩٦ ۝ ٨٩٧ ۝ ٨٩٨ ۝ ٨٩٩ ۝ ٩٠٠ ۝ ٩٠١ ۝ ٩٠٢ ۝ ٩٠٣ ۝ ٩٠٤ ۝ ٩٠٥ ۝ ٩٠٦ ۝ ٩٠٧ ۝ ٩٠٨ ۝ ٩٠٩ ۝ ٩١٠ ۝ ٩١١ ۝ ٩١٢ ۝ ٩١٣ ۝ ٩١٤ ۝ ٩١٥ ۝ ٩١٦ ۝ ٩١٧ ۝ ٩١٨ ۝ ٩١٩ ۝ ٩٢٠ ۝ ٩٢١ ۝ ٩٢٢ ۝ ٩٢٣ ۝ ٩٢٤ ۝ ٩٢٥ ۝ ٩٢٦ ۝ ٩٢٧ ۝ ٩٢٨ ۝ ٩٢٩ ۝ ٩٣٠ ۝ ٩٣١ ۝ ٩٣٢ ۝ ٩٣٣ ۝ ٩٣٤ ۝ ٩٣٥ ۝ ٩٣٦ ۝ ٩٣٧ ۝ ٩٣٨ ۝ ٩٣٩ ۝ ٩٤٠ ۝ ٩٤١ ۝ ٩٤٢ ۝ ٩٤٣ ۝ ٩٤٤ ۝ ٩٤٥ ۝ ٩٤٦ ۝ ٩٤٧ ۝ ٩٤٨ ۝ ٩٤٩ ۝ ٩٥٠ ۝ ٩٥١ ۝ ٩٥٢ ۝ ٩٥٣ ۝ ٩٥٤ ۝ ٩٥٥ ۝ ٩٥٦ ۝ ٩٥٧ ۝ ٩٥٨ ۝ ٩٥٩ ۝ ٩٦٠ ۝ ٩٦١ ۝ ٩٦٢ ۝ ٩٦٣ ۝ ٩٦٤ ۝ ٩٦٥ ۝ ٩٦٦ ۝ ٩٦٧ ۝ ٩٦٨ ۝ ٩٦٩ ۝ ٩٧٠ ۝ ٩٧١ ۝ ٩٧٢ ۝ ٩٧٣ ۝ ٩٧٤ ۝ ٩٧٥ ۝ ٩٧٦ ۝ ٩٧٧ ۝ ٩٧٨ ۝ ٩٧٩ ۝ ٩٨٠ ۝ ٩٨١ ۝ ٩٨٢ ۝ ٩٨٣ ۝ ٩٨٤ ۝ ٩٨٥ ۝ ٩٨٦ ۝ ٩٨٧ ۝ ٩٨٨ ۝ ٩٨٩ ۝ ٩٩٠ ۝ ٩٩١ ۝ ٩٩٢ ۝ ٩٩٣ ۝ ٩٩٤ ۝ ٩٩٥ ۝ ٩٩٦ ۝ ٩٩٧ ۝ ٩٩٨ ۝ ٩٩٩ ۝ ١٠٠٠ ۝ ١٠٠١ ۝ ١٠٠٢ ۝ ١٠٠٣ ۝ ١٠٠٤ ۝ ١٠٠٥ ۝ ١٠٠٦ ۝ ١٠٠٧ ۝ ١٠٠٨ ۝ ١٠٠٩ ۝ ١٠١٠ ۝ ١٠١١ ۝ ١٠١٢ ۝ ١٠١٣ ۝ ١٠١٤ ۝ ١٠١٥ ۝ ١٠١٦ ۝ ١٠١٧ ۝ ١٠١٨ ۝ ١٠١٩ ۝ ١٠٢٠ ۝ ١٠٢١ ۝ ١٠٢٢ ۝ ١٠٢٣ ۝ ١٠٢٤ ۝ ١٠٢٥ ۝ ١٠٢٦ ۝ ١٠٢٧ ۝ ١٠٢٨ ۝ ١٠٢٩ ۝ ١٠٣٠ ۝ ١٠٣١ ۝ ١٠٣٢ ۝ ١٠٣٣ ۝ ١٠٣٤ ۝ ١٠٣٥ ۝ ١٠٣٦ ۝ ١٠٣٧ ۝ ١٠٣٨ ۝ ١٠٣٩ ۝ ١٠٤٠ ۝ ١٠٤١ ۝ ١٠٤٢ ۝ ١٠٤٣ ۝ ١٠٤٤ ۝ ١٠٤٥ ۝ ١٠٤٦ ۝ ١٠٤٧ ۝ ١٠٤٨ ۝ ١٠٤٩ ۝ ١٠٥٠ ۝ ١٠٥١ ۝ ١٠٥٢ ۝ ١٠٥٣ ۝ ١٠٥٤ ۝ ١٠٥٥ ۝ ١٠٥٦ ۝ ١٠٥٧ ۝ ١٠٥٨ ۝ ١٠٥٩ ۝ ١٠٦٠ ۝ ١٠٦١ ۝ ١٠٦٢ ۝ ١٠٦٣ ۝ ١٠٦٤ ۝ ١٠٦٥ ۝ ١٠٦٦ ۝ ١٠٦٧ ۝ ١٠٦٨ ۝ ١٠٦٩ ۝ ١٠٧٠ ۝ ١٠٧١ ۝ ١٠٧٢ ۝ ١٠٧٣ ۝ ١٠٧٤ ۝ ١٠٧٥ ۝ ١٠٧٦ ۝ ١٠٧٧ ۝ ١٠٧٨ ۝ ١٠٧٩ ۝ ١٠٨٠ ۝ ١٠٨١ ۝ ١٠٨٢ ۝ ١٠٨٣ ۝ ١٠٨٤ ۝ ١٠٨٥ ۝ ١٠٨٦ ۝ ١٠٨٧ ۝ ١٠٨٨ ۝ ١٠٨٩ ۝ ١٠٩٠ ۝ ١٠٩١ ۝ ١٠٩٢ ۝ ١٠٩٣ ۝ ١٠٩٤ ۝ ١٠٩٥ ۝ ١٠٩٦ ۝ ١٠٩٧ ۝ ١٠٩٨ ۝ ١٠٩٩ ۝ ١١٠٠ ۝ ١١٠١ ۝ ١١٠٢ ۝ ١١٠٣ ۝ ١١٠٤ ۝ ١١٠٥ ۝ ١١٠٦ ۝ ١١٠٧ ۝ ١١٠٨ ۝ ١١٠٩ ۝ ١١١٠ ۝ ١١١١ ۝ ١١١٢ ۝ ١١١٣ ۝ ١١١٤ ۝ ١١١٥ ۝ ١١١٦ ۝ ١١١٧ ۝ ١١١٨ ۝ ١١١٩ ۝ ١١٢٠ ۝ ١١٢١ ۝ ١١٢٢ ۝ ١١٢٣ ۝ ١١٢٤ ۝ ١١٢٥ ۝ ١١٢٦ ۝ ١١٢٧ ۝ ١١٢٨ ۝ ١١٢٩ ۝ ١١٣٠ ۝ ١١٣١ ۝ ١١٣٢ ۝ ١١٣٣ ۝ ١١٣٤ ۝ ١١٣٥ ۝ ١١٣٦ ۝ ١١٣٧ ۝ ١١٣٨ ۝ ١١٣٩ ۝ ١١٤٠ ۝ ١١٤١ ۝ ١١٤٢ ۝ ١١٤٣ ۝ ١١٤٤ ۝ ١١٤٥ ۝ ١١٤٦ ۝ ١١٤٧ ۝ ١١٤٨ ۝ ١١٤٩ ۝ ١١٥٠ ۝ ١١٥١ ۝ ١١٥٢ ۝ ١١٥٣ ۝ ١١٥٤ ۝ ١١٥٥ ۝ ١١٥٦ ۝ ١١٥٧ ۝ ١١٥٨ ۝ ١١٥٩ ۝ ١١٦٠ ۝ ١١٦١ ۝ ١١٦٢ ۝ ١١٦٣ ۝ ١١٦٤ ۝ ١١٦٥ ۝ ١١٦٦ ۝ ١١٦٧ ۝ ١١٦٨ ۝ ١١٦٩ ۝ ١١٧٠ ۝ ١١٧١ ۝ ١١٧٢ ۝ ١١٧٣ ۝ ١١٧٤ ۝ ١١٧٥ ۝ ١١٧٦ ۝ ١١٧٧ ۝ ١١٧٨ ۝ ١١٧٩ ۝ ١١٨٠ ۝ ١١٨١ ۝ ١١٨٢ ۝ ١١٨٣ ۝ ١١٨٤ ۝ ١١٨٥ ۝ ١١٨٦ ۝ ١١٨٧ ۝ ١١٨٨ ۝ ١١٨٩ ۝ ١١٩٠ ۝ ١١٩١ ۝ ١١٩٢ ۝ ١١٩٣ ۝ ١١٩٤ ۝ ١١٩٥ ۝ ١١٩٦ ۝ ١١٩٧ ۝ ١١٩٨ ۝ ١١٩٩ ۝ ١٢٠٠ ۝ ١٢٠١ ۝ ١٢٠٢ ۝ ١٢٠٣ ۝ ١٢٠٤ ۝ ١٢

بِمَا إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيزٌ ﴿٣١﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٣٢﴾ وَتِلْكَ ءَادَا جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٣٣﴾ وَاتَّبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ ۖ أَلَا إِنَّ ءَادَا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ۖ أَلَا بُعْدًا لِّءَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٣٤﴾

وقال - تعالى - في سورة قد أفلح المؤمنون [٣١-٤٠] بعد قصة قوم نوح: ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا ۖ آخَرِينَ ﴾ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِإِيقَافِ الْآخِرَةِ ۖ وَاتَّرَقَتْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴾ ﴿٣٣﴾ وَلَئِن أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَسِرُونَ ﴾ ﴿٣٤﴾ أَيْعِدُكُمْ أَنُكُمُ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظْمًا أَنَّكُمْ تُخْرَجُونَ ﴾ ﴿٣٥﴾ * هِيَ هَاتِ هَاتِ لِمَا تُوعَدُونَ ﴾ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ أَنْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴾ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لِّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ ﴿٤١﴾

وقال - تعالى - في سورة الشعراء [١٢٣-١٤١] بعد قصة قوم نوح أيضاً: ﴿ كَذَّبَتْ ءَادُ الْمُرْسَلِينَ ﴾ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ هُودٌ ۖ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ۖ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٦﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٧﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٨﴾ وَإِذَا بَطِشْتُمْ بَطِشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٢٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ۖ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٠﴾ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣١﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٢﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٣﴾ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٤﴾ إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٥﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴿١٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ ۖ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٣٨﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾

وقال -تعالى- في سورة حم فصلت [١٥ و ١٦]: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَارْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِنَدْفِقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾﴾.

وقال -تعالى- في سورة الأحقاف [٢١-٢٥]: ﴿وَأَذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ النَّذِيرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَأْفِكَنَّ عَنْ إِلَهِنَا فَاتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا أَلِمْكُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَأَيْتُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُنْطَرِفٌ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تَدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

وقال -تعالى- في الذاريات [٤١-٤٢]: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْتَهُ كَالرِّيمِ ﴿٤٢﴾﴾.

وقال -تعالى- في النجم [٥٠-٥٥]: ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَنُوحًا ذَا الْفُلَيْنِ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ لُوطٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَابْنُ مَرْيَمَ إِذِ ابْتُلِيَ بِالْحَمِيمِ ﴿٥٣﴾ فَكَفَّاهُ اللَّهُ شُرَآئِلَ الَّذِينَ هُمْ أَكْثَرُ ﴿٥٤﴾ إِنَّ اللَّهَ لَخَبِيرٌ بِّمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

وقال -تعالى- في سورة اقترت [١٨-٢٢]: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي ﴿١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نَخْلٍ مُّنْقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّذَكِّرٍ ﴿٢٢﴾﴾.

وقال في الحاقة [٦-٨]: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأَهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾﴾.

وقال في سورة الفجر [١٤-٦]: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿١﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٢﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبَلَدِ ﴿٣﴾ وَثُمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخَرَ بِالْوَادِ ﴿٤﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿٥﴾ الَّذِينَ طَعَوْا فِي الْبَلَدِ ﴿٦﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفُسَادَ ﴿٧﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿٨﴾ إِنَّ رَبَّكَ لِبِالْمِرْصَادِ ﴿٩﴾ ۞

وقد تكلمنا على كل من هذه القصص في أماكنها من كتابنا «التفسير»، والله الحمد والمنة.

وقد جرى ذكر عاد في سورة براءة، وإبراهيم، والفرقان، والعنكبوت، وفي سورة ص، وفي سورة ق.

[عاد أول من عبد الأصنام بعد الطوفان]

ولنذكر مضمون القصة مجموعاً من هذه السياقات، مع ما يضاف إلى ذلك من الأخبار.

وقد قدمنا أنهم أول الأمم الذين عبدوا الأصنام بعد الطوفان، وذلك بين في قوله لهم: ﴿ أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَذِكْرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً ۚ [الأعراف: ٦٩]؛ أي: جعلهم أشد أهل زمانهم في الخلقة والشدة والبطش.

وقال في المؤمنون [٣١]: ﴿ ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٣١﴾ ۞، وهم قوم هود على الصحيح.

وزعم آخرون: أنهم ثمود؛ لقوله: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً ۚ [المؤمنون: ٤١]؛ قالوا: وقوم صالح هم الذين أهلكوا بالصيحة، ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۚ [الحاقة: ٦].

وهذا الذي قالوه لا يمنع من اجتماع الصيحة، والريح العاتية عليهم؛ كما سيأتي في قصة أهل مدين أصحاب الأيكة؛ فإنه اجتمع عليهم أنواع من العقوبات.

ثم لا خلاف أن عاداً قبل ثمود.

[هود - عليه السلام - ينذر قومه]

والمقصود: أن عاداً كانوا عرباً جفاة كافرين، عتاة متمردين في عبادة الأصنام؛ فأرسل الله فيهم رجلاً منهم يدعوهم إلى الله وإلى إفراذه بالعبادة والإخلاص له؛ فكذبوه وخالفوه وتنقصوه؛ فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر.

فلما أمرهم بعبادة الله، ورجبهم في طاعته واستغفاره، ووعدهم على ذلك خير الدنيا والآخرة، وتوعدهم على مخالفة ذلك عقوبة الدنيا والآخرة: ﴿ قَالَ أَمْلَأُ الدِّينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِي أَنَا لَنَرَنَّكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ [الأعراف: ٦٦]؛ أي: هذا الأمر الذي تدعوننا إليه سفه بالنسبة إلى ما نحن عليه من عبادة هذه الأصنام التي يرتجى منها النصر والرزق، ومع هذا نظن أنك تكذب في دعواك أن الله أرسلك.

﴿ قَالَ يَنْقُومُ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأعراف: ٦٧]؛ أي: ليس الأمر كما تظنون ولا تعتقدون. ﴿ أَبْلَغَكُمْ رَسُولٌ رَّبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾ [الأعراف: ٦٨]، والبلاغ يستلزم عدم الكذب في أصل المبلغ، وعدم الزيادة فيه والنقص منه، ويستلزم إبلاغه بعبارة فصيحة وجيزة جامعة مانعة لا لبس فيها ولا اختلاف ولا اضطراب.

وهو مع هذا البلاغ على هذه الصفة في غاية النصح لقومه، والشفقة عليهم، والحرص على هدايتهم، ولا يبتغي منهم أجراً ولا يطلب منهم جُعلاً، بل هو مخلص لله - عز وجل - في الدعوة إليه والنصح لخلق، لا يطلب أجره إلا من الذي أرسله؛ فإن خير الدنيا والآخرة كله في يديه وأمره إليه؛ ولهذا قال: ﴿ يَنْقُومُ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِن أُجِرَى إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [هود: ٥١]؛ أي: أما لكم عقل تميزون به وتفهمون أنني أدعوكم إلى الحق المبين، الذي تشهد به فطركم التي خلقتكم عليها، وهو دين الحق الذي بعث الله به نوحاً وأهلك من خالفه من الخلق، وها أنا أدعوكم إليه ولا أسألكم أجراً عليه، بل أبتغي ذلك عند الله مالك الضر والنفع؛ ولهذا قال مؤمن يس: ﴿ أَتَبْعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴾ [يس: ٢١] وَمَالِي لَّا أَعْبُدُ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ [يس: ٢٢].

وقال قوم هود له فيما قالوا: ﴿قَالُوا يَهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ ٥٣ ﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ ٥٤ [هود: ٥٣ و ٥٤]، يقولون: ما جئتنا بخارق يشهد لك بصدق ما جئت به، وما نحن بالذين نترك عبادة أصنامنا لمجرد قولك بلا دليل أقمته ولا برهان نصبت، وما نظن إلا أنك مجنون فيما تزعمه، وعندنا أنه إنما أصابك هذا لأن بعض آلهتنا غضب عليك؛ فأصابك في عقلك؛ فاعتراك جنون بسبب ذلك، وهو قولهم: ﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾.

﴿قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ ٥٥ ﴿مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونَ﴾ ٥٦ [هود: ٥٤ و ٥٥ و ٥٦].

وهذا تحد منه لهم، وتبوا من آلهتهم وتنقص منه لهم، وبيان أنها لا تنفع شيئاً ولا تضر، وأنها جهاد حكمها حكمه وفعلها فعله؛ فإن كانت كما تزعمون من أنها تنصر وتنفع وتضر؛ فما أنا بريء منها، لاعن لها؛ فكيدوني ثم لا تنظرون أنتم جميعاً بجميع ما يمكنكم أن تصلوا إليه وتقدروا عليه، ولا تؤخروني ساعة واحدة، ولا طرفة عين؛ فإني لا أبالي بكم، ولا أفكر فيكم، ولا أنظر إليكم.

﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ ٥٧ ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ ٥٨ [هود: ٥٦ و ٥٧ و ٥٨]، أي: أنا متوكل على الله، ومتأيد به، وواثق بجنابه الذي لا يضيع من لاذ به واستند إليه، فلست أبالي مخلوقاً سواه، ولست أتوكل إلا عليه، ولا أعبد إلا إياه.

وهذا وحده برهان قاطع على أن هوداً عبد الله ورسوله، وأنهم على جهل وضلال في عبادتهم غير الله؛ لأنهم لم يصلوا إليه بسوء، ولا نالوا منه مكروهاً؛ فدل على صدقه فيما جاءهم به، وبطلان ما هم عليه وفساد ما ذهبوا إليه.

وهذا الدليل بعينه قد استدل به نوح -عليه السلام- قبله في قوله: ﴿يَنْقُومُ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي بِثَايَتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ﴾ [يونس: ٧١].

وهكذا قال الخليل -عليه السلام-: ﴿ وَحَاجُّهُ قَوْمُهُ قَالِ اتَّخَذْتُ رَبِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ [٨٠-٨٣].
تَخَافُونَ أَنْكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿ ٨١ ﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿ ٨٢ ﴾ [الأنعام: ٨٠-٨٣].

﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنَ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِإِلْقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴾ [٨٣]. وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَسِرُونَ ﴿ ٨٤ ﴾ أَيْعِدُكُمْ أَنْكُمْ إِذَا مِتُمْ وَكُنْتُمْ تَرَابًا وَعِظْلًا أَنْكُمْ تُخْرَجُونَ ﴿ ٨٥ ﴾ [المؤمنون: ٣٣-٣٥].

استبعدوا أن يبعث الله رسولا بشريا وهذه الشبهة ادلى بها كثير من جهلة الكفرة قديما وحديثا؛ كما قال -تعالى-: ﴿ أَكُنَّا لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ ﴾ [يونس: ٢]؛ وقال -تعالى-: ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ﴾ [٢١]. قُلْ لَّوْ كَانَتْ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَّمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ﴿ ٢٢ ﴾ [الإسراء: ٩٤ و٩٥].

ولهذا قال لهم هود -عليه السلام-: ﴿ أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ﴾ [الأعراف: ٦٣]؛ أي: ليس هذا بعجيب؛ فلإن الله أعلم حيث يجعل رسالته.

وقوله: ﴿ أَيْعِدُكُمْ أَنْكُمْ إِذَا مِتُمْ وَكُنْتُمْ تَرَابًا وَعِظْلًا أَنْكُمْ تُخْرَجُونَ ﴾ ﴿ ٢٢ ﴾ هَيَّاتَ هَيَّاتَ لِمَا تُوْعَدُونَ ﴿ ٢٣ ﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿ ٢٤ ﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿ ٢٥ ﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿ ٢٦ ﴾ [المؤمنون: ٣٥-٣٩].
استبعدوا الميعاد وأنكروا قيام الأجساد بعد صيرورتها ترابا وعظاما، وقالوا: ﴿ هَيَّاتَ هَيَّاتَ ﴾؛ أي: بعيد بعيد هذا الوعد، ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ [٢٦]؛ أي: يموت قوم ويحيا آخرون.

وهذا هو اعتقاد الدهرية؛ كما يقول بعض الجهلة من الزنادقة: أرحام تدفع وأرض تبلع!

وأما الدورية؛ فهم الذين يعتقدون أنهم يعودون إلى هذا الدار بعد كل ستة وثلاثين ألف سنة.

وهذا كله كذب، وكفر، وجهل، وضلال، وأقوال باطلة، وخيال فاسد بلا برهان ولا دليل، يستميل عقل الفجرة الكفرة من بني آدم، الذين لا يعقلون ولا يهتدون؛ كما قال -تعالى-: ﴿ وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ ﴾ [الأنعام: ١١٣]، وقال لهم فيما وعظهم به: ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ۖ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ۚ ﴾ [الشعراء: ١٢٨ و١٢٩] يقول لهم: أتبنون بكل مكان مرتفع بناء عظيمًا هائلًا كالقصور ونحوها، تعبثون ببنائها لأنه لا حاجة لكم فيه، وما ذاك إلا لأنهم كانوا يسكنون الخيام؛ كما قال -تعالى-: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۖ إِرْمَ دَاثِ الْعِمَادِ ۖ آلَتِي لَمْ يَخْلَقْ مِثْلَهَا فِي الْعَالَمِ ۚ ﴾ [الفجر: ٦-٨]. فعاد إرم هم عاد الأولى الذين يسكنون الأعمدة التي تحمل الخيام.

ومن زعم أن إرم مدينة من ذهب وفضة وهي تتنقل في البلاد؛ فقد غلط وأخطأ، وقال ما لا دليل عليه.

وقوله: ﴿ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ ۚ ﴾ [الشعراء: ١٢٩]؛ قيل: هي القصور، وقيل: بروج الحمام، وقيل: مأخذ الماء. ﴿ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴾ [الشعراء: ١٢٩]، أي: رجاء منكم أن تعمروا في هذه الدار أعماراً طويلة. ﴿ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴾ [فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا] ﴿ وَأَتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الشعراء: ١٣٠-١٣٤].

وقالوا له مما قالوا: ﴿ قَالُوا أَجِئْنَا لِنُعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ [الأعراف: ٧٠] أي: أجئنا لنعبد الله وحده، ونخالف آبائنا وأسلافنا وما كانوا عليه ١٩ فإن كنت صادقاً فيما جئت به؛ فأتنا بما تعدنا من العذاب والنكال؛ فإننا لا نؤمن بك ولا نتبعك ولا نصدقك.

كما قالوا: ﴿ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ﴾ (١)
 إِنَّ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴾ (٢) وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴾ (٣) [الشعراء: ١٣٦-١٣٨]؛ أما
 على قراءة فتح (الخاء) (١)؛ فالمراد به اختلاق الأولين؛ أي: إن هذا الذي جثت به
 إلا اختلاق منك، أخذته من كتب الأولين، هكذا فسره غير واحد من الصحابة
 والتابعين. وأما على قراءة ضم (الخاء واللام)؛ فالمراد به الدين؛ أي: إن هذا
 الدين الذي نحن عليه إلا دين الأولين الآباء والأجداد من الأسلاف، ولن نتحول
 عنه ولا نتغير، ولا نزال متمسكين به. ويناسب كلا القراءتين الأولى والثانية قولهم:
 ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴾ (٤).

قال: ﴿ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رَجْسٌ وَعَظَبٌ أَتَجِدِلُونَنِي فِي
 أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانْتَظِرُوا إِنِّي
 مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٧١]؛ أي: قد استحققتهم بهذه المقالة الرجس
 والغضب من الله، أتعارضون عبادة الله وحده لا شريك له بعبادة أصنام تخضعونها
 وسميتموها آلهة من تلقاء أنفسكم اصطلحتم عليها أنتم وأباؤكم ﴿ مَا نَزَّلَ اللَّهُ
 بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ﴾؛ أي: لم ينزل على ما ذهبتم إليه دليلاً ولا برهاناً! وإذا أبيتم
 قبول الحق، وتماديتم في الباطل، وسواء عليكم أنهيتكم عما أنتم فيه أم لا؛
 فانظروا الآن عذاب الله الواقع بكم، وبأسه الذي لا يرد ونكاله الذي لا يصد.
 وقال -تعالى-: ﴿ قَالَ رَبِّ أَنْصُرْنِي بِمَا كَذَبْتَنِي ﴾ (٥) قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ
 لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ﴾ (٦) [المؤمنون: ٣٩-٤٠].

وقال -تعالى-: ﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَأْفِكَنَّ عَنْ إِلَهِتِنَا فَأَتَيْنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ
 كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ (٧) قَالَ إِنَّمَا أَلِمْكُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي
 أَرَأَيْتُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴾ (٨) فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا

(١) قرأ ابن كثير المكي، وأبو عمرو ويعقوب البصريان، والكسائي الكوفي، وأبو جعفر
 المدني: ﴿ خُلُقٌ ﴾ -بفتح الخاء وإسكان اللام-.

وقرأ الباقر بضم الخاء واللام.

انظر: «النشر في القراءات العشر» (٢/ ٣٣٥-٣٣٦).

عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تَذْمُرُ كُلُّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ [الأحقاف: ٢٤].

وقد ذكر الله - تعالى - خبر إهلاكهم في غير ما آية كما تقدم مجملًا ومفصلاً؛ كقولـه: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَّعْنَا دَايِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٧٢]، وكقولـه: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [٢٥] وَتِلْكَ ءَادَا جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٦﴾ وَاتَّبَعُوا فِي هَادِيَةِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ ءَلَا إِنَّ ءَادَا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ءَلَا بُعْدًا لِّعَادِ قَوْمِ هُودٍ ﴿٢٧﴾ [هود: ٥٨-٦٠]؛ وكقولـه: ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ عِثَاءً فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٤١]، وقولـه - تعالى -: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ [٢٨] وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٢٩﴾ [الشعراء: ١٣٩، ١٤٠].

[هلاك عاد ونزول نعمة الله بهم]

وأما تفصيل إهلاكهم؛ فكما قال - تعالى -: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأحقاف: ٢٤]؛ كان هذا أول ما ابتدأهم العذاب، أنهم كانوا محليين مُسْتَنِينَ^(١)؛ فطلبوا السقيا؛ فرأوا عارضاً في السماء وظنوه سقيا رحمة؛ فإذا هو سقيا عذاب؛ ولهذا قال - تعالى -: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ﴾ [الأحقاف: ٢٤]؛ أي: من وقوع العذاب، وهو قولهم: ﴿فَأَتَيْنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٢]، ومثلها في الأعراف.

(١) هم الذين أصابتهم السَّنة؛ أي: المحل والقحط.

عن الحارث البكري: قال: خرجت أشكو العلاء بن الحضرمي إلى رسول الله ﷺ فمررت بالربذة، فإذا عجوز من بني تميم منقطع بها، فقالت لي: يا عبد الله! إن لي إلى رسول الله ﷺ حاجة؛ فهل أنت مبلغني إليه؟ قال: فحملتها؛ فأتيت المدينة؛ فإذا المسجد غاص بأهله، وإذا راية سوداء تخفق، وإذا بلال متقلد السيف بين يدي رسول الله ﷺ؛ فقلت: ما شأن الناس؟ قالوا: يريد أن يبعث عمرو بن العاص وجهاً.
قال: فجلست.

قال: فدخل منزله -أو قال رحله- فاستأذنت عليه؛ فأذن لي؛ فدخلت؛ فسلمت؛ فقال: «هل كان بينكم وبين بني تميم شيء؟» فقلت: نعم، وكانت لنا الدبرة عليهم، ومررت بعجوز من بني تميم منقطع بها، فسألتني أن أحملها إليك، وهاهي بالباب. فأذن لها؛ فدخلت؛ فقلت: يا رسول الله! إن رأيت أن تجعل بيننا وبين بني تميم حاجزاً؛ فاجعل الدهناء؛ فإنها كانت لنا. قال: فحميت العجوز واستوفزت، وقالت: يا رسول الله! فإلى أين تضطر مضطرك؟ قال: قلت: إن مثلي ما قال الأول: مِغْزَى حَمَلْتُ حَتْفَهَا! حملت هذه الأمة ولا أشعر أنها كانت لي خصماً، أعوذ بالله ورسوله أن أكون كوافد عاد! قال: «هيه! وما وافد عاد؟». وهو أعلم بالحديث مني ولكن يستطعمه.

قلت: إن عاداً قحطوا، فبعثوا وافداً لهم يقال له: قَيْل، فمر بمعاوية بن بكر فأقام عنده شهراً يسقيه الخمر، وتغنيه جاريثان يقال لهما: الجرادتان، فلما مضى الشهر، خرج إلى جبال تهامة؛ فقال: اللهم! إنك تعلم أنني لم أجيء إلى مريض فأداويه، ولا إلى أسير فأفاديه، اللهم! اسق عاداً ما كنت تسقيه. فمرت به سحباب سود فنودي منها: اختر! فأوماً إلى سحابة منها سوداء، فنودي منها: خذها رماداً رمداً لا تبقى من عاد أحداً، قال: فما بلغني أنه بعث عليهم من الريح إلا كقدر ما يجري في خاتمي هذا من الريح حتى هلكوا.

قال أبو وائل: وصدق، وكانت المرأة والرجل إذا بعثوا وافدا لهم؛ قالوا: لا تكن كوافد عاد^(١).

وهكذا أورد هذا الحديث وهذه القصة عند تفسير هذه القصة غير واحد من المفسرين؛ كابن جرير وغيره.

[بين عاد الأولى والآخر]

وقد يكون هذا السياق لإهلاك عاد الآخرة:

فإن فيما ذكره ابن إسحاق وغيره ذكر لمكة، ولم تبني إلا بعد إبراهيم الخليل حين أسكن فيها هاجر وابنه إسماعيل، فنزلت جرهم عندهم؛ كما سيأتي، وعاد الأولى قبل الخليل.

وفيه ذكر معاوية بن بكر وشعره، وهو من الشعر المتأخر عن زمان عاد الأولى، ولا يشبه كلام المتقدمين.

وفيه أن في تلك السحابة شرر نار، وعاد الأولى إنما أهلكوا بريح صرصر، وقد قال ابن مسعود وابن عباس وغير واحد من أئمة التابعين: هي الباردة. والعاتية: الشديدة الهبوب.

﴿ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعِجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ [الحاقة: ٧]؛ أي: كوامل متابعات. ﴿ فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعِجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ [الحاقة: ٧]؛ شبههم بأعجاز

(١) صحيح - أخرجه أحمد (٤٨٢/٣)، والترمذي (٣٢٧٣ و ٣٢٧٤)، وابن ماجه (٢٨١٦)، والنسائي في « الكبرى » (٨٦٠٧/١٨١/٥)، وابن أبي شيبة (٣٣٥٩١/٥٣٧/٦)، وابن جرير الطبري في « جامع البيان » (٥٢٧/٥)، و « تاريخ الأمم والملوك » (١٣٣/١)، والطبراني في « المعجم الكبير » (٣٣٢٩-٣٣٢٥/٢٥٤/٣) من طريقين عن عاصم به. وهذا سند حسن؛ كما قال شيخنا - رحمه الله - في « الضعيفة » (٣٧٣/٣).

وذكر المزي في « تحفة الأشراف » (٤/٣) شاهدا له من حديث قيلة بنت مخزومة.

وبالجملة؛ فالحديث صحيح، والله أعلم.

النخل التي لا رؤوس لها، وذلك لأن الريح كانت تجيء إلى أحدهم؛ فتحمله فترفعه في الهواء، ثم تنكسه على أم رأسه فتشدخه فيبقى جثة بلا رأس؛ كما قال: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ۖ ﴾ [القمر: ١٩]؛ أي: في يوم نحس عليهم، مستمر عذابه عليهم، ﴿ تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنْقَعِرٍ ۖ ﴾ [القمر: ٢٠].

ومن قال: إن اليوم النحس المستمر يوم الأربعاء وتشاءم به لهذا الفهم؛ فقد أخطأ وخالف القرآن؛ فإنه قال في الآية الأخرى: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ ۖ ﴾ [فصلت: ١٦] ، ومعلوم أنها ثمانية أيام متتابعات؛ فلو كانت نحسات في أنفسها؛ لكانت جميع الأيام السبعة المندرجة فيها مشثومة، وهذا لا يقوله أحد، وإنما المراد ﴿ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ ۖ ﴾؛ أي: عليهم.

وقال -تعالى-: ﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ۖ ﴾ [الذاريات: ٤١]؛ أي: التي لا تنتج خيراً؛ فإن الريح المفردة لا تثير سحاباً ولا تُلْقِح شجراً، بل هي عقيم لا نتيجة خير لها؛ ولهذا قال: ﴿ مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَنتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْتَهُ كَالرِّيمِ ۖ ﴾ [الذاريات: ٤٢]؛ أي: كالشيء البالي الفاني الذي لا ينتفع به بالكلية.

وقد ثبت في «الصحيحين» من حديث ابن عباس، عن رسول الله ﷺ أنه قال: « نصرت بالصِّبَا، وأهلك عَادَ بالدُّبُورِ »^(١).

وأما قوله -تعالى-: ﴿ * وَأَذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۖ ﴾ [الأحقاف: ٢١]؛ فالظاهر أن عاداً هذه هي عاد الأولى؛ فإن سياقها شبيه بسياق قوم هود وهم الأول.

ويحتمل أن يكون المذكورون في هذه القصة هم عاداً الثانية، ويدل عليه ما ذكرنا وما سيأتي من الحديث عن عائشة -رضي الله عنها-.

(١) أخرجه البخاري (١٠٣٥)، ومسلم (٩٠٠).

وأما قوله: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ﴾ [الأحقاف: ٢٤]؛ فإن عاداً لما رأوا هذا العارض وهو الناشئ في الجو كالسحاب ظنوه سحاب مطر؛ فإذا هو سحاب عذاب، اعتقدوه رحمة، فإذا هو نقمة، رجوا فيه الخير؛ فنالوا منه غاية الشر. قال الله - تعالى -: ﴿ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ ﴾ [الأحقاف: ٢٤]؛ أي: من العذاب، ثم فسره بقوله: ﴿ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [الأحقاف: ٢٤] يحتمل أن ذلك العذاب هو ما أصابهم من الريح الصرصر، العاتية، الباردة، الشديدة الهبوب، التي استمرت عليهم سبع ليال بآيامها الثمانية فلم تبق منهم أحداً، بل تتبعهم حتى كانت تدخل عليهم كهوف الجبال والغيان فتلفهم وتخرجهم وتهلكهم، وتدمر عليهم البيوت المحكمة والقصور المشيدة؛ فكما منوا بشدتهم وبقوتهم وقالوا: مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً؟! سلط الله عليهم ما هو أشد منهم قوة، وأقدر عليهم، وهو الريح العقيم.

ويحتمل أن هذه الريح أثارت في آخر الأمر سحابة، ظن من بقي منهم أنها سحابة فيها رحمة بهم، وغيث لمن بقي منهم، فأرسلها الله عليهم شرراً وناراً؛ كما ذكره غير واحد. ويكون هذا كما أصاب أصحاب الظلة من أهل مدين، وجمع لهم بين الريح الباردة والعذاب بالنار، وهو أشد ما يكون من العذاب بالأشياء المختلفة المتضادة، مع الصيحة التي ذكرها في سورة قد أفلح المؤمنون. والله أعلم.

وظاهر الآية: أنهم رأوا عارضاً، والمفهوم منه لغة: السحاب؛ كما دل عليه حديث الحارث بن حسان البكري، إن جعلناه مفسراً لهذه القصة.

وأصرح منه في ذلك ما رواه مسلم في «صحيحه» عن عائشة - رضي الله عنها -؛ قالت: كان رسول الله ﷺ إذا عصفت الريح قال: «اللهم! إني أسألك خيراً وخيراً ما فيها وخيراً ما أرسلت به، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به».

قالت: وإذا تخيلت السماء؛ تغير لونه، وخرج ودخل، وأقبل وأدبر؛ فإذا أمطرت؛ سري عنه، فعرفت ذلك عائشة؛ فسألته؛ فقال: «لعله يا عائشة؛ كما قال

قوم عاد: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطَرٌ ﴾ [الأحقاف: ٢٤] ^(١).

طريق أخرى عن عائشة: أنها قالت: ما رأيت رسول الله ﷺ مستجمعا ضاحكا قط حتى أرى منه لهواته، إنما كان يبتسم. وقالت: كان إذا رأى غيما أو ريحا؛ عرف ذلك في وجهه، قالت: يا رسول الله! إن الناس إذا رأوا الغيم؛ فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر، وأراك إذا رأيته؛ عرف في وجهك الكراهية؛ فقال: «يا عائشة! ما يؤمنني أن يكون فيه عذاب؟! قد عذب قوم ^(٢) بالريح، وقد رأى قوم العذاب؛ فقالوا: هذا عارض ممطرنا» ^(٣).

فهذا الحديث كالصریح في تغاير القصتين؛ كما أشرنا إليه أولا؛ فعلى هذا تكون القصة المذكورة في سورة الأحقاف خبرا عن قوم عاد الثانية، وتكون بقية السياقات في القرآن خبرا عن عاد الأولى، والله أعلم بالصواب.

(١) صحيح- أخرجه مسلم (٨٩٩/١٥)، والترمذي (٣٢٥٧)، وابن ماجه (٣٨٩١)، والنسائي في «الكبرى» (٦/رقم ١٠٧٧٦ و١٠٧٧٧).

(٢) في بعض الأصول: «قوم نوح»، وهي مقحمة، والله أعلم.

(٣) صحيح- أخرجه أحمد (٦٦/٦)، والبخاري (٤٨٢٨ و٤٨٢٩)، ومسلم (٨٩٩/١٤ و١٦).

قصة صالح - عليه السلام -

نبي ثمود

[قبيلة ثمود]

وهم قبيلة مشهورة، يقال لهم: ثمود باسم جدهم ثمود أخي جديس، وكانوا عرباً من العاربة، يسكنون الحجر الذي بين الحجاز وتبوك، وقد مر به رسول الله ﷺ وهو ذاهب إلى تبوك بمن معه من المسلمين، وكانوا بعد قوم عاد، وكانوا يعبدون الأصنام؛ كأولئك، فبعث الله فيهم رجلاً منهم، وهو عبد الله ورسوله: صالح؛ فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وأن يخلعوا الأصنام والأنداد ولا يشركوا به شيئاً؛ فأمنت به طائفة منهم، وكفر جمهورهم، ونالوا منه بالمقال والفعال، وهموا بقتله، وقتلوا الناقة التي جعلها الله حجة عليهم؛ فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر.

[قصة صالح - عليه السلام - في القرآن الكريم]

كما قال - تعالى - في سورة الأعراف [٧٣-٧٩]: ﴿وَالِئِنْ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَنْقُومِ آعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَدِيهِ نَاقَةَ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أََرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ ٧٣﴾ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا ءَالَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ٧٤﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضِعُوا لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَمْ صَالِحًا مَرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ٧٥﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي ءَامَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ٧٦﴾ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يُصْلِحْ أَتَيْنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَنِينَ ٧٨﴾ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَنْقُومِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّصِيحِينَ ٧٩﴾

وقال -تعالى- في سورة هود [٦١-٦٨]: ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ ثَابِرُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُوا يَصْلِحْ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَاقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَاقَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أََرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِئَرِهِمْ جَنِيحًا ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَعْنُوا فِيهَا آلَ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُمْ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾﴾.

وقال -تعالى- في سورة الحجر [٨٠-٨٤]: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾﴾.

وقال -تعالى- في سورة سبأ [٥٩]: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾﴾.

وقال -تعالى- في سورة الشعراء [١٤١-١٥٩]: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤٤﴾ أَتَتْرَكُونَ فِي مَا هَلَهْنَا أَمِينًا ﴿١٤٥﴾ فِي جَنَّتٍ وَعَيْونَ ﴿١٤٦﴾ وَزُرُوعَ وَنَخْلَ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٧﴾ وَتَنجِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَرِهِينَ ﴿١٤٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٤٩﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٠﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥١﴾ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٥٢﴾ قَالَ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ

مَعْلُومٍ ﴿٥٦﴾ وَلَا تَمْسُوْهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ يَّوْمٍ عَظِيْمٍ ﴿٥٧﴾ فَعَقَرُوْهَا
فَأَصْبَحُوا نَدِيْمِيْنَ ﴿٥٨﴾ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ
مُؤْمِنِيْنَ ﴿٥٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيْزُ الرَّحِيْمُ ﴿٦٠﴾

وقال-تعالى- في سورة النمل [٤٥-٥٣]: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ
صَالِحًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴾ ﴿٥٦﴾ قَالَ يَنْقُومِ لِمَ
تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ
تُرْحَمُونَ ﴾ ﴿٥٧﴾ قَالُوا أَطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَّعَكَ قَالَ طَيَّرَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ
قَوْمٌ تُفْتِنُونَ ﴾ ﴿٥٨﴾ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ بَسْعَةٌ رَهْطٌ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا
يُصْلِحُونَ ﴾ ﴿٥٩﴾ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا
شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ ﴿٦٠﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا
يَشْعُرُونَ ﴾ ﴿٦١﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مُكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ
أَجْمَعِينَ ﴾ ﴿٦٢﴾ فَبَلَغَ بَيُّوْنَهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ
يَعْلَمُونَ ﴾ ﴿٦٣﴾ وَأَخْبَيْنَا آلَ دَاوُدَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ ﴿٦٤﴾

وقال-تعالى- في سورة حم السجدة [١٧و١٨]: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ
فَأَسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا
يَكْسِبُونَ ﴾ ﴿٦٥﴾ وَأَخْبَيْنَا آلَ دَاوُدَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ ﴿٦٦﴾

وقال -تعالى- في سورة اقترت [٢٣-٣٢]: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنَّدْرِ ﴿٦٧﴾
فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذَا لَفِئَ ضَلَّالٍ وَسُعْرٍ ﴿٦٨﴾ أَأُلْقَى الذِّكْرُ
عَلَيْهِ مِنَّا بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌّ ﴿٦٩﴾ سَيَعْلَمُونَ عَذَابًا مِّنَ الْكَذَّابِ الْأَشِرِّ ﴿٧٠﴾
إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَبِعْتَهُمْ وَأَصْطَبِرْ ﴿٧١﴾ وَنَبِّئُهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ
بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ ﴿٧٢﴾ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ ﴿٧٣﴾ فَكَيْفَ كَانَ
عَذَابِي وَنُذْرِي ﴿٧٤﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ
﴿٧٥﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدْكِرٍ ﴿٧٦﴾

وقال -تعالى-: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَيْهَا ﴿٧٧﴾ إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴿٧٨﴾
فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةُ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴿٧٩﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ
رَبُّهُم بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴿٨٠﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴿٨١﴾ ﴾ [الشمس: ١١-١٥].

[أهل الكتاب لا يعرفون خبر عاد و ثمود]

وكثيرا ما يقرن الله في كتابه بين ذكر عاد و ثمود؛ كما في سورة براءة، وإبراهيم، والفرقان، وسورة ص، وسورة ق، والنجم، والفجر.

ويقال: إن هاتين الأمتين لا يعرف خبرهما أهل الكتاب، وليس لهما ذكر في كتابهم التوراة، ولكن في القرآن ما يدل على أن موسى أخبر عنهما؛ كما قال - تعالى - في سورة إبراهيم [إبراهيم: ٩٨]: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ إِن تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَأَبَى اللَّهُ لَعْنَتِي حَمِيدٌ ۖ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبُوءُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ۖ ﴾.

الظاهر: أن هذا من تمام كلام موسى مع قومه، ولكن لما كانت هاتان الأمتان من العرب؛ لم يضبطوا خبرهما جيدا، ولا اعتنوا بحفظه، وإن كان خبرهما كان مشهورا في زمان موسى - عليه السلام -.

وقد تكلمنا على هذا كله في «التفسير» مستقصى، والله الحمد والمنة.

والمقصود - الآن - ذكر قصتهم وما كان من أمرهم، وكيف نجى الله نبيه صالحا - عليه السلام - ومن آمن به وكيف قطع دابر القوم الذين ظلموا بكفرهم وعتوهم ومخالفتهم رسولهم - عليه السلام -؟

[صالح يدعو قومه إلى توحيد الله وعبادته]

وقد قدمنا أنهم كانوا عربا، وكانوا بعد عاد، ولم يعتبروا بما كان من أمرهم؛ ولهذا قال لهم نبيهم - عليه السلام - : ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّن إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَدِيْمٌ نَّاَقَةُ اللَّهِ لَكُمْ ءَايَةٌ فَذُرُّوْهَا تَأْكُلْ فِيْ اَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوْهَا بِسُوْءٍ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ أَلِيْمٌ ۖ ﴾ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَنَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنۢ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا ءَالَآءَ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ۖ ﴾ [الأعراف: ٧٣-٧٤]؛ أي: إنما جعلكم خلفاء من بعدهم لتعتبروا بما كان من أمرهم،

وتعلموا بخلاف عملهم، وأباح لكم هذه الأرض تبثون في سهولها القصور ﴿وَتَنْجِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَرِهِينَ﴾ [الشعراء: ١٤٩]؛ أي: حاذقين في صنعتها وإتقانها وإحكامها؛ فقابلوا نعمة الله بالشكر والعمل الصالح والعبادة له وحده لا شريك له، وإياكم ومخالفته والعدول عن طاعته؛ فإن عاقبة ذلك وخيمة. ولهذا وعظهم بقوله: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَلُكْنَا آمِنِينَ﴾ [١٤٨-١٤٩]؛ أي: متراكم وعيون ﴿وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلَعُهَا هُضِيمٌ﴾ [الشعراء: ١٤٦-١٤٨]؛ أي: متراكم كثير حسن بهي ناضج ﴿وَتَنْجِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَرِهِينَ﴾ [١٤٩]؛ أي: متراكم وأطيعون ﴿وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ﴾ [١٥٢]؛ أي: الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون [الشعراء: ١٤٩-١٥٢].

وقال لهم - أيضا -: ﴿يَقُومِرَاعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنَ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾ [هود: ٦١]؛ أي: هو الذي خلقكم فأنشأكم من الأرض، وجعلكم عمارها؛ أي: أعطاكموها بما فيها من الزروع والثمار، فهو الخالق الرزاق، وهو الذي يستحق العبادة وحده لا ما سواه، ﴿فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ﴾ [هود: ٦١]؛ أي: أقبلوا عما أنتم فيه وأقبلوا على عبادته؛ فإنه يقبل ويتجاوز عنكم؛ ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾ [هود: ٦١].

﴿قَالُوا يَصْلِحْ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا﴾ [هود: ٦٢]؛ أي: قد كنا نرجو أن يكون عقلك كاملا قبل هذه المقالة، وهي دعاؤك إيانا إلى إفراد العبادة، وترك ما كنا نعبد من الأنداد والعدول عن دين الآباء والأجداد؛ ولهذا قالوا: ﴿أَتَنْهِنَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ [هود: ٦٢].

﴿قَالَ يَلْقَوْمِ اأَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَءَاتَنِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ [هود: ٦٣]؛ وهذا تطف منه لهم في العبارة، ولين الجانب، وحسن تأت في الدعوة لهم إلى الخير؛ أي: فما ظنكم إن كان الأمر كما أقول لكم وأدعوكم إليه؟! ماذا يكون عذرکم عند الله؟! وماذا يخلصكم من بين يديه وأنتم تطلبون مني أن أترك دعاءكم إلى طاعته؟! وأنا لا يمكنني هذا؛ لأنه واجب علي، ولو تركته؛ لما قدر

أحد منكم ولا من غيركم أن يجيرني منه ولا ينصرني؛ فإنا لا أزال أدعوكم إلى الله وحده لا شريك له، حتى يحكم الله بيني وبينكم.

وقالوا له -أيضا-: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٣] أي: من المسحورين؛ يعنون: مسحورا، لا تدري ما تقول في دعائك إيانا إلى إفراد العبادة لله وحده، وخلع ما سواه من الأنداد، وهذا القول عليه الجمهور، وهو أن المراد بالمسحورين: المسحورين. وقيل من ﴿الْمُسَحَّرِينَ﴾؛ أي: ممن له سحر -وهو الرثة-؛ كأنهم يقولون: إنما أنت بشر له سحر. والأول أظهر؛ بقولهم بعد هذا: ﴿مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [الشعراء: ١٥٤]، وقولهم: ﴿فَأَتِ بَنَاتٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٤]: سألوا منه أن يأتيهم بخارق يدل على صدق ما جاءهم به.

[معجزة صالح -عليه السلام-]

﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ۖ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٥٥-١٥٦]؛ كما قال: ﴿قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةٌ لِلَّهِ لَكُمْ ءَايَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أََرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ﴾ [الأعراف: ٧٣]؛ وقال -تعالى-: ﴿وَأَتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا﴾ [الإسراء: ٥٩].

وقد ذكر المفسرون: أن ثمود اجتمعوا يوما في ناديهم؛ فجاءهم رسول الله صالح؛ فدعاهم إلى الله، وذكرهم، وحذرهم، ووعظهم، وأمرهم؛ فقالوا له: إن أنت أخرجت لنا من هذه الصخرة -وأشاروا إلى صخرة هناك - ناقة، من صفتها كيت وكيت وذكرنا أوصافا سموها ونعتوها وتعتوا فيها، وأن تكون عشراء طويلة، من صفتها كذا وكذا؛ فقال لهم النبي صالح -عليه السلام-: أرايتم إن أجبثكم إلى ما سألتكم على الوجه الذي طلبتكم؛ أتؤمنون بما جئتكم به وتصدقوني فيما أرسلت به؟ قالوا: نعم. فأخذ عهودهم ومواثيقهم على ذلك.

ثم قام إلى مصلاه؛ فصلى الله عز وجل - ما قدر له، ثم دعا ربه عز وجل - أن يجيبهم إلى ما طلبوا، فأمر الله عز وجل - تلك الصخرة أن تنفطر عن ناقة عظيمة عشاء على الوجه المطلوب الذي طلبوا، وعلى الصفة التي نعتوا، فلما عاينوها كذلك؛ رأوا أمرا عظيما، ومنظرا هائلا، وقدرة باهرة، ودليلا قاطعا، وبرهانا ساطعا؛ فأمن كثير منهم، واستمر أكثرهم على كفرهم وضلالهم وعنادهم؛ ولهذا قال: ﴿ فَظَلَمُوا بِهَا ﴾ [الإسراء: ٥٩]؛ أي: جحدوا بها ولم يتبعوا الحق بسببها؛ أي: أكثرهم.

ولهذا قال لهم صالح عليه السلام -: ﴿ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ ﴾ [هود: ٦٤]: أضافها لله - سبحانه وتعالى - إضافة تشريف وتعظيم؛ كقوله: بيت الله وعبد الله ﴿ لَكُمْ آيَةٌ ﴾ [هود: ٦٤]؛ أي: دليلا على صدق ما جئتكم به. ﴿ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِى أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴾ [هود: ٦٤].

فاتفق الحال على أن تبقى هذه الناقة بين أظهرهم؛ ترعى حيث شاءت من أرضهم، وترد الماء يوما بعد يوم، وكانت إذا وردت الماء؛ تشرب ماء البئر يومها ذلك، فكانوا يرفعون حاجتهم من الماء في يومهم لغدهم، ويقال: إنهم كانوا يشربون من لبنها كفايتهم؛ ولهذا قال: ﴿ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [الشعراء: ١٥٥].

ولهذا قال - تعالى -: ﴿ إِنَّا مَرْسَلُوا النَّاقَةَ فِتْنَةً لَهُمْ ﴾ [القمر: ٢٧]؛ أي: اختبارا لهم؛ أيؤمنون بها أم يكفرون؟ والله أعلم بما يفعلون. - قال تعالى -: ﴿ فَأَرْتَقِبْهُمْ ﴾ [القمر: ٢٧]؛ أي: انتظر ما يكون من أمرهم. قال - تعالى -: ﴿ وَأَصْطَبِرْ ﴾ [القمر: ٢٧]: على أذاهم؛ فسيأتيك الخبر على جلية. ﴿ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ ﴾ [القمر: ٢٨].

[ثمود عقرت ناقة الله]

فلما طال عليهم هذا الحال؛ اجتمع ملوهم، واتفق رأيهم على أن يعقروا هذه الناقة؛ ليستريحوا منها، ويتوافر عليهم ماؤهم، وزين لهم الشيطان أعمالهم؛

قال الله -تعالى-: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يُصْلِحْ أَسْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الأعراف: ٧٧].

وكان الذي تولى قتلها منهم رئيسهم: قدار وكان أحمر أزرق أصهب وكان فعله ذلك باتفاق جميعهم؛ فلهذا نسب الفعل إليهم كلهم.

قال الله -تعالى-: ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ ﴿٧٨﴾﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي ﴿٧٩﴾﴾ [القمر: ٢٩ و ٣٠]؛ وقال -تعالى-: ﴿إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴿٨٠﴾﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴿٨١﴾﴾ [الشمس: ١٢ و ١٣]؛ أي: احذروها ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴿٨٢﴾﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴿٨٣﴾﴾ [الشمس: ١٤-١٥].

عن عبد الله بن زمعة؛ قال: خطب رسول الله ﷺ؛ فذكر الناقة، وذكر الذي عقرها؛ فقال: «﴿إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴿٨٠﴾﴾﴾ [الشمس: ١٢]: انبعث لها رجل عارم عزيز منيع في رهطه، مثل أبي زمعة^(١).

عارم؛ أي: شهم. عزيز؛ أي: رئيس. منيع؛ أي: مطاع في قومه.
عن عمار بن ياسر؛ قال: قال رسول الله ﷺ لعلي: «ألا أحدثك بأشقى الناس؟».

قال: بلى.

قال: «رجلان أحدهما أحيمر ثمود الذي عقر الناقة، والذي يضربك ياعلي على هذا - يعني: قرنه - حتى تبطل منه هذه - يعني: لحيته-»^(٢).

(١) أخرجه أحمد (١٧/٤)، والبخاري (٤٩٤٢)، ومسلم (٢٨٥٥).

(٢) صحيح - أخرجه أحمد (٢٦٣/٤)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (١٠/٣٤٣٨/٣٤٣٥٢)، والحاكم (٣/١٤٠).

وله شاهد من حديث علي عند أبي يعلى (٥٦٩)، والطبراني (١٧٣/١٠٦/١).

وآخر من حديث صهيب عند الطبراني (٧٣١١/٣٨/٨).

وهو صحيح بمجموع شواهد؛ كما في «الصحيحة» لشيخنا الإمام الألباني -رحمه الله- (١٧٤٣).

وقال -تعالی-: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَصْلِحُ أَثْنَتَا يَمَّا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ۷۷]؛ فجمعوا في كلامهم هذا بين كفر بليغ من وجوه:

منها: أنهم خالفوا الله ورسوله في ارتكابهم النهي الأكيد في عقر الناقة التي جعلها الله لهم آية.

ومنها: أنهم استعجلوا وقوع العذاب بهم؛ فاستحقوه من وجهين: أحدهما: الشرط عليهم في قوله: ﴿وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ [هود: ۶۴]، وفي آية: ﴿يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ۱۵۶]، وفي الأخرى ﴿أَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ۷۳]، والكل حق.

والثاني: استعجالهم على ذلك.

ومنها: أنهم كذبوا الرسول الذي قام الدليل القاطع على نبوته وصدقه، وهم يعلمون ذلك علماً جازماً، ولكن حملهم الكفر والضلال والعناد على استبعاد الحق ووقوع العذاب بهم.

[هلاك ثمود ونزول عذاب الله بساحتهم]

قال الله -تعالی-: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتُّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ [هود: ۶۵].

وذكروا أنهم لما عقروا الناقة؛ كان أول من سطا قدار بن سالف - لعنه الله -؛ فعرقها؛ فسقطت إلى الأرض، ثم ابتدروها بأسيا فهم يقطعونها؛ فلما عاين ذلك سبقها - وهو ولدها -؛ شرد عنهم، فعلا أعلى الجبل هناك، ورغا ثلاث مرات؛ فلهذا قال لهم صالح: ﴿تَمَتُّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾؛ أي: غير يومهم ذلك، فلم يصدقوه أيضاً في هذا الوعد الأكيد! بل لما أمسوا؛ هموا بقتله، وأرادوا - فيما يزعمون - أن يلحقوه بالناقة؛ ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾ [النمل: ۴۹]، أي: لنكبسه في داره مع أهله فلنقتله، ثم نجحدن قتله ولننكرن ذلك إن طلبنا أولياؤه بدمه؛ ولهذا قالوا: ﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ [النمل: ۴۹].

قال الله - تعالى -: ﴿ وَمَكْرُؤًا مَكَرًا وَمَكْرَنَا مَكَرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ فَأَنْظِرْ كَيْفَ كَانَ عَقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٣﴾ فَنِلْكَ بِيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٥﴾ [النمل: ٥٠-٥٣]: وذلك أن الله تعالى أرسل على أولئك النفر الذي قصدوا قتل صالح حجارة رخصتهم فاهلكهم سلفاً وتعجيلاً قبل قومهم.

وأصبحت ثمود يوم الخميس - وهو اليوم الأول من أيام النظرة - ووجوههم مصفرة؛ كما أنذرهم صالح - عليه السلام -، فلما أمسوا؛ نادوا بأجمعهم: ألا قد مضى يوم من الأجل! ثم أصبحوا في اليوم الثاني من أيام التاجيل - وهو يوم الجمعة - ووجوههم عمرة، فلما أمسوا؛ نادوا: ألا قد مضى يومان من الأجل! ثم أصبحوا في اليوم الثالث من أيام المتاع - وهو يوم السبت - ووجوههم مسودة، فلما أمسوا؛ نادوا: ألا قد مضى الأجل!.

فلما كانت صبيحة يوم الأحد؛ تحنطوا وتأهبوا وقعدوا ينتظرون ماذا يحل بهم من العذاب والنكال والنقمة، لا يدرون كيف يفعل بهم، ولا من أي جهة يأتيهم العذاب؟ فلما أشرقت الشمس؛ جاءتهم صبيحة من السماء من فوقهم، ورجفة من أسفل منهم؛ ففاضت الأرواح وزهقت النفوس، وسكنت الحركات، وخشعت الأصوات، وحقت الحقائق؛ ﴿ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَثَمِينَ ﴾ جثا لا أرواح فيها، ولا حراك بها^(١).

قالوا : ولم يبق منهم أحد.

قال الله - تعالى -: ﴿ كَانَ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا ﴾ [هود: ٦٨]؛ أي: لم يقيموا فيها في سعة ورزق وغناء. ﴿ أَلَا إِنَّ ثَمُودًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُود ﴾ [هود: ٦٨]؛ أي: نادى عليهم لسان القدر بهذا.

(١) ويدل على عمومته قوله تعالى: ﴿ تَمُتُّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ﴾ [هود: ٦٥]؛ لأن التمتع هو البقاء على قيد الحياة لا اللهو والسرور.

[خبر أبي رغال]

عن جابر؛ قال: لما مر رسول الله ﷺ بالحجر قال: «لا تسألوا الآيات؛ فقد سألها قوم صالح؛ فكانت - يعني: الناقة - ترد من هذا الفج وتصدر من هذا الفج، فعتوا عن أمر ربهم؛ فعقروها، وكانت تشرب ماءهم يوماً ويشربون لبنها يوماً؛ فعقروها؛ فأخذتهم صيحة أهد الله بها من تحت أديم السماء منهم؛ إلا رجلاً واحداً كان في حرم الله» قالوا: من هو يا رسول الله؟ قال: «هو أبو رغال، فلما خرج من الحرم؛ أصابه ما أصاب قومه»^(١).

عن إسماعيل بن أمية: أن النبي ﷺ مرَّ بقبر أبي رغال؛ فقال: «أتدرون من هذا؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. فقال: «هذا قبر أبي رغال، رجل من ثمود، كان في حرم الله؛ فمنعه حرم الله عذاب الله، فلما خرج أصابه ما أصاب قومه؛ فدفن هاهنا، ودفن معه غصن من ذهب؛ فنزل القوم فابتدروه بأسيا ففهم؛ فبحثوا عنه فاستخرجوا الغصن».

قال عبد الرزاق: قال معمر: قال الزهري: أبو رغال أبو ثقيف.

هذا مرسل من هذا الوجه.

وقد جاء من وجه آخر متصلاً؛ كما ذكره محمد بن إسحاق في «السيرة» عن إسماعيل بن أمية، عن بجير بن أبي بجير، قال: سمعت عبد الله بن عمرو يقول:

(١) صحيح - أخرجه عبد الرزاق في «التفسير» (١/٢/٢٣١-٢٣٢)، وأحمد (٣/٢٩٦/٥٥٥)، وابن جرير في «جامع البيان» (٨/١٦٢)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (٥/١٥١٦/٨٦٨٥ و٨٦٨٦)، والحاكم (٢/٣٢٠ و٣٤٠-٣٤١) من طريق أبي الزبير به. قلت: وقد صرح أبو الزبير بالتحديث عند الحاكم (٢/٥٦٧)، لكن لم يذكر فيه قصة أبي رغال.

ولها شاهد من حديث عبد الله بن عمرو: أخرجه أبو داود (٣٠٨٨)، والبيهقي (٤/١٥٦)، والمزي في «تهذيب الكمال» (٤/١١).

وإسناده ضعيف؛ لجهالة بجير بن أبي بجير؛ لكنه يعتبر به، وبذلك تثبت قصة أبي رغال. وانظر - لزماماً -: كتابي «صحيح الأذكار وضعيفه» (١/٤٤٠/٤٨٥).

سمعت رسول الله ﷺ حين خرجنا معه إلى الطائف، فمررنا بقبر؛ فقال: «إن هذا قبر أبي رغال، وهو أبو ثقيف، وكان من ثمود، وكان بهذا الحرم يدفع عنه، فلما خرج منه أصابته النقرة التي أصابت قومه بهذا المكان؛ فدفن فيه، وآية ذلك أنه دفن معه غصن من ذهب، وإن أنتم نبشتم عنه أصبتموه معه؛ فابتدره الناس؛ فاستخرجوا منه الغصن.

قال شيخنا الحافظ أبو الحجاج المزي - رحمه الله -: هذا حديث حسن عزيز. قلت: لكن في المرسل الذي قبله وفي حديث جابر أيضاً شاهد له، والله أعلم.

[هجرة صالح - عليه السلام - عن ديار العذاب]

وقوله - تعالى -: ﴿ فَتَوَلَّيْ عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمِ لَقَدْ أَتَلَعْتُمْ رَسُولَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّصِيحِينَ ﴾ [الأعراف: ٧٩]؛ إخبار عن صالح عليه السلام - أنه خاطب قومه بعد هلاكهم، وقد أخذ في الذهاب عن محلهم إلى غيرها؛ قائلاً لهم: ﴿ يَاقَوْمِ لَقَدْ أَتَلَعْتُمْ رَسُولَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ ﴾ [الأعراف: ٧٩]؛ أي: جهدت في هدايتكم بكل ما أمكنني، وحرصت على ذلك بقولي وفعلي ونبيي.

﴿ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّصِيحِينَ ﴾ [الأعراف: ٧٩]؛ أي: لم تكن سجايكم تقبل الحق ولا تريده؛ فلهذا صرتم إلى ما أنتم فيه من العذاب الأليم، المستمر بكم المتصل إلى الأبد، وليس لي فيكم حيلة ولا لي بالدفع عنكم يدان، والذي وجب علي من أداء الرسالة والنصح لكم قد فعلته وبذلته لكم، ولكن الله يفعل ما يريد. وهكذا خاطب النبي ﷺ أهل قليب بدر بعد ثلاث ليال؛ وقف عليهم وقد ركب راحلته وأمر بالرحيل من آخر الليل؛ فقال: «يا أهل القليب! هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً؟ فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقاً»^(١).

(١) أخرجه البخاري (٣٩٧٦)، ومسلم (٢٨٧٤) من حديث أنس - رضي الله عنه -.

ذکر مرور النبی ﷺ بوادی الحجر

من أرض ثمود عام تبوك

عن ابن عمر؛ قال: لما نزل رسول الله ﷺ بالناس على تبوك؛ نزل بهم الحجر عند بيوت ثمود؛ فاستقى الناس من الآبار التي كانت تشرب منها ثمود؛ فعجنوا منها ونصبوا القدور، فأمرهم رسول الله؛ فأهرقوا القدور، وعلفوا العجين الإبل، ثم ارتحل بهم حتى نزل بهم على البئر التي كانت تشرب منها الناقة، ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عذبوا؛ فقال: «إني أخشى أن يصيبكم مثل ما أصابهم؛ فلا تدخلوا عليهم»^(۱).

وعنه قال: قال رسول الله ﷺ وهو بالحجر: «لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين؛ فإن لم تكونوا باكين، فلا تدخلوا عليهم؛ أن يصيبكم مثل ما أصابهم».

وفي بعض الروايات: «أنه -عليه السلام- لما مر بمنزلهم؛ قنع رأسه؛ وأسرع راحلته، ونهى عن دخول منازلهم؛ إلا أن يكونوا باكين».

وفي رواية: «فإن لم تبكوا؛ فتباكوا خشية أن يصيبكم مثل ما أصابهم».

عن محمد بن أبي كبشة الأنماري، عن أبيه -رضي الله عنه- قال: لما كان في غزوة تبوك؛ تسارع الناس إلى أهل الحجر يدخلون عليهم، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ؛ فنادى في الناس: «الصلاة جامعة». قال: فأتيت النبي ﷺ وهو ممسك بغيره وهو يقول: «ماتدخلون على قوم غضب الله عليهم»؛ فناداه رجل: نعجب منهم يا رسول الله؟ قال: «أفلا أنبئكم بأعجب من ذلك؟ رجل من أنفسكم ينبئكم بما

(۱) أخرجه أحمد (۲/ ۵۸، ۹ و ۶۶ و ۷۲ و ۷۴ و ۹۱ و ۹۶ و ۱۱۳ و ۱۱۷ و ۱۳۷)، والبخاري

(۱۳۳)، ومسلم (۲۹۸۰ و ۲۹۸۱).

كان قبلكم؛ فاستقيموا وسدودا؛ فإن الله لا يعاب بعبادكم شيئاً، وسيأتي قوم لا يدفعون عن أنفسهم شيئاً»^(١).

(١) حسن - أخرجه أحمد (٢٣١ / ٤)، والطبراني في «الكبير» (٢٢ / ٣٤٠ / ٨٥١ و ٨٥٢) بإسناد حسن بشواهده.
وقد حسنه المصنف - رحمه الله -، والهيتمي في «مجمع الزوائد» (١٠ / ٢٩٣).

قصة إبراهيم الخليل - عليه السلام -

[مولده ونسبه وهجرته]

هو إبراهيم بن تارح، مولده بأرض الكلدانيين - وهي أرض بابل وما والاها - هذا هو الصحيح المشهور عند أهل السير والتواريخ والأخبار وصح ذلك الحافظ ابن عساكر.

ثم ارتحلوا قاصدين أرض الكنعانيين - وهي بلاد بيت المقدس - فأقاموا بجران - وهي أرض الكلدانيين في ذلك الزمان، وكذلك أرض الجزيرة والشام - وكانوا يعبدون الكواكب السبعة.

والذين عمروا مدينة دمشق كانوا على هذا الدين؛ يستقبلون القطب الشمالي، ويعبدون الكواكب السبعة بأنواع من الفعال والمقال، ولهذا كان على كل باب من أبواب دمشق السبعة القديمة هيكل لكوكب منها، ويعملون لها أعياداً وقرابين.

وهكذا كان أهل حران يعبدون الكواكب والأصنام. وكل من كان على وجه الأرض كانوا كفاراً؛ سوى إبراهيم الخليل وامرأته وابن أخيه لوط - عليهم السلام -.

وكان الخليل - عليه السلام - هو الذي أزال الله به تلك الشرور وأبطل به ذاك الضلال؛ فإن الله - سبحانه وتعالى - آتاه رشده في صغره، وابتعثه رسولاً واتخذ خليلاً في كبره.

قال الله - تعالى -: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٥١]؛ أي: كان أهلاً لذلك.

وقال تعالى -: ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [١] إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [٢] وَإِن تَكْذِبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ [٣] أَوَلَمْ يَرَوْا

كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٠٤﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٥﴾ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحِمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿١٠٦﴾ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَكْفُرُونَ بِرَحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٨﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَنًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿١١٠﴾ * فَكَأَمِنْ لَهُمْ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَءَاتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٢﴾ ﴿العنكبوت: ١٦-٢٧﴾.

[دعوة الخليل ﷺ لأبيه]

ثم ذكر -تعالى- مناظرته لأبيه وقومه؛ كما سنذكره إن شاء الله -تعالى-.

وكان أول دعوته لأبيه - وكان أبوه ممن يعبد الأصنام -؛ لأنه أحق الناس بإخلاص النصيحة له؛ كما قال -تعالى-: ﴿ وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴾ ﴿١١٣﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَتَابَت لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴿١١٤﴾ يَتَابَت إِلَيَّ قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿١١٥﴾ يَتَابَت لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴿١١٦﴾ يَتَابَت إِلَيَّ أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿١١٧﴾ ﴿ قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ إِلَهِي يَتَابَرِهِيْمُ لَيْنَ لَمْ تَنْتَه لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴾ ﴿١١٨﴾ قَالَ سَلِّمْ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿١١٩﴾ وَأَعْتَرَلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿١٢٠﴾ ﴿ (مرم: ٤١-٤٨).]

فذكر - تعالى - ما كان بينه وبين أبيه من المحاورة والمجادلة، وكيف دعا أباه إلى الحق بالطف عبارة وأحسن إشارة؛ بين له بطلان ما هو عليه من عبادة الأوثان التي لا تسمع دعاء عابدها، ولا تبصر مكانه؛ فكيف تغني عنه شيئاً أو تفعل به خيراً من رزق أو نصر؟! ثم قال له منبها على ما أعطاه الله من الهدى والعلم النافع، وإن كان أصغر سناً من أبيه: ﴿يَتَأْتِيَ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾ [مرم: ٤٣]؛ أي: مستقيماً واضحاً سهلاً حنيفاً يفضي بك إلى الخير في دنياك وآخرتك.

فلما عرض هذا الرشده عليه، وأهدى هذه النصيحة إليه؛ لم يقبلها منه، ولا أخذها عنه، بل تهدده وتوعده؛ قال: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ﴾؛ قيل: بالمقال، وقيل: بالفعال. ﴿وَأَهْجَرْنِي مَلِئًا﴾؛ أي: واقطعني وأطل هجراني.

فعندها قال له إبراهيم: ﴿سَلِّمْ عَلَيْكَ﴾؛ أي: لا يصلحك مني مكروه ولا ينالك مني أذى، بل أنت سالم من ناحيتي، وزاده خيراً؛ فقال: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾؛ قال ابن عباس وغيره: أي: لطيفاً؛ يعني: في أن هداني لعبادته والإخلاص له؛ ولهذا قال: ﴿وَأَعْتَرُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ [مريم: ٤٨].

[تبرؤ الخليل ﷺ من أبيه عدو الله]

وقد استغفر له إبراهيم - عليه السلام - كما وعده في ادعيته، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه؛ كما قال - تعالى - : ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤].

عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «يلقى إبراهيم أباه أزر يوم القيامة وعلى وجه أزر فترة وغبرة، فيقول له إبراهيم: ألم أقل لك لا تعصني؟! فيقول له أبوه: فاليوم لا أعصيك! فيقول إبراهيم: يا رب! إنك وعدتني ألا تخزيني يوم يبعثون؛ فأني خزي أخزى من أبي الأبعد؟ فيقول الله: إني حرمت الجنة على الكافرين. ثم

يقال: يا إبراهيم! ما تحت رجلك؟ فينظر؛ فإذا هو بذيخ^(١) متلطح^(٢)، فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار^(٣).

[ذكر الخلاف في اسم أبي إبراهيم - عليه السلام -]

وقال - تعالى -: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ اتَّخِذْ أُصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّي أَرَانِكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام: ٧٤]؛ هذا يدل على أن اسم أبي إبراهيم آزر، وجمهور أهل النسب - منهم ابن عباس - على أن اسم أبيه تارح، وأهل الكتاب يقولون: تارخ بالخاء المعجمة؛ فقيل: إنه لقب بصنم كان يعبد اسميه آزر.

وقال ابن جرير^(٤): والصواب: أن اسمه آزر^(٥)، ولعل له اسمان علمان، أو أحدهما لقب والآخر علم. وهذا الذي قاله محتمل، والله أعلم.

[مناظرة الخليل لعباد الكواكب]

ثم قال - تعالى -: ﴿ وَكَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥٨]؛ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أَحِبُّ الْآفِلِينَ [البقرة: ٢٥٩]؛ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْنَ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ [البقرة: ٢٦٠]؛ فَلَمَّا

(١) ذكر الضباع ذو الشعر الكثيف.

(٢) متمرغ في التثنية.

(٣) أخرجه البخاري في « صحيحه » برقم (٣٣٥٠).

(٤) في « جامع البيان » (١٥٩/٧).

(٥) لقد صرح القرآن والسنة باسم أبي إبراهيم عليه السلام، فلماذا نترك ظاهرهما

الصريح إلى غيره؟

فما ذهب إليه شيخ المفسرين المحققين ابن جرير الطبري ومن وافقه هو الحق بلا مثوية.

رَأَى الشَّمْسُ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَنْقُومُ إِنِّي
 بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلدِّينِ فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
 حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحْجِّجُونِي فِي اللَّهِ
 وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي
 كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا
 تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنْزَلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ
 الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا
 إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا ءَاتَيْنَاهَا
 إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾

[الأنعام: ٧٥-٨٣].

وهذا المقام مقام مناظرة لقومه، وبيان لهم أن هذه الأجرام المشاهدة من
 الكواكب النيرة لا تصلح للالوهية، ولا أن تعبد مع الله - عز وجل -؛ لأنها مخلوقة
 مربوبة مصنوعة مدبرة مسخرة، تطلع تارة وتأفل أخرى؛ فتغيب عن هذا العالم،
 والرب - تعالى - لا يغيب عنه شيء ولا تخفى عليه خافية، بل هو الدائم الباقي بلا
 زوال، لا إله إلا هو، ولا رب سواه.

فبين لهم أولاً عدم صلاحية الكوكب لذلك، قيل: هو الزهرة، ثم ترقى منها
 إلى القمر الذي هو أضوأ منها وأبهى من حسنها، ثم ترقى إلى الشمس التي هي
 أشد الأجرام المشاهدة^(١) ضياءً وسناءً وبهاءً، فبين أنها مسخرة مسيرة مقدره
 مربوبة؛ كما قال - تعالى -: ﴿ وَمِنْ ءَايَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا
 تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ
 تَعْبُدُونَ ﴾ [فصلت: ٣٧].

ولهذا قال: ﴿ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسُ بَازِغَةً ﴾ [الأنعام: ٧٨]؛ أي: طالعة. ﴿ قَالَ
 هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَنْقُومُ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴾

(١) هذا تقييد لطيف من الإمام ابن كثير - رحمه الله - يدل على أن هناك شمساً غير
 مرئية أشد ضياءً من شمسنا... أكانوا يعرفون ذلك أم هو المنهج العلمي الرصين؟.

إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٨﴾ [الأنعام: ٧٨-٧٩].

﴿ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ [الأنعام: ٨٠]؛ أي: لست أبالي هذه الآلهة التي تعبدونها من دون الله؛ فإنها لا تنفع شيئاً، ولا تسمع ولا تعقل، بل هي مربوبة مسخرة -كالكواكب ونحوها- أو مصنوعة منحوتة منجورة.

والظاهر: أن موعظته هذه في الكواكب لأهل حران؛ فإنهم كانوا يعبدونها، وهذا يرد قول من زعم أنه قال هذا حين خرج من السرب لما كان صغيراً؛ كما ذكره ابن إسحاق وغيره، وهو مستند إلى أخبار إسرائيلية لا يوثق بها، ولا سيما إذا خالفت الحق.

[تكسير الأصنام ومناظرته عبادها]

وأما أهل بابل؛ فكانوا يعبدون الأصنام، وهم الذين ناظرهم في عبادتهم وكسرها عليهم، وأهانها وبين بطلانها؛ كما قال -تعالى-: ﴿ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوِلُكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴾ [العنكبوت: ٢٥].

وقال في سورة الأنبياء [٥١-٧٠]: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُسُودَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَلِيمِينَ ﴾ [٥١] إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ الثَّمَانِيَةُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاقِبُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عِبَادِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جَذَآءًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بِثَالِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا فَأَتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوا ءَأَنتَ فَعَلْتَ

هَذَا بِإِلَهِنَا يَتَّبِعُهُمْ ۖ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ۖ فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ۖ ثُمَّ نَكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ۖ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۖ قَالَ لَوْ نَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۖ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ۖ قُلْنَا يَنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ ۖ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ۖ ﴿٦٩﴾

وقال في سورة الشعراء [٦٩-٨٣]: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ۖ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ۖ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَّلُهَا عَنكَفِينَ ۖ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ۖ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ۖ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ۖ قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ۖ أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ۖ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ۖ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ۖ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۖ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ۖ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ۖ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ۖ﴾

وقال في سورة الصافات [٨٣-٩٨]: ﴿وَإِذْ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ ۖ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۖ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ۖ أَفَبِكُلِّ عَالِمَةٍ دُونِ اللَّهِ تُرِيدُونَ ۖ فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۖ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ ۖ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ۖ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ۖ فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ۖ مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ ۖ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ۖ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُونَ ۖ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ۖ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ۖ قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ ۖ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ۖ﴾

يخبر الله - تعالى - عن إبراهيم خليله - عليه السلام -، أنه أنكر على قومه عبادة الأوثان وحقرها عندهم وصغرها وتنقصها؛ فقال: ﴿مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾؛ أي: معتكفون عندها وخاضعون لها، قالوا: ﴿وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٣]؛ أي: ما كان حجتهم إلا صنيع الآباء

والأجداد، وما كانوا عليه من عبادة الأنداد، ﴿قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الأنبياء: ٥٤].

كَمَا قَالَ -تعالى-: ﴿إِذْ قَالَ لِأَيُّهَا وَقَوْمِي مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ ﴿٨٥﴾ أَيْفَكَ
 إِلَهَةٌ دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ [الصافات: ٨٥-٨٧]؛
 قال قتادة: فما ظنكم به أنه فاعل بكم إذا لقيتموه وقد عبدتم غيره ؟!

وقال لهم: ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ﴾ ﴿٧٦﴾ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٨﴾ [الشعراء: ٧٦-٧٨]؛ سلموا له أنها لا تسمع داعياً ولا تنفع ولا تضر شيئاً، وإنما الحامل لهم على عبادتها الاقتداء بأسلافهم ومن هو مثلهم في الضلال من الآباء الجاهل؛ ولهذا قال لهم: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ ﴿٧٩﴾ أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ ﴿٨٠﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٨١﴾ [الشعراء: ٧٥-٧٧].

وهذا برهان قاطع على بطلان إلهية ما ادعوه من الأصنام؛ لأنه تبرأ منها وتنقص بها؛ فلو كانت تضر؛ لضرته، أو تؤثر؛ لأثرت فيه.

﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِينَ ﴾ [الأنبياء: ٥٥]؛ يقولون:
 هذا الكلام الذي تقوله لنا ، وتنقص به ألهتنا، وتطعن بسببه في آبائنا؛ أتقوله حقاً
 جاداً فيه أم لاعباً؟

﴿ قَالَ بَلْ رُبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [الأنبياء: ٥٦]؛ يعني: بل أقول لكم ذلك جاداً حقاً، إنما إلهكم الله الذي لا إله إلا هو، ربكم ورب كل شيء، فاطر السماوات والأرض، الخالق لهما على غير مثال سبق؛ فهو المستحق للعبادة وحده لا شريك له، وأنا على ذلكم من الشاهدين.

وقوله: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ ﴿٥٧﴾
[الأنبياء: ٥٧]: أقسم ليكيدين هذه الأصنام التي يعبدونها بعد أن يولوا مدبرين إلى عيدهم.

وكان لهم عيد يذهبون إليه في كل عام مرة إلى ظاهر البلد، فدعاه أبوه ليحضره؛ فقال: إني سقيم؛ كما قال -تعالى-: ﴿فَنظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ﴾ (٨٩) فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٩٠﴾ [الصافات: ٨٨-٨٩]: عرض لهم في الكلام حتى توصل إلى

مقصوده من إهانة أصنامهم ونصرة دين الله الحق، وبطلان ما هم عليه من عبادة الأصنام التي تستحق أن تكسر وأن تهان غاية الإهانة.

فلما خرجوا إلى عيدهم، واستقر هو في بلدهم؛ ﴿فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهِتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ [الصافات: ٩١]؛ أي: ذهب إليها مسرعاً مستخفياً؛ فوجدوها في بهو عظيم، وقد وضعوا بين أيديها أنواعاً من الأطعمة قرباناً إليها؛ فقال لها على سبيل التهكم والإزدراء: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾ [الصافات: ٩١-٩٣]؛ لأنها أقوى وأبطش وأسرع وأقهر، فكسرها بقدم في يده؛ كما قال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهُ جُذَاءً﴾ [الأنبياء: ٥٨]؛ أي: حطاماً، كسرها كلها. ﴿إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٨] قيل: إنه وضع القدم في يد الكبير؛ إشارة إلى أنه غار أن تعبد معه هذه الصغار!

فلما رجعوا من عيدهم ووجدوا ما حل بعبودهم؛ ﴿قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٩].

وهذا فيه دليل ظاهر لهم لو كانوا يعقلون، وهو ما حل بالهتهم التي كانوا يعبدونها؛ فلو كانت آلهة لدفعت عن أنفسها من أرادها بسوء، لكنهم قالوا من جهلهم وقلة عقلهم وكثرة ضلالهم وخباهم: ﴿قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿[الأنبياء: ٥٩-٦٠]؛ أي: يذكرها بالعيب والتنقص لها والإزدراء بها؛ فهو المقيم عليها والكاسر لها. وعلى قول ابن مسعود؛ أي: يذكرها بقوله: ﴿وَتَأْتِيهِ الْكُودُ بَاطِنًا أَصْنَمَكُم بَعْدَ أَنْ تُولَدُوا مُدْبِرِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٧]. ﴿قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ [الأنبياء: ٦١]؛ أي: في الملأ الأكبر على رؤوس الأشهاد؛ لعلهم يشهدون مقالته، ويسمعون كلامه، ويعاينون ما يحل به من الاقتصاص منه.

وكان هذا أكبر مقاصد الخليل -عليه السلام- أن يجتمع الناس كلهم؛ فيقيم على جميع عباد الأصنام الحججة على بطلان ما هم عليه؛ كما قال موسى عليه السلام -لفرعون: ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُخَشِّرَ النَّاسُ ضُحًى﴾ [طه: ٥٩].

فلما اجتمعوا وجاءوا به كما ذكروا؛ ﴿قَالُوا ءَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمَ﴾ [٦٣-٦٢: الأنبياء]؛ قيل: معناه: هو الحامل لي على كائنوا ينطقون ﴿٦٣﴾ وإنما عرض لهم في القول ﴿فَسَلُّوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٣]: وإنما أراد بقوله هذا أن يبادروا إلى القول بأن هذه لا تنطق؛ فيعترفوا بأنها جماد كسائر الجمادات.

﴿فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٤]؛ أي: فعادوا على أنفسهم بالملامة؛ فقالوا: إنكم أنتم الظالمون؛ أي: في تركها لا حافظ لها ولا حارس عندها.

﴿ثُمَّ نَكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ﴾ [الأنبياء: ٦٥]؛ أي: ثم رجعوا إلى الفتنة، فعلى هذا يكون قوله: ﴿إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٤]؛ أي: في عبادتها. وقال قتادة: أدركت القوم حيرة سوء؛ أي: فاطرقوا، ثم قالوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٥]؛ أي: لقد علمت يا إبراهيم أن هذه لا تنطق، فكيف تأمرنا بسؤالها؟!

فعند ذلك قال لهم الخليل - عليه السلام -: ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾ [٦٦-٦٧: الأنبياء]؛ ﴿٦٦﴾ أَفِ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [٦٧].

كما قال: ﴿فَأَقْبِلُوا إِلَيْهِ يَرْقُونَ﴾ [الصفات: ٩٤]؛ قال مجاهد: يسرعون. ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ [الصفات: ٩٥]؛ أي: كيف تعبدون أصناماً أنتم تنحتونها من الخشب والحجارة، وتصورونها وتشكلونها كما تريدون؟! ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصفات: ٩٦]: وسواء كانت: «ما» مصدرية أو بمعنى الذي؛ فمقتضى الكلام أنكم مخلوقون، وهذه الأصنام مخلوقة؛ فكيف يتعبد مخلوق لمخلوق مثله؟! فإنه ليس عبادتكم لها بأولى من عبادتها لكم، وهذا باطل؛ فالآخر باطل للتحكم؛ إذ ليست العبادة تصلح ولا تجب إلا للخالق وحده لا شريك له.

[حادثة الإحراق ونجاة إبراهيم عليه السلام - من النار]

﴿ قَالُوا آتِنَا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ ﴾ [٧٠] فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴿٧١﴾ [الصافات: ٩٧-٩٨]: عدلوا عن الجدال والمناظرة لما انقطعوا وغلبوا، ولم تبق لهم حجة ولا شبهة إلى استعمال قوتهم وسلطانهم؛ لينصروا ما هم عليه من سفههم وطغيانهم، فكادهم الرب -جل جلاله-، وأعلى كلمته ودينه وبرهانه؛ كما قال تعالى: ﴿ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ [٧١] قُلْنَا يَنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٧٢﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٧٣﴾ [الأنبياء: ٦٨-٧٠].

وذلك أنهم شرعوا يجمعون حطباً من جميع ما يمكنهم من الأماكن، فمكثوا مدة يجمعون له، حتى إن المرأة منهم كانت إذا مرضت؛ تنذر؛ لئن عوفيت لتحملن حطباً لحريق إبراهيم! ثم عمدوا إلى جوبة^(١) عظيمة؛ فوضعوا فيها ذلك الحطب؛ وأطلقوا فيه النار؛ فاضطربت وتأججت والتهبت وعلا لها شرر لم ير مثله قط. ثم وضعوا إبراهيم عليه السلام - في كفة منجنيق صنعه لهم رجل من الأكراد، وكان أول من صنع المنجنيق.

ثم أخذوا يقيدونه ويكتفونه وهو يقول: لا إله إلا أنت، سبحانك، رب العالمين، لك الحمد ولك الملك، لا شريك لك.

فلما وضع الخليل -عليه السلام- في كفة المنجنيق مقيداً مكتوفاً، ثم ألقوه منه إلى النار؛ قال: حسبنا الله ونعم الوكيل؛ كما روى البخاري^(٢) عن ابن عباس: أنه قال: حسبنا الله ونعم الوكيل؛ قالها إبراهيم حين ألقى في النار، وقالها محمد حين قيل له: ﴿ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ [٢١٧] فَأَنْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمَسَّهْمُ

(١) الساحة.

(٢) برقم (٤٥٦٣ و٤٥٦٤).

سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿٦٩﴾ [آل عمران: ١٧٣-١٧٤] الآية.

﴿ قُلْنَا يَنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾ [الأنبياء: ٦٩]؛ قال علي ابن أبي طالب: أي: لا تضريه.

وقال ابن عباس وأبو العالية: لولا أن الله قال: ﴿ وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾ [الأنبياء: ٦٩]؛ لأذى إبراهيم بردها.

فأرادوا أن ينتصروا؛ فخذلوا، وأرادوا أن يرتفعوا؛ فاتضعوا، وأرادوا أن يغلبوا؛ فغلبوا، قال الله -تعالى-: ﴿ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴾ [الأنبياء: ٧٠]، وفي الآية الأخرى: ﴿ الْأَسْفَلِينَ ﴾ [الصفات: ٩٨]؛ ففازوا بالخسارة والسفال؛ هذا في الدنيا، وأما في الآخرة؛ فإن نارهم لا تكون عليهم برداً ولا سلاماً، ولا يلقون فيها تحية ولا سلاماً، بل هي كما قال -تعالى-: ﴿ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ [الفرقان: ٦٦].

عن أم شريك: أن رسول الله ﷺ أمر بقتل الوزغ، وقال: «كان ينفخ على إبراهيم»^(١).

عن عائشة أخبرته: أن رسول الله ﷺ قال: «اقتلوا الوزغ؛ فإنه كان ينفخ النار على إبراهيم»^(٢). قال: فكانت عائشة تقتلن.

عن نافع: أن امرأة دخلت على عائشة؛ فإذا رمح منصوب؛ فقالت: ما هذا الرمح؟ فقالت: نقتل به الأوزاغ. ثم حدثت عن رسول الله ﷺ: «أن إبراهيم لما ألقي في النار؛ جعلت الدواب كلها تطفئ عنه؛ إلا الوزغ؛ فإنه جعل ينفخها عليه»^(٣).

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» برقم (٣٣٠٧ و ٣٣٥٩)، وأخرجه مسلم (٢٢٣٧)، والنسائي (٢٨٨٥)، وابن ماجه (٣٢٢٨).

(٢) في «المسند» (٢٠٠/٦).

(٣) في «المسند» (٢٠٠/٦).

عن سائبة مولاة الفاكه بن المغيرة؛ قالت: دخلت على عائشة؛ فرأيت في بيتها رجلاً موضوعاً، فقلت: يا أم المؤمنين! ما تصنعين بهذا الرمح؟ قالت: هذا لهذه الأوزاغ نقتلن به؛ فإن رسول الله ﷺ حدثنا: «أن إبراهيم حين ألقى في النار لم يكن في الأرض دابة إلا تطفى عنه النار؛ غير الوزغ؛ كان ينفخ عليه»؛ فأمرنا رسول الله ﷺ بقتله^(١).

(١) صحيح لغيره - أخرجه أحمد (١٠٩ و ٨٣/٦)، وابن أبي شيبة (١٩٨٩١)، وابن ماجه (٣٢٣١)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١٨٦/٦)، وابن حبان (٥٦٣١) بإسناد ضعيف؛ لأن سائبة مجهولة؛ لكن للحديث شواهد يرتقي بها إلى درجة الصحة، وانظر - لزماً -: «الصحيحة» (١٥٨١).

ذكر مناظرة إبراهيم الخليل مع من أراد أن ينازع الجليل

في إزار العظمة ورداء الكبرياء

فادعى الربوبية وهو أحد العبيد الضعفاء

قال الله -تعالى-: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

يذكر -تعالى- مناظرة خليله مع هذا الملك الجبار المتمرد الذي ادعى لنفسه الربوبية، فابطل الخليل عليه دليله، وبين كثرة جهله وقلة عقله، وأجمه الحججة، وأوضح له طريق المحجة.

قال المفسرون وغيرهم من علماء النسب والأخبار: وهذا الملك هو ملك بابل، واسمه النمرود: وكان أحد ملوك الدنيا؛ فإنه قد ملك الدنيا فيما ذكروا أربعة: مؤمنان وكافران؛ فالؤمنان: ذو القرنين، وسليمان. والكافران: النمرود وبختنصر.

وذكروا أن نمرود هذا استمر في ملكه، وكان طغى وبغى، وتجبر وعتا، وآثر الحياة الدنيا.

ولما دعاه إبراهيم الخليل إلى عبادة الله وحده لا شريك له؛ حمله الجهل والضلال وطول الآمال على إنكار الصانع؛ فحاج إبراهيم الخليل في ذلك، وادعى لنفسه الربوبية.

فلما قال الخليل: ﴿ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ قال: ﴿ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ﴾؛ قال قتادة والسدي ومحمد بن إسحاق: يعني: أنه إذا أتى بالرجلين قد تحتم قتلهما؛ فإذا أمر بقتل أحدهما وعفا عن الآخر؛ فكأنه قد أحيا هذا وأمات الآخر.

وهذا ليس بمعارضة للخليل، بل هو كلام خارج عن مقام المناظرة، ليس بمنع ولا بمعارضة، بل هو تشغيب محض، وهو انقطاع في الحقيقة؛ فإن الخليل

استدل على وجود الصانع بحدوث هذه المشاهدات من إحياء الحيوانات وموتها على وجود فاعل ذلك، الذي لا بد من استنادها إلى وجوده ضرورة عدم قيامها بنفسها، ولا بد من فاعل لهذه الحوادث المشاهدة؛ من خلقها وتسخيرها، وتسيير هذه الكواكب والرياح والسحاب والمطر، وخلق هذه الحيوانات التي توجد مشاهدة ثم إمامتها؛ ولهذا قال إبراهيم: ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾؛ فقول هذا الملك الجاهل: ﴿أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾: إن عنى أنه الفاعل لهذه المشاهدات؛ فقد كابر وعاند، وإن عنى ما ذكره قتادة والسدي ومحمد بن إسحاق؛ فلم يقل شيئاً يتعلق بكلام الخليل؛ إذ لم يمنع مقدمة، ولا عارض الدليل.

ولما كان انقطاع مناظرة هذا الملك قد تخفى على كثير من الناس ممن حضره وغيرهم؛ ذكر دليلاً آخر بين وجود الصانع وبطلان ما ادعاه النمرود وانقطاعه جهره: ﴿قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾؛ أي: هذه الشمس مسخرة، كل يوم تطلع من المشرق كما سخرها خالقها ومسيرها وقاهرها، وهو الله الذي لا إله إلا هو، خالق كل شيء، فإن كنت كما زعمت من أنك الذي تحي وتميت؛ فأنت بهذه الشمس من المغرب؛ فإن الذي يحي ويميت هو الذي يفعل ما يشاء ولا يمانع ولا يغالب، بل قد قهر كل شيء ودان له كل شيء؛ فإن كنت كما تزعم؛ فافعل هذا، فإن لم تفعله؛ فلست كما زعمت، وأنت تعلم وكل أحد أنك لا تقدر على شيء من هذا، بل أنت أعجز وأقل من أن تخلق بعوضة أو تنتصر منها؛ فبين ضلاله وجهله وكذبه فيما ادعاه، وبطلان ما سلكه وتبجح به عند جهلة قومه، ولم يبق له كلام يجيب الخليل به، بل انقطع وسكت؛ ولهذا قال: ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

**ذكر هجرة الخليل - عليه السلام - إلى بلاد الشام
ودخوله الديار المصرية واستقراره بالأرض المقدسة**

قال الله - تعالى -: ﴿ فَثَامَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ۝ ﴾ [العنكبوت: ٢٦-٢٧].

وقال - تعالى -: ﴿ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ۝ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَبِيدٌ ۝ ﴾ [الأنبياء: ٧١-٧٣].

لما هجر قومه في الله، وهاجر من بين أظهرهم، وكانت امرأته عاقراً لا يولد لها، ولم يكن له من الولد أحد، بل معه ابن أخيه لوط بن هاران بن آزر، وهبه الله - تعالى - بعد ذلك الأولاد الصالحين، وجعل في ذريته النبوة والكتاب؛ فكل نبي بعث بعده فهو من ذريته، وكل كتاب نزل من السماء على نبي من الأنبياء من بعده؛ فعلى أحد نسله وعقبه؛ خِلْعَةٌ من الله وكرامة له، حين ترك بلاده وأهله وأقرباءه، وهاجر إلى بلد يتمكن فيها من عبادة ربه - عز وجل - ودعوة الخلق إليه. والأرض التي قصدتها بالهجرة أرض الشام، وهي التي قال الله - عز وجل -: ﴿ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٧١]؛ قاله أبي بن كعب وأبو العالية وقتادة وغيرهم.

والمشهور: أن سارة ابنة عمه هاران الذي تنسب إليه حران، ومن زعم أنها ابنة أخيه هاران أخت لوط، كما حكاه السهيلي عن القتيبي والنقاش؛ فقد أبعد النجعة، وقال بلا علم، ومن ادعى أن تزويج بنت الأخ كان إذا كان مشروعاً؛ فليس له على ذلك دليل، ولو فرض أن هذا كان مشروعاً في وقت - كما هو منقول عن الربانيين من اليهود -؛ فإن الأنبياء لا تتعاطاه. والله أعلم.

[قصة الجبار الذي أراد سارة زوجة الخليل بسوء وعصمة الله لها منه]

عن أبي هريرة قال: لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات^(١): اثنتان منهن في ذات الله؛ قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصفات: ٨٩]، وقوله: ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ [الأنبياء: ٦٣]. وقال: بينا هو ذات يوم وسارة، إذ أتى جبار من الجبابرة؛ فقبل له: إن هاهنا رجلاً معه امرأة من أحسن الناس؛ فأرسل إليه وسأله عنها؛ فقال: من هذه؟ قال: أختي. فأتى سارة؛ فقال: يا سارة! ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك، وإن هذا سألني؛ فأخبرته أنك أختي؛ فلا تكذبيني! فأرسل إليها، فلما دخلت عليه؛ ذهب يتناولها بيده؛ فأخذ، فقال: ادعي الله لي ولا أضرك. فدعت الله؛ فأطلق، ثم تناولها الثانية؛ فأخذ مثلها أو أشد؛ فقال: ادعي الله لي ولا أضرك. فدعت؛ فأطلق. فدعا بعض حبيته؛ فقال: إنكم لم تأتونني بإنسان، وإنما أتيتموني بشيطان! فأخدمها هاجر. فأتته وهو قائم يصلي؛ فأوماً بيده: مهيم؟ فقالت: رد الله كيد الكافر - أو الفاجر - في نحره، وأخدم هاجر.

قال أبو هريرة: فتلك أمكم يا بني ماء السماء.

تفرد به من هذا الوجه موقوفاً^(٢).

وعنه، عن هشام بن حسان، عن محمد بن سيرين، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ؛ قال: «إن إبراهيم لم يكذب قط إلا ثلاث كذبات، كل ذلك في ذات الله؛ قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾، وقوله: ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾، وبينما هو يسير في أرض جبار من الجبابرة؛ إذ نزل منزلاً، فأتى الجبار، فقبل له: إنه قد نزل هاهنا رجل معه امرأة من أحسن الناس، فأرسل إليه، فسأله عنها؛ فقال: إنها أختي؛ فلما

(١) هي من باب المعارض، وذلك في حال خوف فطري وقع للخليل عليه السلام؛ فالضرورات تبيح المحظورات، والكذب إن كان قبيحاً غلاً لكنه قد يحسن في مواضع، وهذا منها.

وإنما ذلك بالكذب؛ لكونه بصورته غير السامع، وفي حقيقته غير ذلك.

(٢) أخرجه البخاري (٣٣٥٨).

وأخرجه - أيضاً - (٢٢١٧)، ومسلم (٢١٧١) مرفوعاً.

رجع إليها؛ قال: إن هذا سألني عنك؛ فقلت: إنك أختي وإنه ليس اليوم مسلم غيري وغيرك، وإنك أختي في الدين؛ فلا تكذبيني عنده! فانطلق بها، فلما ذهب يتناولها؛ أخذ، فقال: ادعي الله لي ولا أضرك! فدعت له؛ فأرسل، فذهب يتناولها؛ فأخذ مثلها أو أشد منها؛ فقال: ادعي الله لي ولا أضرك؛ فدعت؛ فأرسل؛ ثلاث مرات، فدعا أدنى حشمه، فقال: إنك لم تأتني بإنسان، ولكن أتيتني بشيطان، أخرجها وأعطها هاجر. فجاءت وإبراهيم قائم يصلي؛ فلما أحس بها؛ انصرف، فقال: مَهَيْمٌ؟ فقالت: كفى الله كيد الظالم وأخدمني هاجر. وأخرجاه من [غير]^(١) حديث هشام.

ثم قال البزار: لا نعلم أسنده عن محمد عن أبي هريرة إلا هشام، ورواه غيره موقوفاً^(٢).

عن الأعرج، عن أبي هريرة؛ قال: قال رسول الله: «لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات؛ قوله حين دعي إلى آلهتهم؛ فقال: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾، وقوله: ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾، وقوله لسارة: إنها أختي».

قال: «ودخل إبراهيم قرية فيها ملك من الملوك أو جبار من الجبابرة، فقيس: دخل إبراهيم الليلة بامرأة من أحسن الناس، قال: فأرسل إليه الملك أو الجبار: من هذه معك؟ قال: أختي، قال: فأرسل بها، قال: فأرسل بها إليه، وقال: لا تكذبي قولي؛ فإني قد أخبرته أنك أختي، إنه ما على الأرض مؤمن غيري وغيرك. فلما دخلت عليه قام؛ إليها، فأقبلت توضأ، وتصلي، وتقول: اللهم! إن كنت تعلم أنني آمنت بك وبرسولك وأحصنت فرجي إلا على زوجي؛ فلا تسلط علي الكافر. قال: فغط حتى ركض برجله».

قال أبو الزناد: قال أبو سلمة بن عبد الرحمن، عن أبي هريرة أنها قالت: اللهم! إن يمت، يقال: هي قتلتها قال: فأرسل. قال: «ثم قام إليها»، قال: فقامت

(١) زيادة يقتضيها السياق؛ فلم أجده في «الصحيحين» من رواية هشام، وانظر لزماً «تحفة الأشراف» (٣٤٩-٣٥٩)، و«فتح الباري» (٣٩١/٦).

(٢) بل تابعه على الرفع أيوب عن محمد عن أبي هريرة، كما رواه البخاري (٥٠٨٤).

توضاً وتصلي وتقول: «اللهم! إن كنت تعلم أنني آمنت بك وبرسولك وأحصنت فرجي إلا على زوجي؛ فلا تسلط علي الكافر». قال: «فغط حتى ركض برجله». قال أبو الزناد: وقال أبو سلمة، عن أبي هريرة: أنها قالت: «اللهم! إن یت؛ يقل: هي قتلته». قال: «فأرسل».

قال: فقال في الثالثة أو الرابعة: «ما أرسلتم إلي إلا شيطاناً، أرجعوها إلى إبراهيم، وأعطوها هاجر».

قال: «فرجعت، فقالت لإبراهيم: أشعرت أن الله رد كيد الكافر وأخدم وليدة؟!»

تفرد به أحمد^(١) من هذا الوجه، وهو على شرط الصحيح. عن أبي سعيد؛ قال: قال رسول الله ﷺ في كلمات إبراهيم الثلاث التي قال: «ما منها كلمة إلا ماحل»^(٢) بها عن دين الله: فقال: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ٨٩]، وقال: ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ [الأنبياء: ٦٣]، وقال للملك حين أراد امرأته: هي أختي^(٣).

فقوله في الحديث: «هي أختي» أي: في دين الله؛ وقوله لها: «إنه ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك»؛ يعني: زوجين مؤمنين غيري وغيرك، ويتعين حمله على هذا؛ لأن لوطاً كان معهم، وهو نبي - عليه السلام -.

وقوله لما رجعت إليه: «مهييم»؟ معناه: ما الخبر؟ فقالت: «إن الله رد كيد الكافر - وفي رواية: الفاجر، وهو الملك -، وأخدم جارية».

وكان إبراهيم - عليه السلام - من وقت ذهب بها إلى الملك؛ قام يصلي لله عز وجل - ويسأله أن يدفع عن أهله وأن يرد بأس هذا الذي أراد أهله بسوء،

(١) في «المسند» (٤٠٣/٢).

(٢) جادل وخاصم.

(٣) حسن لغيره - أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره»؛ كما في «تفسير القرآن العظيم»

(٣٢/٤)، والترمذي (٣٠٨/٥ - ٣١٤٨/٣)، وأبو يعلى في «مسنده» (١٠٤٠).

قلت: وسنده ضعيف؛ لأن علي بن زيد بن جدعان ضعيف، ولكن يشهد له حديث أبي هريرة المتقدم.

وهكذا فعلت هي أيضاً. فلما أراد عدو الله أن ينال منها أمراً؛ قامت إلى وضوئها وصلاتها، ودعت الله -عز وجل- بما تقدم من الدعاء العظيم؛ ولهذا قال -تعالى-: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة: ٤٥]؛ فعصمها الله وصانها لعصمة عبده ورسوله وحيبيه وخليله إبراهيم -عليه السلام-.

وقد ذهب بعض العلماء إلى نبوة ثلاث نسوة؛ سارة وأم موسى ومريم -عليهن السلام-^(١).

والذي عليه الجمهور أنهن صديقات -رضي الله عنهن وأرضاهن-.

[رجوع الخليل -عليه السلام- إلى الأرض المقدسة]

ثم إن الخليل -عليه السلام- رجع من بلاد مصر إلى أرض التيمن -وهي الأرض المقدسة التي كان فيها- ومعه أنعام وعبيد ومال جزيل، وصحبتهم هاجر القبطية المصرية.

[هجرة لوط -عليه السلام- إلى غور الأردن]

ثم إن لوطاً -عليه السلام- نزح بما له من الأموال الجزيلة بأمر الخليل له في ذلك إلى أرض الغور، والمعروف بغور زغر، فنزل بمدينة سدوم وهي أم تلك البلاد في ذلك الزمان، وكان أهلها أشراراً كفاراً فجاراً.

[بشارة الرب -تبارك وتعالى- لخليله إبراهيم -عليه السلام- بمحمد ﷺ وأمه]

وأوحى الله -تعالى- إلى إبراهيم الخليل، فأمر أن يمد بصره وينظر شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً، وبشره بأن هذه الأرض كلها سأجعلها لك ولخلفك إلى آخر الدهر، وستكثر ذريتك حتى يصيروا بعدد تراب الأرض.

(١) ولا يصح في ذلك شيء مرفوع.

وهذا البشارة اتصلت بهذه الأمة، بل ما كملت ولا كانت أعظم منها في هذه الأمة المحمدية، ويؤيد ذلك قول رسول الله ﷺ: «إن الله زوى لي الأرض؛ فرأيت مشارقها ومغاربها، وسيلغ ملك أمتي ما زوى لي منها»^(١).

(١) أخرجه مسلم (٢٨٨٩) من حديث ثوبان - رضي الله عنه -.

ذكر مولد إسماعيل - عليه السلام - من هاجر

قال أهل الكتاب^(١): إن إبراهيم - عليه السلام - سأل الله ذرية طيبة، وإن الله بشره بذلك، قالت سارة لإبراهيم - عليه السلام -: إن الرب قد أحرمني الولد؛ فادخل على أمتي هذه؛ لعل الله يرزقك منها ولداً.

فلما وهبتها له؛ دخل بها إبراهيم - عليه السلام -، فحين دخل بها؛ حملت منه، ثم وضعت إسماعيل - عليه السلام -.

ولما ولد إسماعيل؛ أوحى الله إلى إبراهيم يبشره بإسحاق من سارة؛ فخر الله ساجداً، وقال له: قد استجبت لك في إسماعيل، وباركت عليه، وكثرته ونميته جداً كثيراً، ويولد له اثنا عشر عظيماً، وأجعله رئيساً لشعب عظيم.

وهذه - أيضاً - بشارة بهذه الأمة العظيمة، وهؤلاء الإثنا عشر عظيماً هم الخلفاء الراشدون الإثنا عشر، المبشر بهم في حديث جابر بن سمرة، عن النبي ﷺ؛ قال: «يكون اثنا عشر أميراً». ثم قال كلمة لم أفهمها، فسألت أبي: ما قال؟ قال: «كلهم من قریش». أخرجاه في «الصحيحين»^(٢).

وفي رواية: «لا يزال هذا الأمر قائماً - وفي رواية: عزيزاً - حتى يكون اثنا عشر خليفة كلهم من قریش».

فهؤلاء؛ منهم الأئمة الأربعة: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، ومنهم عمر بن عبد العزيز - أيضاً -، ومنهم بعض بني العباس.

وليس المراد أنهم يكونوا اثني عشر نسقاً؛ بل لا بد من وجودهم.

وليس المراد الأئمة الإثني عشر الذين يعتقد فيهم الرفضية، الذي أولهم علي بن أبي طالب، وآخرهم المنتظر بسرداب سامرا - وهو محمد بن الحسن العسكري فيما يزعمون -؛ فإن أولئك لم يكن فيهم أنفع من علي وابنه الحسن بن علي، حين

(١) «العهد القديم» (سفر التكوين: الاصحاح ١٦).

(٢) البخاري (٧٢٢٢ و٧٢٢٣)، ومسلم (١٨٢١).

ترك القتال وسلم الأمر لمعاوية، وأخذ نار الفتنة وسكن رضى الحرب بين المسلمين، والباقون من جملة الرعايا، لم يكن لهم حكم على الأمة في أمر من الأمور.

وأما ما يعتقدونه بسر داب سامراء؛ فذاك هوس في الرؤوس، وهذيان في النفوس، لا حقيقة له ولا عين ولا أثر.

والمقصود : أن هاجر -عليها السلام- لما ولد لها إسماعيل؛ اشتدت غيرة سارة منها، وطلبت من الخليل أن يغيب وجهها عنها، فذهب بها وبولدها، فسار بهما حتى وضعهما حيث مكة اليوم.

ويقال: إن ولدها كان إذ ذاك رضيعاً؛ فلما تركهما هناك وولى ظهره عنهما؛ قامت إليه هاجر، وتعلقت بثيابه، وقالت: يا إبراهيم! أين تذهب وتدعنا هاهنا وليس معنا ما يكفيننا؟ فلم يجبها. فلما ألحت عليه وهو لا يجيبها؛ قالت له: الله أمرك بهذا؟ قال: نعم. قالت: فإذاً؛ لا يضيعنا!

ذكر مهاجرة إبراهيم بابنه إسماعيل وأمه هاجر إلى جبال فاران - وهي أرض مكة - وبنائه البيت العتيق

قال البخاري^(١): عن ابن عباس؛ قال: أول ما اتخذ النساء المنطق^(٢) من قبل أم إسماعيل، اتخذت منطقاً لتعفي أثرها على سارة^(٣)، ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل وهي ترضعه، حتى وضعهما عند البيت عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذ أحد، وليس بها ماء. فوضعها هنالك، ووضع عندهما جراباً فيه تمر، وسقاء فيه ماء، ثم قفى إبراهيم منطلقاً، فتبعته أم إسماعيل، فقالت: يا إبراهيم! أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس به أنيس ولا شيء؟ فقالت له ذلك مراراً، وجعل لا يلتفت إليها، فقالت له: الله أمرك بهذا؟ قال: نعم. قالت: إذن! لا يضيعنا. ثم رجعت.

فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه؛ استقبل بوجهه البيت، ثم دعا بهؤلاء الدعوات، ورفع يديه؛ فقال: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ دُرِّيئِي بَوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [إبراهيم: ٣٧].

وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء، حتى إذا نفذ ما في السقاء؛ عطشت وعطش ابنها، وجعلت تنظر إليه يتلوى -أو قال يتلبط-، فانطلقت كراهية أن تنظر إليه، فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها، فقامت عليه، ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحداً؟ فلم تر أحداً، فهبطت من الصفا، حتى إذا بلغت بطن الوادي؛ رفعت طرف درعها، ثم سعت سعي الإنسان

(١) في « صحيحه » (٣٣٦٤ و ٣٣٦٥).

(٢) هو ما يشد به الوسط.

(٣) تمحوه وتحفيه؛ فلا تتبعها.

المجهود حتى جاوزت الوادي، ثم أتت المروة، فقامت عليها، ونظرت هل ترى أحداً؟ فلم تر أحداً، فعلت ذلك سبع مرات.

قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: «فلذلك سعى الناس بينهما»؛ فلما أشرفت على المروة؛ سمعت صوتاً، فقالت: صه، - تريد نفسها-، ثم تسمعت، فسمعت أيضاً، فقالت: قد أسمعت إن كان عندك غواث، فإذا هي بالملك عند موضع زمزم، فبحث^(١) بعقبه - أو قال بجناحه - حتى ظهر الماء، فجعلت تحوضه^(٢) وتقول بيدها هكذا، وجعلت تغرف من الماء في سقائها وهو يفور بعد ما تغرف.

قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: «يرحم الله أم إسماعيل ! لو تركت زمزم -أو قال: لو لم تغرف من الماء- لكانت زمزم عيناً معيناً» قال: فشربت، وأرضعت ولدها، فقال لها الملك: لا تخافي الضيعة؛ فإن هاهنا بيت الله يبينه هذا الغلام وأبوه، وإن الله لا يضيع أهله. وكان البيت مرتفعاً من الأرض كالراية، تأتيه السيول؛ فتأخذ عن يمينه وعن شماله.

فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من جرهم - أو أهل بيت من جرهم - مقبلين من طريق كداء، فنزلوا في أسفل مكة، فرأوا طائراً عاثفاً، فقالوا: إن هذا الطائر ليدور على ماء! لعهدنا بهذا الوادي وما فيه ماء! فأرسلوا جرياً أو جريين^(٣)؛ فإذا هم بالماء، فرجعوا فأخبروهم بالماء، فأقبلوا.

قال: وأم إسماعيل عند الماء. فقالوا: أتأذنين لنا أن ننزل عندك؟ قالت: نعم، ولكن لاحق لكم في الماء. قالوا: نعم. قال عبد الله بن عباس: قال النبي ﷺ: «فألفى ذلك أم إسماعيل وهي تحب الأنس».

(١) ضرب الأرض.

(٢) تجعله مثل الخوض.

(٣) هو الرسول أو الأجير.

فنزّلوا وأرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم، حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم. وشب الغلام وتعلّم العربية منهم، وأنفسهم^(١) وأعجبهم حين شب، فلما أدرك؛ زوجه امرأة منهم.

وماتت أم إسماعيل، فجاء إبراهيم بعدما تزوج إسماعيل يطالع تركته، فلم يجد إسماعيل، فسأل امرأته عنه؛ فقالت: خرج يتغي لنا، ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم؛ فقالت: نحن بشر، نحن في ضيق وشدة، وشكت إليه. قال: فإذا جاء زوجك؛ فاقرئي عليه السلام وقولي له: يغير عتبة بابه. فلما جاء إسماعيل كأنه آنس شيئاً، فقال: هل جاءكم من أحد؟ فقالت: نعم؛ جاءنا شيخ كذا وكذا، فسألنا عنك فأخبرته، وسألني كيف عيشنا؟ فأخبرته أنا في جهد وشدة. قال: هل أوصاك بشيء؟ قالت: نعم؛ أمرني أن أقرأ عليك السلام، ويقول لك: غير عتبة بابك! قال: ذاك أبي، وقد أمرني أن أفارقك؛ فالحق بأهلك! فطلقها؛ وتزوج منهم أخرى.

ولبت عنهم إبراهيم ما شاء الله، ثم أتاهم بعد، فلم يجده، فدخل على امرأته، فسألها عنه، فقالت: خرج يتغي لنا. قال: كيف أنتم؟ وسألها عن عيشهم وهيئتهم، فقالت: نحن بخير وسعة، وأثنت على الله، فقال: ما طعامكم؟ قالت: اللحم، قال: فما شربكم؟ قالت: الماء. قال: «اللهم بارك لهم في اللحم والماء». قال النبي ﷺ: «ولم يكن لهم يومئذ حب؛ ولو كان لهم حب لدعا لهم فيه»، قال: فهما لا يخلو عليهما أحد بغير مكة إلا لم يوافقاه.

قال: فإذا جاء زوجك؛ فاقرئي عليه السلام، ومريه يثبت عتبة بابه. فلما جاء إسماعيل؛ قال: هل أتاكم من أحد؟ قالت: نعم؛ أتانا شيخ حسن الهيئة، -وأثنت عليه-، فسألني عنك، فأخبرته، فسألني كيف عيشنا؟ فأخبرته أنا بخير، قال: فأوصاك بشيء؟ قالت: نعم؛ هو يقرأ عليك السلام، ويأمرك أن تثبت عتبة بابك. قال: ذاك أبي، وأنت العتبة، أمرني أن أمسكك.

(١) رغبهم في مصاهرته؛ لنفاسه عندهم.

ثم لبث عنهم ما شاء الله، ثم جاء بعد ذلك وإسماعيل يبكي نبلاً له تحت دوحة قريباً من زمزم، فلما رآه؛ قام إليه فصنع الوالد بالولد والولد بالوالد، ثم قال: يا إسماعيل! إن الله أمرني بأمر. قال: فاصنع ما أمرك به ربك! قال: وتعينني؟ قال: وأعينك، قال: فإن الله أمرني أن ابني هاهنا بيتاً - وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها - قال: فعند ذلك رفعوا القواعد من البيت، فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة وإبراهيم يبني، حتى إذا ارتفع البناء؛ جاء بهذا الحجر، فوضعه له، فقام عليه وهو يبني، وإسماعيل يناوله الحجارة، وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧]. قال: فجعلا بينهما حتى يدورا حول البيت وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

وهذا الحديث من كلام ابن عباس، وموشح برفع بعضه، وفي بعضه غرابية، وكأنه مما تلقاه ابن عباس عن الإسرائيليات، وفيه أن إسماعيل كان رضيعاً إذ ذاك. ولم يذكر في قدمات إبراهيم - عليه السلام - إلا ثلاث مرات؛ أولاً هن بعد أن تزوج إسماعيل بعد موت هاجر، وكيف تركهم من حين صغر الولد - على ما ذكر - إلى حين تزويجه لا ينظر في حالهم؟ وقد ذكر أن الأرض كانت تطوى له، وقيل: إنه كان يركب البراق إذا سار إليهم؛ فكيف يتخلف عن مطالعة حالهم وهم في غاية الضرورة الشديدة والحاجة الأكيدة؟!

وكان بعض هذا السياق متلقى من الإسرائيليات، ومطرز بشيء من المرفوعات، ولم يذكر فيه قصة الذبيح، وقد دللنا على أن الذبيح هو إسماعيل على الصحيح في سورة الصافات^(١).

(١) ذكر المصنف - رحمه الله - أن هذا السياق من الإسرائيليات، وليس كذلك - عندي - للوجه الآتي:

١ - أن السياق ذكر تعليلاً للمرفوعات؛ كقوله: قال النبي ﷺ: «فلذلك سعى الناس بينهما».

٢ - أن السياق في بيان أسباب ورود بعض الآيات والحديث، وهذا من الحديث المسند المرفوع.

٣ - الثابت عن ابن عباس - رضي الله عنهما - عدم أخذه من أهل الكتاب.

قصة الذبيح

قال الله - تعالى -: ﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيِّدِينَ ۝ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ۝ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ۝ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَبْنَئِي إِنِّي أَرَأَيْتُ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَتَأَبَّتُ أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ ۝ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ۝ وَنَدَيْنَاهُ أَنِ يَتَابِرْ هَيْمًا ۝ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۝ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ۝ وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ ۝ وَتَرَكَنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ۝ سَلَّمَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ۝ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۝ إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ۝ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ۝ وَتَرَكَنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِن دُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ ۝ ﴾ [الصافات: ٩٩-١١٣].

يذكر - تعالى - عن خليله إبراهيم أنه لما هاجر من بلاد قومه؛ سأل ربه أن يهب له ولدا صالحا، فبشره الله - تعالى - بغلام حلیم، وهو إسماعيل - عليه السلام -؛ لأنه أول من ولد له على رأس ست وثمانين سنة من عمر الخليل. وهذا ما لا خلاف فيه بين أهل الملل؛ لأنه أول ولده وبكره.

وقوله: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ ﴾؛ أي: شب وصار يسعى في مصالحه؛ كآبيه. قال مجاهد: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ ﴾؛ أي: شب وارتحل وأطاق ما يفعله أبوه من السعي والعمل. فلما كان هذا؛ رأى إبراهيم - عليه السلام - في المنام أنه يؤمر بذبح ولده هذا، وفي الحديث عن ابن عباس مرفوعا: «رؤيا الأنبياء وحي»^(١).

(١) حسن - أخرجه أحمد بن منيع في «مسنده»؛ كما في «المطالب العالية» (٣١٢٩)، والطبري في «جامع البيان» (٩٠/١٢)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٤٦٣) والطبراني في «الكبير» (١٢٣٠٢)، والحاكم (٢/٤٣١ و ٣٩٦) بسند حسن.

قاله عبيد بن عمير - أيضاً^(١).

وهذا اختبار من الله - عز وجل - لخليله في أن يذبح هذا الولد العزيز الذي جاءه على كبر، وقد طعن في السن، بعد ما أمر بأن يسكنه هو وأمه في بلاد قفر، وواد ليس به حسيس ولا أنيس ولا زرع ولا ضرع، فامثل أمر الله في ذلك، وتركهما هناك ثقة بالله وتوكلاً عليه، فجعل الله لهما فرجاً ومخرجاً، ورزقهما من حيث لا يحتسبان، ثم لما أمر بعد هذا كله بذبح ولده هذا الذي قد أفرد عنه أمر ربه، وهو بكره ووحيد الذي ليس له غيره؛ أجاب ربه وامثل أمره، وسارع إلى طاعته.

ثم عرض ذلك على ولده؛ ليكون أطيب لقلبه وأهون عليه من أن يأخذه قسراً ويذبحه قهراً: ﴿ قَالَ يَبْنَىٰ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ﴾.

فبادر الغلام الحليم، سر والده الخليل إبراهيم، فقال: ﴿ يَتَأَبَّتْ أَفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾، وهذا الجواب في غاية السداد والطاعة للوالد ولرب العباد.

قال الله - تعالى -: ﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴾^(٢)؛ قيل: ﴿أسلما﴾؛ أي: استسلما لأمر الله وعزما على ذلك.

فعند ذلك نودي من الله - عز وجل -: ﴿ أَنْ يَتَابِعَا إِبْرَاهِيمَ ﴾^(٣) قَدْ صَدَّقَتْ الرُّؤْيَا؛ أي: قد حصل المقصود من اختبارك وطاعتك ومبادرتك إلى أمر ربك، وبذلك ولدك للقربان، كما سمحت ببدنك للنيران، وكما مالك مبذول للضيفان؛ ولهذا قال - تعالى -: ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴾^(٤)؛ أي: الاختبار الظاهر البين.

= وعزاه الخافظ في «فتح الباري» (٢٨٩/١) لمسلم وهو وهم، وانظر -لزما- تعليق

شيخنا على «السنة».

(١) كما في البخاري (١٣٨).

وقوله: ﴿وَفَدَيْنَهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ﴾؛ أي: وجعلناه فداء ذبح ولده ما يسره الله - تعالى - له من العوض عنه.

والمشهور عن الجمهور أنه كبش أبيض أعين أقرن، رآه مربوطاً بسمرة في ثبير.

فأما ما روي عن ابن عباس أنه كان وعلاً! وعن الحسن أنه كان تيساً من الأروى، واسمه جرير؛ فلا يكاد يصح عنهما.

ثم غالب ما هاهنا من الآثار مأخوذ من الإسرائيليات! وفي القرآن كفاية عما جرى من الأمر العظيم، والاختبار الباهر، وأنه فدي بذبح عظيم.

وقد ورد في الحديث^(١) أنه كان كبشاً عن صفية بنت شيبه؛ قالت: أخبرني امرأة من بني سليم ولدت عامة أهل دارنا؛ قالت: أرسل رسول الله ﷺ إلى عثمان بن طلحة. وقالت مرة: إنها سألت عثمان: لم دعاك رسول الله ﷺ؟ قال: قال لي رسول الله: «إني كنت رأيت قرني الكبش حين دخلت البيت، فنسيت أن أمرك أن تحمرهما؛ فحمرهما؛ فإنه لا ينبغي أن يكون في البيت شيء يشغل المصلي».

قال سفيان: لم يزل قرنا الكبش معلقين في البيت حتى احترق البيت فاحترقا.

وكذا روي عن ابن عباس: أن رأس الكبش لم يزل معلقاً عند ميزاب الكعبة قد يبس.

[الأدلة التي تثبت أن إسماعيل هو الذبيح]

وهذا وحده دليل على أن الذبيح إسماعيل؛ لأنه كان هو المقيم بمكة، وإسحاق لا نعلم أنه قدمها في حال صغره، والله أعلم.

وهذا هو الظاهر من القرآن؛ بل كأنه نص على أن الذبيح هو إسماعيل؛ لأنه ذكر قصة الذبيح، ثم قال بعده: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنْ

الصَّالِحِينَ ﴿١١٢﴾ [الصفات: ١١٢]، ومن جعله حالا؛ فقد تكلف، ومستنده أنه إسحاق إنما هو إسرائيليّات، وكتابتهم فيه تحريف، ولا سيما هاهنا قطعاً لا محيد عنه؛ فإن عندهم^(١) أن الله أمر إبراهيم أن يذبح ابنه ووحيداً - وفي نسخة من المعربة: بكره - إسحاق؛ فلفظة (إسحاق) هاهنا مقحمة مكذوبة مفتراة؛ لأنه ليس هو الوحيد ولا البكر إنما ذاك إسماعيل، وإنما حملهم على هذا حسد العرب؛ فإن إسماعيل أبو العرب الذي يسكنون الحجاز، الذين منهم رسول الله ﷺ، وإسحاق والد يعقوب - وهو إسرائيل - الذي ينتسبون إليه، فأرادوا أن يجروا هذا الشرف إليهم، فحرفوا كلام الله وزادوا فيه، وهم قوم بهت، ولم يقرأوا بأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء.

وقد قال بأنه إسحاق طائفة كثيرة من السلف وغيرهم، وإنما أخذوه - والله أعلم - من كعب الأحبار، أو من صحف أهل الكتاب، وليس في ذلك حديث صحيح عن المعصوم حتى نترك لأجله ظاهر الكتاب العزيز، ولا يفهم هذا من القرآن، بل المفهوم بل المنطوق بل النص - عند التأمل - على أنه إسماعيل.

وما أحسن ما استدل به محمد بن كعب القرظي على أنه إسماعيل وليس بإسحاق من قوله: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١]؛ قال: فكيف تقع البشارة بإسحاق وأنه سيولد له يعقوب، ثم يؤمر بذبح إسحاق وهو صغير قبل أن يولد له؟!.

هذا لا يكون؛ لأنه يناقض البشارة المتقدمة، والله أعلم.

وقد اعترض السهيلي على هذا الاستدلال بما حاصله: أن قوله: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ﴾: جملة تامة، وقوله: ﴿وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾: جملة أخرى ليست في حيز البشارة؛ قال: لأنه لا يجوز من حيث العريضة أن يكون مخفوضاً إلا أن يعاد معه حرف الجر؛ فلا يجوز أن يقال: مررت بزيد ومن بعده عمرو، حتى يقال: ومن بعده بعمرو. وقال: فقوله: ﴿وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾: منصوب بفعل مضمر تقديره: ووهبنا لإسحاق يعقوب! وفي هذا الذي

(١) أهل الكتاب وهو في «العهد القديم» (سفر التكوين: الاصحاح ٢٢).

قاله نظر. ورجح أنه إسحاق، واحتج بقوله: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ ﴾ [الصفات: ١٠٢] قال: وإسماعيل لم يكن عنده، وإنما كان في حال صغره وهو وأمه بجبال مكة؛ فكيف يبلغ معه السعي؟ وهذا أيضاً فيه نظر؛ لأنه قد روي أن الخليل كان يذهب في كثير من الأوقات راكباً البراق إلى مكة؛ يطلع على ولده وابنه ثم يرجع، والله -تعالى- أعلم.

فمن حكى القول عنه بأنه إسحاق: كعب الأحبار، وروى عن عمر والعباس وعلي وابن مسعود ومسروق وعكرمة وسعيد بن جبير ومجاهد وعطاء والشعبي ومقاتل وعبيد بن عمير، وأبي ميسرة وزيد بن أسلم وعبد الله بن شقيق والزهري والقاسم وابن أبي بردة ومكحول، وعثمان بن حاضر والسدي والحسن وقتادة وأبي الهذيل وابن سابط، وهو اختيار ابن جرير، وهذا عجب منه وهو إحدى الروايتين عن ابن عباس.

ولكن الصحيح عنه - وعن أكثر هؤلاء - أنه إسماعيل - عليه السلام - قال مجاهد وسعيد والشعبي ويوسف بن مهرا ن وعطاء وغير واحد عن ابن عباس: هو إسماعيل - عليه السلام -.

وقال ابن جرير^(١): عن ابن عباس: أنه قال: المفدى إسماعيل، وزعمت اليهود أنه إسحاق وكذبت اليهود.

وقال عبد الله بن الإمام أحمد عن أبيه: هو إسماعيل. وقال ابن أبي حاتم^(٢): سألت أبي عن الذبيح؟ فقال: الصحيح أنه إسماعيل - عليه السلام -.

قال ابن أبي حاتم: وروى عن علي وابن عمر وأبي هريرة وأبي الطفيل وسعيد بن المسيب وسعيد بن جبير والحسن ومجاهد والشعبي ومحمد بن كعب وأبي جعفر محمد بن علي وأبي صالح أنهم قالوا: الذبيح هو إسماعيل - عليه السلام -. وحكاه البغوي أيضاً عن الربيع عن أنس والكلبي وأبي عمرو بن العلاء.

(١) في «جامع البيان» (١٠/٥١٣).

(٢) في «التفسير» (١٠/٣٢٢٣/١٨٢٣٨).

قلت: وروي عن معاوية، وإليه ذهب عمر بن عبد العزيز ومحمد بن إسحاق بن يسار، وكان الحسن البصري يقول: لا شك في هذا.

عن محمد ابن كعب: أنه حدثهم: أنه ذكر ذلك لعمر بن عبد العزيز وهو خليفة إذ كان معه بالشام - يعني: استدلاله بقوله بعد العصمة: ﴿ قَبَشْرُنَهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴾ [هود: ٧١]-؛ فقال له عمر: إن هذا الشيء ما كنت أنظر فيه، وإني لأراه كما قلت.

ثم أرسل إلى رجل كان عنده بالشام، كان يهودياً فأسلم وحسن إسلامه، وكان يرى أنه من علمائهم، قال: فسأله عمر بن عبد العزيز: أي ابني إبراهيم أمر بذبحه؟ فقال: إسماعيل والله يا أمير المؤمنين! وإن اليهود لتعلم بذلك، ولكنهم يحسدونكم معشر العرب على أن يكون أباكم الذي كان من أمر الله فيه والفضل الذي ذكره الله منه لصبره لما أمر به؛ فهم يجحدون ذلك، ويزعمون أنه إسحاق؛ لأن إسحاق أبوهم.

وقد ذكرنا هذه المسألة مستقصاة بأدلتها وآثارها في كتابنا «التفسير»^(١)، والله الحمد والمنة^(٢).

(١) (٧/٣٦-وما بعدها).

(٢) وعن حقق المسألة تحقيقاً علمياً عزّ نظيره الإمام ابن قيم الجوزية في «زاد المعاد» (١/٧١-٧٥).

وقد جمعت خلاصة أقوال أهل العلم في هذه المسألة في كتابي الكبير في السيرة النبوية المسمى: «الصحيح المستصفى من سيرة النبي المصطفى».

ذكر مولد اسحاق - عليه السلام -

قال الله - تعالى -: ﴿ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ۖ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ ۖ ﴾ [الصافات: ١١٢-١١٣].

وقد كانت البشارة به من الملائكة لإبراهيم وسارة لما مروا بهما مجتازين ذاهبين إلى مدائن قوم لوط؛ ليدمروا عليهم؛ لكفرهم وفجورهم؛ كما سيأتي بيانه في موضعه - إن شاء الله تعالى -.

قال الله - تعالى -: ﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَمَا لَيْتَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ۚ فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ۖ وَامْرَأَتُهُ قَابِئَةُ فَضَحِكًا فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبُ ۚ ۝ قَالَتْ يَوَيْلَتَىٰ ءَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ۚ ۝ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ۚ ۝ ﴾ [هود: ٦٩-٧٣].

وقال - تعالى -: ﴿ وَنَبَّيْنَاهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ۚ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ ۚ ۝ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ۚ ۝ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسْنِيَّ الْكَبِيرُ فِيمَ تُبَشِّرُونَ ۚ ۝ قَالُوا بِبَشْرَتِكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ ۚ ۝ قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ۚ ۝ ﴾ [الحجر: ٥١-٥٦].

وقال - تعالى -: ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ۚ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُّكْرُونَ ۚ ۝ فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ۚ ۝ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ۚ ۝ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ۚ ۝ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ۚ ۝ قَالُوا كَذٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ۚ ۝ ﴾ [الذاريات: ٢٤-٣٠].

يذكر-تعالى:- أن الملائكة لما وردوا على الخليل؛ حسبهم أولاً أضيافاً، فعاملهم معاملة الضيوف، وشوى لهم عجللاً سميناً من خيار بقره، فلما قر به إليهم وعرض عليهم؛ لم ير لهم همة إلى الأكل بالكلية، وذلك لأن الملائكة ليس فيهم قوة الحاجة إلى الطعام، فنكر منهم أمرهم: ﴿ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ لُوطٍ ﴾ [هود: ٧٠]؛ أي: لندمر عليهم، فاستبشرت عند ذلك سارة غضباً لله عليهم، وكانت قائمة على رؤوس الأضياف، كما جرت به عادة الناس من العرب وغيرهم، فلما ضحكت استبشاراً بذلك؛ قال الله -تعالى-: ﴿ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴾ [هود: ٧١]؛ أي: بشرتها الملائكة بذلك ﴿ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صِرَّةٍ ﴾ [الذاريات: ٢٩]؛ أي: في صرخة: ﴿ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا ﴾ [الذاريات: ٢٩]؛ أي: كما يفعل النساء عند التعجب، وقالت: ﴿ يَنْوِيلَتِي ءَالِدٌ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا ﴾ [هود: ٧٢]؛ أي: كيف يلد مثلي وأنا كبيرة وعقيم أيضاً، وهذا بعلي؛ أي: زوجي، ﴿ شَيْخًا ﴾؟! تعجبت من وجود ولد والحالة هذه؛ ولهذا قالت: ﴿ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴾ ٧٣ ﴿ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمْتُ اللَّهُ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ﴾ ٧٤ [هود: ٧٢-٧٣].

وكذلك تعجب إبراهيم -عليه السلام- استبشاراً بهذه البشارة وتبشيراً لها وفرحاً بها ﴿ قَالَ أَبَشِّرْهُنِي عَلَىٰ أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمَ تَبَشِّرُونَ ﴾ ٧٥ ﴿ قَالُوا بَشِّرْنَا بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ ﴾ ٧٦ [الحجر: ٥٤-٥٥]: أكدوا الخبر بهذه البشارة وقرروه معه.

فبشروهما ﴿ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴾، وهو إسحاق، وأخوه إسماعيل، غلام حليم مناسب لمقامه وصبره، وهكذا وصفه ربه بصدق الوعد والصبر.

وقال في الآية الأخرى: ﴿ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴾ [هود: ٧١].

وهذا مما استدل به محمد بن كعب القرظي وغيره على أن الذبيح هو إسماعيل، وأن إسحاق لا يجوز أن يؤمر بذبحه بعد أن وقعت البشارة بوجوده ووجود ولده يعقوب المشتق من العقب من بعده.

فقلوه - تعالى -: ﴿ فَبَشِّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴾ [هود: ٧١]؛ دليل على أنها تستمتع بوجود ولدها إسحاق، ثم من بعده يولد ولده يعقوب؛ أي: يولد في حياتهما لتقر أعينهما به كما قرت بوالده، ولو لم يرد هذا؛ لم يكن لذكر يعقوب وتخصيص التنصيص عليه من دون سائر نسل إسحاق فائدة، ولما عين بالذكر؛ دل على أنها يتمتعان به ويسران بولده كما سرّا بمولد أبيه من قبله.

وقال - تعالى -: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا ﴾ [الأنعام: ٨٤].

وقال - تعالى -: ﴿ فَلَمَّا أَتَتْهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ [مريم: ٤٩].

وهذا - إن شاء الله - ظاهر قوي، ويؤيده ما ثبت في «الصحيحين»^(١) من حديث: عن أبي ذر؛ قال: قلت: يا رسول الله! أي: مسجد وضع أول؟ قال: «المسجد الحرام»، قلت: ثم أي؟ قال: «المسجد الأقصى»، قلت: كم بينهما؟ قال: «أربعون سنة»، قلت: ثم أي؟ قال: «ثم حيث أدركت الصلاة؛ فصل؛ فكلها مسجدا».

وعند أهل الكتاب^(٢): أن يعقوب - عليه السلام - هو الذي أسس المسجد الأقصى، وهو مسجد إيليا بيت المقدس شرفه الله.

وهذا متجه، ويشهد له ما ذكرناه من الحديث؛ فعلى هذا يكون بناء يعقوب - وهو إسرائيل - عليه السلام - بعد بناء الخليل وابنه إسماعيل المسجد الحرام بأربعين سنة سواء، وقد كان بناؤهما ذلك بعد وجود إسحاق؛ لأن إبراهيم عليه السلام - لما دعا؛ قال في دعائه؛ كما قال - تعالى -: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ۚ رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلُّونَ كَثِيرًا ۖ مِّنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعْنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٢٦ ﴾

(١) أخرجه البخاري (٣٣٦٦)، ومسلم (٥٢٠).

(٢) (سفر التكوين: الاصحاح ٢٨ و ٣٥)، وانظر -لزما- « زاد المعاد » (١/ ٤٩).

رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٣٦﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٧﴾ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ﴿٣٨﴾ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴿٣٩﴾ [إبراهيم: ٣٥-٤١].

وما جاء في الحديث من أن سليمان بن داود -عليهما السلام- لما بنى بيت المقدس؛ سأل الله خللا ثلاثا؛ كما ذكرناه^(١) عند قوله: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي﴾ [ص: ٣٥] ، وكما سنورده في قصته^(٢)؛ فالمراد من ذلك -والله أعلم-، أنه جدد بناءه لما تقدم من أن بينهما أربعين سنة، ولم يقل أحد: إن بين سليمان وإبراهيم أربعين سنة؛ سوى ابن حبان في «تقاسيمه وأنواعه»^(٣)، وهذا القول لم يوافق عليه ولا سبق إليه، والله -تعالى- أعلم بالصواب.

(١) في «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٣٤).

(٢) سيأتي -إن شاء الله- (ص ٤١٣).

(٣) (١٤/ ١٢٠ -إحسان).

ذكر بناية البيت العتيق

قال الله - تعالى -: ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ٢٦٠ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ٢٦١ ﴾ [الحج: ٢٦٠-٢٦١].

وقال - تعالى -: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ٢٦٢ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مِّمَّا قَامَ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ٢٦٣ ﴾ [آل عمران: ٩٦-٩٧].

وقال - تعالى -: ﴿ وَإِذْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ٢٦٤ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ٢٦٥ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ٢٦٦ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ٢٦٧ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ٢٦٨ رَبَّنَا وَابْنِغْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ٢٦٩ ﴾ [البقرة: ١٢٤-١٢٩].

يذكر - تعالى - عن عبده ورسوله وصفيه وخليله إمام الخفاء ووالد الأنبياء إبراهيم - عليه أفضل صلاة وتسليم - أنه بنى البيت العتيق الذي هو أول مسجد وضع لعموم الناس يعبدون الله فيه وبوآه الله مكانه؛ أي: أرشده إليه ودله عليه.

وقد روينا عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وغيره: أنه أُرشِدَ إليه بوحى من الله - عز وجل -.

وقد ذكرنا^(١) في صفة خلق السماوات: أن الكعبة بحيال البيت المعمور؛ بحيث إنه لو سقط لسقط عليها؛ وكذلك معابد السماوات السبع؛ كما قال بعض السلف: إن في كل سماء بيتاً يعبد الله فيه أهل كل سماء، وهو فيها كالكعبة لأهل الأرض.

فأمر الله - تعالى - إبراهيم - عليه السلام - أن يبني له بيتاً يكون لأهل الأرض كتلك المعابد للملائكة السماوات، وأرشده الله إلى مكان البيت المهيأ له المعين لذلك منذ خلق السماوات والأرض؛ كما ثبت في «الصحيحين»^(٢): «إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السماوات والأرض؛ فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة».

ولم يحمى في خبر صحيح عن معصوم أن البيت كان مبنياً قبل الخليل - عليه السلام -، ومن تمسك في هذا بقوله: ﴿مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ [الحج: ٢٦]؛ فليس بناهض ولا ظاهر؛ لأن المراد مكانه المقدر في علم الله، المقرر في قدره، المعظم عند الأنبياء موضعه، من لدن آدم إلى زمان إبراهيم.

وقد قال الله: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٦]؛ أي: أول بيت وضع لعموم الناس للبركة والهدى البيت الذي ببكة؛ وقيل مكة، وقيل: محل الكعبة. ﴿فِيهِ ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ﴾ [آل عمران: ٩٧]؛ أي: على أنه بناء الخليل؛ والد الأنبياء من بعده، وإمام الخفاء من ولده؛ الذين يقتدون به، ويتمسكون بسنته؛ ولهذا قال: ﴿مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ [آل عمران: ٩٧]؛ أي: الحجر الذي كان يقف عليه قائماً لما ارتفع عن قامته، فوضع

(١) في «البداية والنهاية» (١/٧٦).

(٢) أخرجه البخاري (١٨٣٤)، ومسلم (١٣٥٣) من حديث عبد الله بن عباس - رضي

الله عنهما -.

له ولده هذا الحجر المشهور؛ ليرتفع عليه لما تعالى البناء وعظم الفناء؛ كما ذكر في حديث ابن عباس الطويل^(١)، وقد كان هذا الحجر ملصقاً بجائط الكعبة على ما كان عليه من قديم الزمان إلى أيام عمر بن الخطاب -رضي الله عنه-، فأخره عن البيت قليلاً؛ لئلا يشغل المصلين عنده الطائفين بالبيت، واتبع عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- في هذا؛ فإنه قد وافقه ربه في أشياء، منها: قوله لرسوله ﷺ: لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلًى؛ فأنزل الله: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥]^(٢).

وقد كانت آثار قدمي الخليل باقية في الصخرة إلى أول الإسلام، وقد قال أبو طالب في قصيدته اللامية المشهورة:

وثور ومن أرسى ثبراً مكانه وراق لبر في جِراء ونازل
وبالبيت حق البيت من بطن مكة وبالله إن الله ليس بغافل
وبالحجر المسود إذ يمسخونه إذ اكتنفوه بالضحي والأصائل
وموطئ إبراهيم في الصخر رطبة على قدميه حافياً غير ناعل
يعني: أن رجله الكريمة غاصت في الصخرة؛ فصارت على قدر قدمه حافية لا متعلقة.

ولهذا قال -تعالى-: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾ [البقرة: ١٢٧]؛ أي: في حال قولهما: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧]؛ فهما في غاية الإخلاص والطاعة لله عز وجل-، وهما يسألان من الله عز وجل- السميع العليم أن «يتقبل منهما ما هما فيه من الطاعة العظيمة والسعي المشكور»: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً

(١) تقدم (ص ١٢٦).

(٢) كما في «صحیح البخاري» (٤٠٢).

مُسْلِمَةً لَّكَ وَأَرَنَا مَتَّاسِكِينَ وَتُبَّ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٧﴾ [البقرة: ١٢٧-١٢٨].

والمقصود: أن الخليل بنى أشرف المساجد في أشرف البقاع في واد غير ذي زرع.

ودعا لأهلها بالبركة، وأن يُرزقوا من الثمرات مع قلة المياه وعدم الأشجار والزروع والثمار، وأن يجعله حرماً محرماً وآمناً محتماً.

فاستجاب الله - وله الحمد - له مسأله، ولبي دعوته؛ وآتاه طلبته؛ فقال تعالى:- ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧]، وقال تعالى:- ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُحْبَبِي إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رَزَقْنَا مِنْ لَدُنَّا﴾ [الفصل: ٥٧]، وسأل الله أن يبعث فيهم رسولاً منهم؛ أي: من جنسهم، وعلى لغتهم الفصيحة البليغة النصيحة؛ لتتم عليهم النعمتان الدنيوية والدينية؛ سعادة الأولى والآخرة.

وقد استجاب الله له؛ فبعث فيهم رسولاً- وأي رسول؟!- ختم به أنبياء ورسله، وأكمل له من الدين ما لم يؤت أحداً قبله، وعم بدعوته أهل الأرض على اختلاف أجناسهم ولغاتهم وصفاتهم، في سائر الأقصار والأمصار والأعصار إلى يوم القيامة، وكان هذا من خصائصه من بين سائر الأنبياء؛ لشرفه في نفسه، وكمال ما أرسل به، وشرف بقعته، وفصاحة لغته، وكمال شفقتة على أمته، ولطفه ورحمته، وكريم محنته وعظيم مولده، وطيب مصدره ومورده.

ولهذا استحق إبراهيم الخليل -عليه السلام- إذ كان باني الكعبة لأهل الأرض، أن يكون منصبه ومحلّه وموضعه في منازل السماوات ورفيع الدرجات عند البيت المعمور، الذي هو كعبة أهل السماء السابعة المبارك المبرور، الذي يدخله كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة يتعبدون فيه، ثم لا يعودون إلى يوم البعث والنشور.

وقد ذكرنا في «التفسير»^(١) من سورة البقرة صفة بنائه للبيت، وما ورد في ذلك من الأخبار والآثار بما فيه كفاية؛ فمن أراد؛ فليراجعه؛ ثم، والله الحمد. وقد كانت الكعبة على بناء الخليل مدة طويلة، ثم بعد ذلك بنتها قريش فقصرت بها عن قواعد إبراهيم من جهة الشمال مما يلي الشام على ما هي عليه اليوم.

وفي «الصحيحين» من حديث عائشة: أن رسول الله ﷺ قال: «ألم ترى أن قومك حين بنوا الكعبة اقتصروا عن قواعد إبراهيم؟» فقلت: يا رسول الله! ألا تردّها على قواعد إبراهيم. فقال: «لولا حدثان قومك بالكفر؛ لفعلت». وفي رواية: «لولا أن قومك حديثو عهد بجاهلية - أو قال بكفر -؛ لأنفقت كنز الكعبة في سبيل الله، ولجعلت بابها بالأرض، ولأدخلت فيها الحجر»^(٢). وقد بناها ابن الزبير -رضي الله عنه- في أيامه على ما أشار إليه رسول الله ﷺ حسبما أخبرته به خالته عائشة أم المؤمنين عنه، فلما قتله الحجاج في سنة ثلاث وسبعين؛ كتب إلى عبد الملك بن مروان الخليفة إذ ذاك، فاعتقدوا أن ابن الزبير إنما صنع ذلك من تلقاء نفسه، فأمر بردها إلى ما كانت عليه، فنقضوا الحائط الشامي، وأخرجوا منها الحجر، ثم سدّوا الحائط وردموا الأحجار في جوف الكعبة، فارتفع بابها الشرقي وسدّوا الغربي بالكلية؛ كما هو مشاهد إلى اليوم. ثم لما بلغهم أن ابن الزبير إنما فعل هذا لما أخبرته عائشة أم المؤمنين؛ ندموا على ما فعلوا، وتأسفوا أن لو كانوا تركوه وما تولى من ذلك. ثم لما كان في زمن المهدي بن المنصور؛ استشار الإمام مالك بن أنس في ردها على الصفة التي بناها ابن الزبير؛ فقال له: إنني أخشى أن يتخذها الملوك

(١) (١/٢٤٧-وما بعدها).

(٢) أخرجه البخاري (١٥٨٣-١٥٨٦)، ومسلم (١٣٣٣).

لعبة؛ يعني : كلما جاء ملك؛ بناها على الصفة التي يريد، فاستقر الأمر على ما هي عليه اليوم^(١).

(١) انظر -لزاماً-: «فتح الباري» (٣/٤٤٨)، و«السلسلة الصحيحة» (٤٣).

ذكر ثناء الله ورسوله الكريم

على عبده وخليله إبراهيم

قال الله - تعالى -: ﴿ وَإِذْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رِيسَهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٤﴾ ﴾ [البقرة: ١٢٤]: لما وفى ما أمره به ربه من التكليف العظيمة؛ جعله للناس إماماً يقتدون به ويأتمون بهديه، وسأل الله أن تكون هذه الإمامة متصلة بسببه وباقية في نسبه وخالده في عقبه؛ فأجيب إلى ما سأل ورام، وسلمت إليه الإمامة بزمَام، واستثنى من نيلها الظالمون، واختص بها من ذريته العلماء العاملون؛ كما قال - تعالى -: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَءَاتَيْنَاهُ أُجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [العنكبوت: ٢٧].

وقال - تعالى -: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِيلَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُوسُفَ وَلُوطًا كُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ﴾ [الأنعام: ٨٤-٨٧]؛ فالضمير في قوله: ﴿ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ ﴾ [الأنعام: ٨٤]؛ عائد إلى إبراهيم على المشهور، ولوط؛ وإن كان ابن أخيه؛ إلا أنه دخل في الذرية تغليبا، وهذا هو الحامل للقاتل الآخر: إن الضمير عائد على نوح؛ كما قدمنا في قصته، والله أعلم.

وقال - تعالى -: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنَهُمْ مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [الحديد: ٢٦] الآية.

فكل كتاب أنزل من السماء على نبي من الأنبياء بعد إبراهيم الخليل؛ فمن ذريته وشيعته، وهذه خلعة سنّية لا تضاهى، ومرتبته عليّه لا تباهى، وذلك أنه ولد

له لصلبه وكُلدان ذكران عظيمان: إسماعيل من هاجر، ثم إسحاق من سارة، وولد له يعقوب، وهو إسرائيل الذي يُنسب إليه سائر أسباطهم، فكانت فيهم النبوة، وكثروا جداً بحيث لا يعلم عددهم إلا الذي بعثهم واختصهم بالرسالة والنبوة، حتى ختموا بعيسى ابن مريم من بني إسرائيل.

وأما إسماعيل -عليه السلام-؛ فكانت منه العرب على اختلاف قبائلها؛ ولم يوجد من سلالة من الأنبياء سوى خاتمهم على الإطلاق وسيدهم، وفخر بني آدم في الدنيا والآخرة محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم القرشي الهاشمي المكي ثم المدني -صلوات الله وسلامه عليه-.

فلم يوجد من هذا الفرع الشريف والغصن المنيف سوى هذه الجوهرة الباهرة، والدرة الزاهرة، وواسطة العقد الفاخرة، وهو السيد الذي يفتخر به أهل الجمع، ويغبطه الأولون والآخرون يوم القيامة.

وقد ثبت عنه في «صحيح مسلم»^(١) أنه قال: «سأقوم مقاماً يرغبُ إليَّ الخلقُ كلُّهم حتى إبراهيم»؛ فمدح إبراهيم أباه مدحة عظيمة في هذا السياق، ودل كلامه على أنه أفضل الخلائق بعده عند الخلاق في هذه الحياة الدنيا ويوم يكشف عن ساق.

عن ابن عباس؛ قال: كان رسول الله ﷺ يعوذ الحسن والحسين، ويقول: «إن أباكما كان يعوذ بها إسماعيل وإسحاق: أعوذ بكلمات الله التامة، من كل شيطان وهامة، ومن كل عين لامة».

وقال -تعالى-: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولَئِمُتُؤْمِنُ قَالَ بَلَىٰ وَلَئِن لِّيَطْمِئِنَّ قُلُوبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ

عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾ [البقرة: ٢٦٠]؛ ذكر المفسرون لهذا السؤال أسباباً بسطناها في «التفسير»^(١)، وقررناها بأتم تقرير.

والحاصل: أن الله - عز وجل - أجابه إلى ما سأل، فأمره أن يعمد إلى أربعة من الطيور - واختلفوا في تعيينها على أقوال، والمقصود حاصل على كل تقدير - فأمره أن يمزق لحومهن وريشهن، ويخلط ذلك بعضه في بعض، ثم يقسمه قسمًا، ويجعل على كل جبل منهم جزءًا، ففعل ما أمر به، ثم أمر أن يدعوهن بإذن ربهن، فلما دعاهن؛ جعل كل عضو يطير إلى صاحبه، وكل ريشة تأتي إلى أختها، حتى اجتمع بدن كل طائر على ما كان عليه، وهو ينظر إلى قدرة الذي يقول للشيء: كن؛ فيكون، فأتين إليه سعيًا؛ ليكون أبين له وأوضح لمشاهدته من أن يأتين طيرانًا. ويقال: إنه أمر أن يأخذ رءوسهن في يده، فجعل كل طائر يأتي فيلقى رأسه فتركب على جثته كما كان؛ فلا إله إلا الله.

وقد كان إبراهيم - عليه السلام - يعلم قدرة الله - تعالى - على إحياء الموتى علمًا يقينًا لا يحتمل النقيض، ولكن أحب أن يشاهد ذلك عيانًا، ويرقي من علم اليقين إلى عين اليقين، فأجابه الله إلى سؤاله وأعطاه غاية مأموله.

وقال - تعالى -: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِيهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ هَآأَنْتُمْ هَآؤَآءِ حُجِّجْتُمْ فِيْمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيْمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٠﴾ إِنَّ أَوَّلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَآؤَآءِ النَّبِيُّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٧١﴾﴾ [آل عمران: ٦٥-٦٨]؛ ينكر - تعالى - على أهل الكتاب من اليهود والنصارى في دعوى كل من الفريقين، كون الخليل على ملتهم وطريقتهم، فبرأه الله منهم، وبين كثرة جهلهم وقلة عقلهم في قوله: ﴿وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِيهِ﴾؛ أي:

فكيف يكون على دينكم وأنتم إنما شرع لكم ما شرع بعده بمدد متطاولة ؟ ولهذا قال: ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ ، إلى أن قال: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (١٧) ؛ فبين أنه كان على دين الله الحنيف، وهو القصد إلى الإخلاص، والإنحراف عمداً عن الباطل إلى الحق الذي هو مخالف لليهودية والنصرانية والمشركية.

كما قال - تعالى -: ﴿ وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مِنْ سَفِهَةِ نَفْسِهِ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ (١٨) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩) وَوَصَّي بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَبْنِي إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (٢٠) أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (٢١) تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٢) وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٢٣) قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (٢٤) فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ آهَتُوا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٢٥) صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ (٢٦) قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ (٢٧) أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ ءَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٢٨) تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٩) [البقرة: ١٣٠-١٤١]؛ فنهى الله - عز وجل - خليفه - عليه السلام - عن أن يكون يهودياً أو نصرانياً، وبين أنه إنما كان حنيفاً مسلماً ولم يكن من المشركين.

ولهذا قال -تعالى-: ﴿إِنَّ أَوَّلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ﴾ [آل عمران: ٦٨]؛ يعني: الذين كانوا على ملته من أتباعه في زمانه، ومن تمسك بدينه من بعدهم: ﴿وَهَذَا آيَتِي﴾ [آل عمران: ٦٨]؛ يعني: محمداً ﷺ؛ فإن الله شرع له الدين الحنيف الذي شرعه للخليل، وكمله الله -تعالى- له، وأعطاه ما لم يعط نبياً ولا رسولاً من قبله؛ كما قال -تعالى-: ﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتَنِي رَبِّيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [٢٢٠] قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ [٢٢١] لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ [٢٢٢] [الأنعام: ١٦١-١٦٣].

وقال -تعالى-: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [٢٢٠] شَاكِرًا لِأَنْعَمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ [٢٢١] وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ [٢٢٢] ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ [٢٢٣] [النحل: ١٢٠-١٢٣].

وقال البخاري^(١): عن ابن عباس: أن النبي ﷺ لما رأى الصور في البيت؛ لم يدخل حتى أمر بها فمحيّت، ورأى إبراهيم وإسماعيل بأيديهما الأزلام؛ فقال: «قاتلهم الله! والله! إن استقسما بالأزلام قط».

وفي بعض ألفاظ البخاري^(٢): «قاتلهم الله! لقد علموا أن شيخنا لم يستقسم بها قط».

وقوله: ﴿أُمَّةً﴾ [النحل: ١٢٠]؛ أي: قدوة، إماماً، مهتدياً، داعياً إلى الخير، يقتدى به فيه. ﴿قَانِتًا لِلَّهِ﴾ [النحل: ١٢٠]؛ أي: خاشعاً له في جميع حالاته وحركاته وسكناته. ﴿حَنِيفًا﴾ [النحل: ١٢٠]؛ أي: مخلصاً على بصيرة. ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠-١٢١]؛ أي: قائماً بشكر ربه بجميع

(١) في «صحيحه» برقم (٣٣٥٢).

(٢) برقم (١٦٠١ و ٤٢٨٨)، وليس عنده لفظ: «شيخنا».

جوارحه من قلبه ولسانه وأعماله. ﴿أَجْتَبَنَهُ﴾ [النحل: ١٢١]؛ أي: اختاره الله لنفسه واصطفاه لرسالته، واتخذته خليلاً، وجمع له بين خيري الدنيا والآخرة. وقال -تعالى-: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥]: يرغب -تعالى- في اتباع إبراهيم -عليه السلام-؛ لأنه كان على الدين القويم والصراط المستقيم، وقد قام بجميع ما أمره به ربه، ومدحه -تعالى- بذلك؛ فقال: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ [النجم: ٣٧]؛ ولهذا اتخذ الله خليلاً، والخلة هي غاية المحبة؛ كما قال بعضهم^(١):

قد تخللت مسلك الروح مني وبذا سمي الخليل خليلاً

وهكذا نال هذه المنزلة^(٢) خاتم الأنبياء وسيد المرسلين محمد -صلوات الله وسلامه عليه-؛ كما ثبت في «الصحيحين»^(٣) وغيرهما من حديث جندب البجلي وعبد الله بن عمرو وابن مسعود عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أيها الناس! إن الله اتخذني خليلاً؛ كما اتخذ إبراهيم خليلاً».

وقال -أيضاً- في آخر خطبة خطبها: «أيها الناس! لو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً؛ لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن صاحبكم خليل الله»^(٤).

(١) منسوب إلى النظار الفقعسي. انظر «الدر الفريد» لابن أيدمر (٤/ ٣٠٠).

(٢) في نسخة: «المرتبة».

(٣) أخرجه مسلم في «صحيحه» (٥٣٢) من حديث جندب البجلي -رضي الله عنه-، وأخرجه ابن ماجه (١٤١) من حديث عبد الله بن عمرو -رضي الله عنهما-، وأخرجه مسلم (٢٣٨٣) من حديث عبد الله بن مسعود.

(٤) أخرجه البخاري (٣٦٥٤)، ومسلم (١٣٨٢) من حديث أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه- ولكن ليس عندهما فيه: «ولكن صاحبكم خليل الله».

أخرجاه من حديث أبي سعيد.

وثبت -أيضاً- من حديث عبد الله بن الزبير^(١) وابن عباس^(٢) وابن مسعود^(٣).

وروى البخاري في «صحيحه»^(٤): عن عمرو بن ميمون؛ قال: إن معاذاً لما قدم اليمن؛ صلى بهم الصبح، فقرأ: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥]، فقال رجل من القوم: لقد قرأت عين أم إبراهيم!

وقد ذكره الله -تعالى- في القرآن كثيراً في غير ما موضع بالثناء عليه والمدح له، فقليل: إنه مذكور في خمسة وثلاثين موضعاً^(٥)، منها خمسة عشر في البقرة وحدها.

وهو أحد أولي العزم الخمسة المنصوص على أسمائهم تخصيصاً من بين سائر الأنبياء في آيتي الأحزاب والشورى، وهما: قوله -تعالى-: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب: ٧]، وقوله: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣] الآية.

ثم هو أشرف أولي العزم بعد محمد ﷺ.

وهو الذي وجده -عليه السلام- في السماء السابعة مسنداً ظهره بالبيت المعمور الذي يدخله كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة ثم لا يعودون إليه آخر ما عليهم^(٦).

(١) أخرجه البخاري (٣٦٥٨).

(٢) أخرجه البخاري (٣٦٥٦ و٣٦٥٧).

(٣) أخرجه مسلم (٢٣٨٣).

(٤) برقم (٤٣٤٨).

(٥) بل في تسع وستين موضعاً؛ كما في «المعجم المفهرس لألفاظ القرآن».

(٦) أخرجه البخاري (٣٤٩)، ومسلم (١٦٢).

وما وقع في حديث شريك بن أبي نمر عن أنس في حديث الإسراء من أن إبراهيم في السادسة وموسى في السابعة! فمما انتقد على شريك في هذا الحديث^(١). والصحيح الأول^(٢).

ثم مما يدل على أن إبراهيم أفضل من موسى الحديث الذي قال فيه: «وأخرت الثالثة ليوم يرغب إلي الخلق كلهم حتى إبراهيم». رواه مسلم من حديث أبي بن كعب -رضي الله عنه-^(٣).

وهذا هو المقام المحمود الذي أخبر عنه -صلوات الله وسلامه- عليه بقوله: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر»، ثم ذكر استشفاع الناس بآدم، ثم بنوح، ثم إبراهيم، ثم موسى، ثم عيسى؛ فكلهم يجيد عنها، حتى يأتوا محمداً ﷺ، فيقول: «أنا لها، أنا لها» الحديث بتمامه^(٤).

عن أبي هريرة؛ قال: قيل: يا رسول الله! من أكرم الناس؟ قال: «أكرمهم أتقاهم»؛ فقالوا: ليس عن هذا نسألك، قال: «فأكرم الناس يوسف نبي الله، ابن نبي الله، ابن نبي الله، ابن خليل الله». قالوا: ليس عن هذا نسألك. قال: «أفعلن معادن العرب تسألوني؟»، قالوا: نعم، قال: «فخيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا».

وقال البخاري^(٥): عن ابن عمر، عن النبي ﷺ؛ قال: «الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم».

فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد^(٦): عن ابن عباس، عن النبي ﷺ: «يحشر الناس عراة غرلاً؛ فأول من يكسى إبراهيم عليه السلام» ثم قرأ: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]؛ فأخرجاه في «الصحيحين».

(١) أخرجه البخاري (٧٥١٧)، ومسلم (١٦٢).

(٢) وانظر -لزما-: «صحيح الإسراء والمعراج» لشيخنا الإمام الألباني -رحمه الله- (ص ٣١ - وما بعدها).

(٣) مضى تخريجه (ص ١٤٨).

(٤) جزء من حديث أبي بن كعب -رضي الله عنه- في الشفاعة وقد مضى تخريجه

(ص ١٤٨).

(٥) في «صحيحه» برقم (٣٣٨٢ و ٣٣٩٠).

(٦) في «المسند» (١/ ٢٢٣ و ٢٢٩)، والبخاري (٣٣٤٩)، ومسلم (٢٨٦٠).

وهذه الفضيلة المعينة لا تقتضي الأفضلية بالنسبة إلى ما قابلها مما ثبت لصاحب المقام المحمود الذي يغطه به الأولون والآخرين.

وأما الحديث الآخر الذي قال الإمام أحمد^(١): عن أنس بن مالك؛ قال: قال رجل للنبي: يا خير البرية! فقال: «ذاك إبراهيم»؛ فقد رواه مسلم^(٢).

وهذا من باب الهضم والتواضع مع والده الخليل عليه السلام؛ كما قال: «لا تفضلوني على الأنبياء»، وقال: «لا تفضلوني على موسى؛ فإن الناس يصعقون يوم القيامة، فأكون أول من يفيق، فأجد موسى باطشا بقائمة العرش؛ فلا أدري أفاق قبلي أم جوزي بصعقة الطور؟»^(٣)

وهكذا كله لا ينافي ما ثبت بالتواتر عنه صلوات الله وسلامه عليه - من أنه سيد ولد آدم يوم القيامة، وكذلك حديث أبي بن كعب في «صحيح مسلم»: «وأخرت الثالثة ليوم يرغب إلى الخلق كلهم حتى إبراهيم»^(٤).

ولما كان إبراهيم - عليه السلام - أفضل الرسل وأولي العزم بعد محمد - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين -؛ أمر المصلي أن يقول في تشهده ما ثبت في «الصحيحين»^(٥) من حديث كعب بن عجرة وغيره؛ قال: قلنا: يا رسول الله! هذا السلام عليك قد عرفناه؛ فكيف الصلاة عليك؟ قال: «قولوا: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد».

وقال الله - تعالى -: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ [النجم: ٣٧]؛ قالوا: وفي جميع ما أمر به، وقام بجميع خصال الإيمان وشعبه، وكان لا يشغله مراعاة الأمر

(١) في «المسند» (٣/١٧٨ و١٨٤).

(٢) برقم (٢٣٦٩).

(٣) سيأتي تخريجه (ص ٣٦٦).

(٤) مضي (ص ١٤٨).

(٥) أخرجه البخاري (٣٣٧٠)، ومسلم (٤٠٦).

الجليل عن القيام بمصلحة الأمر القليل، ولا ينسيه القيام بأعباء المصالح الكبار عن الصغار^(١).

عين ابن عباس في قوله - تعالى -: ﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾ [البقرة: ١٢٤]؛ قال: ابتلاه الله بالطهارة؛ خمس في الرأس، وخمس في الجسد:

في الرأس: قص الشارب، والمضمضة، والسواك، والاستنشاق، وفرق الرأس.

وفي الجسد: تقليم الأظفار، وحلق العانة، والختان، ونتف الإبط، وغسل أثر الغائط والبول بالماء^(٢).

قلت: وفي «الصحيحين»^(٣) عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «الفطرة خمس: الختان، والإستحداد، وقص الشارب، وتقليم الأظفار، ونتف الإبط».

والمقصود: أنه - عليه الصلاة والسلام - كان لا يشغله القيام بالإخلاص لله - عز وجل - وخضوع العبادة العظيمة عن مراعاة مصلحة بدنه، وإعطاء كل عضو ما يستحقه من الإصلاح والتحسين، وإزالة ما يشين من زيادة شعر أو ظفر أو وجود قلع أو وسخ.

فهذا من جملة قوله - تعالى - في حقه من المدح العظيم: ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴾ [النجم: ٣٧].

(١) هذا الكلام المتين يدحض فرية كثير من الحركيين والحزبيين الذي قسموا الدين إلى قشر ولباب، فهاهم خيرة الخلق وصفوة العباد - صلى الله عليهم وسلم - لم تشغلهم المسائل الكبار عن الصغار وانظر - غير مأمور - كتابي: «دلائل الصواب في إبطال بدعة تقسيم الدين إلى قشر ولباب»؛ ففيه تفصيل وتاصيل.

(٢) أخرجه عبد الرزاق في «التفسير» (٥٧/١/١)، وابن جرير في «جامع البيان» (٥٧٢/١)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (١١٦٥/٢١٩/١)، والحاكم (٢٦٦/٢) وصححه ووافقه الذهبي.

(٣) أخرجه البخاري (٥٨٨٩)، ومسلم (٢٥٧).

ذكر صفة إبراهيم - عليه السلام -

قال الإمام أحمد^(١): عن جابر، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «عرض عليّ الأنبياء؛ فإذا موسى ضرب من الرجال؛ كأنه من رجال شنوءة، ورأيت عيسى ابن مريم؛ فإذا أقرب من رأيت به شهاً عروة بن مسعود، ورأيت إبراهيم - عليه السلام -؛ فإذا أقرب من رأيت به شهاً صاحبكم - يعني: نفسه ﷺ -، ورأيت جبريل - عليه السلام -؛ فإذا أقرب من رأيت به شهاً دحية».

وقال أحمد^(٢): عن ابن عباس؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيت عيسى ابن مريم وموسى وإبراهيم؛ فأما عيسى؛ فأحمر جعد عريض الصدر، وأما موسى؛ فأدم جسيم». قالوا له: فإبراهيم؟ قال: «انظروا إلى صاحبكم - يعني: نفسه -». أول من ولد له:

إسماعيل، من هاجر القبطية المصرية.

ثم ولد له إسحاق من سارة بنت عم الخليل.

ثم تزوج بعدها قنطورا بنت يقطن الكنعانية؛ فولدت له ستة: مديان.

وزمران.

وشوحا.

ويقشان.

(١) في «المسند» (٣/ ٣٣٤).

قلت: وأخرجه مسلم (١٦٧).

(٢) في «المسند» (١/ ٢٤٥ و ٢٥٩ و ٢٧٧ و ٢٩٦).

قلت: وأخرجه - أيضاً - البخاري (٣٣٥٥)، ومسلم (١٦٦)؛ كما أشار المصنف - رحمه

ویشباق.

ولم یسم السادس^(١).

ثم تزوج بعدها حجون بنت أمين؛ فولدت له خمسة:
کیسان.

وسورج.

وأمیم.

ولوطان.

ونافس.

هكذا ذكره أبو القاسم السهيلي في كتابه «التعريف والإعلام»^(٢).

(١) اسمه: «مدان».

(٢) (ص ١٣٩-١٤٠).

قصة لوط - عليه السلام -

وعما وقع في حياة إبراهيم الخليل من الأمور العظيمة: قصة قوم لوط - عليه السلام -، وما حل بهم من النعمة العميمة.

[نسبه عليه الصلاة والسلام]

وذلك أن لوطاً بن هاران بن تارح - وهو آزر - ولوط ابن أخيه إبراهيم الخليل، فإبراهيم وهاران وناحور أخوة.

[قومه الذين أرسل إليهم]

وكان لوط قد نزح عن مَحَلَّة عمه الخليل -عليهما السلام- بأمره له وإذنه، فنزل بمدينة سدوم من أرض غور زغر، وكانت أم تلك المحلَّة، ولها أرض ومعتلات وقرى مضافة إليها، ولها أهل من أفجر الناس وأكفرهم وأسوأهم طوية، وأردأهم سريرة وسيرة؛ يقطعون السبيل، ويأتون في ناديهم المنكر، ولا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون، ابتدعوا فاحشة لم يسبقهم إليها أحد من بني آدم، وهي إتيان الذكران من العالمين، وترك ما خلق الله من النسوان لعباده الصالحين.

فدعاهم لوط إلى عبادة الله -تعالى- وحده لا شريك له، ونهاهم عن تعاطي هذه المحرمات، والفواحش المنكرات، والأفاعيل المستقبحات؛ فتمادوا على ضلالهم وطغيانهم، واستمروا على فجورهم وكفرانهم، فأحل الله بهم من البأس الذي لا يرد ما لم يكن في خلدهم وحسانهم، وجعلهم مثلة في العالمين، وعبرة يتعظ بها الألباء من العالمين.

[قصة لوط في القرآن الكريم]

ولهذا ذكر الله - تعالى - قصتهم في غير ما موضع في كتابه المبين:
فقال - تعالى - في سورة الأعراف [٨٠-٨٤]: ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ
أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ
الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ
جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنْفُسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾
فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا
فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾ [الأعراف: ٨٠-٨٤].

وقال - تعالى - في سورة هود [٦٩-٨٣]: ﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ
بِالْبَشَرِ قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَأَى
أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكَّرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا
إِلَى قَوْمٍ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَأَمْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَهَبْنَا بِهَا سَحَابًا مِنْ دُونِ
الَّذِي يَنْوِيْلَتِي ءَالِدٌ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ
هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧١﴾ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ
عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُمْ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ﴿٧٢﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ
وَجَاءَتْهُ الْبَشَرُ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٣﴾ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّهٌ مُنِيبٌ
﴿٧٤﴾ يَتَابِرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ
غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٥﴾ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئَاءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ
هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٦﴾ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ
السَّيِّئَاتِ قَالَ يَنْفِقُمِهِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَخْزَوْا فِي
ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴿٧٧﴾ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ
وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٨﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوَى إِلَيَّ رُكْنٌ شَدِيدٌ
﴿٧٩﴾ قَالُوا يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ
وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمْ
الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَىهَا سَافِلَهَا

وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنصُودٍ ﴿٥٠﴾ مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٥١﴾ ﴿٥٢﴾

وقال - تعالى - في سورة الحجر [٥١-٧٧]: ﴿ وَنَبِّئُهُمْ عَنِ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ ﴾ ﴿٥١﴾ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٥٢﴾ قَالَ أَبَشِّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَنْ مَّسْنِي الْعَكْبَرُ فِيمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٣﴾ قَالُوا بِشَرِّنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَنِيطِينَ ﴿٥٤﴾ قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴿٥٥﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٦﴾ قَالُوا إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٧﴾ إِلَّا ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا أَمْرَأَتَهُ قَدَرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٥٩﴾ فَلَمَّا جَاءَ ءَالَ لُوطِ الْمُرْسَلُونَ ﴿٦٠﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّشْكِرُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٢﴾ وَآتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أذْنَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَٰلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٥﴾ وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٧﴾ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٨﴾ قَالُوا أَوْ لَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَلَمِينَ ﴿٦٩﴾ قَالَ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٧٠﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧١﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٢﴾ فَجَعَلْنَا عَلَيْهِمَا سَافِلًا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٣﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٤﴾ ﴿٧٥﴾

وقال - تعالى - في سورة الشعراء [١٦٠-١٧٥]: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا ﴿٤﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٥﴾ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَرْوَاحِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿٧﴾ قَالُوا لَنْ لَّمْ تَنْتَه يَلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴿٨﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ ﴿٩﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٠﴾ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١١﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٢﴾

﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ﴿١٧٣﴾
إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾

وقال -تعالى- في سورة النمل [٥٤-٥٨]: وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ
الْفَحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَيْنَكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ
بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ * فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا
أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنْاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا
أَمْرَأَتَهُ قَدَرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ﴿٥٨﴾

وقال -تعالى- في سورة العنكبوت [٢٨-٣٥]: ﴿٢٨﴾ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ
إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٩﴾ أَيْنَكُمْ
لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ
جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَتَيْنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣٠﴾ قَالَ
رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴿٣١﴾ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ
بِالبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا ظَالِمِينَ ﴿٣٢﴾
قَالَ إِنِّي فِيهَا لُوطٌ قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَأَتَهُ
كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سَيِّئًا بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ
ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجِيُكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أَمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ
الْغَابِرِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا
كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٦﴾

وقال -تعالى- في سورة الصافات [١٣٣-١٣٨]: ﴿١٣٣﴾ وَإِنَّ لُوطًا لَمِنْ
الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٤﴾ إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٥﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٣٦﴾ ثُمَّ
دَمَرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٣٧﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ ﴿١٣٨﴾ وَبِالْأَيْلِ أَفْلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٩﴾

وقال -تعالى- في سورة الذاريات [٣١-٣٧] بعد قصة ضيف إبراهيم
وبشارتهم إياه بغلام عليم: ﴿٣١﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٣٢﴾ قَالُوا

إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِ مُجْرِمِينَ ﴿٣٣﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٤﴾ مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٦﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٣٨﴾

وقال في سورة القمر [٣٣-٤٠]: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنَّذْرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا عَالَ لُوطٌ نَّجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِعْمَةٌ مِّنْ عِندِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنَّذْرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذْرٍ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقَرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذْرٍ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّذَكِّرٍ ﴿٤٠﴾﴾

وقد تكلمنا على هذه القصص في أماكنها من هذه السور في «التفسير».

وقد ذكر الله لوطاً وقومه في مواضع آخر من القرآن، تقدم ذكرها مع قوم نوح وعاد وئمود.

والمقصود: الآن إيراد ما كان من أمرهم وما أحل الله بهم، مجموعاً من الآيات والآثار، وبالله المستعان.

وذلك أن لوطاً -عليه السلام- لما دعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ونهاهم عن تعاطي ما ذكر الله عنهم من الفواحش؛ لم يستجيبوا له، ولم يؤمنوا به، حتى ولا رجل واحد منهم، ولم يتركوا ما عنه نُهوا، بل استمروا على حالهم، ولم يراعوا^(١) عن غيهم وضلالهم، وهموا بإخراج رسولهم من بين ظهرانيهم، وما كان حاصل جوابهم عن خطابهم -إذ كانوا لا يعقلون- إلا أن قالوا: ﴿أَخْرِجُوا عَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ﴾ ﴿النمل: ٥٦﴾؛ فجعلوا غاية المدح ذماً يقتضي الإخراج! وما حملهم على مقاتلتهم هذه إلا العناد واللجاج؛ فطهره الله وأهله إلا امرأته وأخرجهم منها أحسن إخراج، وتركهم في محلّتهم خالدين لكن

(١) في نسخة: «يرتدعوا».

بعد ما صيرها عليهم بحيرةً متنتة ذات أمواج، لكنها عليهم في الحقيقة نار تأجج، وحر يتوهج وماؤها ملح أجاج. وما كان هذا جوابهم إلا لما نهاهم عن ارتكاب الطامة العظمى، والفاحشة الكبرى، التي لم يسبقهم إليها أحد من العالمين أهل الدنيا؛ ولهذا صاروا مثلة فيها وعبرة لمن عليها.

وكانوا مع ذلك يقطعون الطريق، ويخونون الرفيق، ويأتون في ناديمهم - وهو مجتمعهم ومحل حديثهم وسمهم - المنكر من الأقوال والأفعال على اختلاف أصنافه، حتى قيل: إنهم كانوا يتضارطون في مجالسهم، ولا يستحيون من مجالسهم، وربما وقع منهم الفعلة العظيمة في المحافل، ولا يستنكفون ولا يرفعون لوعظ واعظ ولا نصيحة من عاقل، وكانوا في ذلك وغيره كالأنعام بل أضل سبيلاً، ولم يقلعوا عما كانوا عليه في الحاضر، ولا ندموا على ما سلف من الماضي، ولا راموا في المستقبل تحويلاً؛ فأخذهم الله أخذاً وبيلاً.

وقالوا له فيما قالوا: ﴿ أَقْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِیْنَ ۝ ﴾ [العنكبوت: ٢٩]؛ فطلبوا منه وقوع ما حذرهم عنه من العذاب الأليم وحلول البأس العظيم.

[دعاء نوح - عليه السلام - على قومه]

فعند ذلك دعا عليهم نبيهم الكريم، فسأل من رب العالمين وإله المرسلين أن ينصره على القوم المفسدين؛ فغار الله لغيرته، وغضب لغضبته، واستجاب لدعوته، وأجابه إلى طلبته، وبعث رسله الكرام، وملائكته العظام، فمروا على الخليل إبراهيم وبشروه بالغلام العليم، وأخبروه بما جاءوا له من الأمر الجسيم والخطب العميم: ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ۝ ﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ۝ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ۝ مُّسَوِّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ۝ ﴾ [الذاريات: ٣١-٣٤]، وقال: ﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ۝ ﴾

قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرًا تَهُ
كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٦﴾ [العنكبوت: ٣١ و ٣٢].

[مجادلة إبراهيم - عليه السلام - في قوم لوط]

وقال الله - تعالى -: ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ
يُجْدِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴾ ﴿٧٤﴾ [هود: ٧٤]؛ وذلك أنه كان يرجو أن يحييوا وينبوا
ويسلموا ويقبلوا ويرجعوا؛ ولهذا قال - تعالى -: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّهٌ مُنِيبٌ ﴾
﴿٧٦﴾ [هود: ٧٦]؛ لأنه قد جاء أمر ربك وإنهم آتيتهم عذاب
غير مردود ﴿٧٦﴾ [هود: ٧٦ و ٧٧]؛ أي: أعرض عن هذا وتكلم غيره؛ فإنه قد حتم
أمرهم، ووجب عذابهم وتدميرهم وهلاكهم؛ ﴿ إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ﴾؛ أي:
قد أمر به من لا يرد أمره، ولا يرد بأسه، ولا معقب لحكمه. ﴿ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ
عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴾ [هود: ٧٦].

[ضيف لوط - عليه السلام -]

قال الله - تعالى -: ﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئَاءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا
وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴾ ﴿٧٧﴾ [هود: ٧٧]؛ قال المفسرون: لما فصلت الملائكة من
عند إبراهيم - وهم جبريل وميكائيل وإسرافيل -؛ أقبلوا حتى أتوا أرض سدوم
في صور شبان حسان؛ اختباراً من الله - تعالى - لقوم لوط وإقامة للحجة عليهم،
فاستضافوا لوطاً - عليه السلام - وذلك عند غروب الشمس، فخشي إن لم يضيفهم
أن يضيفهم غيره، وحسبهم بشراً من الناس، و ﴿ سِئَاءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا
وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴾ [هود: ٧٧]؛ قال ابن عباس ومجاهد وقتادة ومحمد بن
إسحاق: شديد بلاؤه؛ وذلك لما يعلم من مدافعتة الليلة عنهم؛ كما كان يصنع
بغيرهم معهم، وكانوا قد اشترطوا عليه أن لا يضيف أحداً، ولكن رأى من لا
يمكن المحيد عنه.

وقوله: ﴿وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: ۷۸]؛ أي: هذا مع ما سلف لهم من الذنوب العظيمة الكبيرة الكثيرة.

[دفاع لوط - عليه السلام - عن ضيفه]

﴿قَالَ يَنْقُومِ هَؤُلَاءِ بِنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ [هود: ۷۸]: يرشدهم إلى غشيان نسائهم؛ وهن بناته شرعاً؛ لأن النبي للأمة بمنزلة الوالد؛ كما ورد في الحديث^(١)، وكما قال - تعالى -: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ [الأحزاب: ۶]، وفي قول بعض الصحابة والسلف: وهو أب لهم، وهذا كقوله - تعالى -: ﴿أَتَأْتُونَ الذَّكَرَانَ مِنَ الْعُلَمِينَ﴾ ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء: ۱۶۵-۱۶۶]، وهذا هو الذي نص عليه مجاهد وسعيد بن جبير والربيع بن أنس وقتادة والسدي ومحمد بن إسحاق، وهو الصواب.

والقول الآخر خطأ مأخوذ من أهل الكتاب، وقد تصحف عليهم؛ كما أخطوا في قولهم: إن الملائكة كانوا اثنين، وإنهم تعشوا عنده! وقد خبط أهل الكتاب في هذه القصة تحبيطاً عظيماً^(٢).

وقوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزَوْا فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾ [هود: ۷۸]: نهى لهم عن تعاطي ما لا يليق من الفاحشة، وشهادة عليهم بأنه ليس

(١) إشارة إلى حديث أبي هريرة مرفوعاً: «إنما أنا لكم مثل الوالد؛ أعلمكم...» الحديث أخرجه أبو داود (٨)، والنسائي (٤٠)، وابن ماجه (٣١٣)، وأحمد (٢٤٧/٢ و ٢٥٠) وغيرهم بإسناد صحيح.

(٢) كما في (سفر التكوين: الاصحاح ١٩)؛ ففيه ما يتندى له الجبين، ويستحيل في حق المرسلين.

فيهم رجل له مسكة^(١) ولا فيه خير، بل الجميع سفهاء، فجرة أقوياء، كفره أغبياء. وكان هذا من جملة ما أراد الملائكة أن يسمعه منه من قبل أن يسأله عنه.

فقال قومه - عليهم لعنة الله الحميد المجيد - مجيبين لنبيهم فيما أمرهم به من الأمر السديد: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ [هود: ٧٩]: يقولون - عليهم لعائن الله - لقد علمت يا لوط أنه لا أرب لنا في نسائنا، وإنك لتعلم مرادنا وغرضنا.

واجهوا بهذا الكلام القبيح رسولهم الكريم، ولم يخافوا سطوة العظيم، ذي العذاب الأليم؛ ولهذا قال - عليه السلام -: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود: ٨٠]؛ ودَّ أن لو كان له بهم قوة، أو له منعة وعشيرة ينصرونه عليهم؛ ليحل بهم ما يستحقونه من العذاب على هذا الخطاب. عن أبي هريرة مرفوعاً: «نحن أحق بالشك من إبراهيم، ويرحم الله لوطاً، لقد كان يأوي إلى ركن شديد، ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعي»^(٢).

وعنه: أن رسول الله ﷺ قال: «رحمة الله على لوط؛ إن كان ليأوي إلى ركن شديد - يعني: الله - عز وجل -؛ فما بعث الله بعده من نبي إلا في ثروة من قومه»^(٣).

وقال - تعالى -: ﴿وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [٣٧] قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٣٨﴾ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٣٩﴾ قَالُوا أَوْ لَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعُلَمِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٤١﴾ [الحجر: ٦٧-٧١]؛ فأمرهم بقربان نسائهم، وحذرهم الاستمرار على طريقتهم وسيئاتهم.

(١) العقل.

(٢) أخرجه البخاري (٣٣٧٢ و ٣٣٧٥)، ومسلم (١٥١).

(٣) أخرجه أحمد (٣٣٢ / ٢) بسند حسن.

وهذا ؛ وهم في ذلك لا ينتهون ولا يرعون، بل كلما نهاهم^(١)؛ يبالغون في تحصيل هؤلاء الضيفان ويحرصون، ولم يعلموا ما حم^(٢) به القدر مما هم إليه صائرون، وصبيحة ليلتهم إليه منقلبون؛ ولهذا قال - تعالى - مقسماً بحياة نبيه محمد - صلوات الله وسلامه عليه -: ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الحجر: ٧٢].

[هلاك قوم لوط ونزول العذاب بهم]

وقال - تعالى -: ﴿ وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ﴾ [القصص: ٢٨] وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِي ﴾ [القصص: ٢٩] وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ ﴾ [القصص: ٣٦ و ٣٨].

ذكر المفسرون وغيرهم: أن نبي الله لوطاً - عليه السلام - جعل يمانع قومه الدخول ويدافعهم والباب مغلق، وهم يرومون فتحه وولوجه، وهو يعظم وينهاهم من وراء الباب، وكل ما لهم في إلحاح وإلجاج^(٣)، فلما ضاق الأمر وعسر الحال؛ قال ما قال: ﴿ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوَى إِلَيَّ رُكْنٌ شَدِيدٌ ﴾ [هود: ٨٠]؛ لأحلت بكم النكال.

قالت الملائكة: ﴿ قَالُوا يَنْلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ ﴾ [هود: ٨١]، وذكروا أن جبريل - عليه السلام - خرج عليهم، فضرب وجوههم خفقة بطرف جناحه، فطمست أعينهم، حتى قيل: إنها غارت بالكلية، ولم يبق لها محل ولا عين ولا أثر، فرجعوا يتحسسون مع الحيطان، ويتوعدون رسول الرحمن، ويقولون: إذا كان الغد كان لنا وله شأن!

(١) في نسخه: «كل ما لهم».

(٢) قضي وقدر.

(٣) انتقاد الشهوة وثورانها.

قال الله - تعالى -: ﴿ وَلَقَدْ رَاودُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرِ ۚ ﴾ [٢٧-٣٨]؛ وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ [القم: ٣٧-٣٨]؛
فذلك أن الملائكة تقدمت إلى لوط - عليه السلام - آمرين له بأن يسري هو وأهله من آخر الليل، ﴿ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ ﴾؛ يعني: عند سماع صوت العذاب إذا حل بقومه، وأمروه أن يكون سيره في آخرهم كالساقة لهم.

وقوله: ﴿ إِلَّا أَمْرَأَتَكَ ﴾ [هود: ٨١] على قراءة النصب: يحتمل أن يكون مستثنى من قوله: ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ ﴾ [هود: ٨١]؛ كأنه يقول: إلا امرأتك؛ فلا تسر بها، ويحتمل أن يكون من قوله: ﴿ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَأَتَكَ ﴾ [هود: ٨١]؛ أي: فإنها ستلتفت فيصيبها ما أصابهم. ويقوي هذا الاحتمال قراءة الرفع، ولكن الأول أظهر في المعنى، والله أعلم.

وقالوا له مبشرين بهلاك هؤلاء البغاة العتاة، الملعونين النظراء والأشباه، الذين جعلهم الله سلفاً لكل خائن مريب: ﴿ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾ [هود: ٨١].

فلما خرج لوط - عليه السلام - بأهله، وهم ابتاه؛ لم يتبعه منهم رجل واحد، ويقال: إن امرأته خرجت معه، فالله أعلم.

فلما خلصوا من بلادهم، وطلعت الشمس، فكانت عند شروقها؛ جاءهم من أمر الله ما لا يرد، ومن البأس الشديد ما لا يمكن أن يصد.

قال الله - تعالى -: ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَىٰهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوِّمَةٌ عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ [هود: ٨٢-٨٣]؛ قالوا: اقتلعهن جبريل بطرف جناحه من قرارهن بمن فيهن من الأمم وما معهم من الحيوانات، وما يتبع تلك المدن من الأراضي والأماكن والمعتملات، فرفع الجميع حتى بلغ بهن عنان السماء، حتى سمعت الملائكة أصوات ديكتهم ونباح كلابهم، ثم قلبها عليهم، فجعل عاليها سافلها.

﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴾ [هود: ٨٢]؛ والسجّيل فارسي معرب، وهو الشديد الصلب القوي، ﴿ مَّنْضُودٍ ﴾؛ أي: يتبع بعضها بعضاً في نزولها عليهم من السماء، ﴿ مُّسَوِّمَةٌ ﴾؛ أي: معلمة، مكتوب على كل حجر اسم

صاحبه الذي يهبط عليه فيدمغه؛ كما قال: ﴿مُسَوَّمَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ [الذاريات: ٣٤]؛ وكما قال -تعالى-: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذِرِينَ﴾ [النمل: ٥٨]، وقال -تعالى-: ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ۖ فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى ۖ فَلِئَالِي آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾ [النجم: ٥٣-٥٥]؛ يعني: قلبها فأهوى بها منكسة عاليها سافلها، وغشاها بمطر من حجارة من سجيل متتابعة مسومة مرقومة على كل حجر اسم صاحبه الذي سقط عليه؛ من الحاضرين منهم في بلدهم، والغائبين عنها من المسافرين والنازحين والشاذين منها.

[خبر زوجة لوط - عليه السلام - وما حل بها]

ويقال: إن امرأة لوط مكثت مع قومها، ويقال: إنها خرجت مع زوجها وبنتيها، ولكنها لما سمعت الصيحة وسقوط البلدة؛ التفتت إلى قومها، وخالفت أمر ربها قديما وحديثا، وقالت: واقوماه ! فسقط عليها حجر فدمغها وألحقها بقومها إذ كانت على دينهم، وكانت عينا لهم على من يكون عند لوط من الضيفان؛ كما قال -تعالى-: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ﴾ [التحریم: ١٠]؛ أي: خانتاهما في الدين فلم يتبعاهما فيه، وليس المراد أنهما كانتا على فاحشة - حاشا وكلا ولما -؛ فإن الله لا يقدر على نبي قط أن تبغي امرأته؛ كما قال ابن عباس وغيره من أئمة السلف والخلف: ما بغت امرأة نبي قط. ومن قال خلاف هذا؛ فقد أخطأ خطأ كبيرا؛ قال الله -تعالى- في قصة الإفك لما أنزل براءة أم المؤمنين عائشة بنت الصديق زوج رسول الله ﷺ حين قال لها أهل الإفك ما قالوا، فعاتب الله المؤمنين وأنب وزجر، ووعظ وحذر، وقال فيما قال -تعالى-: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهِذَا

سُبْحَنَكَ هَذَا بُهْتَنٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ [النور: ١٥-١٦]؛ أي: سبحانه أن تكون زوجة نبيك بهذه المثابة.

[عقوبة من عمل قوم لوط]

وقوله هاهنا: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٣]؛ أي: وما هذه العقوبة ببعيدة ممن أشبههم في فعلهم.

ولهذا ذهب من ذهب من العلماء إلى أن اللائط يرحم؛ سواء أكان محصناً أو لا، ونص عليه الشافعي وأحمد بن حنبل وطائفة كثيرة من الأئمة. واحتجوا -أيضاً- بما رواه الإمام أحمد وأهل «السنن» من حديث ابن عباس: أن رسول الله ﷺ قال: «من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به»^(١).

وذهب أبو حنيفة إلى أن اللائط يلقي من شاهق جبل ويتبع بالحجارة؛ كما فعل بقوم لوط؛ لقوله -تعالى-: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٣].

[وانكم لتمررون عليها مصحين]

وجعل الله مكان تلك البلاد بحيرة منتنة لا ينتفع بمائها^(٢)، ولا بما حولها من الأرض المتاخمة لفنائها؛ لرداءتها ودناءتها، فصارت عبرة ومثلاً وعظة وآية على قدرة الله -تعالى- وعظمته وعزته في انتقامه ممن خالف أمره وكذب رسله واتبع هواه وعصى مولاه، ودليلاً على رحمته بعباده المؤمنين في إنجائهم إياهم من

(١) صحيح - أخرجه أحمد (٣٠٠/١)، وأبو داود (٤٤٦٢)، والترمذي (١٤٥٦)، وابن ماجه (٢٥٦١)، والحاكم (٣٥٥/٤)، والبيهقي (٢٣٢/٨) بإسناد صحيحه شيخنا - رحمه الله - في «إرواء الغليل» (٢٣٥٠).

(٢) وهي المسماة: «البحر الميت»، وهي أخفض منطقة على سطح الأرض!

المهلكات، وإخراجه إياهم من الظلمات إلى النور؛ كما قال -تعالى-: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ٨٥ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٨٦﴾ [الشعراء: ٨-٩].

وقال الله -تعالى-: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ﴾ ٧٢ فَجَعَلْنَا عَلَيْهِمَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ ﴿٧٣﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٤﴾ وَإِنَّهَا لِبَسِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٥﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٦﴾ [الحجر: ٧٣-٧٧]؛ أي: من نظر بعين الفراسة والتوسم؛ فهم كيف غير الله تلك البلاد وأهلها؟ وكيف جعلها بعد ما كانت أهلة عامرة هالكة غامرة؟

وقوله: ﴿وَإِنَّهَا لِبَسِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ ٧٥؛ أي: لطريق مهيع مسلوكة إلى الآن؛ كما قال: ﴿وَأَنْتُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُّصْبِحِينَ﴾ ٧٦ وَبِالْأَيْلِ أَفْلا تَعْقِلُونَ ﴿٧٧﴾ [الصافات: ١٣٧-١٣٨].

وقال -تعالى-: ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ ٣٥ [المنكوت: ٣٥]، وقال -تعالى-: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ٣٦ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٣٨﴾ [الذاريات: ٣٥-٣٧]؛ أي: تركناها عبرة وعظة لمن خاف عذاب الآخرة، وخشي الرحمن بالغيب، وخاف مقام ربه، ونهى النفس عن الهوى، فانزجر من محارم الله وترك معاصيه، وخاف أن يشابه قوم لوط، ومن تشبه بقوم؛ فهو منهم، وإن لم يكن من كل وجه؛ فمن بعض الوجوه؛ كما قال بعضهم:

فلأن لم تكونوا قوم لوط بعينهم فما قوم لوط منكم ببعيد

فالعاقل اللبيب الفاهم الخائف من ربه؛ يمثل ما أمره الله به -عز وجل-، ويقبل ما أرشده إليه رسول الله ﷺ من إتيان ما خلق له من الزوجات الحلال، والجواري من السراري ذوات الجمال، وإياه أن يتبع كل شيطان مريد، فيحق عليه الوعيد، ويدخل في قوله -تعالى-: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٣].

قصة مدين قوم شعيب - عليه السلام -

[قصة شعيب - عليه السلام - في القرآن الكريم]

قال الله - تعالى - في سورة الأعراف [٨٥ - ٩٣] بعد قصة قوم لوط: ﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَنْقُومِ رَبِّي فَمَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (٨٥) وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرَكُمْ وَأَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (٨٦) وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ ءَامَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ (٨٧) * قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعَبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴾ (٨٨) قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّيْنَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبُّنَا أَفَتُحَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴾ (٨٩) وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنْ أَتَيْتُمْ شُعَيْبًا أَنِ كُنَّا إِذَا لَخَسِرُونَ ﴾ (٩٠) فَأَخَذْتَهُمُ الرِّجْفَةُ فَاصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَثِيمِينَ ﴾ (٩١) الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴾ (٩٢) فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَنْقُومِ رَبِّي لَقَدْ أَتَيْتُكُمْ بِرِسَالَةٍ مِنْ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ ءَاسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾ (٩٣) *

وقال في سورة هود [٨٤ - ٩٥] بعد قصة قوم لوط - أيضاً: ﴿ * وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَنْقُومِ رَبِّي فَمَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أُرْسِلُكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُخِيطٍ ﴾ (٨٤) وَيَنْقُومِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ

أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٢٨﴾ بَقِيَتْ اللَّهُ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴿٢٩﴾ قَالُوا يَشْعَبُ أَصْلَوْتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٣٠﴾ قَالَ يَنْقُومُ آرَاءُيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنهَنكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٣١﴾ وَيَنْقُومُ لَا يَحْزَمُكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ ﴿٣٢﴾ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٣٣﴾ قَالُوا يَشْعَبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرُّكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْتَكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٣٤﴾ قَالَ يَنْقُومُ أَرْهَطِي أَعْزُ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيَا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٣٥﴾ وَيَنْقُومُ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَمِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ وَأَرْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٣٦﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيارِهِمْ جَثْمِينَ ﴿٣٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا آلَا بُعْدًا لِمَدِينٍ كَمَا بَعْدَتْ لُحُودُ ﴿٣٨﴾ ﴿٣٩﴾

وقال في سورة الحجر [٧٨-٧٩] بعد قصة قوم لوط -أيضاً-: ﴿ وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ ﴾ ﴿٧٨﴾ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾ ﴿٨٠﴾
وقال -تعالى- في سورة الشعراء [١٧٦-١٩١] بعد قصتهم: ﴿ كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴾ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا ﴿١٧٩﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٠﴾ * أَوفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِيلَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّي

أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ
يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٩﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٤٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ
لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٤١﴾

[قوم شعيب - عليه السلام -]

كان أهل مدين قوماً عرباً يسكنون مدينتهم مدين التي هي قرية^(١) من أرض
معان من أطراف الشام مما يلي ناحية الحجاز قريباً من بحيرة قوم لوط، وكانوا
بعدهم بمدة قريبة، ومدين قبيلة عرفت بها المدينة.

[دعوة شعيب قومه إلى التوحيد]

وكان أهل مدين كفاراً يقطعون السبيل ويخيفون المارة، ويعبدون الأيكة،
وهي شجرة من الأيكة حولها غيضة ملتفة بها، وكانوا من أسوأ الناس معاملة؛
يبخسون المكيال والميزان، ويطففون فيها؛ ويأخذون بالزائد ويدفعون بالناقص؛
فبعث الله فيهم رجلاً منهم، وهو رسول الله شعيب - عليه السلام - فدعاهم إلى
عبادة الله وحده لا شريك له، ونهاهم عن تعاطي هذه الأفاعيل القبيحة من بخس
الناس أشياءهم وإخافتهم لهم في سبلهم وطرقاتهم، فأمن به بعضهم وكفر
أكثرهم، حتى أحل الله بهم البأس الشديد، وهو الولي الحميد.

كما قال - تعالى -: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَبْنَومِ اعْبُدُوا اللَّهَ
مَا لَكُمْ مِّنَ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [الأعراف: ٨٥]؛ أي:
دلالة وحجة واضحة، وبرهان قاطع على صدق ما جئتكم به وأنه أرسلني، وهو

ما أجرى الله على يديه من المعجزات التي لم تنقل إلينا تفصيلاً، وإن كان هذا اللفظ قد دخل عليها إجمالاً.

﴿ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ﴾ [الأعراف: ٨٥]؛ أمرهم بالعدل، ونهاهم عن الظلم، وتوعدهم على خلاف ذلك فقال: ﴿ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ ﴾ [الأعراف: ٨٥-٨٦]؛ أي: طريق ﴿ تُوْعِدُونَ ﴾؛ أي: تتوعدون الناس بأخذ أموالهم من مكوس وغير ذلك وتخيفون السبل. ﴿ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ [الأعراف: ٨٦]؛ فنهاهم عن قطع الطريق الحسية الدنيوية والمعنوية الدينية.

﴿ وَادْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [الأعراف: ٨٦]؛ ذكرهم بنعمة الله - تعالى - عليهم في تكثيرهم بعد القلة، وحذرهم نقمة الله بهم إن خالفوا ما أرشدهم إليه ودلهم عليه. كما قال لهم في القصة الأخرى: ﴿ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَبُّكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴾ [مرد: ٨٤]؛ أي: لا تركبوا ما أنتم عليه وتستمروا فيه؛ فيمحق الله بركة ما في أيديكم، ويفقركم ويذهب ما به يغنيكم. وهذا مضاف إلى عذاب الآخرة، ومن جمع له هذا وهذا؛ فقد باء بالصفقة الخاسرة!

فنهاهم أولاً عن تعاطي ما لا يليق من التطفيف، وحذرهم سلب نعمة الله عليهم في دنياهم، وعذابه الأليم في آخراهم، وعنفهم أشد تعنيف.

ثم قال لهم أمراً، بعد ما كان عن ضده زاجراً: ﴿ وَيَقْوِمُوا أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ [مرد: ٨٥-٨٦].

قال ابن عباس والحسن البصري: ﴿ بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾؛ أي: رزق الله خير لكم من أخذ أموال الناس.

وقال ابن جرير^(١): ما يفضل لكم من الريح بعد وفاء الكيل والميزان: خير لكم من أخذ أموال الناس بالتطفيف. وهذا الذي قاله وحكاه حسن، وهو شبيه بقوله -تعالى-: ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾ [المائدة: ١٠٠]؛ يعني: أن القليل من الحلال خير لكم من الكثير من الحرام؛ فإن الحلال مبارك وإن قل، والحرام محقوق وإن كثر؛ كما قال -تعالى-: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الْكَاذِبَ﴾ [البقرة: ٢٧٦]، وقال رسول الله ﷺ: «إن الربا وإن كثر؛ فإن مصيره إلى قل»^(٢)؛ أي: إلى قلة. وقال رسول الله ﷺ: «البيعان بالخيار ما لم يتفرقا؛ فإن صدقا وبينا؛ بورك لهما في بيعهما، وإن كتما وكذبا؛ محقمت بركة بيعهما»^(٣).

والمقصود: أن الريح الحلال مبارك فيه وإن قل، والحرام لا يجدي وإن كثر؛ ولهذا قال نبي الله شعيب: ﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾، وقوله: ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾؛ أي: افعلوا ما أمركم به ابتغاء وجه الله ورجاء ثوابه، لا لأراكم أنا وغيري.

﴿قَالُوا يَشْعَبُ أَصْلَوْتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧]؛ يقولون هذا على سبيل الاستهزاء والتقص والتهمك! أصلاتك هذه التي تصليها هي الأمرة لك بأن تحجر علينا؛ فلا نعبد إلا إلهك؟ ونترك ما يعبد آبائنا الأقدمون وأسلافنا الأولون؟ أو ألا نتعامل إلا على الوجه الذي ترضيه أنت، ونترك المعاملات التي تأبأها وإن كنا نحن نرضاها؟! ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾؛

(١) «جامع البيان» (٩٨/٧).

(٢) صحيح - أخرجه أحمد (١/٣٩٥ و٤٢٤)، وابن ماجه (٢٢٧٩)، والحاكم (٣١٧/٤ و٣٧/٢) بإسناد صحيحه الحاكم ووافقه الذهبي والمنذري، وصححه البوصيري وشيخنا الإمام الألباني -رحمهم الله-.

(٣) أخرجه البخاري (٢٠٧٩)، ومسلم (١٥٣٢) من حديث حكيم بن حزام -رضي

الله عنه-.

قال ابن عباس وميمون بن مهران وابن جريج وزيد بن أسلم وابن جرير^(١):
يقولون ذلك أعداء الله على سبيل الاستهزاء.

﴿ قَالَ يَنْقُومُ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقْنِي مِثْرَ رِزْقِ حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَيَّ مَا أَنْتُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ [هود: ٨٨]؛ هذا تلمظ معهم في العبارة، ودعوة لهم إلى الحق بأين إشارة؛ يقول لهم: أرايتم أيها المكذبون ﴿ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي ﴾؛ أي: على أمر بين من الله - تعالى - أنه أرسلني إليكم، ﴿ وَرَزَقْنِي مِثْرَ رِزْقٍ حَسَنًا ﴾؛ يعني: النبوة والرسالة؛ يعني: وعُمي عليكم معرفتها؛ فأني حيلة لي فيكم؟ وهذا كما تقدم عن نوح - عليه السلام - أنه قال لقومه سواء.

وقوله: ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَيَّ مَا أَنْتُمْ عَنْهُ ﴾؛ أي: لست آمركم بالأمر إلا وأنا أول فاعل له، وإذا نهيتكم عن الشيء؛ فأنا أول من يتركه. وهذه هي الصفة المحمودة العظيمة، وضدها هي المردودة الذميمة؛ كما تلبس بها علماء بني إسرائيل في آخر زمانهم، وخطباؤهم الجاهلون؛ قال - تعالى -: ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَحْلُونَ أَلَمْ يَكُتَبْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ٤٤].

وذكر عندها في «الصحيح» عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يؤتى بالرجل، فيلقى في النار، فتندلق أفتاب بطنه - أي تخرج أمعاؤه من بطنه -، فيدور بها كما يدور الحمار برحاه، فيجمع أهل النار فيقولون: يا فلان! مالك؟ ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؟ فيقول: بلى، كنت آمر بالمعروف ولا آتية، وأنهى عن المنكر وآتية»^(٢).

(١) في «جامع البيان» (١٢/٦٢).

(٢) أخرجه البخاري (٣٢٦٧)، ومسلم (٢٩٨٩) من حديث أسامة بن زيد - رضي الله عنهما -.

وهذه صفة مخالفي الأنبياء من الفجار والأشقياء.

فأما السادة من النجباء والألباء من العلماء الذين يخشون ربهم بالغيب؛ فحالمهم؛ كما قال نبي الله شعيب: ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكُكُمْ إِلَى مَا أَنهَنكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ۝ أَي: ما أريد في جميع أمري إلا الإصلاح في الفعال والمقال بجهدى وطاقتى.

﴿ وَمَا تَوْفِيقِي ۝ أَي: في جميع أحوالى ۝ إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ۝ أَي: عليه أتوكل في سائر الأمور، وإليه مرجعى ومصيرى في كل أمرى، وهذا مقام ترغيب.

ثم انتقل إلى نوع من الترهيب، فقال: ﴿ وَيَقَوْمٍ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ ۝ [هود: ٨٩] ۝ أَي: لا يحملنكم مخالفتى وبغضكم ما جئتمكم به على الاستمرار على ضلالكم وجهلكم ومخالفتكم، فيحل الله بكم من العذاب والنكال نظير ما أحله بنظرائكم وأشباهكم، من قوم نوح وقوم هود وقوم صالح من المكذبين المخالفين، وقوله: ﴿ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ ۝ قيل: معناه: في الزمان؛ أي: ما بالعهد من قدم مما قد بلغكم ما أحل بهم على كفرهم وعتوهم، وقيل: معناه: وما هم منكم ببعيد في المحلة والمكان، وقيل: في الصفات والأفعال المستقبحات؛ من قطع الطريق، وأخذ أموال الناس جهرة وخفية بأنواع الخيل والشبهات. والجمع بين هذه الأقوال ممكن؛ فإنهم لم يكونوا بعيدين منهم لا زماناً ولا مكاناً ولا صفات.

ثم مزج الترهيب بالترغيب؛ فقال: ﴿ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ۝ [هود: ٩٠] ۝ أَي: أقبلوا عما أنتم فيه، وتوبوا إلى ربكم الرحيم الودود؛ فإنه من تاب إليه؛ تاب عليه؛ فإنه رحيم بعباده، أرحم بهم من الوالدة بولدها ﴿ وَدُودٌ ۝ وهو الحبيب، ولو بعد التوبة على عبده، ولو من الموبقات العظام.

﴿ قَالُوا يَشْعَبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَنكَ فِيْنَا ضَعِيفًا ﴾ [هود: ٩١]: روي عن ابن عباس وسعيد بن جبير والثوري أنهم قالوا: كان ضرير البصر^(١).

وقولهم: ﴿ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ ﴾ [هود: ٩١]؛ هذا من كفرهم البليغ وعنادهم الشنيع؛ حيث قالوا: ﴿ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ ﴾؛ أي: ما نفهمه ولا نعلمه؛ لأننا لا نحبه ولا نريده، وليس لنا همة إليه ولا إقبال عليه، وهو كما قال كفار قريش لرسول الله ﷺ: ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِيْ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِيْ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَأَعْمَلْ إِنَّا عَمِلُونَ ﴾ [فصلت: ٥].
وقولهم: ﴿ وَإِنَّا لَنَرَنكَ فِيْنَا ضَعِيفًا ﴾؛ أي: مضطهداً مهجوراً، ﴿ وَلَوْلَا رَهْطُكَ ﴾؛ أي: قبيلتك وعشيرتك فينا؛ ﴿ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾.

﴿ قَالَ يَنْقُومِ أَرْهَطِيْ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ ﴾ [هود: ٩٢]؛ أي: تخافون قبيلتي وعشيرتي وتراعوني بسببهم، ولا تخافون عذاب الله؟ ولا تراعوني لأنني رسول الله؟ فصار رهطي أعز عليكم من الله، ﴿ وَأَتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرِيَّا ﴾ [هود: ٩٢]؛ أي: جانب الله وراء ظهوركم ﴿ إِنِّي رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ [هود: ٩٢]؛ أي: هو عليم بما تعملونه وما تصنعونه، محيط بذلك كله، وسيجزيكُم عليه يوم ترجعون إليه.

[إنذاره - عليه السلام - قومه عذاب الله]

﴿ وَيَنْقُومِ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَمِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ وَأَرْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴾ [هود: ٩٣]؛ هذا أمر تهديد شديد ووعد أكيد بأن يستمروا على طريقتهم ومنهجهم وشاكلتهم؛ فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار ومن يحل عليه الهلاك

والبوار. ﴿مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ﴾؛ أي: في هذه الحياة الدنيا. ﴿وَيَحُلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾؛ أي: في الآخرة ﴿وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ﴾؛ أي: مني ومنكم فيما أخبر وبشر وحدث.

﴿وَأَرْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾: هذا كقوله: ﴿وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِّنْكُمْ ءَامَنُوا بِأَلَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِمْ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٧].

[دعاؤه عليه السلام - على قومه]

﴿قَالَ أَلَمْأَلُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِي لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعَبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَرِهِينَ﴾ [٨٨] قَدْ أَفْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّيْنَا اللَّهَ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبُّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ [٨٩] [الأعراف: ٨٨-٨٩]؛ طلبوا بزعمهم أن يردوا من آمن منهم إلى ملتهم، فانتصب شعيب للمحاجة عن قومه، فقال: ﴿أَوَلَوْ كُنَّا كَرِهِينَ﴾؛ أي: هؤلاء لا يعودون إليكم اختياراً، وإنما يعودون إليكم - إن عادوا - اضطراراً مكرهين؛ وذلك لأن الإيمان إذا خالطت بشاشته القلوب؛ لا يسخطه أحد، ولا يرد أحد عنه، ولا يحيد لأحد منه.

ولهذا قال: ﴿قَدْ أَفْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّيْنَا اللَّهَ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾؛ أي: فهو كافينا، هو العاصم لنا، وإليه ملجأنا في جميع أمرنا. ثم استفتح على قومه، واستنصر ربه عليهم في تعجيل ما يستحقونه إليهم؛ فقال: ﴿رَبُّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾؛ أي: الحاكمين. فدعا عليهم، والله لا يرد دعاء رسله إذا استنصروه على الذين جحدوه وكفروه ورسوله خالفوه.

ومع هذا؛ صمموا على ما هم عليه مشتملون وبه متلبسون: ﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِيَنَّ آتْبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنْكُمْ إِذَا لَخَسِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٩٠].

[هلاك قوم شعيب - عليه السلام -]

قال الله - تعالى -: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمِينَ ﴾ [الأعراف: ٩١]: ذكر في سورة الأعراف أنهم أخذتهم رجفة؛ أي: رجفت بهم أرضهم وزلزلت زلزالاً شديداً، أزهدت أرواحهم من أجسادها، وصيرت حيوان أرضهم كجمادها، وأصبحت جثثهم جائية؛ لا أرواح فيها، ولا حركات بها، ولا حواس لها.

وقد جمع الله عليهم أنواعاً من العقوبات، وصنوفاً من المثلات، وأشكالاً من البليات، وذلك لما اتصفوا به من قبيح الصفات؛ سلط الله عليهم رجفة شديدة أسكنت الحركات، وصيحة عظيمة أخذت الأصوات، وظلة أرسل عليهم منها شرر النار من سائر أرجائها والجهات، ولكنه - تعالى - أخبر عنهم في كل سورة بما يناسب سياقها ويوافق طباقها.

في سياق قصة الأعراف أرجفوا نبي الله وأصحابه، وتوعدوهم بالإخراج من قريتهم، أو ليعودون في ملتهم راجعين؛ فقال - تعالى -: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمِينَ ﴾ [الأعراف: ٩١]؛ فقابل الإرجاف بالرجفة، والإخافة بالخيافة، وهذا مناسب لهذا السياق ومتعلق بما تقدمه من السياق.

وأما في سورة هود؛ فذكر أنهم أخذتهم الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين؛ وذلك لأنهم قالوا لنبي الله على سبيل التهكم والاستهزاء والتقصص: ﴿ أَصَلَوْتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِيهِ أَمْوَالَنَا مَا نَشْتَوُ أَنْتَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾ [هود: ٨٧]؛ فناسب أن يذكر الصيحة التي هي كالزجر عن تعاطي هذا الكلام القبيح، الذي واجهوا به هذا الرسول الكريم الأمين الفصيح، فجاءتهم صيحة أسكتهم مع رجفة أسكتهم.

وأما في سورة الشعراء؛ فذكر أنه أخذهم عذاب يوم الظلة، وكان ذلك إجابة لما طلبوا، وتقريباً إلى ما إليه رغبوا؛ فإنهم قالوا: ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ ﴿١٨٥﴾ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّیْ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ [الشعراء: ١٨٥-١٨٨].

قال الله -تعالى- وهو السميع العليم: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ ﴿١٨٩﴾ [الشعراء: ١٨٩].

[أصحاب الأيكة هم قوم شعيب - عليه السلام -]

ومن زعم من المفسرين - كقتادة وغيره -: أن أصحاب الأيكة أمة أخرى غير أهل مدين؛ فقلوه ضعيف، وإنما عمدتهم شيثان: أحدهما: أنه قال: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ [الشعراء: ١٧٦-١٧٧]، ولم يقل: أخوهم؛ كما قال: ﴿وَالَّذِي مَدِينٌ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ [الأعراف: ٨٥].

والثاني: أنه ذكر عذابهم بيوم الظلة، وذكر في أولئك الرجفة أو الصيحة. والجواب عن الأول: أنه لم يذكر الأخوة بعد قوله: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿١٧٦﴾ [الشعراء: ١٧٦]؛ لأنه وصفهم بعبادة الأيكة؛ فلا يناسب ذكر الأخوة هاهنا، ولما نسبهم إلى القبيلة؛ ساغ ذكر شعيب بأنه أخوهم. وهذا الفرق من النفائس اللطيفة العزيزة الشريفة.

وأما احتجاجهم بيوم الظلة؛ فلإن كان دليلاً بمجردده على أن هؤلاء أمة أخرى؛ فليكن تعداد الإنتقام بالرجفة والصيحة دليلاً على أنهم أمتان أخريان، وهذا لا يقوله أحد يفهم شيئاً من هذا الشأن.

ثم قد ذكر الله عن أهل الأيكة من المذمة ما ذكره عن أهل مدين من التطفيف في المكيال والميزان؛ فدل على أنهم أمة واحدة، أهلكوا بأنواع من العذاب، وذكر في كل موضع ما يناسب من الخطاب.

وقوله: ﴿ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الشعراء: ١٨٩]: ذكروا أنهم أصابهم حر شديد، وأسكن الله هبوب الهواء عنهم سبعة أيام، فكان لا ينفعهم مع ذلك ماء ولا ظل، ولا دخولهم في الأسراب، فهربوا من محلتهم إلى البرية، فأظلمت سحابة، فاجتمعوا تحتها؛ ليستظلوا بظللها، فلما تكاملوا فيه؛ أرسلها الله ترميهم بشرر وشهب، ورجفت بهم الأرض، وجاءتهم صيحة من السماء، فآزهقت الأرواح وخرت الأشباح. ﴿ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَثِيمِينَ ﴾ ﴿ الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ﴾ ﴿ الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٩١-٩٢].

[نجاة شعيب - عليه السلام - ومن معه من المؤمنين]

ونجى الله شعيباً ومن معه من المؤمنين؛ كما قال - تعالى - وهو أصدق القائلين:- ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيارِهِمْ جَثِيمِينَ ﴾ ﴿ كَانَ لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ﴾ ﴿ إِلَّا بُعْدًا لِّمَذِينٍ كَمَا بَعْدَتْ ثُمُودُ ﴾ [هود: ٩٤-٩٥]، وقال - تعالى -: ﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لِيُنَّبَغْتُمْ شُعَيْبًا إِنْ كُنْتُمْ إِذَا لَخَسِرُونَ ﴾ ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَثِيمِينَ ﴾ ﴿ الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ﴾ ﴿ الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٩٠-٩٢]، وهذا في مقابلة قولهم: ﴿ لِيُنَّبَغْتُمْ شُعَيْبًا إِنْ كُنْتُمْ إِذَا لَخَسِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٩٠].

ثم ذكر - تعالى - عن نبيهم أنه نعاهم إلى أنفسهم موبخاً ومؤثماً ومقرعاً، فقال - تعالى -: ﴿ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٩٣]؛ أي: أعرض عنهم مولياً عن محلتهم بعد هلكتهم قاتلاً: ﴿ يَاقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ ﴾؛ أي: قد أدت ما كان واجباً علي من البلاغ التام والنصح الكامل، وحرصت على هدايتكم بكل ما أقدر عليه وأتوصل إليه، فلم

ینفعکم ذلك؛ لأن الله لا یهدی من یضلّ وما لهم من ناصرین؛ فلیست أتأسف هذا علیکم؛ لأنکم لم تكونوا تقبلون النصیحة، ولا تخافون يوم الفصیحة؛ ولهذا قال: ﴿فَكَيْفَ ءَاسَى﴾؛ أي: أحزن ﴿عَلَى قَوْمٍ كَفَرِينَ﴾؛ أي: لا یقبلون الحق ولا یرجعون إلیه ولا یلتفتون إلیه؛ فحل بهم من بأس الله الذی لا یرد ما لا یدافع ولا یمانع، ولا محید لأحد أرید به عنه، ولا مناص منه.

باب ذكر ذرية إبراهيم - عليه الصلاة والسلام -

قد قدمنا قصته مع قومه، وما كان من أمرهم، وما آل إليه أمره - عليه الصلاة والسلام - والتحية والإكرام، وذكرنا ما وقع في زمانه من قصة قوم لوط، وأتبعنا ذلك بقصة مدين قوم شعيب - عليه السلام -؛ لأنها قرينتها في كتاب الله - عز وجل - في مواضع متعددة، فذكر - تعالى - بعد قصة قوم لوط قصة مدين، وهم أصحاب الأيكة على الصحيح كما قدمنا، فذكرناها تبعاً لها اقتداء بالقرآن العظيم.

ثم نشرع الآن في الكلام على تفضيل ذرية إبراهيم - عليه السلام -؛ لأن الله جعل في ذريته النبوة والكتاب؛ فكل نبي أرسل بعده؛ فمن ولده.

ذكر إسماعيل - عليه السلام -

وقد كان للخليل بنون كما ذكرنا، ولكن أشهرهم الأخوان النبيان العظيمان الرسولان، أسنهما وأجلهما - الذي هو الذبيح على الصحيح -؛ إسماعيل - بكر إبراهيم الخليل - من هاجر القبطية المصرية - عليها السلام من العظيم الجليل -.

ومن قال: إن الذبيح هو إسحاق؛ فإنما تلقاه من نقلة بني إسرائيل، الذين بدّلوا وحرفوا وأولّوا التوراة والإنجيل، وخالفوا ما بأيديهم في هذا من التنزيل؛ فإن إبراهيم أمر بذبح ولده البكر - وفي رواية: الوحيد -، وأياً ما كان؛ فهو إسماعيل بنص الدليل؛ ففي نص كتابهم^(١) أن إسماعيل وُلِدَ لإبراهيم من العمر ست وثمانون سنة، وإنما ولد إسحاق بعد مضي مائة سنة من عمر الخليل؛ فإسماعيل هو البكر لا محالة، وهو الوحيد صورة ومعنى على كل حالة: أما في الصورة؛ فلأنه كان ولده أزيد من ثلاث عشرة سنة. وأما أنه وحيد في المعنى؛ فإنه هو الذي هاجر به أبوه ومعه أمه هاجر - وكان صغيراً رضيعاً فيما قيل -، فوضعهما في وهاد جبال فاران، وهي الجبال التي حول مكة نعم المقيّل، وتركهما هنالك ليس معهما من الزاد والماء إلا القليل، وذلك ثقة بالله وتوكلاً عليه،

(١) «العهد القديم» (سفر التكوين: الاصحاح: ٢٢).

فحاطهما الله - تعالى - بعنايته وكفايته فنعم الحسيب والكافي والوكيل والكفيل؛ فهذا هو الولد الوحيد في الصورة والمعنى، ولكن أين من يتفطن لهذا السر؟! وأين من يحل هذا المحل؟! والمعنى لا يدركه ويحيط بعلمه إلا كل نبية نبيل!

[ثناء الله على إسماعيل في القرآن]

وقد أثنى الله - تعالى - عليه ووصفه بالحلم، والصبر، وصدق الوعد، والمحافظة على الصلاة، والأمر بها لأهله؛ ليقبهم العذاب، مع ما كان يدعو إليه من عبادة رب الأرباب.

قال الله - تعالى -: ﴿ فَبَشِّرْنَاهُ بِعِلْمٍ حَلِيمٍ ۝ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَبْنَؤُنِي إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَتَأَبَّتُ أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ۝ ﴾ [الصافات: ١٠١، ١٠٢]؛ فطواع أباه على ما إليه دعاه، ووعد به بأن سيصبر؛ فوفي بذلك، وصبر على ذلك. وقال - تعالى -: ﴿ وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ۝ وَكَانَ بِأَمْرٍ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ۝ ﴾ [مرم: ٥٤، ٥٥].

وقال - تعالى -: ﴿ وَادْكُرْ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ۝ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ۝ وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ۝ وَادْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الْأَخْيَارِ ۝ ﴾ [ص: ٤٥، ٤٨].

وقال - تعالى -: ﴿ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ ۝ وَادْخُلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِّنَ الصَّالِحِينَ ۝ ﴾ [الأنبياء: ٨٥، ٨٦]. وقال - تعالى -: ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ۝ ﴾ [النساء: ١٦٣].

وقال -تعالى:- ﴿ قُولُوا ءَامَنَّا بِاللّٰهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا أِبْرَاهِيمَ
وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ ﴾ [البقرة: ۱۳۶].

وقال -تعالى:- ﴿ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ
وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ ءَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ
شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة: ١٤٠].

فذكر الله عنه كل صفة جميلة، وجعله نبيه ورسوله، وبرأه من كل ما نسب إليه الجاهلون، وأمر بأن يؤمن بما أنزل عليه عباده المؤمنون.

[ثناء الرسول ﷺ على إسماعيل - عليه السلام -]

وذكر علماء النسب وأيام الناس:

أنه أول من ركب الخيل، وكانت قبل ذلك وحوشاً.

وأنه أول من تكلم بالعربية الفصيحة البليغة، وكان قد تعلمها من العرب العاربة الذين نزلوا عندهم بمكة من جرهم والعماليق وأهل اليمن ومن الأمم المتقدمين من العرب قبل الخليل.

عن النبي ﷺ : أنه قال: «أول من فُتق لسانه بالعربية البينة إسماعيل، وهو ابن أربع عشرة سنة»^(١).

(١) صحيح لغیره- أخرجه الشيرازي في «الألقاب»، والزبير بن بكار من حديث علي -رضي الله عنه-، وحسنه الحافظ ابن حجر -رحمه الله-؛ كما في «فيض القدير» (٣/٩٣).
وأخرجه الطبراني والديلمي من حديث ابن عباس -رضي الله عنهما- بإسناد حسن قاله الحافظ ابن حجر -رحمه الله-؛ كما في «فيض القدير».

وأخرجه الحاكم (٥٥٣/٢)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٦٢٠) موقوفاً على ابن عباس -رضي الله عنهما- بإسناد ضعيف.

ويشهد له حديث حفر زمزم وبناء البيت.

وبالجملة؛ فالحديث بمجموع ذلك صحيح -إن شاء الله-، وصححه شيخنا الإمام
الألباني في «صحيح الجامع الصغير» (٢٥٧٨).

[أولاد إسماعيل - عليه السلام -]

وقد قدمنا أنه تزوج لما شب امرأة من العماليق، وأن أباه أمره بفراقها، ففارقها. ثم نكح غيرها، فأمره أن يستمر بها، فاستمر بها، فولدت له اثني عشر ولداً ذكراً، وقد سماهم محمد بن إسحاق - رحمه الله - وهم: نبايوت، وقيدار، وأدثيل، ومبسام، ومشماع، ومسا، ورومة، وحادار، ويطور، ونافيش، وتيما، وقدمة.

وهكذا ذكرهم أهل الكتاب في كتابهم^(١)، وعندهم أنهم الإثنا عشر عظيم المبرر بهم المتقدم ذكرهم، وكذبوا في تأويلهم ذلك. وكان إسماعيل - عليه السلام - رسولاً إلى أهل تلك الناحية وما والاها، من قبائل جرهم والعماليق وأهل اليمن صلوات الله وسلامه عليه. ولما حضرته الوفاة؛ أوصى إلى أخيه إسحاق، ودفن نبي الله إسماعيل بالحجر مع أمه هاجر. وعرب الحجاز كلهم ينتسبون إلى ولديه: نبايوت، وقيدار.

(١) (سفر التكوين: الاصحاح: ٢٥).

ذكر إسحاق بن إبراهيم

الكريم ابن الكريم - عليهما الصلاة والسلام -

قد قدمنا أنه ولد ولأبيه مائة سنة بعد أخيه إسماعيل بأربع عشرة سنة، وكان عمر أمه سارة حين بُشِّرَتْ به تسعين سنة.
قال الله - تعالى -: ﴿ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ۖ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ ۖ ﴾ [الصافات: ١١٢-١١٣].

وقد ذكره الله - تعالى - بالثناء عليه في غير ما آية من كتابه العزيز.
وقدمنا في حديث أبي هريرة عن رسول الله ﷺ: «إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم»^(١).

[أولاد إسحاق - عليه السلام -]

وذكر أهل الكتاب^(٢) أن إسحاق لما تزوج رفقة بنت بتوئيل في حياة أبيه؛ كان عمره أربعين سنة، وأنها كانت عاقراً، فدعا الله لها؛ فحملت؛ فولدت غلامين توأمين:

أولهما: اسمه^(٣) عيصو، وهو الذي تسميه العرب العيص، وهو والد الروم.
والثاني: خَرْجَ وهو أخذ بعقب أخيه؛ فسموه يعقوب، وهو إسرائيل الذي يتنسب إليه بنو إسرائيل.

(١) مضي (ص ١٥٤).

(٢) (سفر التكوين: الاصحاح ٢٤-٣٥).

(٣) (في نسخة: «سموه»).

[قصة يوسف - عليه السلام -]

ذكر ما وقع من الأمور العجيبة
في حياة إسرائيل - عليه السلام - فمن ذلك
قصة يوسف بن راحيل

[أهمية القرآن وإعجازه]

وقد أنزل الله - عز وجل - في شأنه وما كان من أمره سورة من القرآن العظيم؛ ليتدبر ما فيها من الحكم والمواعظ والآداب والأمر الحكيم. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم ﴿الرَّتِّلْكَ ءَايَتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ۝﴾ [يوسف: ١-٣].

قد تكلمنا على الحروف المقطعة في أول تفسير سورة البقرة؛ فمن أراد تحقيقه؛ فلينظره ثم.

وتكلمنا على هذه السورة مستقصى في موضعها من «التفسير»، ونحن نذكر هاهنا نبذاً مما هناك على وجه الإيجاز والتّجاز.

وجملة القول في هذا المقام: إنه - تعالى - يمدح كتابه العظيم الذي أنزله على عبده ورسوله الكريم، بلسان عربي، فصيح بين واضح جلي، يفهمه كل عاقل ذكي زكي؛ فهو أشرف كتاب نزل من السماء، أنزله أشرف الملائكة على أشرف الخلق في أشرف زمان ومكان، بأفصح لغة وأظهر بيان؛ فإن كان السياق في الأخبار الماضية أو الآتية؛ ذكر أحسنها وأبينها، وأظهر الحق مما اختلف الناس فيه، ودفع الباطل وزيفه ورده.

وإن كان في الأوامر والنواهي؛ فأعدل الشرائع؛ وأوضح المناهج، وأبين حُكْمًا، وأعدل حُكْمًا؛ فهو كما قال - تعالى - : ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۝﴾ [الأنعام: ١١٥]؛ يعني: صدقاً في الأخبار، وعدلاً في الأوامر والنواهي.

ولهذا قال -تعالى-: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ [يوسف: ٣]؛ أي: بالنسبة إلى ما أوحى إليك فيه؛ كما قال -تعالى-: ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نُّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى: ٥٢-٥٣].

وقال -تعالى-: ﴿ كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴾ [طه: ٩٩-١٠١]؛ يعني: من أعرض عن هذا القرآن واتبع غيره من الكتب؛ فإنه يناله هذا الوعيد.

عن جابر: أن عمر بن الخطاب أتى النبي ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب، فقرأه على النبي ﷺ. قال: فغضب، وقال: «أمتهوكون»^(١) فيها يا ابن الخطاب؟ والذي نفسي بيده؛ لقد جئتكم بها بيضاء نقية، لا تسألوهم عن شيء؛ فيخبروكم بحق فتصدقوا به، أو بباطل فتكذبوا به^(٢)، والذي نفسي بيده؛ لو أن موسى كان حياً؛ ما وسعه إلا أن يتبعني»^(٣). إسناده صحيح.

(١) جمع متهوك: وهو الذي يقع في الأمر بغير رؤية.

(٢) في الأصول: «بحق فتكذبونه، أو بباطل فتصدقونه»، وهو خطأ من حيث اللغة والرواية.

(٣) حسن - أخرجه أحمد (٣/ ٣٨٧)، والدارمي (١/ ١١٥)، وابن أبي عاصم في «السنة»

(٥٠) بإسناد ضعيف؛ لأن مجالداً ليس بالقوي.

ويشهد له الطريق الآخر الذي ذكره المصنف عند أحمد (١/ ٤٧٠) بإسناد فيه جابر

الجعفي وهو ضعيف.

وله طرق أخرى يزداد بها قوة خرجها شيخنا -رحمه الله- في «إرواء الغليل» (١٥٨٩).

[رؤيا يوسف - عليه السلام -]

﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ۖ ﴾ قَالَ يَبْنَىٰ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَيَّ إِخْوَتَكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۖ وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۖ ﴾ [يوسف: ٤-٦].

يعقوب كان له من البنين اثنا عشر ولدا ذكرا، وإليهم تنسب أسباط بني إسرائيل كلهم، وكان أشرفهم وأجلهم وأعظمهم يوسف - عليه السلام -. وقد ذهب طائفة من العلماء إلى أنه لم يكن فيهم نبي غيره، وباقى إخوته لم يوح إليهم.

وظاهر ما ذكر من فعالهم ومقالمهم في هذه القصة يدل على هذا القول. ومن استدل على نبوتهم بقوله: ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا إِلَّا بِإِذْنِهِ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ ﴾ [البقرة: ١٣٦]، وزعم أن هؤلاء هم الأسباط؛ فليس استدلاله بقوي؛ لأن المراد بالأسباط شعوب بني إسرائيل وما كان يوجد فيهم من الأنبياء الذين ينزل عليهم الوحي من السماء، والله أعلم.

ومما يؤيد أن يوسف - عليه السلام - هو المختص من بين إخوته بالرسالة والنبوة: أنه ما نص على واحد من إخوته سواه؛ فدل على ما ذكرناه. ويستأنس لهذا بما قال الإمام أحمد: عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ قال: «الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم»^(١).

قال المفسرون وغيرهم: رأى يوسف - عليه السلام - وهو صغير قبل أن يحتلم كأن أحد عشر كوكباً - وهم إشارة إلى بقية إخوته - والشمس والقمر - وهما عبارة عن أبويه -، قد سجدوا له، فهاله ذلك، فلما استيقظ؛ قصها على أبيه، فعرف أبوه أن سينال منزلة عالية ورفعة عظيمة في الدنيا والآخرة، بحيث يخضع له أبواه وإخوته فيها، فأمره بكتمانها، وأن لا يقصها على إخوته؛ كيلا يحسدوه ويبغوا له الغوائل، ويكيدوه بأنواع الحيل والمكر.

وهذا يدل على ما ذكرناه؛ ولهذا جاء في بعض الآثار: «استعينوا على قضاء حوائجكم بكتمانها؛ فإن كل ذي نعمة محسود»^(١).

وعند أهل الكتاب^(٢) أنه قصها على أبيه وإخوته معاً وهو غلط منهم.

﴿ وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ ﴾؛ أي: وكما أراك هذه الرؤيا العظيمة؛ فإذا كتمتها؛ ﴿ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ ﴾؛ أي: يخصك بأنواع اللطف والرحمة. ﴿ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾؛ أي: يفهمك من معاني الكلام وتعبير المنام ما لا يفهمه غيرك. ﴿ وَبِئْسَ نِعْمَتُهُ عَلَيْكَ ﴾؛ أي: بالوحي إليك. ﴿ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ ﴾؛ أي: بسببك، ويحصل لهم بك خير الدنيا والآخرة. ﴿ كَمَا أَتَمَّمَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ ﴾؛ أي: ينعم عليك ويحسن إليك بالنبوة؛ كما أعطاهما أباك يعقوب، وجدك إسحاق، ووالد جدك إبراهيم الخليل. ﴿ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾؛ كما قال - تعالى -: ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ [الأنعام: ١٢٤]؛ لهذا قال رسول الله ﷺ لما سئل: أي الناس أكرم؟ قال: «يوسف نبي الله ابن نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله»^(٣).

(١) حسن دون الجملة الأخيرة - أخرجه السهمي في «تاريخ جرجان» (٣٥٦)، وابن حبان في «روضة العقلاء» (ص ١٨٧) من حديث أبي هريرة بإسناد جوده شيخنا - رحمه الله - في «الصحيح» (١٤٥٣)، وذكر له شواهد عن معاذ وعلي وابن عباس وغيرهم؛ لكن الجملة الأخيرة ليس لها ما يشد عضدها؛ فهي ضعيفة، والله أعلم.

(٢) «العهد القديم» (سفر التكوين: الاصحاح ٣٧-٥٠).

(٣) مضى تخريجه (ص ١٥٤).

[إخوة یوسف یتامرون علیه]

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ ءَايَاتٍ لِّلَّسَّائِلِينَ ﴾ ٧ اِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا أُمِينًا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴿٩﴾ [يوسف: ٧-٩].

ينبه - تعالى - على ما في هذه القصة من الآيات والحكم والدلالات المواعظ والبيانات.

ثم ذكر حسد إخوة يوسف له على محبة أبيه له ولأخيه - يعنون شقيقه لأمه بنيامين - أكثر منهم، وهم عصبة؛ أي: جماعة؛ يقولون: فكنا نحن أحق بالمحبة من هذين ﴿ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾؛ أي: بتقديمه جبهما علينا. ثم اشتوروا فيما بينهم في قتل يوسف أو إبعاده إلى أرض لا يرجع منها؛ ليخلوا لهم وجه أبيهم؛ أي: لتمحض محبته لهم وتتوفر عليهم، وأضمرُوا التوبة بعد ذلك!

فلما تمالؤوا على ذلك وتوافقوا عليه؛ ﴿ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيِّبَتِ الْغُيُبِ يَلْقَاهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ ﴾؛ أي: المارة من المسافرين. ﴿ إِنْ كُنْتُمْ فَعَلِينَ ﴾: ما تقولون لا محالة؛ فليكن هذا الذي أقول لكم؛ فهو أقرب حالا من قتله أو نفيه وتغريبه. فاجمعوا رأيهم على هذا، فعند ذلك: ﴿ قَالُوا يَتَّابَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَصِیحُونَ ﴾ ١١ أرسله معنا غداً يرتع ويلعب وَإِنَّا لَهُ لَنَحْفُظُونَ ﴿ ١٢ ﴾ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴿ ١٣ ﴾ قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿ ١٤ ﴾ [يوسف: ١١-١٤] طلبوا من أبيهم أن يرسل معهم أخاهم يوسف، وأظهروا له أنهم يريدون أن يرعى معهم، وأن يلعب وينبسط، وقد أضمرُوا له ما الله به عليم.

فأجابهم الشيخ - عليه من الله أفضل الصلاة والتسليم - : يا بني! يشق علي أن أفارقه ساعة من النهار، ومع هذا أخشى أن تشتغلوا في لعبكم وما أنتم فيه، فيأتي الذئب فيأكله، ولا يقدر على دفعه عنه؛ لصغره وغفلتكم عنه؛ ﴿ قَالُوا لَئِنْ

أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذَا لَخَسِرُونَ ﴿١٨﴾؛ أي: لئن عدا عليه الذئب فأكله من بيننا، أو اشتغلنا عنه حتى وقع هذا، ونحن جماعة؛ ﴿١٩﴾ إِنَّا إِذَا لَخَسِرُونَ؛ أي: عاجزون هالكون.

وعند أهل الكتاب: أنه أرسله وراءهم يتبعهم، فضل عن الطريق، حتى أرشده رجل إليهم! وهذا -أيضاً- من غلطهم وخطئهم في التعريب؛ فإن يعقوب -عليه السلام- كان أحرص عليه من أن يبعثه معهم؛ فكيف يبعثه وحده؟!

[يوسف -عليه السلام- في الجب]

﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠﴾ وَجَاءَ وَآبَاهُمَا عِشَاءً يَتَكَوَّنَ ﴿٢١﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴿٢٢﴾ وَجَاءَهُ عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [يوسف: ١٥-١٨].

لم يزلوا بأبيهم حتى بعثه معهم؛ فما كان إلا أن غابوا عن عينيه، فجعلوا يشتمونه ويهينونه بالفعال والمقال، وأجمعوا على إلقائه في غيابة الجب؛ أي: في قعره، على راعونته، وهي: الصخرة التي تكون في وسطه، يقف عليها المائح، وهو: الذي ينزل؛ ليملأ الدلاء إذا قل الماء، والذي يرفعها بالحبل يسمى: المائح. فلما ألقوه فيه؛ أوحى الله إليه: إنه لا بد لك من فرج ومخرج من هذه الشدة التي أنت فيها، ولتخبرن إخوتك بصنيعهم هذا في حال أنت فيها عزيز، وهم محتاجون إليك خائفون منك: ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾.

وعن ابن عباس: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾؛ أي: لتخبرنهم بأمرهم هذا في حال لا يعرفونك فيها. رواه ابن جرير عنه ^(١).

فلما وضعوه فيه ورجعوا عنه؛ أخذوا قميصه؛ فلطخوه بشيء من دم، ورجعوا إلى أبيهم عشاء وهم ييكون؛ أي: على أخيه؛ ولهذا قال بعض السلف: لا يغرنك بكاء المتظلم فرب ظالم وهو باك! وذكر بكاء إخوة يوسف.

﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ﴾ ^(٢)؛ أي: في ظلمة الليل؛ ليكون أمسى لغدرهم لا لعذرهم. ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتْعِنَا﴾؛ أي: ثيابنا ﴿فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ﴾؛ أي: في غيبتنا عنه في استباقنا. وقولهم: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾؛ أي: وما أنت بمصدق لنا في الذي أخبرناك من أكل الذئب له، ولو كنا غير متهمين عندك، فكيف وأنت تتهمنا في هذا؟ فإنك خشيت أن يأكله الذئب، وضمننا لك ألا يأكله لكثرتنا حوله، فصرنا غير مُصَدِّقِينَ عندك؛ فمعذور أنت في عدم تصديقك لنا والحالة هذه.

﴿وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾؛ أي: مكذوب مفتعل؛ لأنهم عمدوا إلى سخلة ذبحوها، فأخذوا من دمها، فوضعوه على قميصه؛ ليوهموه أنه أكله الذئب. قالوا: ونسوا أن يخرقوه! وآفة الكذب النسيان! ولما ظهرت عليهم علائم الريبة؛ لم يُرْجُ صنيعهم على أبيهم؛ فإنه كان يفهم عداوتهم له، وحسدهم إياه على محبته له من بينهم أكثر منهم؛ لما كان يتوسم فيه من الجلالة والمهابة التي كانت عليه في صغره؛ لما يريد الله أن يخصه به من نبوته، ولما راودوه عن أخذه، فبمجرد ما أخذوه أعدموه، وغيبوه عن عينيه، وجاءوا وهم يتباكون، وعلى ما تمالؤوا يتواطؤون؛ ولهذا: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ ^(٣).

وعند أهل الكتاب: أن رويين أشار بوضعه في الحب؛ ليأخذه من حيث لا يشعرون ويرده إلى أبيه، فغافلوه وباعوه لتلك القافلة، فلما جاء رويين آخر النهار

(١) في «جامع البيان» (٩٦/١٢).

ليخرج يوسف لم يجده؛ فصاح وشق ثيابه، وعمد أولئك إلى جدي، فذبحوه، ولطخوا من دمه جبة يوسف، فلما علم يعقوب شق ثيابه ولبس مئزراً أسود وحزن على ابنه أياماً كثيرة.

وهذه الركافة جاءت من خطتهم في التعبير والتصوير.

[يوسف - عليه السلام - في بيت عزيز مصر]

وقال - تعالى -: ﴿ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَبُشْرَىٰ هَذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّهُ بِضْعَةً ۖ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِّصْرَ لَأَمْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [يوسف: ١٩-٢٢].

ينبغي الله - تعالى - عن قصة يوسف حين وُضع في الحب أنه جلس ينتظر فرج الله ولطفه به، ﴿ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ ﴾؛ أي: مسافرون، فأرسلوا بعضهم ليستقوا من ذلك البئر، فلما أدلى أحدهم دلوه؛ تعلق فيه يوسف، فلما رآه ذلك الرجل؛ ﴿ قَالَ يَبُشْرَىٰ ﴾؛ أي: يا بشارتي! ﴿ هَذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّهُ بِضْعَةً ﴾؛ أي: أوهموا أنه معهم غلام من جملة متجرهم ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾؛ أي: هو عالم بما تمالاً عليه إخوته وبما يسره واجدوه من أنه بضاعة لهم، ومع هذا لا يغيره تعالى؛ لما له في ذلك من الحكمة العظيمة والقدر السابق والرحمة بأهل مصر؛ بما يجري الله على يدي هذا الغلام الذي يدخلها في صورة أسير رقيق، ثم بعد هذا يملكه أزمة الأمور وينفعهم الله به في دنياهم وأخراهم بما لا يحد ولا يوصف.

﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِّصْرَ لَأَمْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ ﴾؛ أي: أحسني إليه، ﴿ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ﴾؛ وهذا من لطف الله به ورحمته وإحسانه إليه، بما يريد أن يؤهله له ويعطيه من خيري الدنيا والآخرة.

وقوله: ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ ﴾؛ أي: وكما قيضنا هذا العزيز وامراته يحسنان إليه ويعتنيان به؛ مكنا له في أرض مصر. ﴿ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾؛ أي: فهمها، وتعبير الرؤيا من ذلك. ﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ ﴾؛ أي: إذا أراد شيئاً؛ فإنه يقيض له أسباباً وأموراً لا يهتدي إليها العباد؛ ولهذا قال -تعالى-: ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾.

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٢١)؛ فدل على أن هذا كله كان وهو قبل بلوغ الأشد، وهو حد الأربعين الذي يوحى الله فيه إلى عباده النبيين - عليهم الصلاة والسلام من رب العالمين -.

وقد اختلفوا في مدة العمر الذي هو بلوغ الأشد، والصواب أنه أربعون سنة، ويشهد له قوله - تعالى -: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً ﴾ [الأحقاف: ١٥].

[امرأة العزيز تراود يوسف - عليه السلام - عن نفسه]

﴿ وَرَاوَدَتْهُ الْيَتِيمَىٰ هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ ۖ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوًى إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٧﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنَّ رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ ۚ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ۗ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴿٢٨﴾ وَأَسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ ۖ وَأَلْقَيَا إِلْبَابَ سَيِّدَهَا قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسَجَّنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي ۖ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدٌّ مِّنْ قَبْلٍ فَصَدَقْتُ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٣٠﴾ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدٌّ مِّنْ دُبُرٍ فَكَذَّبْتَ وَهُوَ مِنَ الصّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصَهُ قُدًّا مِّنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَذِبِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٣٢﴾ يُوسُفُ أَعْرَضَ عَنْ هَٰذَا ۖ وَأَسْتَغْفِرِي لِدُنْيَاكِ إِنَّا كُنْتُمِنَ الْخَاطِئِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [يوسف: ٢٣-٢٩].

يذكر -تعالى- ما كان من مراودة امرأة العزيز ليوسف -عليه السلام- عن نفسه، وطلبها منه ما لا يليق بحاله ومقامه، وهي في غاية الجمال والمال والمنصب والشباب، وكيف غلّقت الأبواب عليها وعليه، وتهيات له وتصنعت ولبست أحسن ثيابها وأفخر لباسها، وهي مع هذا كله امرأة الوزير.

وهذا كله من أن يوسف - عليه السلام - شاب بديع الجمال والبهاء؛ إلا أنه نبي من سلالة الأنبياء؛ فعصمه ربه عن الفحشاء، وحماه عن مكر النساء؛ فهو سيد السادة النجباء، السبع الأتقياء، المذكورين في «الصحيحين»^(١) عن خاتم الأنبياء، في قوله -عليه الصلاة والسلام- عن رب الأرض والسماء: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، ورجل ذكر الله خالياً؛ ففاضت عيناه، ورجل معلق قلبه بالمسجد؛ إذا خرج منه حتى يعود إليه، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، وشاب نشأ في عبادة الله، ورجل دعت امرأة ذات منصب وجمال؛ فقال: إني أخاف الله».

والمقصود: أنها دعتة إليها، وحرصت على ذلك أشد الحرص؛ فقال: ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي﴾؛ يعني: زوجها صاحب المنزل؛ سيدي. ﴿أَحْسَنَ مَثْوًى﴾؛ أي: أحسن إلي وأكرم مقامي عنده. ﴿إِنَّهُ لَا يُقَلِّحُ الظَّالِمُونَ﴾. وقد تكلمنا على قوله -تعالى-: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهَا وَلَوْلَا أَنْ رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾؛ بما فيه كفاية ومقنع في «التفسير»^(٢).

وأكثر أقوال المفسرين هاهنا متلقى من كتب أهل الكتاب؛ فالإعراض عنه أولى بنا.

(١) أخرجه البخاري (٦٦٠)، ومسلم (١٠٣١) من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه-.

(٢) (٣٠٩-٣٠٨/٤).

والذي يجب أن يعتقد: أن الله - تعالى - عصمه وبرأه ونزهه عن الفاحشة وحماه عنها وصانه منها؛ ولهذا قال - تعالى -: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُتَّخِصِينَ﴾.

﴿وَأَسْتَبْقَى الْبَابَ﴾؛ أي: هرب منها طالباً الباب؛ ليخرج منه فراراً منها، فاتبعته في أثره. ﴿وَأَلْفَيْ﴾؛ أي: وجداً ﴿سَيِّدَهَا﴾؛ أي: زوجها ﴿لَذَا الْبَابِ﴾؛ فبدرته بالكلام وحرضته عليه ﴿قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾: اتهمته وهي المتهمه، وبرأت عرضها ونزهت ساحتها؛ فلهذا قال يوسف - عليه السلام -: ﴿هِيَ رَاوَدَّتْنِي عَنْ نَفْسِي﴾: احتاج إلى أن يقول الحق عند الحاجة. ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ فقال: ﴿إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾؛ أي: لأنه يكون قد راودها فذافعته حتى قدت مقدم قميصه، ﴿إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾؛ أي: لأنه يكون قد هرب منها فاتبعته وتعلقت فيه فانشق قميصه لذلك.

وكذلك كان؛ ولهذا قال - تعالى -: ﴿فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَتِّدِكُنَّ إِنَّ كَتِّدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾؛ أي: هذا الذي جرى من مكركن، أنت راودتيه عن نفسه، ثم اتهمتيه بالباطل.

ثم ضرب بعلمها عن هذا صفحاً؛ فقال: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾؛ أي: لا تذكره لأحد؛ لأن كتمان مثل هذه الأمور هو الأليق والأحسن، وأمرها بالاستغفار لذنبها الذي صدر منها، والتوبة إلى ربها؛ فإن العبد إذا تاب إلى الله؛ تاب الله عليه.

أهل مصر، وإن كانوا يعبدون الأصنام؛ إلا أنهم يعلمون أن الذي يغفر الذنوب ويؤاخذ بها هو الله وحده لا شريك له في ذلك؛ ولهذا قال لها بعلمها ما قال، وعذرها من بعض الوجوه؛ لأنها رأت ما لا صبر لها على مثله؛ إلا أنه غفيف نزيه برىء العرض سليم الناحية، فقال: ﴿وَأَسْتَغْفِرِي لِدُنْئِكَ إِنَّكَ كُنْتَ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾.

[اجتماع نساء مصر عند امرأة العزيز]

وقال -تعالى-: ﴿ وَفَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتْنَهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرِيهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكًا وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِينَ لَمْتُنِّي فِيهِ وَلَقَدْ رَاودْنَاهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا ءَامَرُهُ لَيُسْجَنَ وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّغِيرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ﴾ [يوسف: ٣٠-٣٤].

يذكر -تعالى- ما كان من قبل نساء المدينة: من نساء الأمراء وبنات الكبراء في الطعن على امرأة العزيز وغيبتها والتشنيع عليها في مراودتها فتاها، وحبها الشديد له، وهو لا يساوي هذا؛ لأنه مولى من الموالى، وليس مثله أهلاً لهذا؛ ولهذا قلن: ﴿ إِنَّا لَنَرِيهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾؛ أي: في وضعها الشيء في غير محله.

﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ ﴾؛ أي: بتشنيعهن عليها والتنقص لها والإشارة إليها بالعيب والمذمة بحب مولاها وعشق فتاها، فأظهرن ذماً وهي معذورة في نفس الأمر؛ فلهذا أحب أن تبسط عذرها عندهن وتبين أن هذا الفتى ليس كما حسبن ولا من قبيل ما لديهن، فأرسلت إليهن، فجمعتهن في منزلها، وأعدت لهن ضيافة مثلهن، وأحضرت من جملة ذلك شيئاً مما يقطع بالسكاكين؛ كالأترج ونحوه، وآتت كل واحدة منهن سكيناً، وكانت قد هيأت يوسف -عليه السلام-، وألبسته أحسن الثياب، وهو في غاية طراوة الشباب، وأمرته بالخروج عليهن في هذا الحال، فخرج وهو أحسن من البدر لا محالة، ﴿ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ ﴾؛ أي: أعظمته وأجللته وهبنه، وما ظنن أن يكون مثل هذا في بني آدم، وبهرهن حسنه، حتى اشتغلن عن أنفسهن وجعلن يحززن في أيديهن بتلك السكاكين ولا يشعرن بالجراح، ﴿ وَقُلْنَ

حَسَّ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ»، وقد جاء في حديث الإسراء: «فمررت بيوسف وإذا هو قد أعطي شطر الحسن»^(١).

قال السهيلي وغيره من الأئمة: معناه أنه كان على النصف من حسن آدم - عليه السلام -؛ لأن الله - تعالى - خلق آدم بيده، ونفخ فيه من روحه، فكان في غاية نهايات الحسن البشري؛ ولهذا يدخل أهل الجنة الجنة على طول آدم وحسنه، ويوسف كان على النصف من حسن آدم، ولم يكن بينهما أحسن منهما؛ كما أنه لم تكن أنثى بعد حواء أشبه بها من سارة امرأة الخليل - عليه السلام -، ولهذا لما قام عذر امرأة العزيز في محبتها لهذا المعنى المذكور، وجرى لهن وعليهن ما جرى من تقطيع أيديهن بجراح السكاكين، وما ركبهن من المهابة والدهش عند رؤيته ومعاينته ﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ﴾ ثم مدحته بالعفة^(٢) التامة، فقالت: ﴿وَلَقَدْ رَاودْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾؛ أي: امتنع ﴿وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا أَمَرُهُ لَيُصْغَرَ لَيُصْغَرَ وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّغِيرِينَ﴾.

وكان بقية النساء حرضنه على السمع والطاعة لسيدته، فأبى أشد الإباء، ونأى؛ لأنه من سلالة الأنبياء، ودعا فقال في دعائه لرب العالمين: ﴿رَبِّ السَّجِّينِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾؛ يعني: إن وكلتني إلى نفسي؛ فليس لي من نفسي إلا العجز والضعف، ولا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله؛ فأنا ضعيف إلا ما قوتني وعصمتني وحفظتني وأحطتني بحولك وقوتك.

ولهذا قال - تعالى -: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

(١) مضى تخريجه (ص ٤١).

(٢) في نسخة: «بالعصمة».

[یوسف - علیه السلام - فی السجن]

﴿ ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا آلَايَاتٍ لِيَسْجُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ ۝۱۰ ﴾ وَدَخَلَ
مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرِيتُ أُعْصِرُ خَمِيرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرِيتُ
أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ
﴿ ۱۱ ﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِيهِ إِلَّا نَبَّأُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا
ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ
كَافِرُونَ ﴿ ۱۲ ﴾ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي ابْرَهِيمَ وَاسْحَقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ
نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَٰلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ
لَا يَشْكُرُونَ ﴿ ۱۳ ﴾ يَصْحَبِي السِّجْنَ ۚ أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ
الْقَهَّارُ ﴿ ۱۴ ﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مِمَّا
أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَٰلِكَ الدِّينُ
الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿ ۱۵ ﴾ يَصْحَبِي السِّجْنَ ۚ أَمَّا أَحَدُكُمَا
فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمِيرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ
الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿ ۱۶ ﴾ [يوسف: ۳۵-۴۱].

يذكر - تعالى - عن العزيز وامراته أنهم ﴿ بَدَأَ لَهُمْ ﴾؛ أي: ظهر لهم من
الرأي بعد ما علموا براءة يوسف أن يسجنوه إلى وقت؛ ليكون ذلك أقل لكلام
الناس في تلك القضية، وأخذ لأمرها، وليظهروا أنه راودها عن نفسها فسجن
بسببها، فسجنوه ظلماً وعدواناً.

وكان هذا مما قدر الله له، ومن جملة ما عصمه به، فإنه أبعد له عن
معاشرتهم ومخالطتهم. ومن هنا استنبط بعض الصوفية ما حكاه عنهم الشافعي:
أن من العصمة ألا تجدد.

قال الله: ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانٍ ﴾؛ قيل: كان أحدهما ساقى الملك،
والآخر خبازه؛ يعني: الذي يلي طعامه، وهو الذي يقول له الترك: (الجاهل الكبير)
وكان الملك قد اتهمهما في بعض الأمور فسجنهما، فلما رآيا يوسف في السجن،
أعجبهما سمته وهديه، ودلّه وطريقته، وقوله وفعله، وكثرة عبادته ربه، وإحسانه
إلى خلقه، فرأى كل واحد منهما رؤيا تناسبه.

قال أهل التفسير: رأيا في ليلة واحدة؛ أما الساقى؛ فرأى كأن ثلاث قضبان من حبله وقد أورقت وأينعت عناقيد العنب؛ فأخذها فاعتصرها في كأس الملك وسقاه. ورأى الخباز على رأسه ثلاث سلال من خبز وضواري الطيور تأكل من السل الأعلى، فقصاها عليه، وطلبا منه أن يعبرها لهما، وقال: ﴿إِنَّا نَرْنَكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾؛ فأخبرهما أنه عليم بتعبيرها خبير بأمرها، وقال: ﴿لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِيهِ إِلَّا نَبَأُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا﴾؛ قيل: معناه: مهما رأيتما من حلم؛ فإني أعبره لكم قبل وقوعه، فيكون كما أقول. وقيل: معناه: أني أخبركما بما يأتیکما من الطعام قبل مجيئه حلوا أو حامضا؛ كما قال عيسى: ﴿وَأَنْتِيكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ [آل عمران: ٤٩]

وقال لهما: إن هذا من تعليم الله إياي؛ لأنني مؤمن به، موحد له، متبع ملّة آبائي الكرام: إبراهيم الخليل وإسحاق ويعقوب ﴿مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا﴾؛ أي: أن هدانا لهذا، ﴿وَعَلَى النَّاسِ﴾؛ أي: بأن أمرنا أن ندعوهم إليه ونرشداهم وندلهم عليه وهو في فطرتهم مركوز، وفي جبلتهم مغروز ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾.

ثم دعاهم إلى التوحيد، وذمّ عبادة ما سوى الله - عز وجل -، وصعّر أمر الأوثان وحقرها وضعف أمرها، فقال: ﴿يَلَصَّحِبِي السَّجَنُ أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ ﴿١٠٠﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾؛ أي: المتصرف في خلقه، الفعال لما يريد، الذي يهدي من يشاء ويضل من يشاء ﴿أَمَرَ إِلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾؛ أي: وحده لا شريك له. ﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾؛ أي: المستقيم والصراط القويم ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ أي: فهم لا يهتدون إليه مع وضوحه وظهوره.

وكانت دعوته لهما في هذه الحال في غاية الكمال؛ لأن نفوسهما معظمة له، منبعثة على تلقي ما يقول بالقبول، فناسب أن يدعوهما إلى ما هو الأنفع لهما مما سألأ عنه وطلبا منه.

ثم لما قام بما وجب عليه وأرشد إلى ما أرشد إليه، قال: ﴿يَصْحَبِي السَّجَنُ
أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا﴾: قالوا: وهو الساقى، ﴿وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُضْلَبُ
فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ﴾: قالوا: وهو الخباز. ﴿قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾؛
أي: وقع هذا لا محالة، ووجب كونه على كل حالة؛ ولهذا جاء في الحديث: «الرؤيا على
رجل طائر ما لم تعبر؛ فإذا عبرت وقعت»^(۱).

﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِثْلُمَا أَذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَنَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ
رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السَّجَنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ [يوسف: ٤٢].

يخبر - تعالى - أن يوسف قال للذي ظنه ناجيا منهما - وهو الساقى - ﴿أَذْكُرْنِي
عِنْدَ رَبِّكَ﴾؛ يعني: اذكر أمري وما أنا فيه من السجن بغير جرم عند الملك.
وفي هذا دليل على جواز السعي في الأسباب، ولا ينافي ذلك التوكل على رب
الأرباب.

وقوله: ﴿فَأَنْسَنَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾؛ أي: فأنسى الناجي منهما الشيطان أن
يذكر ما وصاه به يوسف - عليه السلام -؛ قاله مجاهد ومحمد بن إسحاق وغير واحد،
وهو الصواب، وهو منصوص أهل الكتاب.

﴿فَلَبِثَ﴾: يوسف ﴿فِي السَّجَنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾: والبضع: ما بين الثلاث إلى
التسع، وقيل: إلى السبع، وقيل: إلى الخمس، وقيل: ما دون العشرة؛ حكاهما الثعلبي.
ويقال: بضع نسوة وبضعة رجال.

ومنع الفراء استعمال البضع فيما دون العشر؛ قال: وإنما يقال: نيف! وقال الله -
تعالى -: ﴿فَلَبِثَ فِي السَّجَنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾.

(۱) صحيح - أخرجه أبو داود (٥٠٢٠)، والترمذي (٢٢٧٩)، وابن ماجه (٣٩١٤)، وأحمد
(٤/ ١٠ و ١٣)، والحاكم (٤/ ٣٩٠) من حديث أبي رزين العقيلي - رضي الله عنه - بإسناد ضعيف.
وله شاهد من حديث أنس - رضي الله عنه -: أخرجه الحاكم (٤/ ٣٩١) بإسناد صحيح.
وبالجملة؛ فالحديث صحيح، صحيحه الحاكم ووافقه الذهبي، وصححه شيخنا الألباني - رحمه
الله -.

وقال -تعالى-: ﴿ فِي بَضْعِ سِنِينَ ﴾ [الروم: ٤] وهذا رد لقوله^(١).
قال الفراء: ويقال بضعة عشر وبضعة وعشرون إلى التسعين، ولا يقال: بضع ومائة، وبضع وألف.
وخالف الجوهري^(٢) فيما زاد على بضعة عشر؛ فمنع أن يقال: بضعة وعشرون... إلى تسعين.

وفي «الصحيح»: «الإيمان بضع وستون شعبة (وفي رواية: وسبعون شعبة)؛ أعلاها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق»^(٣).
ومن قال: إن الضمير في قوله: ﴿ فَأَنسَهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ ﴾: عائد على يوسف؛ فقد ضعف ما قاله، وإن كان قد روي عن ابن عباس وعكرمة. والحديث الذي رواه ابن جرير^(٤) في هذا الموضع ضعيف من كل وجه، تفرد بإسناده إبراهيم بن يزيد الخوزي المكي، وهو متروك. ومرسل الحسن وقتادة لا يقبل، ولا هاهنا بطريق الأولى والأخرى، والله أعلم.

فأما قول ابن حبان في «صحيحه» - عند ذكر السبب الذي من أجله لبث يوسف في السجن ما لبث - : عن أبي هريرة؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «رحم الله يوسف لولا الكلمة التي قالها ﴿ أَذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ ﴾؛ ما لبث في السجن ما لبث، ورحم الله لوطاً، إن كان ليأوي إلى ركن شديد إذ قال لقومه: ﴿ لَوْ أَنَّ لِي

(١) ويؤيد رد المصنف - رحمه الله - على الفراء - رحمه الله - ما صح عن رسول الله ﷺ: «البضع ما بين الثلاث إلى التسع»، صححه شيخنا - رحمه الله - في «صحيح الجامع» (٢٨٨٧).

(٢) «الصحاح» (١١٨٦/٣).

(٣) أخرجه البخاري (٩)، ومسلم (٣٥) من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه -.

(٤) ضعيف جداً - أخرجه ابن جرير الطبري في «جامع البيان» (١٣٢/١٢)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١١٦٤٠/١٩٩/١١) من حديث عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «لو لم يقل يوسف الكلمة التي قالها؛ ما لبث في السجن طول ما لبث».

قلت: إسناده ضعيف جداً؛ كما قال المصنف - رحمه الله -، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٤٢/٧): «وفيه إبراهيم بن يزيد القرشي المكي، وهو متروك».

بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ ءَاوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿١﴾. قال: «فما بعث الله نبيا بعده إلا في ثروة من قومه»^(١).

فإنه حديث منكر من هذا الوجه، ومحمد بن عمرو بن علقمة له أشياء ينفرد بها وفيها نكارة، وهذه اللفظة من أنكرها وأشدها، والذي في «الصحيحين» يشهد بغلطها، والله أعلم.

[رؤيا الملك]

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعٌ سُتَبَلَاتٍ خُضِرٍ وَأُخْرَىٰ يَاسِبَاتٍ يَأْتِيهَا أَلْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴾ ١٢٠ قَالُوا أَضَعَتْ أَحْلَمَ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَمِ بِعَلَمِينَ ١٢١ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ١٢٢ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُتَبَلَاتٍ خُضِرٍ وَأُخْرَىٰ يَاسِبَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ١٢٣ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرَوْهُ فِي سُتَبَلٍ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ١٢٤ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَحْصِنُونَ ١٢٥ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعَصِرُونَ ١٢٦ ﴾ [يوسف: ٤٣-٤٩].

(١) منكر- دون الشطر المتعلق بلوط -عليه السلام- أخرجه ابن حبان (١٨٦٧)، وضعفه بهذا اللفظ شيخنا في «الصحيحة» (٤٨٣/٤-٤٨٤)، وإن خالف ابن كثير في علة الحديث.

وأما الشواهد المرسلة ؛ فلا تقوى هذا السند الواه.

وأما شطره المتعلق بلوط -عليه السلام-؛ فتشهد له الروايات الصحيحة المتقدم تخريجها (ص ١٦٧).

هذا كله^(١) من جملة أسباب خروج يوسف -عليه السلام- من السجن على وجه الاحترام والإكرام، وذلك أن ملك مصر رأى هذه الرؤيا.

فلما قصها على ملئه وقومه؛ لم يكن فيهم من يحسن تعبيرها؛ بل ﴿قَالُوا أَضَعَتْ أَحْلَمٌ؟﴾ أي: أخلاط أحلام من الليل، لعلها لا تعبير لها، ومع هذا؛ فلا خبرة لنا بذلك؛ ولهذا قالوا: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَمِ بِعَلَمِينَ﴾.

فعند ذلك تذكر الناجي منهما، الذي وصاه يوسف بأن يذكره عند ربه، فنسيه إلى حينه هذا، وذلك عن تقدير الله -عز وجل- وله الحكمة في ذلك فلما سمع رؤيا الملك، ورأى عجز الناس عن تعبيرها؛ تذكر أمر يوسف وما كان أوصاه به من التذكاري؛ ولهذا قال -تعالى-: ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ؟﴾ أي: تذكر ﴿بَعْدَ أُمَّةٍ؟﴾ أي: بعد مدة من الزمان، وهو بضع سنين.

فقال لقومه وللملك: ﴿أَنَا أَنْبِئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ﴾؛ أي: فارسلوني إلى يوسف، فجاءه، فقال: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

وعند أهل الكتاب: أن الملك لما ذكره له الساقى؛ استدعاه إلى حضرته، وقص عليه ما رآه، ففسره له! وهذا غلط، والصواب ما قصه الله في كتابه القرآن، لا ما عرّبه هؤلاء الجهلة الثيران.

فبذل يوسف -عليه السلام- ما عنده من العلم بلا تأخر ولا شرط، ولا طلب الخروج سريعاً، بل أجابهم إلى ما سألوه، وعبر لهم ما كان من منام الملك الدال على وقوع سبع سنين من الخصب ويعقبها سبع جدد ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ﴾؛ يعني: يأتيهم الغيث والخصب والرفاهية. ﴿وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾؛ يعني: ما كانوا يعصرونه من الأقطاب والأعناب والزيتون والسمسم وغيرها.

(١) في نسخة: «كان».

فعبّر لهم، وعلى الخير دلّهم، وأرشدهم إلى ما يعتمدونه في حالتي خصبهم وجذبهم، وما يفعلونه من ادخار حبوب سني الخصب في السبع الأولى في سنبله؛ إلا ما يرصد بسبب الأكل، ومن تقليل البذر في سني الجذب في السبع الثانية؛ إذ الغالب على الظن أنه لا يرد البذر من الحقل، وهذا يدل على كمال العلم وكمال الرأي والفهم.

[براءة يوسف الصديق]

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ أَتَقْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ أَرْجِعْ إِلَيَّ رَبِّكَ فَسَأَلَهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ الَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنْ إِذْ رَاوَدْتَن يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتْ أَمْرَأَتُ الْعَزِيزِ الَّتِي حَصَّصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴾ * وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [يوسف: ٥٠-٥٣].

لما أحاط الملك علما بكمال علم يوسف -عليه الصلاة والسلام-، وتمام عقله ورأيه السديد وفهمه؛ أمر بإحضاره إلى حضرته؛ ليكون من جملة خاصته، فلما جاءه الرسول بذلك؛ أحب ألا يخرج حتى يتبين لكل أحد أنه حبس ظلما وعدوانا، وأنه بريء الساحة مما نسبوه إليه بهتاناً؛ ﴿ قَالَ أَرْجِعْ إِلَيَّ رَبِّكَ ﴾؛ يعني: الملك ﴿ فَسَأَلَهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ الَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴾؛ قيل: معناه: إن سيدي العزيز يعلم براءتي مما نسب إلي؛ أي: فمر الملك فليسألهن: كيف كان امتناعي الشديد عند مراودتهن إياي وحشهن لي على الأمر الذي ليس برشيد ولا سديد؟

فلما سئلن عن ذلك، اعترفن بما وقع من الأمر وما كان منه من الأمر الحميد، و﴿ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ ﴾؛ فعند ذلك ﴿ قَالَتْ أَمْرَأَتُ الْعَزِيزِ ﴾: وهي زليخا: ﴿ الَّتِي حَصَّصَ الْحَقُّ ﴾؛ أي: ظهر وتبين ووضح، والحق أحق أن يتبع: ﴿ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾؛

أي: فيما يقوله؛ ومن أنه بريء، وأنه لم يراودني، وأنه حبس ظلما وعدوانا وزورا وبهتاناً.

وقوله: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ (٥٤)؛ قيل: إنه من كلام يوسف، أي إنما طلبت تحقيق هذا ليعلم العزيز أنني لم أخنه بظهر الغيب. وقيل: إنه من تمام كلام زليخا؛ أي: إنما اعترفت بهذا ليعلم زوجي أنني لم أخنه في نفس الأمر، وإنما كان مراودة لم يقع معها فعل فاحشة.

وهذا القول هو الذي نصره طائفة كثيرة من أئمة المتأخرين وغيرهم. ولم يحك ابن جرير وابن أبي حاتم سوى الأول^(١).

﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٥٥)؛ قيل: إنه من كلام يوسف. وقيل: من كلام زليخا وهو مفرع على القولين الأولين. وكونه من تمام كلام زليخا أظهر وأنسب وأقوى، والله أعلم.

[يوسف الصديق في قصر الملك]

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتَقْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ (٥٦) قَالَ أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْكَ ﴿٥٧﴾ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ وَلَآ أَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [يوسف: ٥٤-٥٧].

لما ظهر للملك براءة عرضه ونزاهة ساحته عما كانوا أظهروا عنه مما نسبوه إليه؛ قال: ﴿أَتَقْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي﴾؛ أي: أجعله من خاصتي ومن

(١) انظر- غير مأمور-: «جامع البيان» (١٢/١٤١)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (٢١٥٧/٧).

أكابر دولتي، ومن أعيان حاشيتي. فلما كلمه وسمع مقاله وتبين حاله؛ ﴿قَالَ إِنَّكَ
الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾؛ أي: ذو مكانة وأمانة.
﴿قَالَ أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْهَا﴾: ﴿١٠﴾ طلب أن يوليه
النظر فيما يتعلق بالأهراء^(١)؛ لما يتوقع من حصول الخلل فيما بعد مضي سبع سني
الخصب؛ لينظر فيها بما يرضي الله في خلقه من الاحتياط لهم والرفق بهم، وأخبر
الملك أنه حفيظ؛ أي: قوي على حفظ ما لديه، أمين عليه، عليم بضبط الأشياء
ومصالح الأهراء.

وفي هذا دليل على جواز طلب الولاية لمن علم من نفسه الأمانة والكفاءة.
قال الله -تعالى-: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ
يَشَاءُ﴾؛ أي: بعد السجن والضيق والحصر، صار مطلق الركاب بديار مصر،
﴿يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾؛ أي: أين شاء حل منها مكرما محسودا معظما.
﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾؛ أي: هذا كله من
جزاء الله وثوابه للمؤمن مع ما يدخر له في آخرته من الخير الجزيل والثواب
الجميل؛ ولهذا قال: ﴿وَلَا جُرْأَ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ ﴿١١﴾،
وقد قال بعضهم^(٢):

وراء مضيق الخوف يتسع الأمن وأول مفروح به غايية الحزن
فلا تياسن فالله ملك يوسف خزائنه بعد الخلاص من السجن

[مجيء أخوة يوسف إلى مصر في طلب الميرة]

﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ ﴿١٢﴾ وَلَمَّا
جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ أَتُوتُنِي بِأَخٍ لَكُمْ مِّنْ أَيْكُمُ إِلَّا تَرَوُنَّ أَنَّيَ أَوْفَىٰ أَلْكَيْلِ

(١) جمع هرئ، وهو بيت كبير يجمع فيه طعام البر ونحوه؛ ليوزعه السلطان، وتسمى في
يومنا هذا «صوامع الحبوب».

(٢) نسباً إلى محمد بن الحسين؛ كما في «الدر الفريد» (٥/ ٢٨٠).

وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴿٦١﴾ فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٢﴾ قَالُوا سُرَّوْذُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴿٦٣﴾ وَقَالَ لِفَتَيْنِهِ اجْعَلُوا بَضْعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٤﴾ [يوسف: ٥٨-٦٢].

يخبر - تعالى - عن قدوم إخوة يوسف - عليه السلام - إلى الديار المصرية يمتارون طعاماً، وذلك بعد إتيان سني الجذب وعمومها على سائر العباد والبلاد، وكان يوسف - عليه السلام - إذ ذاك الحاكم في أمور الديار المصرية دينا ودنيا، فلما دخلوا عليه؛ عرفهم ولم يعرفوه؛ لأنهم لم يخطر ببالهم ما صار إليه يوسف - عليه السلام - من المكانة والعظمة؛ فلهذا عرفهم وهم له منكرون.

قال - تعالى - : ﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ ﴾؛ أي: أعطاهم من الميرة ما جرت به عادته من إعطاء كل إنسان حمل بعير لا يزيده عليه ﴿ قَالَ أَتُّونِي بِأَخٍ لَّكُمْ مِّنْ أَبِيكُمْ ﴾؛ وكان قد سألهم عن حالهم، وكم هم ؟ فقالوا: كنا اثني عشر رجلاً، فذهب منا، واحد وبقي شقيقه عند أبينا. فقال: إذا قدمتم من العام المقبل؛ فأتوني به معكم ﴿ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴾؛ أي: قد أحسنت نزلكم وقراكم، فرغبهم؛ ليأتوه به. ثم رهبهم إن لم يأتوه به، فقال: ﴿ فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴾؛ أي: فلست أعطيكم ميرة، ولا أقربكم بالكلية، عكس ما أسدي إليهم أولاً، فاجتهد في إحضاره معهم؛ ليل شوقه منه بالترغيب والترهيب.

﴿ قَالُوا سُرَّوْذُ عَنْهُ أَبَاهُ ﴾؛ أي: سنجتهد في مجيئه معنا وإتيانه إليك بكل ممكن ﴿ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴾؛ أي: وإنا لقادرون على تحصيله.

ثم أمر فتياه أن يضعوا بضاعتهم - وهي: ما جاءوا به يتعوضون به عن الميرة - في أمتعتهم من حيث لا يشعرون بها ﴿ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾؛ قيل: أراد أن يردوها إذا وجدوها في بلادهم. وقيل: خشي ألا يكون عندهم ما يرجعون به مرة ثانية، وقيل: تدمم أن يأخذ منهم عوضاً عن الميرة.

﴿ فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَتَابَنَّا مُنْعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانًا نَكْتَلُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (٦٦) قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ قَالَ اللَّهُ خَيْرُ حَافِظٍ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّحِيمِينَ ﴾ (٦٧) وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَتَابَنَّا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانًا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلُ يَسِيرٍ ﴾ (٦٨) قَالَ لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُوا مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ (٦٩) وَقَالَ يَبْنِي لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَلْحَكُمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ (٧٠) وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لَمَّا عَلِمَنِه وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٧١) [يوسف: ٦٣-٦٨].

يذكر -تعالى- ما كان من أمرهم بعد رجوعهم إلى أبيهم وقولهم له: ﴿ مُنْعَ مِنَّا الْكَيْلُ ﴾؛ أي: بعد عامنا هذا إن لم ترسل معنا أخانا؛ فإن أرسلته معنا؛ لم يمنع منا.

﴿ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَتَابَنَّا مَا نَبْغِي ﴾؛ أي: شيء نريد وقد ردت إلينا بضاعتنا؟! ﴿ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا ﴾؛ أي: نمتار لهم ونأتيهم بما يصلحهم في سبتهم ومحلهم، ﴿ وَنَحْفَظُ أَخَانًا وَنَزْدَادُ ﴾؛ بسببه ﴿ كَيْلَ بَعِيرٍ ﴾. قال الله -تعالى-: ﴿ ذَلِكَ كَيْلُ يَسِيرٍ ﴾؛ أي: في مقابلة ذهاب ولده الآخر.

وكان يعقوب عليه السلام -أضن شيء بولده بنيامين؛ لأنه كان يشم فيه رائحة أخيه، ويتسلى به عنه، ويتعوض بسببه منه؛ فلهذا قال: ﴿ لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُوا مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ ﴾؛ أي: إلا أن تغلبوا كلكم عن الإتيان به.

﴿ فَلَمَّا ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾؛ أكد الموائيق وقرر العهود، واحتاط لنفسه في ولده، ولن يغني حذر من قدر، ولولا حاجته وحاجة

قومه إلى الميرة؛ لما بعث الولد العزيز، ولكن الأقدار لها أحكام، والرب - تعالى - يقدر ما يشاء، ويختار ما يريد ويحكم ما يشاء، وهو الحكيم العليم.

ثم أمرهم ألا يدخلوا المدينة من باب واحد، ولكن ليدخلوا من أبواب متفرقة. قيل: أراد ألا يصيبهم أحد بالعين؛ وذلك لأنهم كانوا أشكالا حسنة وصورا بديعة، وقيل: أراد أن يتفرقوا لعلهم يجدون خبرا ليوسف أو يحدثون عنه بأثر.

والأول أظهر؛ ولهذا قال: ﴿ وَمَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ مِןَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ۚ ﴾، وقال - تعالى -: ﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسٍ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۚ ﴾.

[يوسف الصديق وأخوه]

﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُونُسَ ۖ أَوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۚ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۚ ﴾ فلما جهَّزهم بجهازهم جعل السقاية في رحل أخيه ثم أذن مؤذِّن أَيْتُهَا الْعِبرُ إِنَّكُمْ لَسَرِقُونَ ﴿١٧﴾ قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ ﴿١٨﴾ قَالُوا نَقْصِدُ صَوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴿١٩﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴿٢٠﴾ ﴿ قَالُوا فَمَا جزؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ ﴾ ﴿٢١﴾ قَالُوا جزؤُهُ مَنْ وَجَدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جزؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وَعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وَعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَاءٍ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣﴾ ﴿ قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يُونُسُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالُوا أَنْتُمْ شَرُّ مَّكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴾ ﴿٢٤﴾ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ ﴿٢٥﴾ قَالَ

مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ تَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَّعَيْنًا عِنْدَهُ إِنَّا إِذَا لَطَلِمُونَ ﴿٧٩﴾
[يوسف: ٦٩-٧٩].

يذكر -تعالى- ما كان من أمرهم حين دخلوا بأخيهم بنيامين على شقيقه يوسف، وإيوائه إليه، وإخباره له سرّاً عنهم بأنه أخوه، وأمره بكتّم ذلك عنهم، وسلّاه عما كان منهم من الإساءة إليه.

ثم احتال على أخذه منهم وتركه إياه عنده دونهم، فأمر فتيانه بوضع سقايته - وهي التي كان يشرب بها ويكيل بها للناس الطعام - عن غرة في متاع بنيامين، ثم أعلمهم بأنهم قد سرقوا صواع الملك، ووعدهم جعالة على رده حمل بعير، وضمنه المنادي لهم.

فأقبلوا على من اتهمهم بذلك فأنبوه وهجنوه فيما قاله لهم؛ ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾ ﴿٨٠﴾؛ يقولون: أنتم تعلمون منا خلاف ما رميتمونا به من السرقة.

﴿قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ﴾ ﴿٨١﴾ قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وَجَدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٨٢﴾؛ وهذه كانت شريعتهم: أن السارق يدفع إلى المسروق منه؛ ولهذا قالوا: ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾.

قال الله -تعالى-: ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ﴾؛ ليكون ذلك أبعد للثمة وأبلغ في الحيلة، ثم قال الله -تعالى-: ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾؛ أي: لولا اعترافهم بأن جزاءه من وجد في رحله فهو جزاؤه؛ لما كان يقدر يوسف على أخذه منهم في سياسة ملك مصر. ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ تَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَأٍ﴾؛ أي: في العلم. ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾؛ وذلك لأن يوسف كان أعلم منهم، وأتم رأياً، وأقوى عزماً وحزماً، وإنما فعل ما فعل عن أمر الله له في ذلك؛ لأنه يترتب على هذا الأمر مصلحة عظيمة بعد ذلك؛ من قدوم أبيه وقومه عليه ووفودهم إليه.

فلما عاينوا استخراج الصواع من حمل بنيامين؛ ﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ﴾؛ يعنون يوسف. قيل: كما قد سرق صنم جده أبي أمه؛ فكسره. وقيل: كانت عمته قد علقت عليه بين ثيابه وهو صغير منطقة كانت

لإسحاق، ثم استخرجوها من بين ثيابه وهو لا يشعر بما صنعت، وإنما أرادت أن يكون عندها وفي حضانتها لمحبتها له. وقيل: كان يأخذ الطعام من البيت فيطعمه الفقراء. وقيل: غير ذلك؛ فلهذا: ﴿ قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ ﴾: وهي كلمته بعدها وقوله: ﴿ قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴾: أجابهم سرا لا جهرا؛ حلما وكرما وصفحا وعفوا.

فدخلوا معه في الترفيق والتعطف؛ فقالوا: ﴿ يَتَأَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرْنَكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٤٦) قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ ﴾ (٤٧) أي: إن أطلقنا المتهم وأخذنا البريء، وهذا ما لا نفعله ولا نسمح به، وإنما نأخذ من وجدنا متاعنا عنده.

وعند أهل الكتاب: أن يوسف تعرف إليهم حينئذ! وهذا مما غلطوا فيه، ولم يفهموه جيدا.

[وأعلم من الله ما لا تعلمون]

﴿ فَلَمَّا اسْتَيْسَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ (٤٨) أَرْجِعُوا إِلَيَّ أَيُّكُمْ فَقُولُوا يَتَأَيُّنَا إِنَّ أَبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴾ (٤٩) وَسُئِلَ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ (٥٠) قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ (٥١) وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَأْسَفِي عَلَى يُوسُفَ وَأَبْيَضْتُ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ (٥٢) قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَوْا تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴾ (٥٣) قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٥٤) يَبْنِي أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْيِسُوا مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْيِسُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ (٥٥) [يوسف: ٨٠-٨٧].

يقول - تعالى - مخبرا عنهم أنهم لما استياسوا من أخذه منه؛ خلصوا يتناجون فيما بينهم، قال كبيرهم - وهو روبين - ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ آبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوَثِقًا مِّنَ اللَّهِ﴾: لتأتني به إلا أن يحاط بكم؟ لقد أخلفتم عهده، وفرطتم فيه؛ كما فرطتم في أخيه يوسف من قبله، فلم يبق لي وجه أقابله به ﴿فَلَنَ أَتْرَحَ الْأَرْضَ﴾؛ أي: لا أزال مقيما هاهنا ﴿حَتَّى يَأْذَنَ لِيَ أَبِي﴾؛ في القدوم عليه، ﴿أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي﴾؛ بأن يقدرني على رد أخي إلى أبي، ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾.

﴿أَرْجِعُوا إِلَيَّ أَيُّكُمْ فَقُولُوا يَتَابَعَانَا إِنِّ ابْنُكَ سَرَقَ﴾؛ أي: أخبروه بما رأيتم من الأمر في ظاهر المشاهدة ﴿وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾ ﴿وَسَلِّ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾؛ أي: فإن هذا الذي أخبرناك به - من أخذهم أخانا لأنه سرق - أمر اشتهر بمصر وعلمه العير التي كنا نحن وهم هناك. ﴿وَأَنَا لَصَادِقُونَ﴾.

﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾؛ أي: ليس الأمر كما ذكرتم، لم يسرق؛ فإنه ليس سجية له ولا خلقه، وإنما ﴿سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾؛ قال ابن إسحاق وغيره: لما كان التفريط منهم في بنيامين مرتبا على صنيعهم في يوسف؛ قال لهم ما قال. وهذا كما قال بعض السلف: إن من جزاء السيئة السيئة بعدها.

ثم قال: ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾؛ يعني: يوسف وبنيامين وروبين ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ﴾؛ أي: بحالي وما أنا فيه من فراق الأحبة، ﴿الْحَكِيمُ﴾؛ فيما يقدره ويفعله، وله الحكمة البالغة والحجة القاطعة.

﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ﴾؛ أي: أعرض عن بنييه ﴿وَقَالَ يَتَّاسَفُ عَلَى يَوْسُفَ﴾: ذكره حزنه الجديد بالحزن القديم، وحرك ما كان كامنا؛ كما قال بعضهم^(١):
نقل فؤادك حيث شئت من الهوى ما الحـب إلا للحيـب الأول

وقال آخر^(٢):

(١) هو أبو تمام؛ كما في «شرح ديوانه» (٢٥٣/٤).
(٢) هو متمم بن نويرة؛ كما في «شرح ديوان الحماسة» (٧٩٧/٢).

لقد لامني عند القبور على البكا رفيقي لتذراف الدموع السوافك
فقال أنبكي كل قبر رأيته لقبر ثوى بين اللوى^(١) فالدكادك^(٢)
فقلت له إن الأسى يبعث الأسى دعني فهذا كله قبر مالك^(٣)
وقوله: ﴿وَأَبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ﴾؛ أي: من كثرة البكاء؛ ﴿فَهُوَ
كَظِيمٌ﴾؛ أي: مكظم من كثرة حزنه وأسفه وشوقه إلى يوسف.
فلما رأى بنوه ما يقاسيه من الوجد والم الفراق؛ ﴿قَالُوا﴾ له على وجه
الرحمة والرأفة والحرص عليه: ﴿تَاللَّهِ تَفْتَوُا تَذْكُرُ يَوْسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ
تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾: يقولون: لا تزال تذكره حتى ينحل جسدك
وتضعف قوتك؛ فلو رفقت بنفسك؛ كان أولى بك.
﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا
تَعْلَمُونَ﴾: يقول لبيه: لست أشكو إليكم ولا إلى أحد من الناس ما أنا
فيه، إنما أشكوه إلى الله عز وجل-، وأعلم أن الله سيجعل لي مما أنا فيه فرجا
ومخرجا، وأعلم أن رؤيا يوسف لا بد أن تقع، ولا بد أن أسجد له أنا وأنتم
حسب ما رأي؛ ولهذا قال: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.
ثم قال لهم عرضا على تطلب يوسف وأخيه وأن يبحثوا عن أمرهما:
﴿يَبْنِي أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْيَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا
يَأْيَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾: أي: لا تيأسوا من الفرج بعد
الشدة؛ فإنه لا ييأس من روح الله وفرجه وما يقدره من المخرج في المضايق إلا
القوم الكافرون.

(١) ما التوى من الرمل.

(٢) جمع دكدك: وهو ما تكبس من الرمل واستوى.

(٣) هو مالك بن نويرة؛ قتله خالد بن الوليد -رضي الله عنه- خطأ، وهو أخو مثمم بن نويرة،

فكان يكيه كما بكت الخنساء أخاها صخرًا.

[المفاجأة]

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَتَّيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَّا الْضُرَّ وَجِئْنَا بِبِضْعَةٍ مُرْجَلَةٍ فَأَوْفَ لَنَا الْكَفِيلُ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴾ (٨٨) قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴾ (٨٩) قَالُوا أَوَيْكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٩٠) قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴾ (٩١) قَالَ لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمْ أَيُّومَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ (٩٢) أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (٩٣) [يوسف: ٨٨-٩٣].

يخبر - تعالى - عن رجوع إخوة يوسف إليه وقدمهم عليه ورغبتهم فيها لديه من الميرة والصدقة عليهم برد أخيه بنيامين إليهم ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَتَّيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَّا الْضُرَّ ﴾؛ أي: من الجذب وضيق الحال وكثرة العيال. ﴿ وَجِئْنَا بِبِضْعَةٍ مُرْجَلَةٍ ﴾؛ أي: ضعيفة لا يقبل مثلها منا؛ إلا أن تتجاوز عنا. فلما رأى ما هم فيه من الحال، وما جاءوا به مما لم يبق عندهم سواه من ضعيف المال؛ تعرف إليهم وعطف عليهم؛ قائلا لهم عن أمر ربه وربهم؛ وقد حسر لهم عن جبينه الشريف وما يحويه من الحال الذي يعرفون فيه: ﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴾ (٨٩). ﴿ قَالُوا ﴾: وتعجبوا كل العجب، وقد ترددوا إليه مرارا عديدة وهم لا يعرفون أنه هو: ﴿ أَوَيْكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي ﴾؛ يعني: أنا يوسف الذي صنعت مع ما صنعت، وسلف من أمركم فيه ما فرطتم، وقوله: ﴿ وَهَذَا أَخِي ﴾؛ تأكيد لما قال، وتنبيه على ما كانوا أضمرُوا لهما من الحسد وعملوا في أمرهما من الاحتيال؛ ولهذا قال: ﴿ قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا ﴾؛ أي: بإحسانه إلينا وصدفته علينا وإيوائه لنا وشده معاقد عزنا، وذلك بما أسلفنا من طاعة ربنا وصبرنا على ما كان منكم وطاعتنا وبرنا لأبينا ومحبة الشديدة لنا وشفقته علينا؛ ﴿ إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾.

﴿ قَالُوا تَأَلَّه لَقَدْ ءَاتَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا ﴾؛ أي: فضلك وأعطاك ما لم يعطنا.
﴿ وَإِنْ كُنَّا لَخَطِئِينَ ﴾؛ أي: فيما أسدينا إليك، وها نحن بين يديك ﴿ قَالَ لَا
تُشْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ﴾؛ أي: لست أعاتبكم^(١) على ما كان منكم بعد يومكم هذا،
ثم زادهم على ذلك فقال: ﴿ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾، ومن زعم
أن الوقف على قوله: ﴿ لَا تُشْرِبَ عَلَيْكُمُ ﴾، وابتدأ بقوله: ﴿ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ
لَكُمْ ﴾؛ فقوله ضعيف، والصحيح الأول.

ثم أمرهم بأن يذهبوا بقميصه - وهو الذي يلي جسده -، فيضعوه على عيني
أبيه؛ فإنه يرجع إليه بصره بعد ما كان ذهب بإذن الله، وهذا من خوارق العادات
ودلائل النبوات وأكبر المعجزات.

ثم أمرهم أن يتحملوا بأهلهم أجمعين إلى ديار مصر إلى الخير والدعة وجمع
الشمل بعد الفرقة على أكمل الوجوه وأعلى الأمور.

[قميص يوسف الصديق]

﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ
﴿ قَالُوا تَأَلَّه إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴾ ﴿ فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى
وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ﴿
قَالُوا يَتَّابَانَا أَتَسْتَغْفِرُ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴾ ﴿ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ
رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ ﴿ [يوسف: ٩٤-٩٨].

قال عبد الرزاق^(٢): عن ابن عباس يقول: ﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ ﴾؛ قال: لما
خرجت العير؛ هاجت ريح، فجاءت يعقوب بريح قميص يوسف؛ فقال: ﴿ إِنِّي
لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ ﴾. قال: فوجد ريحه من مسيرة ثمانية أيام،
وقال الحسن البصري وابن جريج المكي: كان بينهما مسيرة ثمانين فرسخا، وكان

(١) في نسخة: «أعاقبكم».

(٢) في «التفسير» (١/٢/٣٢٩).

له منذ فارقه ثمانون سنة، وقوله: ﴿لَوْلَا أَنْ تُفْنِدُونِ﴾؛ أي: تقولون: إنما قلت هذا من الفند، وهو الخرف وكبر السن.

قال ابن عباس وعطاء ومجاهد وسعيد بن جبیر وقتادة: ﴿تُفْنِدُونِ﴾: تسفهون، وقال مجاهد -أيضاً- والحسن: تهرمون.

﴿قَالُوا تَأَلَّهَ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾؛ قال قتادة والسدي: قالوا له كلمة غليظة.

قال الله -تعالى-: ﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا﴾؛ أي: بمجرد ما جاء ألقى القميص على وجه يعقوب، فرجع من فوره بصيراً بعد ما كان ضريراً، وقال لبيته عند ذلك: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾؛ أي: أعلم أن الله سيجمع شملي بيوسف، وسيقر عيني به، وسيريني فيه ومنه ما يسرني.

فعند ذلك: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾؛ طلبوا منه أن يستغفر لهم الله -عز وجل- عما كانوا فعلوا ونالوا منه ومن ابنه، وما كانوا عزموا عليه، ولما كان من نيتهم التوبة قبل الفعل؛ وفقهم الله للاستغفار عند وقوع ذلك منهم.

فأجابهم أبوهم إلى ما سألوا وما عليه عولوا قائلًا: ﴿قَالَ سَوْفَ أُسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾؛ قال ابن مسعود وإبراهيم التيمي وعمرو ابن قيس وابن جريج وغيرهم: أرجأهم إلى وقت السحر.

وثبت في «الصحاحين» عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ينزل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا، فيقول: هل من تائب فاتوب عليه؟ هل من سائل فأعطيه؟ هل من مستغفر فأغفر له؟»^(١).

(١) أخرجه البخاري (١١٤٥)، ومسلم (٧٥٨).

[اجتماع الشمل وتأويل الرؤيا]

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾ [١] وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَأْتِبَت هَذَا تَأْوِيلُ رُءُوسِي مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ [٢] * رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ [٣] [يوسف: ٩٩-١٠١].

هذا إخبار عن حال اجتماع المتحابين بعد الفرقة الطويلة.

وظاهر سياق القصة يرشد إلى تحديد المدة تقريباً؛ فإن المرأة راودته وهو شاب ابن سبع عشرة سنة- فيما قاله غير واحد- فامتنع. فكان في السجن بضع سنين، وهي سبع عند عكرمة وغيره، ثم أخرج فكانت سنوات الخصب السبع، ثم لما أمهل الناس في السبع البواقي؛ جاء إخوته يتمارون في السنة الأولى وحدهم، وفي الثانية ومعهم أخوه بنيامين، وفي الثالثة تعرف إليهم وأمرهم بإحضار أهليهم أجمعين، فجاءوا كلهم.

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ ﴾: واجتمع بهما خصوصاً وحدهما دون إخوته، ﴿ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ ﴾ اسكنوا مصرأ، أو أقيموا بها ﴿ إِن شَاءَ اللَّهُ ﴾؛ مكاناً صحيحاً مليحاً.

قال الله -تعالى-: ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ ﴾: قيل: كانت أمه قد ماتت؛ كما هو عند علماء التوراة. وقال بعض المفسرين: أحيها الله -تعالى-. وقال آخرون: بل كانت خالته ليا، والخاله بمنزلة الأم.

وقال ابن جرير^(١) وآخرون: بل ظاهر القرآن يقتضي بقاء حياة أمه إلى يومئذ؛ فلا يعول على نقل أهل الكتاب فيما خالفه. وهذا قوي، والله أعلم.

(١) «جامع البيان» (١٣/٤٤).

ورفعهما على العرش، أي: أجلسهما معه على سريريه: ﴿وَحَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾؛ أي: سجد له الأبوان والإخوة الأحد عشر تعظيما وتكريما، وكان هذا مشروعا لهم، ولم يزل معمولا به في سائر الشرائع حتى حرم في ملتنا. ﴿وَقَالَ يَتَأَبَّتْ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِنْ قَبْلُ﴾؛ أي: هذا تعبير ماكنت قصصته عليك من رؤيتي الأحد عشر كوكبا والشمس والقمر حين رأيتهم لي ساجدين، وأمرتني بكتمانها، ووعدتني ما وعدتني عند ذلك ﴿قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ﴾؛ أي: بعد الهم والضيق جعلني حاكما نافذ الكلمة في الديار المصرية حيث شئت. ﴿وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ﴾؛ أي: البادية، وكانوا يسكنون أرض العربات^(١) من بلاد الخليل ﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾؛ أي: فيما كان منهم إلي من الأمر الذي تقدم وسبق ذكره. ثم قال: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ﴾؛ أي: إذا أراد شيئا؛ هيا أسبابه ويسرها وسهلها من وجوه لا يهتدي إليها العباد، بل يقدرها ويسرها بلطيف صنعه وعظيم قدرته؛ أي: بالأمور. ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ﴾؛ أي: بجميع الأمور ﴿الْحَكِيمُ﴾: في خلقه وشرعه وقدره.

[وتوفني مسلماً]

ثم لما رأى يوسف - عليه السلام - نعمته قد تمت وشمله قد اجتمع؛ وعرف أن هذه الدار لا يقر بها قرار، وأن كل شيء فيها ومن عليها فان، وما بعد التمام إلا النقصان؛ فعند ذلك أثنى على ربه بما هو أهله، واعترف له بعظيم إحسانه وفضله، وسأل منه - وهو خير المستولين - أن يتوفاه - أي: حين يتوفاه على الإسلام - وأن يلحقه بعباده الصالحين، وهكذا؛ كما يقال في الدعاء: اللهم! أحيينا مسلمين وتوفنا مسلمين، أي: حين تتوفانا.

(١) بلاد العرب؛ كما في «معجم البلدان» (٣/٦٣٢).

ويحتمل أنه سأل ذلك عند احتضاره -عليه السلام-؛ كما سأل النبي ﷺ عند احتضاره أن يرفع روحه إلى الملائ الأعلى والرفقاء الصالحين من النبيين والمرسلين؛ كما قال: «اللهم! في الرفيق الأعلى»؛ ثلاثاً، ثم قضى^(١).

ويحتمل أن يوسف -عليه السلام- سأل الوفاة على الإسلام منجزاً في صحة بدنه وسلامته، وأن ذلك كان سائغاً في ملتهم وشرعتهم؛ كما روي عن ابن عباس أنه قال: ما تمنى نبي قط الموت قبل يوسف.

فأما في شريعتنا؛ فقد نهى عن الدعاء بالموت؛ إلا عند الفتن؛ كما في حديث معاذ في الدعاء الذي رواه أحمد: «وإذا أردت بقوم فتنة، فتوفنا إليك غير مفتونين»^(٢).

وفي الحديث الآخر: «ابن آدم! الموت خير لك من الفتنة»^(٣).

وقالت مريم -عليها السلام-: «يَنَالِيَنِي مِثُّ قَبْلِ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مِّنْ نَّسِيًّا» [مريم: ٢٣]، وتمنى الموت علي بن أبي طالب لما تفاقمت الأمور وعظمت الفتن واشتد القتال وكثر القيل والقال، وتمنى ذلك البخاري أبو عبد الله صاحب «الصحيح» لما اشتد عليه الحال ولقي من مخالفه الأهوال.

فأما في حال الرفاهية؛ فقد روى البخاري ومسلم في «صحيحهما»^(٤) من حديث أنس بن مالك: قال رسول الله ﷺ: «لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به:

(١) أخرجه البخاري (٥٦٧٤)، ومسلم (٢٤٤٤) من حديث عائشة -رضي الله عنها-.

(٢) صحيح - أخرجه الترمذي (٣٢٣٥)، وأحمد (٢٤٣/٥) من حديث معاذ بن جبل -رضي الله عنه- بإسناد حسن.

وله شاهد من حديث عبد الله بن عباس -رضي الله عنه-: أخرجه الترمذي (٣٢٣٤) وحسنه ووافقه المنذري وشيخنا الألباني.

وبالجملة؛ فالحديث بمجموع ذلك صحيح؛ فقد قال الترمذي: «حسن صحيح، سألت محمد بن اسماعيل عن هذا الحديث فقال: هذا حديث حسن صحيح».

(٣) صحيح - أخرجه أحمد (٤٢٧/٥ و٤٢٨)، والبيهقي في «شرح السنة» (٤٠٦٦) من

حديث محمود بن لبيد -رضي الله عنه-، وصححه شيخنا -رحمه الله- في «الصحيحة» (٨١٣).

(٤) أخرجه البخاري (٥٦٧١)، ومسلم (٢٦٨٠).

إما محسناً؛ فلعله يزداد، وإما مسيئاً؛ فلعله يستعذب^(١)، ولكن ليقبل: اللهم! أحييني ما كانت الحياة خيراً لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي»، والمراد بالضر هاهنا: ما يخص العبد في بدنه، من مرض ونحوه لا في دينه.
والظاهر: أن نبي الله يوسف -عليه السلام- سأل ذلك: إما عند احتضاره، أو إذا كان ذلك أن يكون كذلك.

[وفاة يعقوب -عليه السلام-]

وقد ذكر ابن إسحاق عن أهل الكتاب: أن يعقوب أقام بديار مصر عند يوسف سبع عشرة سنة، ثم توفي -عليه السلام-. وكان قد أوصى إلى يوسف -عليه السلام- أن يدفن عند أبويه إبراهيم وإسحاق. قال السدي: فصبره^(٢) وسيّره إلى بلاد الشام، فدفنه بالمغارة عند أبيه إسحاق وجده الخليل -عليه السلام-.

وعند أهل الكتاب: أن عمر يعقوب يوم دخل مصر مائة وثلاثون سنة. وعندهم أنه أقام بأرض مصر سبع عشرة سنة. ومع هذا قالوا: فكان جميع عمره مائة وأربعين سنة!

هذا نص كتابهم! وهو غلط: إما في النسخة، أو منهم، أو قد أسقطوا الكسر، وليس بعادتهم فيما هو أكثر من هذا؛ فكيف يستعملون الطريقة ها هنا؟!
وقد قال -تعالى- في كتابه العزيز: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ أَلَمْ تَوْثِّقْ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾ [البقرة: ١٣٣]:

(١) يرجع عن الإساءة، ويطلب الرضا.

(٢) حنطه، وقد اشتهر المصريون القدماء بتحنيط الموتى (١).

يوصي بنيه بالإخلاص، وهو دين الإسلام الذي بعث الله به الأنبياء -عليهم السلام-.

[وفاة يوسف - عليه السلام -]

ثم حضرت يوسف - عليه السلام - الوفاة؛ فأوصى أن يحمل معهم؛ إذا خرجوا من مصر؛ فيدفن عند آبائه، فكان بمصر حتى أخرجته معه موسى - عليه السلام -، فدفنه عند آبائه؛ كما سيأتي^(١).

(١) قصة يوسف - عليه السلام - فيها عبر كثيرة وفكر مثيرة، وقد جمعناها بالاشتراك مع الأخ الشيخ الدكتور محمد موسى آل نصر - حفظه الله - في كتاب كبير وهو المسمى: «إتحاف الإلف بذكر الفوائد الألف والنيف من سورة يوسف».

قصة أيوب - عليه السلام -

والمشهور: أنه من ذرية إبراهيم؛ كما قررنا عند قوله -تعالى-: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ﴾ [الأنعام: ٨٤]، من أن الصحيح: أن الضمير عائد على إبراهيم دون نوح -عليهما السلام-.

وهو من الأنبياء المنصوص على الإيحاء إليهم في سورة النساء في قوله -تعالى-: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى﴾ [النساء: ١٦٣] الآية.

فالصحيح: أنه من سلالة العيص بن إسحاق؛ فلهذا ذكرناه هاهنا، ثم نعطف بذكر أنبياء بني إسرائيل بعد ذكر قصته إن شاء الله، وبه الثقة، وعليه التكلان.

[قصة أيوب في القرآن]

قال الله -تعالى-: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [٢١] فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ﴾ [٢٢] [الأنبياء: ٨٣-٨٤]، وقال -تعالى-: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ [٢٣] أَرَىٰ كُفْرًا بِرَجْلِكَ هَذَا مَغْتَاسِلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ [٢٤] وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَىٰ لِلْأُولَى الْأَلْبَبِ﴾ [٢٥] وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْتًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنُتْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [٢٦] [ص: ٤١-٤٤].

[بلاء أيوب - عليه السلام - وصبره]

قال علماء التفسير والتاريخ وغيرهم: كان أيوب رجلاً كثير المال من سائر صنوفه وأنواعه؛ من الأنعام والعبيد والمواشي والأراضي المتسعة بأرض البثنة من أرض حوران، وحكى ابن عساكر^(١): أنها كلها كانت له، وكان له أولاد وأهلون كثير، فسلب منه ذلك جميعه، وابتلي في جسده بأنواع من البلاء، ولم يبق منه عضو سليم سوى قلبه ولسانه؛ يذكر الله - عز وجل - بهما، وهو في ذلك كله صابر محتسب، ذاكر الله - عز وجل - في ليله ونهاره وصباحه ومساءه.

وطال مرضه حتى عافه الجليس، وأوحش منه الأنيس، وانقطع عنه الناس، ولم يبق أحد يحنو عليه سوى زوجته؛ كانت ترعى له حقه، وتعرف قديم إحسانه إليها وشفقته عليها؛ فكانت تتردد إليه، فتصلح من شأنه، وتعينه على قضاء حاجته، وتقوم بمصلحته، وضعف حالها، وقل مالها، حتى كانت تخدم الناس بالأجر؛ لتطعمه وتقوم بأوده - رضي الله عنها وأرضاها - وهي صابرة معه على ما حل بهما من فراق المال والولد، وما يختص بها من المصيبة بالزوج وضيق ذات اليد وخدمة الناس بعد السعادة والنعمة والخدمة والحرمة؛ فإنا لله وإنا إليه راجعون!

وقد ثبت في الحديث^(٢) أن رسول الله ﷺ قال: «أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل يبتلى الرجل على حسب دينه؛ فإن كان في دينه صلابه؛ زيد في بلائه»^(٣).

(١) في «تاريخ دمشق» (٥٨/١٠).

(٢) في «نسخة»: «في الصحيح»، والمعنى في الحديث الصحيح؛ كما لا يخفى.

(٣) صحيح - أخرجه الترمذي (٢٣٩٨)، وابن ماجه (٤٠٢٤)، وأحمد (١/١٧٢) و١٧٤.

و١٨٥ و١٨٠)، والدارمي (٢/٣٢٠)، وابن حبان (٢٩٠٠ و٢٩٠١ و٢٩٢١)، والحاكم (١/٤٠) بإسناد صحيح من حديث سعد بن أبي وقاص.

ولم يزد هذا كله أيوب -عليه السلام- إلا صبراً واحتساباً وحداً وشكراً، حتى إن المثل ليضرب بصبره -عليه السلام-، ويضرب المثل -أيضاً- بما حصل له من أنواع البلاء. وقد اختلفوا في مدة بلواه على أقوال كثيرة، والصواب ما ورد في السنة الصحيحة.

عن أنس بن مالك: أن النبي ﷺ قال: «إن نبي الله أيوب لبث به بلاؤه ثمانى عشرة سنة، فرفضه القريب والبعيد؛ إلا رجلين من إخوانه كانا من أخص إخوانه به، كانا يغدوان إليه ويروحان، فقال أحدهما لصاحبه: تعلم؟ والله؛ لقد أذنب أيوب ذنباً ما أذنبه أحد من العالمين، قال له صاحبه: وما ذاك؟ قال: منذ ثمانى عشرة سنة لم يرحمه ربه فيكشف ما به. فلما راحا إليه؛ لم يصبر الرجل حتى ذكر ذلك له. فقال أيوب: لا أدري ما تقول؛ غير أن الله -عز وجل- يعلم أني كنت أمر على الرجلين يتنازعان، فيذكران الله، فأرجع إلى بيتي، فأكفر عنهما؛ كراهية أن يذكر الله إلا في حق.

قال: وكان يخرج في حاجته؛ فإذا قضاها أمسكت امرأته بيده حتى يرجع؛ فلما كان ذات يوم أبطأت عليه، فأوحى الله إلى أيوب في مكانه أن: ﴿أَرْكَضْ بِرَجْلِكَ هَذَا مُغْتَسِلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ [ص: ٤٢]، فاستبطأته فتلقته تنظر، وأقبل عليها قد أذهب الله ما به من البلاء، وهو على أحسن ما كان، فلما رآته؛ قالت: أي بارك الله فيك! هل رأيت نبي الله هذا المبتلي؛ فوالله القدير على ذلك؛ ما رأيت رجلاً أشبه به منك إذ كان صحيحاً؟ قال: فإنني أنا هو.

قال: «وكان له أندران^(١): أندر للقمح وأندر للشعير، فبعث الله سبحانه، فلما كانت إحداهما على أندر القمح؛ أفرغت فيه الذهب حتى فاض، وأفرغت الأخرى في أندر الشعير الورق حتى فاض»^(٢).
وهذا غريب رفعه جداً، والأشبه أن يكون موقوفاً^(٣).

عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «لما عافى الله أيوب عليه السلام - أمطر عليه جرادا من ذهب، فجعل يأخذ منه بيده ويجعل في ثوبه». قال: «ف قيل له: يا أيوب! أما تشيع؟ قال: يارب! ومن يشيع من رحمتك؟»^(٤).

عن أبي هريرة؛ عن رسول الله ﷺ: «بينما أيوب يغتسل عرياناً؛ خر عليه جراد من ذهب، فجعل أيوب يحثي في ثوبه، فناداه ربه - عز وجل -: يا أيوب! ألم أكن أغنيك عما ترى؟ قال: بلي يارب! ولكن لا غنى لي عن بركتك»^(٥).

وقوله: ﴿أَرْكَضُ بِرَجْلِكَ﴾ [ص: ٤٢]؛ أي: اضرب الأرض برجلك. فامثل ما أمر به، فأنبع الله عيناً باردة الماء، وأمر أن يغتسل فيها ويشرب منها، فأذهب الله عنه ما كان يجده من الألم والأذى والسقم والمرض الذي كان في جسده ظاهراً وباطناً، وأبدله الله بعد ذلك كله صحة ظاهرة وباطنة وجمالاً تاماً ومالاً كثيراً حتى

(١) بيدران

(٢) صحيح - أخرجه ابن أبي حاتم (٨/ ٢٤٦٠ / ١٣٦٩٨)، وابن جرير في «جامع البيان» (٢٣/ ١٠٧-١٠٨)، وأبو يعلى (٨٦٢)، والبزار (١٨٤٩) - «مختصر الزوائد»، وابن حبان (٢٨٩٨)، والحاكم (٢/ ٥٨١)، وأبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٣٧٤).

وهو حديث صحيح؛ صححه الحاكم والذهبي وأبو نعيم والهيثمي في «المجمع» (٨/ ٢١١)، وشيخنا الإمام الألباني في «الصحيحة» (١٧).

(٣) ولا وجه لاستغرابه، ولا دليل على وقفه (!).

(٤) صحيح - أخرجه ابن أبي حاتم (٨/ ٢٤٦١ / ١٣٧٠٠)، وأحمد (٢/ ٣٠٤ و ٤٩٠ و ٥١١)، وابن حبان (٦٢٣٠)، والطيالسي (٢٤٥٥)، والحاكم (٢/ ٥٨٢) بإسناد صحيح على شرطهما.

(٥) أخرجه أحمد (٢/ ٣١٤)، والبخاري (٣٣٩١).

صَبَّ لَهُ مِنَ الْمَالِ صَبًّا مَطْرًا عَظِيمًا جَرَادًا مِنْ ذَهَبٍ، وَأَخْلَفَ اللَّهُ لَهُ أَهْلَهُ؛ كَمَا قَالَ - تعالى -: ﴿وَأَتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ﴾ [الأنبياء: ٨٤]؛ فَقِيلَ: أَحْيَاهُمُ اللَّهُ بِأَعْيَانِهِمْ، وَقِيلَ: آجَرَهُ فِيمَنْ سَلَفَ، وَعَوَّضَهُ عَنْهُمْ فِي الدُّنْيَا بِدَلْهِمْ، وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ بِكُلِّهِمْ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ. وَقَوْلُهُ: ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ [الأنبياء: ٨٤]؛ أَيُّ: رَفَعْنَا عَنْهُ شِدَّتَهُ، وَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ؛ رَحْمَةً مِّنَّا بِهِ وَرَأْفَةً وَإِحْسَانًا ﴿وَذِكْرًا لِلْعَبِيدِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٤]؛ أَيُّ: تَذَكُّرًا لِمَنْ ابْتَلَىٰ فِي جَسَدِهِ أَوْ مَالِهِ أَوْ وَلَدِهِ؛ فَلَهُ أَسْوَةٌ بَنِي اللَّهِ أَيُّوبُ؛ حَيْثُ ابْتَلَاهُ اللَّهُ بِمَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ، فَصَبَرَ وَاحْتَسَبَ حَتَّىٰ فَرَجَ اللَّهُ عَنْهُ. وَمَنْ فَهَمَ مِنْ هَذَا اسْمُ امْرَأَتِهِ؛ فَقَالَ: هِيَ رَحْمَةٌ! مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ؛ فَقَدْ أَبْعَدَ النِّجَّةَ وَأَغْرَقَ النَّزْعَ!!

وعاش أيوب بعد ذلك سبعين سنة بأرض الروم على دين الحنيفية، ثم غيروا بعده دين إبراهيم.

[لَوْاقِسُهُ عَلَى اللَّهِ لِابْرِهِ]

وقوله: ﴿وَاخْذُ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَأَضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنُثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعَمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤٤] هذه رخصة من الله - تعالى - لعبده ورسوله أيوب - عليه السلام -، فيما كان من حلفه ليضربن امرأته مائة سوط. فقيل: حلفه ذلك لبيعها ضفائرها، وقيل: لأنه عارضها الشيطان في صورة طبيب يصف لها دواء لأيوب، فأتته فأخبرته، فعرف أنه الشيطان، فحلف ليضربنها مائة سوط.

فلما عافاه الله - عز وجل - أفتاه أن يأخذ ضغثاً^(١) وهو كالعثكال^(٢) الذي يجمع الشماريخ^(٣)، فيجمعها كلها، ويضربها به ضربة واحدة، ويكون هذا منزلاً منزلة الضرب بمائة سوط، ويبر ولا يحنث.

(١) حزمة رطبة من عيدان الأعشاب.

(٢) في التمر كالعنقود في العنب.

(٣) العود الواحد من العثكال.

وهذا من الفرج والمخرج لمن اتقى الله وأطاعه، ولا سيما في حق امراته الصابرة المحتسبة المكابدة الصديقة البارة الراشدة - رضي الله عنها -؛ ولهذا عقب الله الرخصة وعللها بقوله: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نَعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ [ص: ٤٤].

وقد استعمل كثير من الفقهاء هذه الرخصة في باب الأيمان والنذور، وتوسع آخرون فيها حتى وضعوا كتاب الحيل في الخلاص من الأيمان، وصدروه بهذه الآية الكريمة، وأتوا فيه بأشياء من العجائب والغرائب! وسنذكر طرفا من ذلك في كتاب «الأحكام» عند الوصول إليه إن شاء الله - تعالى -.

ولنذكر هاهنا قصة ذي الكفل إذ قال بعضهم: إنه ابن أيوب - عليهما السلام - وهذه هي:

قصة ذي الكفل

الذي زعم قوم أنه ابن أيوب - عليه السلام -

قال الله - تعالى - بعد قصة أيوب في سورة الأنبياء [٨٥-٨٦]: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ ۝ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ ۝﴾ [الأنبياء: ٨٥-٨٦].

وقال - تعالى - بعد قصة أيوب - أيضا - في سورة ص [٤٥-٤٨]: ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ۝ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ۝ وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ۝﴾ [ص: ٤٥-٤٨].

فالظاهر من ذكره في القرآن العظيم بالثناء عليه مقرونا مع هؤلاء السادة الأنبياء أنه نبي - عليه من ربه الصلاة والسلام - وهذا هو المشهور.

باب ذكر أمر أهلكوا بعامة

وذلك قبل نزول التوراة بدليل قوله -تعالى-: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الفصل: ٤٣].

عن أبي سعيد الخدري؛ قال: ما أهلك الله قوما بعذاب من السماء أو من الأرض بعدما أنزل التوراة على وجه الأرض غير القرية التي مسحوا قرده، ألم تر أن الله - تعالى - يقول: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ﴾ [الفصل: ٤٣]؟

ورفعه البزار^(١) في رواية له، والأشبه - والله أعلم - وقفه.

فدل على أن كل أمة أهلكت بعامة قبل موسى - عليه السلام - .
فمنهم:

(١) صحيح - أخرجه البزار (١٤٩٨ - «مختصر الزوائد»)، وابن جرير الطبري في «جامع البيان» (٥٠ / ٢٠)، وابن أبي حاتم (١٦٩٢٨ / ٢٩٨١ / ٩) موقوفا بإسناد صحيح.
وأخرج - أيضاً - البزار (١٤٩٧ - «مختصر الزوائد»)، والحاكم (٤٠٨ / ٢) مرفوعاً بإسناد صحيح.

ولا تعارض بين الوقف والرفع؛ لأنه لا يقال بالرأي والاجتهاد، وصححه مرفوعاً الحاكم والذهبي والهيتمي والحافظ ابن حجر - رحمهم الله - .

أصحاب الرس

قال الله - تعالى - في سورة الفرقان [٣٨-٣٩]: ﴿وَعَادًا وَثَمُودًا وَأَصْحَابَ
الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ۖ﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَلَّ وَكُلًّا تَبَّرْنَا
تَتْبِيرًا ﴿٣٨﴾.

وقال - تعالى - في سورة ق [١٢-١٤]: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ
وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ۖ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ۖ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ
وَقَوْمُ ثُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ۖ﴾.

وهذا السياق والذي قبله يدل على أنهم أهلكوا ودمروا وتبروا - وهو
الهلاك -.

عن ابن عباس؛ قال: الرس بئر بأذربيجان^(١).

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٨/٢٦٩٥/١٥١٧٣) بسند صحيح.

قصة قوم يس

[وهم أصحاب القرية أصحاب يس]

[قصة أصحاب القرية في القرآن]

قال الله - تعالى -: ﴿ وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴾ (٢٨) إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُم لَمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا عَلَيْنَا الْبَلِّغُ الْمُبِينُ ﴿٣٢﴾ قَالُوا إِنَّا نَطِيرُنَا بِكُمْ لَيْلٍ لَمَّا نَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٣﴾ قَالُوا طَئِرُكُم مَّعَكُمْ أَهَلْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّشْرَفُونَ ﴿٣٤﴾ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَنْقُومِ رَبِّي عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٥﴾ اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَالِيَ لَا أَعْبُدُ إِلَّا ذِي فَرْطَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٧﴾ ءَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً إِنْ يُرَدِّدِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ ﴿٣٨﴾ إِنِّي إِذَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٩﴾ إِنِّي ءَامَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمِعُونِ ﴿٤٠﴾ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَلَيْتُ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ بِمَا عَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٤٢﴾ * وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ ﴿٤٣﴾ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَسِيدُونَ ﴿٤٤﴾ [يس: ٢٨-٢٩].

اشتهر عن كثير من السلف والخلف أن هذه القرية أنطاكية.

وهذا القول ضعيف جداً؛ لأن أهل أنطاكية لما بعث إليهم المسيح ثلاثة من الحواريين؛ كانوا أول مدينة آمنت بالمسيح في ذلك الوقت؛ ولهذا كانت إحدى المدن الأربع التي تكون فيها بطاركة النصارى، وهن: أنطاكية، والقدس، وإسكندرية، ورومية، ثم بعدها القسطنطينية، ولم يهلكوا، وأهل هذه القرية المذكورة في القرآن أهلكوا؛ كما قال في آخر قصتها بعد قتلهم صديق المرسلين: ﴿ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَسِيدُونَ ﴾ (٤٤).

ولكن؛ إن كان الرسل الثلاثة المذكورون في القرآن بعثوا إلى أهل أنطاكية قديما، فكذبوهم وأهلكهم الله، ثم عمرت بعد ذلك، فلما كان في زمن المسيح؛ آمنوا برسله إليهم؛ فلا يمنع هذا، والله أعلم.

فأما القول بأن هذه القصة المذكورة في القرآن هي قصة أصحاب المسيح؛ فضعيف، لما تقدم؛ ولأن ظاهر سياق القرآن يقتضي أن هؤلاء الرسل من عند الله.

قال الله -تعالى-: ﴿ وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلًا ۖ ﴾؛ يعنى: لقومك يا محمد . ﴿ أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ ۖ ﴾؛ يعنى: المدينة. ﴿ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ۖ ﴾ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ ۖ ﴾ أي: أيدهما بثالث في الرسالة. ﴿ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ۖ ﴾. فردوا عليهم بأنهم بشر مثلهم؛ كما قالت الأمم الكافرة لرسلمهم؛ يستبعدون أن يبعث الله نبيا بشريا. فأجابو بأن الله يعلم أنا رسله إليكم، ولو كنا كذبننا عليه؛ لعاقبنا وانتقم منا أشد الانتقام ﴿ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ۖ ﴾؛ أي: إنما علينا أن نبلغكم ما أرسلنا به إليكم، والله هو الذي يهدي من يشاء ويضل من يشاء. ﴿ قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ۖ ﴾؛ أي: تشاء منا بما جئتمونا به.

﴿ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ ۖ ﴾: قيل: بالمقال، وقيل: بالفعل، ويؤيد الأول قوله: ﴿ وَلَكَيْمَسَنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۖ ﴾: توعدهم بالقتل والإهانة. ﴿ قَالُوا طَيَّرَكُم مَّعَكُمْ ۖ ﴾؛ أي: مردود عليكم. ﴿ أَيْنَ ذُكِّرْتُمْ ۖ ﴾؛ أي: بسبب أنا ذكرناهم بالهدى ودعوناكم إليه توعدتمونا بالقتل والإهانة ﴿ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ۖ ﴾؛ أي: لا تقبلون الحق ولا تريدونه.

[مؤمن أصحاب يس]

وقوله -تعالى-: ﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى ۖ ﴾؛ يعنى: لنصرة الرسل وإظهار الإيمان بهم ﴿ قَالَ يَتَقَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ۖ ﴾ اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ ۖ ﴾؛ أي: يدعونكم إلى الحق المحض بلا أجر ولا جعالة. ثم دعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ونهاهم عن عبادة ما سواه مما لا ينفع شيئا لا في الدنيا ولا في الآخرة. ﴿ إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۖ ﴾؛ أي:

إن تركت عبادة الله وعبدت معه ما سواه. ثم قال مخاطبا للرسل: ﴿إِنِّي ءَامَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ﴾ ٢٤١؛ قيل: فاستمعوا مقالتي واشهدوا لي بها عند ربكم، وقيل معناه: فاستمعوا يا قومي إيماني برسول الله جهرة. فعند ذلك قتلوه.

قال ابن عباس: نصح قومه في حياته بقوله: ﴿يَنْقُومِ آتِبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾، وبعد مماته في قوله: ﴿قَالَ يَنْلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾ ٢٤٢ بِمَا عَفَّرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ٢٤٣. ﴿

وقال قتادة: لا يلقى المؤمن إلا ناصحا، لا يلقى غاشا، لما عاين من عاين من كرامة الله؛ قال: ﴿يَنْلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾ ٢٤٢ بِمَا عَفَّرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ٢٤٣. ﴿: تمنى والله أن يعلم قومه بما عاين من كرامة الله وما هو عليه! قال قتادة: فلا والله؛ ما عاتب الله قومه بعد قتله؛ ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيِّحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ ٢٤٤. ﴿

[هلاك أصحاب يس]

وقوله -تعالى-: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُندٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ﴾ ٢٤٥؛ أي: وما احتجنا في الانتقام منهم إلى إنزال جند من السماء عليهم.

﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيِّحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ ٢٤٦؛ قال المفسرون: بعث الله إليهم جبريل -عليه السلام-؛ فأخذ بعضادتي الباب الذي لبلدهم، ثم صاح بهم صيحة واحدة؛ فإذا هم خامدون؛ أي: قد أخذت أصواتهم، وسكنت حركاتهم، ولم يبق منهم عين تطرف.

وهذا كله مما يدل على أن هذه القرية ليست أنطاكية؛ لأن هؤلاء أهلکوا بتكذيبهم رسل الله إليهم، وأهل أنطاكية آمنوا واتبعوا رسل المسيح من الحواريين إليهم؛ فلهذا قيل: إن أنطاكية أول مدينة آمنت بالمسيح.

قصة يونس - عليه السلام -

[يونس - عليه السلام - في القرآن]

قال الله - تعالى - في سورة يونس [٩٨] ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَتَنَفَعَهَا إِيمَنُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ .

وقال - تعالى - في سورة الأنبياء [٨٧-٨٨] ﴿ وَذَا الثَّنُونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا فَظَنَّ أَن لَّنْ نُّقَدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ . فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَجِئْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُشَجِّي الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

وقال - تعالى - في سورة الصافات [١٣٩-١٤٨] ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ . إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴾ . فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴾ . فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ . فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴾ . لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمٍ يُبْعَثُونَ ﴾ . * فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴾ . وَأَلْبَسْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّنْ يَقْطِينٍ ﴾ . وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾ . فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ .

وقال - تعالى - في سورة ن: [٤٨-٥٠] ﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴾ . لَوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴾ . فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ .

[توبة قوم يونس - عليه السلام -]

قال أهل التفسير: بعث الله يونس - عليه السلام - إلى أهل نينوى من أرض الموصل، فدعاهم إلى الله - عز وجل -، فكذبوه، وتمردوا على كفرهم وعنادهم،

فلما طال ذلك عليه من أمرهم؛ خرج من بين أظهرهم، ووعدهم حلول العذاب بهم بعد ثلاث.

فلما خرج من بين ظهرانيهم، وتحققوا نزول العذاب بهم؛ قذف الله في قلوبهم التوبة والإنابة، وندموا على ما كان منهم إلى نبيهم، فلبسوا المسوح^(١)، وفرّقوا بين كلّ بهيمة وولدها، ثم عجبوا^(٢) إلى الله - عز وجل -، وصرخوا، وتضرّعوا إليه، وتمسكوا لديه، وبكى الرجال والنساء والبنون والبنات والأمهات، وجأرت الأنعام والدواب والمواشي؛ فرغّت الإبل وفصلانها، وخارت البقر وأولادها، وثغت الغنم وحملانها، وكانت ساعة عظيمة هائلة؛ فكشف الله العظيم بحوله وقوته ورأفته ورحمته عنهم العذاب الذي كان قد اتصل بهم سببه ودار على رؤوسهم كقطع الليل المظلم.

ولهذا قال - تعالى -: ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَنُهَا ﴾ [يونس: ٩٨]؛ أي: هلا وجدت فيما سلف من القرون قرية آمنت بكما لها! فدل على أنه لم يقع ذلك؛ بل كما قال - تعالى -: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِمْ كَافِرُونَ ﴾ [سبا: ٣٤] وقوله: ﴿ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [يونس: ٩٨]؛ أي: آمنوا بكما لهم.

وقد اختلف المفسرون: هل ينفعهم هذا الإيمان في الدار الآخرة؛ فينقذهم من العذاب الأخروي كما أنقذهم من العذاب الدنيوي؟ على قولين:

الأظهر من السياق: نعم، والله أعلم.

كما قال - تعالى -: ﴿ لَمَّا ءَامَنُوا ﴾ [يونس: ٩٨]، وقال - تعالى -: ﴿ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾ [يونس: ٩٨]، فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿ ٩٨ ﴾

(١) ثياب سوداء.

(٢) رفعوا أصواتهم بالدعاء.

[الصفات: ١٤٧ و ١٤٨]، وهذا المتاع إلى حين لا ينفي أن يكون معه غيره من رفع العذاب الأخروي، والله أعلم.

وقد كانوا مائة ألف لا محالة، واختلفوا في الزيادة: واختلفوا: هل كان إرساله إليهم قبل الحوت أو بعده ؟ أو هما أمتان ؟ على ثلاثة أقوال هي مبسطة في «التفسير».

[يونس - عليه السلام - في بطن الحوت]

والمقصود: أنه - عليه السلام - لما ذهب مغاضباً بسبب قومه؛ ركب سفينة في البحر، فلجت بهم، واضطربت وماجت بهم وثقلت بما فيها، وكادوا يغرقون على ما ذكره المفسرون. قالوا: فتشاوروا^(١) فيما بينهم على أن يقرعوا؛ فمن وقعت عليه القرعة؛ ألقوه من السفينة؛ ليتخففوا منه.

فلما اقرعوا وقعت القرعة على نبي الله يونس، فلم يسمحوا به، فأعادوها ثانية، فوقعت عليه أيضاً، فشمر ليخلع ثيابه ويلقى بنفسه، فأبوا عليه ذلك، ثم أعادوا القرعة الثالثة، فوقعت عليه - أيضاً -؛ لما يريد الله به من الأمر العظيم.

قال الله - تعالى -: ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ۚ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلِّكَ الْمَشْحُونِ ۖ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ۖ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ۚ ﴾ [الصفات: ١٣٩-١٤٢]. وذلك أنه لما وقعت عليه القرعة؛ ألقى في البحر، وبعث الله - عز وجل - حوتاً عظيماً من البحر الأخضر؛ فالتقمه، وأمره الله - تعالى - ألا يأكل له لحماً ولا يهشم له عظماً؛ فليس لك برزق! فأخذه فطاف به البحار كلها. وقيل إنه ابتلع ذلك الحوت حوت أكبر منه. قالوا: ولما استقر في جوف الحوت حسب أنه قد مات، فحرك جوارحه، فتحركت؛ فإذا هو حي، فخر لله ساجداً، وقال: يارب! اتخذت لك مسجداً في موضع لم يعبدك أحد في مثله.

(١) في نسخة: «فاشاوروا».

وقد اختلفوا في مقدار لبثه في بطنه، والله أعلم كم مقدار ما لبث فيه. والمقصود: أنه لما جعل الحوت يطوف به في قرار البحار اللججية، ويقتحم به لجج الموج الأجاجي^(١)، فسمع تسبيح الحيتان للرحمن، وحتى سمع تسبيح الحصى لقاتل الحب والنوى، ورب السماوات السبع والأرضين السبع وما بينهما وما تحت الثرى؛ فعند ذلك وهنالك، قال ما قال، بلسان الحال والمقال؛ كما أخبر عنه ذو العزة والجلال، الذي يعلم السر والنجوى، ويكشف الضر والبلوى، سامع الأصوات وإن ضعفت، وعالم الخفيات وإن دقت، ومجيب الدعوات وإن عظمت؛ حيث قال في كتابه المبين، المنزل على رسوله الأمين، وهو أصدق القائلين ورب العالمين وإله المرسلين: ﴿وَذَا الثُّونِ إِذْ ذَهَبَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]؛ أي: إلى أهله ﴿مُغْضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَنَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [٨٧] ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَجِئْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُخَيِّجُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [٨٨-٨٧]. ﴿فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾: أن نضيق عليه. وقيل: معناه: نقدر؛ من التقدير وهي لغة مشهورة. قدر وقدر كما قال الشاعر^(٢):

فلا عائد ذاك الزمان الذي مضى تباركت ما تقدر يكن فلك الأمر
﴿فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ﴾؛ قال ابن مسعود وابن عباس وعمرو بن ميمون
وسعيد بن جبير ومحمد بن كعب والحسن وقتادة والضحاك: ظلمة الحوت، وظلمة
البحر، وظلمة الليل.

وقوله - تعالى -: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾ ﴿لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصافات: ١٤٣-١٤٤].

قيل معناه: فلولا أنه سبّح الله هنالك، وقال ما قال من التهليل والتسبيح والاعتراف لله بالخضوع، والتوبة إليه والرجوع إليه؛ لبث هنالك إلى يوم القيامة،

(١) المالح.

(٢) عزاه القرطبي في «الجامع لأحكام القرآن» (٣٣٢/١١) قائلا: وأنشد ثعلب.

ولبعث من جوف ذلك الحوت؛ هذا معنى ما روي عن سعيد بن جبير في إحدى الروايتين عنه. وقيل: معناه: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ﴾: من قبل أخذ الحوت له ﴿مِّنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾؛ أي: المطيعين المصلين الذاكرين الله كثيرا؛ قاله الضحاك بن قيس وابن عباس وأبو العالية ووهب بن منبه وسعيد بن جبير والضحاك والسدي وعطاء بن السائب والحسن البصري وقتادة وغير واحد، واختاره ابن جرير^(١).

ويشهد لهذا ما رواه الإمام أحمد وبعض أهل «السنن» عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ قال له: «يا غلام! إني معلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة»^(٢).

عن عبد الله بن رافع مولى أم سلمة؛ قال: سمعت أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «لما أراد الله حبس يونس في بطن الحوت، أوحى الله إلى الحوت: أن خذه ولا تحدش له لحما ولا تكسر له عظما. فلما انتهى به إلى أسفل البحر؛ سمع يونس حسا، فقال في نفسه: ما هذا؟ فأوحى الله إليه وهو في بطن الحوت: إن هذا تسبيح دواب البحر. قال: فسبح وهو في بطن الحوت، فسمعت الملائكة تسبيحه، فقالوا: يا ربنا! إنا نسمع صوتا ضعيفا بأرض غريبة! قال: ذلك عبدي يونس؛ عصاني، فحبسته في بطن الحوت في البحر. قالوا: العبد الصالح الذي كان يصعد إليك منه في كل يوم وليلة عمل صالح؟ قال: نعم. قال: فشفعوا له عند ذلك، فأمر الحوت؛ فقفذه في الساحل؛ كما قال الله: ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ١٤٥]»^(٣).

(١) في «جامع البيان» (٢٣/٦٤).

(٢) صحيح - أخرجه أحمد (١/٢٩٣ و٣٠٣ و٣٠٧)، والترمذي (٢٥١٦)، وابن أبي عاصم في «السنن» (٣١٦-٣١٨)، والحاكم (٣/٥٤١ و٥٤٢) وغيرهم من طرق عن ابن عباس. قلت: وهو صحيح؛ صححه الترمذي، وابن رجب، وشيخنا رحمهم الله.

(٣) ضعيف - أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/٦٤-٦٥)، والبزار (٢/١٠٤/١٥٠٢ - كشف) بإسناد ضعيف؛ ضعفه المصنف، والهيتمي في «المجمع» (٧/١١١). ويشهد له ما بعده.

عن يزيد الرقاشي قال: سمعت أنس بن مالك، ولا أعلم إلا أن أنساً يرفع الحديث إلى رسول الله ﷺ يقول: «إن يونس النبي -عليه السلام- حين بدا له أن يدعو بهذه الكلمات وهو في بطن الحوت؛ قال: اللهم! لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين. فأقبلت هذه الدعوة تحف بالعرش، فقالت الملائكة: يارب! صوت ضعيف معروف من بلاد غريبة. فقال: أما تعرفون ذاك؟ فقالوا: لا يارب! ومن هو؟ قال: عبدي يونس. قالوا: عبدك يونس الذي لم يزل يرفع له عمل متقبل ودعوة مجابة؟ قالوا: يا ربنا! أو لا ترحم ما كان يصنعه في الرخاء فتنجيه من البلاء؟ قال: بلى. فأمر الحوت فطرحه في العراء»^(١).

زاد ابن أبي حاتم: قال أبو صخر حميد بن زياد: فأخبرني ابن قسيط وأنا أحدثه هذا الحديث: أنه سمع أبا هريرة يقول: طرح بالعراء، وأنبت الله عليه اليقطينة. قلنا: يا أبا هريرة! وما اليقطينة؟ قال: شجرة الدباء. قال أبو هريرة: وهباً الله له أروية وحشية تأكل من خشاش الأرض. قال: فتفشخ عليه فترويه من لبنها كل عشية وبكرة حتى نبت.

وقال أمية بن أبي الصلت في ذلك بيتاً من شعره^(٢):

فأنبت يقطينا عليه برحمة من الله لولا الله أصبح ضاويلاً

وهذا غريب -أيضاً- من هذا الوجه، ويزيد الرقاشي ضعيف، ولكن يتقوى بحديث أبي هريرة المتقدم، كما يتقوى ذاك بهذا، والله أعلم^(٣).

وقد قال الله -تعالى-: ﴿ قَبِّذْنَاهُ ﴾ [الصفات: ١٤٥]؛ أي: ألقيناه ﴿ بِالْعَرَاءِ ﴾ [الصفات: ١٤٥]: وهو المكان القفر الذي ليس فيه شيء من الأشجار،

(١) ضعيف - أخرجه ابن أبي حاتم (١٠/٣٢٢٨/١٨٢٨١)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٠/٥٢٨)، وعبد الرزاق في «التفسير» (٢/١٥٦-١٥٧)، والطبراني في «الدعاء» (٤٧) بإسناد ضعيف.

(٢) ديوانه (ص ٦٥).

(٣) وهو كما قال -رحمه الله-.

بل هو عار منها، ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ [الصفات: ١٤٥]؛ أي: ضعيف البدن؛ قال ابن مسعود: كهية الفرخ ليس عليه ريش، وقال ابن عباس والسدي وابن زيد: كهية الصبي حين يولد، وهو المنفوس ليس عليه شيء. ﴿وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّنْ يَّقُوطٍ﴾ [الصفات: ١٤٦]؛ قال ابن مسعود وابن عباس وعكرمة ومجاهد وسعيد بن جبير ووهب بن منبه وهلال بن يساف وعبد الله بن طاووس والسدي وقتادة والضحاك وعطاء الخرساني وغير واحد: هو القرع.

قال بعض العلماء: في إنبات القرع عليه حكم جمّة؛ منها: أن ورقه في غاية النعومة، وكثير، وظليل، ولا يقربه ذباب، ويؤكل ثمره من أول طلوعه إلى آخره؛ نيا ومطبوخا، وبقره ويزره أيضاً، وفيه نفع كثير وتقوية للدماغ وغير ذلك.

وتقدم كلام أبي هريرة في تسخير الله - تعالى - له تلك الأروية التي كانت ترضعه لبنها وترعى في البرية وتأتيه بكرة وعشية. وهذا من رحمة الله به ونعمته عليه وإحسانه إليه؛ ولهذا قال الله - تعالى -: ﴿فَأَسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ﴾ [الأنبياء: ٨٨]؛ أي: الكرب والضيق الذي كان فيه. ﴿وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٨]؛ أي: وهذا صنيعنا بكل من دعانا واستجار بنا.

عن سعد بن أبي وقاص - رضي الله عنه - قال: مررت بعثمان بن عفان في المسجد فسلمت عليه، فملاً عينيه مني، ثم لم يرد علي السلام، فأتيت عمر بن الخطاب، فقلت: يا أمير المؤمنين! هل حدث في الإسلام شيء؟ قال: لا؛ وما ذاك؟ قلت: لا، إلا أنني مررت بعثمان - آنفاً - في المسجد، فسلمت عليه، فملاً عينيه مني، ثم لم يرد علي السلام. قال: فأرسل عمر إلى عثمان فدعاه، فقال: ما منعك ألا تكون رددت على أخيك السلام؟ قال: ما فعلت. قال سعد: قلت: بلى. حتى حلف وحلفت.

قال: ثم إن عثمان ذكر فقال: بلى، وأستغفر الله وأتوب إليه؛ إنك مررت بي - آنفاً - وأنا أحدث نفسي بكلمة سمعتها من رسول الله ﷺ؛ لا والله ما ذكرتها قط؛ إلا تغشى بصري وقلبي غشاوة.

قال سعد: فأنا أنبتك بها؛ إن رسول الله ﷺ ذكر لنا أول دعوة، ثم جاء أعرابي فشغله، حتى قام رسول الله، فاتبعته، فلما أشفقت أن يسبقني إلى منزله؛

ضربت بقدمي الأرض، فالتفت إلي رسول الله ﷺ، فقال: «من هذا؟ أبو إسحاق؟» قال: قلت: نعم يا رسول الله! قال: «مه؟». قلت: لا والله؛ إلا أنك ذكرت لنا أول دعوة، ثم جاء هذا الأعرابي فشغلك. قال: «نعم؛ دعوة ذي النون إذ هو في بطن الحوت: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾؛ فإنه لم يدع بها مسلم ربه في شيء قط؛ إلا استجاب له»^(١).

(١) صحيح- أخرجه أحمد (١/١٧٠)، والترمذي (٣٥٠٥)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (٦٦٠ و٦٦١)، والحاكم (١/٥٠٥ و٣٨٢) من طريقين عن إبراهيم بن محمد بن سعد عنه به.

وهذا إسناد صحيح؛ صححه الحاكم والذهبي والمنذري في «الترغيب والترهيب» (٢/٤٨٤)، والهيتمي في «مجمع الزوائد» (١٠/١٦٢)، وشيخنا الإمام الألباني -رحمهم الله-.

ذكر فضل يونس - عليه السلام -

قال الله - تعالى -: ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [الصافات: ١٣٩]. وذكره - تعالى - في جملة الأنبياء الكرام في سورتي النساء والأنعام - عليهم من الله أفضل الصلاة والسلام -.

عن عبد الله بن مسعود، عن رسول الله ﷺ: «لا ينبغي لعبد أن يقول: أنا خير من يونس بن متى»^(١).

عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «ما ينبغي لعبد أن يقول: إني خير من يونس بن متى»^(٢) ونسبه إلى أبيه.

عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «لا ينبغي لعبد أن يقول: أنا خير من يونس بن متى»^(٣).

عن أبي هريرة... في قصة المسلم الذي لطم وجه اليهودي حين قال: لا والذي اصطفى موسى على العالمين...

قال البخاري في آخره: «... و لا أقول: إن أحدا أفضل من يونس بن متى»^(٤).

وهذا اللفظ يقوي أحد القولين من المعنى: «لا ينبغي لأحد أن يقول: أنا خير من يونس بن متى»؟ أي: ليس لأحد أن يفضل نفسه على يونس.

(١) أخرجه أحمد (١/٣٩٠ و ٤٤٠ و ٤٤٣)، والبخاري (٣٤١٢).

(٢) أخرجه البخاري (٣٤١٢)، ومسلم (٢٣٧٧)، وأحمد (١/٢٤٢ و ٢٥٤ و ٢٩٢ و ٣٤٢ و ٣٤٨)، وأبو داود (٤٦٦٩).

(٣) أخرجه البخاري (٣٤١٦)، ومسلم (٢٣٧٦)، وأحمد (٢/٤٠٥ و ٤٦٨ و ٥٣٩).

(٤) أخرجه البخاري (٣٤١٤ و ٣٤١٥)، ومسلم (٢٣٧٣).

والقول الآخر: لا ينبغي لأحد أن يفضلني على يونس بن متى؛ كما قد ورد في بعض الأحاديث: «لا تفضلوني على الأنبياء، ولا على يونس بن متى»^(١). وهذا من باب الهضم والتواضع منه -صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر أنبياء الله والمرسلين-.

(١) أورده القاضي عياض في «الشفاء» (١/ ١٧٠) بنحوه.

ذكر قصة موسى الكليم - عليه الصلاة والسلام -

وهو موسى بن عمران.

قال - تعالى -: ﴿ وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ۖ وَنَدَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيبًا ۖ وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ۖ ﴾ [مريم: ٥١-٥٣].

ذكر الله بالرسالة والنبوة والإخلاص والتقريب، ومنّ عليه بأن جعل أخاه هارون نبياً، وقد ذكره الله - تعالى - في مواضع كثيرة متفرقة من القرآن، وذكر قصته في مواضع متعددة مبسطة مطوّلة وغير مطوّلة، وقد تكلمنا على ذلك كلّه في مواضعه من «التفسير»، وسنورد سيرته هاهنا من ابتدائها إلى آخرها من الكتاب والسنة وما ورد في الآثار التي ذكرها السلف وغيرهم - إن شاء الله -، وبه الثقة وعليه التكلان.

[استعباد فرعون لنبى اسرائيل]

قال الله - تعالى -: ﴿ طَسَمَ ۖ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ۖ نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۖ ﴾ [انّ فرعونَ علّا في الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفةً منهم يذبح أبناءهم ويستخون نساءهم إنّهُ كانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ۖ ۖ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ۖ وَنُكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنَرَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ۖ ﴾ [القصص: ١-٦].

يذكر - تعالى - ملخص القصة، ثم يبسطها بعد هذا، فذكر أنه يتلو على نبيه خبر موسى وفرعون بالحق؛ أي: بالصدق الذي كان سامعه مشاهد للأمر معين له.

﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا ﴾؛ أي: تجبر وعتا، وطنى وبغى، وآثر الحياة الدنيا، وأعرض عن طاعة الرب الأعلى. ﴿ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا ﴾؛ أي: قسم رعيته إلى أقسام وفرق وأنواع؛ يستضعف طائفة منهم، وهم شعب بني إسرائيل الذين هم من سلالة نبي الله يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الله، وكانوا إذ ذاك خيار أهل الأرض، وقد سلط عليهم هذا الملك الظالم الغاشم، الكافر الفاجر؛ يستعبدهم ويستخدمهم في أخس الصنائع والحرف وأرذالها وأذناها، ومع هذا ﴿ يُدْبِحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾.

وكان الحامل له على هذا الصنيع القبيح أن بني إسرائيل كانوا يتدارسون فيما بينهم ما يثرونه عن إبراهيم - عليه السلام -، من أنه سيخرج من ذريته غلام يكون هلاك ملك مصر على يديه، وذلك - والله أعلم - حين كان جرى على سارة امرأة الخليل من ملك مصر من إرادته إيّاها على السوء وعصمة الله لها، وكانت هذه البشارة مشهورة في بني إسرائيل، فتحدث بها القبط فيما بينهم، ووصلت إلى فرعون، فذكرها له بعض أمرائه وأساورته^(١) وهم يسمرون عنده، فأمر عند ذلك بقتل أبناء بني إسرائيل؛ حذراً من وجود هذا الغلام، ولن يغني حذر من قدرا

ولهذا قال الله - تعالى -: ﴿ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ ﴾؛ وهم بنو إسرائيل. ﴿ وَنَجْعَلَهُمْ أُمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴾؛ أي: الذين يؤول ملك مصر وبلادها إليهم. ﴿ وَنُمْكِنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾؛ أي: سنجعل الضعيف قوياً والمقهور قاهراً^(٢) والدليل عزيزاً، وقد جرى هذا كله لبني إسرائيل؛ كما قال - تعالى -: ﴿ وَأَوْزَنَّا الْكَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي

(١) جمع أسوار: قائد العجم، وهو كالأمر في العرب.

(٢) في نسخته: «قادراً».

إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا ﴿٥٧﴾ الآية [الأعراف: ١٧٧]، وقال -تعالى-: ﴿ فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٨﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٩﴾ كَذَلِكَ وَأَوْفَيْنَهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [الشعراء: ٥٧-٥٩].

والمقصود: أن فرعون احترز كل الاحتراز ألا يوجد موسى، حتى جعل رجالاً وقوابل يدورون على الجبال، ويعلمون ميقات وضعهن، فلا تلد امرأة ذكراً؛ إلا ذبحه أولئك الذبّاحون من ساعته.

وعند أهل الكتاب^(١): أنه إنما كان يأمر بقتل الغلمان؛ لتضعف شوكة بني إسرائيل؛ فلا يقاومونهم إذا غالبوهم أو قاتلوهم! وهذا فيه نظر، بل هو باطل، وإنما هذا في الأمر بقتل الولدان بعد بعثة موسى؛ كما قال -تعالى-: ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ ﴾ [غافر: ٢٥]؛ ولهذا قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿ أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ﴾ [الأعراف: ١٢٩]؛ فالصحيح: أن فرعون إنما أمر بقتل الغلمان أولاً، حذراً من وجود موسى.

هذا؛ والقدر يقول: يا أيها الملك الجبار، المغرور بكثرة جنوده وسلطة بأسه واتساع سلطانه! قد حكم العظيم الذي لا يغالب ولا يمانع ولا يخالف أقداره؛ أن هذا المولود الذي تحترز منه -وقد قتلت بسببه من النفوس ما لا يعد ولا يحصى- لا يكون مرباه إلا في دارك وعلى فراشك، ولا يُغذى إلا بطعامك وشرابك في منزلك، وأنت الذي تتبناه وتربيته وتتفداه^(٢)، ولا تطلع على سرّ معناه، ثم يكون هلاكك في دنياك وأخراك على يديه؛ لمخالفتك ما جاءك به من الحق المبين، وتكذيبك ما أوحى إليه؛ لتعلم أنت وسائر الخلق، أن ربّ السماوات والأرض هو الفعل لما يريد، وأنه هو القوي الشديد، ذو البأس العظيم، والحول والقوة والمشية التي لا مرد لها!

وقد ذكر غير واحد من المفسرين: أن القبط شكوا إلى فرعون قلة بني

(١) «العهد القديم» (سفر الخروج: الاصحاح ١).

(٢) في نسخة: «تتعداه».

إسرائيل بسبب قتل ولدانهم الذكور، وخشي أن تتفانى الكبار مع قتل الصغار، فيصيرون هم الذين يلون ما كان بنو إسرائيل يعالجون، فأمر فرعون بقتل الأبناء عاماً وأن يتركوا عاماً، فذكروا أن هارون -عليه السلام- ولد في عام المساحة عن قتل الأبناء، وأن موسى -عليه السلام- ولد في عام قتلهم، فضاعت أمه به ذرعاً، واحتزرت من أول ما حبلت، ولم يكن يظهر عليها مخايل الحبل، فلما وضعت؛ ألهمت أن اتخذت له تابوتاً، فربطته في حبل، وكانت دارها متاخمة للنيل، فكانت تُرضعه، فإذا خشيت من أحد؛ وضعت في ذلك التابوت، فأرسلته في البحر، وأمسكت طرف الحبل عندها؛ فإذا ذهبوا؛ استرجعته إليها به.

[موسى -عليه السلام- من أئيم إلى بيت فرعون]

قال الله -تعالى-: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ فَأَلْقَاهُ فِي الْقَيْمِ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝ فَالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً ۝ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَمُّنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ۝ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝ ﴾ [القصص: ٧-٩].

هذا الوحي وحي إلهام وإرشاد؛ كما قال -تعالى-: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ۝ ثُمَّ كَلَىٰ مِنْ كُلِّ آلٍ مَّرَاتٍ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَنُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝ ﴾ [النحل: ٦٨-٦٩].
وليس هو بوحى نبوة كما زعمه ابن حزم^(١) وغير واحد من المتكلمين، بل الصحيح الأول؛ كما حكاه أبو الحسن الأشعري عن أهل السنة والجماعة.
المقصود: أنها أرشدت إلى هذا الذي ذكرناه، وألقي في خلد لها وروعها ألا

(١) في « الفصل بين الملل والنحل » (١٧/٥-١٨).

تخافي ولا تحزني، فإنه إن ذهب؛ فإن الله سيرده إليك، وإن الله سيجعله نبياً مرسلأ؛
يعلى كلمته في الدنيا والآخرة.

فكانت تصنع ما أمرت به، فأرسلته ذات يوم وذملت أن تربط طرف الحبل
عندها، فذهب مع النيل، فمرَّ على دار فرعون، ﴿فَأَلْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ﴾،
قال الله - تعالى -: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾؛ قال بعضهم: هذه (لام) العاقبة،
وهو ظاهر إن كان متعلقاً بقوله: ﴿فَأَلْتَقَطَهُ﴾، وأما إن جعل متعلقاً بمضمون
الكلام، وهو أن آل فرعون قيصوا لالتقاطه ليكون لهم عدواً وحزناً؛ وصارت
اللام معللة كغيرها، والله أعلم. ويقوي هذا التقدير الثاني قوله: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ
وَهُمَنَ﴾؛ وهو الوزير السوء ﴿وَجُنُودُهُمَا﴾: التابعين لهما ﴿كَانُوا
خَاطِئِينَ﴾؛ أي: كانوا على خلاف الصواب، فاستحقوا هذه العقوبة والحسرة.

وذكر المفسرون: أن الجواري التقطنه من البحر في تابوت مغلق عليه، فلم
يتجاسرن على فتحه، حتى وضعنه بين يدي امرأة فرعون، آسية بنت مزاحم فلما
فتحت الباب وكشفت الحجاب؛ ورأت وجهه يتلألأ بتلك الأنوار النبوية والجلالة
الموسوية، فلما رآته وقع نظرها عليه؛ أحبته حباً شديداً جداً، فلما جاء فرعون؛
قال: ما هذا ؟ وأمر بذبحه! فاستوهبته منه، ودفعت عنه، وقالت: ﴿قُرْتُ عَيْنَ لِي
وَلَكَّ﴾. فقال لها فرعون: أما لك؛ فنعم، وأما لي؛ فلا أي: لا حاجة لي به! والبلاء
موكل بالمنطق!

وقولها: ﴿عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا﴾: قد أنالها الله ما رجت من النفع: أما في
الدنيا؛ فهداها الله به، وأما في الآخرة؛ فأسكنها جنته بسببه. ﴿أَوْ نَخِذَهُ
وَلَدًا﴾: وذلك أنهما تبنياه؛ لأنه لم يكن يولد لهما ولد. قال الله - تعالى -: ﴿وَهُمْ
لَا يَشْعُرُونَ﴾؛ أي: لا يدرون ماذا يريد الله بهم أن قيضهم لالتقاطه من النعمة
العظيمة بفرعون وجنوده؟

وعند أهل الكتاب^(١) أن التي التقطت موسى وربته ابنة فرعون، وليس
لامراته ذكر بالكلية، وهذا من غلطهم على كتاب الله - عز وجل -.

(١) في (سفر الخروج: الأصحاح: ٢).

[رجوع موسى - عليه السلام - إلى حضن أمه]

وقال الله - تعالى - : ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِعًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِيَ بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَّنَا عَلَيَّ قَلْبُهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ① وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ② * وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ③ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَلَنَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ④ ﴾ [القصص : ١٠ - ١٣] .

قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وأبو عبيدة والحسن وقتادة والضحاك وغيرهم : ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِعًا ﴾ ؛ أي : من كل شيء من أمور الدنيا إلا من موسى . ﴿ إِن كَادَتْ لَتُبْدِيَ بِهِ ﴾ ؛ أي : لتظهر أمره وتسال عنه جهرة . ﴿ لَوْلَا أَن رَّبَّنَا عَلَيَّ قَلْبُهَا ﴾ ؛ أي : صبرناها وثبتناها ؛ ﴿ لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ① وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ ﴿ وهي ابنتها الكبيرة . ﴿ قُصِّيهِ ﴾ ؛ أي : اتبعي أثره ، واطلبي لي خبره ﴿ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ ﴾ عن بعد ؛ جعلت تنظر إليه وكأنها لا تريده ؛ ولهذا قال : ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ وذلك لأن موسى - عليه السلام - لما استقر بدار فرعون ؛ أرادوا أن يغذوه برضاعة ، فلم يقبل ثدياً ولا أخذ طعاماً ، فحاروا في أمره ، واجتهدوا على تغذيته بكل ممكن فلم يفعل ؛ كما قال - تعالى - : ﴿ * وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ ﴾ ؛ فأرسلوه مع القوابل والنساء إلى السوق ، لعلهم يجدون من يوافق رضاعته ؛ فبينما هم وقوف به والناس عكوف عليه ؛ إذ بصرت به أخته ، فلم تظهر أنها تعرفه ، بل قالت : ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴾ ؟ قال ابن عباس : لما قالت ذلك ؛ قالوا لها : ما يدريك بنصحهم وشفقتهم عليه ؟ فقالت : رغبة في سرور الملك ورجاء منفعة ، فأطلقوها وذهبوا معها إلى منزلهم ، فأخذته أمه ، فلما أرضعته ؛ التقم ثديها وأخذ يمتصه ويرتضعه ، ففرحوا بذلك فرحاً شديداً ، وذهب البشير إلى آسية يعلمها بذلك ، فاستدعتها إلى منزلها ، وعرضت عليها أن تكون عندها ، وأن تحسن إليها ، فأبت عليها وقالت : إن لي بعلأ وأولاداً ، ولست أقدر على هذا إلا أن

ترسلیه معی! فأرسلته معها، ورتبت لها رواتب، وأجرت علیها النفقات والكساوی والهبات، فرجعت به تحوزه إلى رحلها وقد جمع الله شمله بشملها.
قال الله - تعالى -: ﴿ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَىٰ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝۳۷ ﴾؛ أي: كما وعدناها برده ورسالته؛ فهذا رده، وهو دليل على صدق البشارة برسالته. ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝۳۸ ﴾.

وقد امتنَّ الله على موسى بهذا ليلة كلمه، فقال له فيما قال: ﴿ وَلَقَدْ مَنَّا عَلَىٰكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ ۝۳۹ ﴾ اذ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ ۝۴۰ أَن أَقْدِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَأَقْدِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَهُ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ۝۴۱ ﴾ [طه: ۳۷-۳۹]: وذلك أنه كان لا يراه أحد إلا أحبه. ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ۝۴۲ ﴾ قال غير واحد من السلف: أي: تطعم وتؤرقه وتُعْذِي بِطَيبِ الْمَأْكَلِ، وتلبس أحسن الملابس بمراى مني، وذلك كله بحفظي وكلاءتي لك فيما صنعت بك ولك، وقدرته من الأمور التي لا يقدر عليها غيري. ﴿ اذ تَمْشِي أَيْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ ۚ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَىٰ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَكَلَّمْتُ نَفْسًا فَتَجَسَّعَتْ ۚ فَتَتَذَكَّرُ الْيَمِّ ۚ فَتَقُولُ ۚ ﴾ [طه: ۴۰]: وسنورد حديث الفتون في موضعه بعد هذا إن شاء الله - تعالى، وبه الثقة وعليه التكلان.

[انتصار موسى - عليه السلام - للإسرائيلي وقتل القبطي]

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۝۴۳ ﴾ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ ۚ فَاسْتَغْنَاهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَىٰ الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ ۚ فَوَكَرَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ۝۴۴ ﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي ۚ فَغَفَرَ لَهُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۝۴۵ ﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَن أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ

﴿ [القصص: ١٤-١٧] ﴾.

لما ذكر -تعالى- أنه أنعم على أمه برده لها وإحسانه بذلك وامتنانه عليها؛
 شرع في ذكر آتة ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى ﴾ وهو احتكام الخلق والخلق،
 وهو سن الأربعين في قول الأكثرين؛ آتاه الله حكماً وعلماً، وهو النبوة والرسالة
 التي كان بشر بها أمه حين قال: ﴿ إِنَّا رَأَوُوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾
 [القصص: ٧].

ثم شرع في ذكر سبب خروجه من بلاد مصر، وذهابه إلى أرض مدين
 وإقامته هنالك، حتى كمل الأجل وانقضى الأمد وكان ما كان من كلام الله له،
 وإكرامه بما أكرمه به:

قال -تعالى-: ﴿ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا ﴾: قال ابن
 عباس وسعيد بن جبیر وعكرمة وقتادة والسدي: -وذلك- نصف النهار. وعن
 ابن عباس: بين العشاءين.

﴿ فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ ﴾؛ أي: يتضاربان ويتهاوشان ﴿ هَذَا مِنْ
 شِيعَتِهِ ﴾؛ أي: إسرائيلي ﴿ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ ﴾؛ أي: قبطي؛ ﴿ فَاسْتَعْتَهُ الَّذِي
 مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ ﴾: وذلك أن موسى -عليه السلام- كانت له
 بديار مصر صولة بسبب نسبته إلى تبني فرعون له وتربيته في بيته، وكانت بنو
 إسرائيل قد عزوا وصارت لهم وجاهة، وارتفعت رؤوسهم بسبب أنهم أرضعوه
 وهم أخواله؛ أي: من الرضاعة. فلما استغاث ذلك الإسرائيلي موسى -عليه
 السلام- على ذلك القبطي أقبل إليه موسى، ﴿ فَوَكَرَهُ ﴾: قال مجاهد: أي: طعنه
 بجمع كفه، وقال قتادة: بعصا كانت معه. ﴿ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ﴾؛ أي: فمات منها.

وقد كان ذلك القبطي كافراً مشركاً بالله العظيم، ولم يرد موسى قتله بالكلية،
 وإنما أراد زجره وردعه، ومع هذا قال موسى: ﴿ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ
 عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ
 الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ ﴾؛ أي: من العز والجاه. ﴿ فَلَن
 أَكُونَنَّ ظَهِيراً لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾.

[تآمر القبط علی موسی - علیه السلام -]

﴿ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اَسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَعَوِيٌّ مُبِينٌ ﴾ ۱۸ ﴿ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَمْوَسَى اأَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴾ ۱۹ ﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَمْوَسَى ابْنَ الْمَلَأِ يَأْتِمُرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴾ ۲۰ ﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ ۲۱ ﴿ [القصص: ۱۸-۲۱].

نجر - تعالى - أن موسى أصبح بمدينة مصر خائفاً؛ أي: من فرعون وملكه؛ أن يعلموا أن هذا القتل الذي رُفِعَ إليه أمره، إنما قتله موسى في نصرة رجل من بني إسرائيل، فتقوى ظنونهم أن موسى منهم، ويترب على ذلك أمر عظيم، فصار يسير في المدينة في صبيحة ذلك اليوم ﴿ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ ﴾؛ أي: يتلفت، فينما هو كذلك؛ إذ ذلك الرجل الإسرائيلي الذي استنصره بالأمس يستصرخه؛ أي: يصرخ به ويستغيثه على آخر قد قاتله، فعثقه موسى ولامه على كثرة شره ومخاصمته، قال له: ﴿ إِنَّكَ لَعَوِيٌّ مُبِينٌ ﴾.

ثم أراد أن يبطش بذلك القبطي الذي هو عدو لموسى وللإسرائيلي، فيردعه عنه ويخلصه منه، فلما عزم على ذلك وأقبل على القبطي؛ ﴿ قَالَ يَمْوَسَى اأَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴾: قال بعضهم: إنما قال هذا الكلام الإسرائيلي الذي أطلع على ما كان صنع موسى بالأمس، وكأته لما رأى موسى مقبلاً إلى القبطي؛ اعتقد أنه جاء إليه لما عنفه قبل ذلك بقوله: ﴿ إِنَّكَ لَعَوِيٌّ مُبِينٌ ﴾، فقال ما قال لموسى، وأظهر الأمر الذي كان وقع بالأمس، فذهب القبطي فاستعدى فرعون على موسى، وهذا الذي لم يذكر كثير من الناس سواه. ويحتمل أن قاتل هذه هو القبطي، وأنه لما رآه مقبلاً إليه؛ خافه، ورأى من سجيته انتصاراً جيداً للإسرائيلي؛ فقال ما قال من باب الظن والفراسة: إن هذا لعله قاتل ذاك

القتيل بالأمس، أو لعله فهم من كلام الإسرائيلي حين استصرخه عليه ما دله على هذا، والله أعلم.

والمقصود: أن فرعون بلغه أن موسى هو قاتل ذلك المقتول بالأمس، فأرسل في طلبه، وسبقهم رجل ناصح من طريق أقرب: ﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى ﴾: ساعياً إليه مشفقاً عليه؛ فقال: ﴿ يَمُوسَى ابْنَ آَلَمَلَّا يَأْتِمِرُونَ بِكَ لَيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ ﴾؛ أي: من هذه البلدة. ﴿ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴾؛ أي: فيما أقوله لك.

قال الله - تعالى -: ﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ ﴾؛ أي: فخرج من مدينة مصر من فوره على وجهه لا يهتدي إلى طريق ولا يعرفه؛ قائلاً: ﴿ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾.

[موسى - عليه السلام - في مدين]

﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ١١٠ ﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ١١١ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ١١٢ ﴾.

يخبر - تعالى - عن خروج عبده ورسوله وكليمه من مصر خائفاً يترقب؛ أي: يتلفت، خشية أن يدركه أحد من قوم فرعون، وهو لا يدري أين يتوجه، ولا إلى أين يذهب، وذلك لأنه لم يخرج من مصر قبلها.

﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ ﴾؛ أي: اتجه له طريق يذهب فيه؛ ﴿ قَالَ عَسَى رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾؛ أي: عسى أن تكون هذه الطريق موصلة إلى المقصود، وكذا وقع؛ فقد أوصلته إلى المقصود، وأي مقصود!

﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ ﴾: وكانت بئراً يستقون منها، ومدين هي المدينة التي أهلك الله فيها أصحاب الأيكة، وهم قوم شعيب - عليه السلام -، وقد كان

هلاكمهم قبل زمن موسى -عليه السلام- في أحد قولي العلماء.
ولما ورد الماء المذكور؛ ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾؛ أي: تُكْفِكِفَانِ غنمهما أن تختلط بغنم الناس.
وعند أهل الكتاب^(١) أنهنَّ كنَّ^(٢) سبع بنات، وهذا -أيضاً- من الغلط، ولعلهنَّ كنَّ سبعاً، ولكن إنما كان تسقي اثنتان منهن. وهذا الجمع ممكن إن كان ذاك محفوظاً، وإلا؛ فالظاهر أنه لم يكن له سوى بنتين. ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾؛ أي: لا نقدر على ورود الماء إلا بعد صدور الرعاء؛ لضعفنا، وسبب مباشرتنا هذه الرعية ضعف أبينا وكبره.
قال الله -تعالى-: ﴿فَسَقَى لَهُمَا﴾؛ قال المفسرون: وذلك أن الرعاء كانوا إذا فرغوا من وردهم^(٣)؛ وضعوا على فم البئر صخرة عظيمة، فتجيء هاتان المرأتان فيشرعان^(٤) غنمهما في فضل أغنام الناس، فلما كان ذلك اليوم؛ جاء موسى فرفع تلك الصخرة وحده، ثم استقى لهما وسقى غنمهما، ثم ردَّ الحجر كما كان، قال أمير المؤمنين عمر^(٥): وكان لا يرفعه إلا عشرة، وإنما استقى ذنوباً^(٦) واحداً فكفاهما، ثم تولى إلى الظل، قالوا: وكان ظل شجرة من السَّمر^(٧)، وروى ابن جرير^(٨) عن ابن مسعود: أنه رآها خضراء ترف؛ ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾: قال ابن عباس: سار من مصر إلى مدين لم يأكل إلا البقل

(١) (سفر الخروج: الاصحاح ٢).

(٢) في نسخة: «وكانه كن».

(٣) الأشراف على الماء.

(٤) يسقيان.

(٥) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (١١/ ٥٣٠)، وصححه المصنف -رحمه الله- في

«تفسير القرآن العظيم» (٦/ ٢٣٧).

(٦) دلو.

(٧) شجر الطلح.

(٨) في «جامع البيان» (١٠/ ٥٦).

وورق الشجر، وكان حافياً، فسقطت نعل^(١) قدميه من الخفاء، وجلس في الظل - وهو صفوة الله من خلقه -؛ وإنّ بطنه للاصق بظهره من الجوع، وإنّ خضرة البقل لترى من داخل جوفه، وإنه لمحتاج إلى شقّ ثمرة، قال عطاء بن السائب: لما قال: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾؛ أسمع المرأة.

[رعيه الغنم وزواجه]

﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ ٢٥ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَأْتِيَ اسْتَشْجَرَهُ إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَشْجَرَتِ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَنِي حَجَجَ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَ عَلَيْكَ سَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيُّمَا الْأَجْلَيْنِ قَضَيْتَ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَيَّ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾ [القصص: ٢٥-٢٨].

لما جلس موسى -عليه السلام- في الظل، وقال: ﴿إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾؛ سمعته المرأتان فيما قيل، فذهبتا إلى أبيهما، فيقال: إنه استنكر سرعة رجوعهما، فأخبرناه بما كان من أمر موسى -عليه السلام-؛ فأمر إحداهما أن تذهب إليه، فتدعوه. ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ﴾؛ أي: مشي الحرائر ﴿إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾: صرحت له بهذا؛ لثلا يومهم كلامها ريبة، وهذا من تمام حياتها وصيانتها. ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ﴾: وأخبره خبره وما كان من أمره في خروجه من بلاد مصر فراراً من فرعونها؛ قال له ذلك الشيخ: ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾؛ أي: خرجت من سلطانهم فلست في دولتهم.

وقد اختلفوا في هذا الشيخ من هو ؟

ف قيل: هو شعيب - عليه السلام-، وهذا هو المشهور عند كثيرين، ومُنْ نصّ عليه الحسن البصري ومالك بن أنس، وجاء مصرّحاً به في حديث، ولكن في إسناده نظر.

والمقصود: أنّه لما أضافه وأكرم مثواه، وقصّ عليه ما كان من أمره؛ بشّره بأنّه قد نجا؛ فعند ذلك قالت إحدى البنّتين لأبيها: ﴿يَتَأَبَّتْ أَسْتَجِرَّةً﴾؛ أي: لرعي غنمك، ثم مدحته: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنْ أَسْتَجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾.

قال عمر وابن عباس وشريح القاضي وأبو مالك وقتادة ومحمد بن إسحاق وغير واحد: لما قالت ذلك؛ قال لها أبوها: وما علمك بهذا ؟ فقالت: إنّهُ رفع صخرة لا يطيق رفعها إلا عشرة، وإنّه لما جئت معه؛ تقدمتُ أمامه، فقال: كوني من ورائي؛ فإذا اختلف الطريق؛ فاحذني لي بحصاة أعلم بها كيف الطريق!

﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنَكِّحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمْنِي حِجَجٍ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾: استدل بهذه جماعة من أصحاب أبي حنيفة - رحمه الله - على صحّة ما إذا باعه أحد هذين العبدین أو الثوبین ونحو ذلك؛ أنه يصح؛ لقوله: ﴿إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَتَيْنِ﴾.

وفي هذا نظر؛ لأن هذه مراوضة لا معاودة، والله أعلم. واستدل أصحاب أحمد على صحّة الاستئجار^(١) بالطّعمة والكسوة كما جرت به العادة، واستأنسوا بالحديث الذي رواه ابن ماجه في «سننه» مترجماً عليه في كتابه: باب استئجار الأجير على طعام بطنه .

عن عتبة بن الثّدر قال: كنا عند رسول الله ﷺ فقراً: ﴿طَسَمَ﴾ حتى إذا بلغ قصة موسى؛ قال: «إن موسى - عليه السلام - آجر نفسه ثمانين سنين - أو عشر سنين - على عَفَّةٍ فرجه وطعام بطنه»^(٢).

(١) في نسخة: «الإيجار».

(٢) ضعيف - أخرجه ابن ماجه (٢٤٤٤)، والطبراني في «المعجم الكبير»

وهذا الحديث من هذا الوجه لا يصح؛ ولكن قد روي من وجه آخر.
ثم قال- تعالى:- ﴿ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلِينَ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾: يقول: إن موسى قال لصهره: الأمر على ما قلت؛ فأيهما قضيت فلا عدوان عليّ، والله على مقالتنا سامع وشاهد، ووكيل عليّ وعليك.

ومع هذا فلم يقض موسى إلا أكمل الأجلين وأتمهما، وهو العشر سنين كوامل تامة.

قال البخاري^(١): عن سعيد بن جبير؛ قال: سألني يهودي من أهل الحيرة: أيّ الأجلين قضى موسى؟ فقلت: لا أدري حتى أقدم على خبر العرب فأسأله. فقدمت، فسألت ابن عباس؛ فقال: قضى أكثرهما وأطيبهما، إن رسول الله إذا قال فعل.

[وجئت على قدر يا موسى]

قال الله- تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿١٠﴾ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَمْوِسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿١١﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ

= (١٧/١٣٥/٣٣٣) بإسناد ضعيف جداً؛ كما قال شيخنا الألباني في «إرواء الغليل» (١٤٨٨).

(١) أخرجه البخاري (٢٦٨٤)، والنسائي في «الكبرى» (٤/٤٣٨/٥٥٩٨- تحفة الأشراف) موقوفاً على ابن عباس -رضي الله عنهما-.

قال الحافظ في «فتح الباري» (٥/٢٨٩): «وهو في حكم المرفوع؛ لأن ابن عباس كان لا يعتمد على أهل الكتاب».

يُعَقِّبُ يَمْوِسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ ﴿٣٢﴾ أَسَلُّكَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَأَضْمَمُ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَنُوكَ بُرْهَنَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٣٣﴾ [القصص: ۲۹-۳۲].

تقدم أن موسى قضى أثم الأجلين وأكملهما، وقد يؤخذ هذا من قوله: ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ ﴾.

وقوله: ﴿ وَسَارَ بِأَهْلِيهِ ﴾؛ أي: من عند صهره؛ زاعماً^(١) - فيما ذكره غير واحد من المفسرين وغيرهم - أنه اشتاق إلى أهله، فقصده زيارتهم ببلاد مصر في صورة مختف، فلما سار بأهله ومعه ولدان منهم وغنم قد استفادها مدة مقامه. قالوا: واتفق ذلك في ليلة مظلمة باردة، وتاهوا في طريقهم فلم يهتدوا إلى السلوك في الدرب المألوف، وجعل يُوري زنادة^(٢) فلا يوري شيئاً، واشتد الظلام والبرد؛ فبينما هو كذلك؛ إذ أبصر عن بعد ناراً تأجج في جانب الطور - وهو الجبل الغربي منه عن يمينه -، ف ﴿ قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا ﴾ وكأنه - والله أعلم - رآها دونهم؛ لأن هذه النار هي نور في الحقيقة، ولا يصلح رؤيتها لكل أحد: ﴿ لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ ﴾؛ أي: لعلني استعلم من عندها عن الطريق. ﴿ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾: فدل على أنهم كانوا قد تاهوا عن الطريق في ليلة باردة ومظلمة؛ لقوله في الآية الأخرى: ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴾ ﴿ إِذْ رَأَىٰ نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ﴾ [طه: ۹-۱۰]؛ فدل على وجود الظلام وكونهم تاهوا عن الطريق، وجمع الكل في سورة النمل في قوله: ﴿ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَتَاتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ [النمل: ۷] وقد أتاهم بخبر وأي خبر! ووجد عندها هدى وأي هدى، واقتبس منها نوراً وأي نور!

قال الله - تعالى -: ﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ

(١) في نسخة: « ذاهباً ».

(٢) يقده زناده؛ لإشعال النار.

الْمُبْرَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَمُوسَىٰ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٠﴾ ﴿[القصص: ٣٠].

وقال في النمل [٩]: ﴿ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبِّحَنَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ ﴿[النمل: ٨]؛ أي: سبحان الله الذي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد. ﴿ يَمُوسَىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾﴾.

وقال في سورة طه [١١-١٦]: ﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَمُوسَىٰ ﴾ ﴿إِننِي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ﴿إِننِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ﴾.

قال غير واحد من المفسرين من السلف والخلف: لما قصد موسى إلى تلك النار التي رآها فانتهى إليها؛ وجدها تأجج في شجرة خضراء من العوسج^(١)، وكل ما لتلك النار في اضطرام، وكل ما لحضرة تلك الشجرة في ازدياد، فوقف متعجباً، وكانت تلك الشجرة في لحف^(٢) جبل غربي منه عن يمينه؛ كما قال -تعالى-: ﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْعَرَبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ ﴿[القصص: ٤٤]، وكان موسى في واد اسمه طوى، فكان موسى مستقبل القبلة، وتلك الشجرة عن يمينه من ناحية الغرب، فناداه ربه بالواد المقدس طوى.

فأمر أولاً بخلع نعليه تعظيماً وتكريماً وتوقيراً لتلك البقعة المباركة، ولا سيما في تلك الليلة المباركة.

ثم خاطبه -تعالى- كما يشاء قائلاً له: ﴿ إِننِي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ ﴿[القصص: ٣٠]، ﴿ إِننِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴾ ﴿[طه: ١٤]؛ أي: أنا رب العالمين، الذي لا إله إلا هو، الذي لا تصلح العبادة وإقامة الصلاة إلا له.

(١) نبات شوكي معروف.

(٢) أصل الجبل.

ثم أخبره أنّ هذه الدنيا ليست بدار قرار، وإنما الدّار الباقية يوم القيامة، التي لا بد من كونها ووجودها؛ ﴿لِتَجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى﴾ [طه: ١٥]؛ أي: من خير وشر، وحضه وحثه على العمل لها ومجانبة من لا يؤمن بها ممن عصى مولاه واتبع هواه. ثم قال له مخاطباً وموائساً له أنه القادر على كل شيء، والذي يقول للشيء كن فيكون: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَمْوَسَى﴾ [طه: ١٧]؛ أي: أما هذه عصاك التي تعرفها منذ صحبتها؟ ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَأَهشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَنَازِبُ أُخْرَى﴾ [طه: ١٨]؛ أي: بلى هذه عصاي التي أعرفها وأتحققها. ﴿قَالَ أَلْقِهَا يَمْوَسَى﴾ [طه: ١٩]؛ أي: هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى ﴿[طه: ١٩-٢٠]:

وهذا خارق عظيم وبرهان قاطع على أن الذي يكلمه هو الذي يقول لشيء كن فيكون، وأنه الفعّال بالاختيار.

وقد قال الله -تعالى- في الآية الأخرى: ﴿وَأَن أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ [القصص: ٣١]؛ أي: قد صارت حية عظيمة لها ضخامة هائلة وأنياب تصك، وهي مع ذلك في سرعة حركة الجان، وهو ضرب من الحيات يقال له: الجانُّ والجِئانُّ، وهو لطيف، ولكن سريع الاضطراب والحركة جداً؛ فهذه جمعت الضخامة والسرعة الشديدة، فلما عاينها موسى -عليه السلام-: ﴿وَلَّى مُدْبِرًا﴾ [القصص: ٣١]؛ أي: هارباً منها؛ لأن طبيعته البشرية تقتضي ذلك. ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ [القصص: ٣١]؛ أي: ولم يلتفت. فناداه ربه قائلاً له: ﴿يَمْوَسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾ [القصص: ٣١]، فلما رجع؛ أمره الله -تعالى- أن يمسكها؛ ﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى﴾ [طه: ٢١]؛ يقال: إنّه هابها شديداً، فوضع يده في كمّ مِذْرَعَتِهِ^(١). ثم وضع يده في وسط فمها- وعند أهل الكتاب: أمسك بذنبها-، فلما استمكن منها! إذ هي قد عادت كما كانت عصا ذات شعبتين! فسبحان القدير العظيم رب المشرقين والمغربين!

ثم أمره -تعالى- بإدخال يده في جيبيه، ثم أمره بنزعها؛ فإذا هي تتلألاً

(١) ثوب من الصوف.

كالقمر بياضاً من غير سوء؛ أي: من غير برص^(١) ولا بهق^(٢)؛ ولهذا قال: ﴿أَسْلُكَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَأَضْمَمْتُ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [القصص: ٣٢]؛ قيل: معناه: إذا خفت؛ فضع يدك على فؤادك؛ يسكن جأشك. وهذا وإن كان خاصاً به، إلا أن بركة الإيمان به حقٌّ بأن ينفع من استعمل ذلك على وجه الاقتداء بالأنبياء.

وقيل في سورة النمل [١٢]: ﴿وَأَدْخَلَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [١٢]؛ أي: هاتان الآيتان، وهما: العصا واليد، وهما: البرهانان المشار إليهما في قوله: ﴿أَسْلُكَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَأَضْمَمْتُ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [القصص: ٣٢]؛ ومع ذلك سبع آيات أخرى؛ فذلك تسع آيات بينات، وهي المذكورة في آخر سورة سبحان؛ حيث يقول -تعالى-: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَنَسِيَ قَالَ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ [١٢]؛ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتُ مَا أُنْزِلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ [الاسراء: ١٠١ و ١٠٢].

وهي المبسوطة في سورة الأعراف [١٣٠-١٣١] في قوله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾ [١٣٠]؛ فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَّيَّرَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [١٣١]؛ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنَتَسَحَّرَ بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [١٣٢]؛ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْذَّمَ عَائِشَةَ مَفْصَلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾ [١٣٣]؛ كما سيأتي الكلام على ذلك في موضعه. وهذه التسع الآيات

(١) مرض جلدي يعم الجلد يشبه البهاق المتعمم.

(٢) مرض جلدي يظهر ببقع بيضاء.

غير العشر الكلمات؛ فإن التسع من كلمات الله القدريّة^(١)، والعشر من كلماته الشرعية، وإنما نبهنا على هذا؛ لأنه قد اشتبه أمرها على بعض الرواة، فظن أن هذه هي هذه؛ كما قرّرنا ذلك في تفسير آخر سورة بني إسرائيل.

[نبوة هارون - عليه السلام -]

والمقصود: أن الله سبحانه لما أمر موسى - عليه السلام - بالذهاب إلى فرعون؛ ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴾^(١) وَأَخِي هَارُونَ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴾^(٢) قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيٰتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغٰلِبُونَ ﴾^(٣) [القصص: ٣٣-٣٥].

يقول - تعالى - مخبراً عن عبده ورسوله وكليمه موسى - عليه السلام - في جوابه لرّبه - عز وجل - حين أمره بالذهاب إلى عدوّه الذي خرج من ديار مصر فراراً من سطوته وظلمه حين كان من أمره ما كان في قتل ذلك القبطي؛ ولهذا: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴾^(١) وَأَخِي هَارُونَ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴾^(٢) [القصص: ٣٣-٣٤]؛ أي: اجعله معي معيناً وردءاً ووزيراً يساعطني ويعينني على أداء رسالتك إليهم؛ فإنه أفصح مني لساناً وأبلغ بياناً. قال الله - تعالى - مجيباً له إلى سؤاله: ﴿ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطٰنًا ﴾^(٣)؛ أي: برهاناً ﴿ فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ﴾^(٤)؛ أي: فلا ينالون منكما مكروهاً بسبب قيامكما بآياتنا، وقيل: ببركة آياتنا ﴿ أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغٰلِبُونَ ﴾^(٥) [القصص: ٣٥].

وقال في سورة طه [٢٤-٢٨]: ﴿ أَذْهَبَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغٰى ﴾^(٦) قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَأَخْلَلْ عَقْدَةً مِن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَقْفَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾ قيل: إنه أصابه في لسانه لثغة، بسبب تلك الجمرة التي

وضعها على لسانه، والتي كان فرعون أراد اختبار عقله حين أخذ بلحيته وهو صغير، فهمم بقتله، فخافت عليه آسية وقالت: إنه طفل! فاختره بوضع تمره وجمرة بين يديه فهمم بأخذ التمرة، فصرف الملك يده إلى الجمرة، فأخذها، فوضعها على لسانه، فأصابه لثغة بسببها، فسأل زوال بعضها بمقدار ما يفهمون قوله، ولم يسأل زوالها بالكلية.

قال الحسن البصري: والرسول إنما يسألون بحسب الحاجة؛ ولهذا بقيت في لسانه بقية.

ولهذا قال فرعون -قبحه الله-، فيما زعم أنه يعيب به الكليم: ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الرعد: ٥٢]؛ أي: يفصح عن مراده، ويعبر عما في ضميره وفؤاده. ثم قال موسى عليه السلام: ﴿وَأَجْعَلْ لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي﴾ هَارُونَ أَخِي ﴿أَشَدُّ بِمِثْلِي﴾ وَأَشْرَكَهُ فَبِتِ أُمْرِي ﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَمُوسَى ﴿طه: ٢٩-٣٦﴾.

أي: قد أجبناك إلى جميع ما سألت، وأعطيناك الذي طلبت. وهذا من وجاهته عند ربه -عز وجل- حين شفع أن يوحي الله إلى أخيه فأوحى إليه، وهذا جاء عظيم؛ قال الله -تعالى-: ﴿وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾ [الأحزاب: ٦٩] وقال -تعالى-: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾ [مريم: ٥٣]. وقد سمعت أم المؤمنين عائشة رجلاً يقول لأناس وهم سائرون في طريق الحج: أي أخ أمن على أخيه؟ فسكت القوم، فقالت عائشة لمن حول هودجها: هو موسى بن عمران حين شفع في أخيه هارون فأوحى إليه. قال الله -تعالى-: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾ [مريم: ٥٣].

[دعوة موسى وهارون -عليهما السلام- لفرعون]

وقال -تعالى- في سورة الشعراء [١٠-٢٢]: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنْ أَتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ

يَكْذِبُونَ ﴿٢٤﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُمْ عَلَىٰ ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴿٢٦﴾ قَالَ كَلَّا فَادْهَبَا بِأَيَّتِنَا أَنَا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا إِسْرَءِيلَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿٣٠﴾ وَفَعَلْتَ فَعَلْتَكَ الْتَمِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٣٢﴾ فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٣﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٣٤﴾

تقدير الكلام: فأتياه، فقالا له ذلك، وبلغاه ما أرسلا به من: دعوته إلى عبادة الله - تعالى - وحده لا شريك له، وأن يفك أسارى بني إسرائيل من قبضته وقهره وسطوته، ويتركهم يعبدون ربهم حيث شاؤوا، ويتفرغون لتوحيده ودعائه والتضرع لديه.

فتكبر فرعون في نفسه وعتا وطفى، ونظر إلى موسى بعين الازدراء والتقص قائلاً له: ﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴾ ﴿٣٠﴾؛ أي: أما أنت الذي ربيناه في منزلنا وأحسننا إليه وأنعمنا عليه مدة من الدهر؟! وهذا يدل على أن فرعون الذي بُعث إليه هو الذي فر منه؛ خلافاً لما عند أهل الكتاب^(١): من أن فرعون الذي فر منه مات في مدة مقامه بمدين، وأن الذي بُعث إليه فرعون آخر.

وقوله: ﴿ وَفَعَلْتَ فَعَلْتَكَ الْتَمِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ ﴿٣١﴾؛ أي: وقتلت الرجل القبطي، وفررت منا وجحدت نعمتنا ﴿ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴾ ﴿٣٢﴾؛ أي: قبل أن يوحى إلي وينزل علي ﴿ فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ ﴿٣٣﴾.

ثم قال مجيباً لفرعون عما امتن به من التربية والإحسان إليه: ﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴾ ﴿٣٤﴾؛ أي: وهذه النعمة التي ذكرت من أنك أحسنت إلي وأنا رجل واحد من بني إسرائيل تقابل ما استخدمت هذا الشعب

العظيم بكماله واستعبدتهم في أعمالك وخدمتك وأشغالك!
﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ ٢٣٠ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ٢٣١ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ٢٣٢ قَالَ
رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ٢٣٣ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ
لَمَجْنُونٌ ٢٣٤ ﴾ [الشعراء: ٢٣-٢٧].

يذكر - تعالى - ما كان بين فرعون وموسى من المفاولة والمحااجة والمناظرة وما
أقامه الكليم على فرعون اللثيم، من الحجة العقلية المعنوية ثم الحسية:
وذلك أن فرعون - قبحه الله - أظهر جحد الصانع - تبارك وتعالى - وزعم
أنه الإله، ﴿ فَحَشَرَ فَنَادَى ﴾ ٢٣٠ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ٢٣١ ﴾ [النازعات: ٢٣-٢٤]،
وهو في هذه المقالة معاند؛ يعلم أنه عبد مربوب، وأن الله هو الخالق البارئ المصور
الإله الحق؛ كما قال - تعالى -: ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا
فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ ٢٣٤ ﴾ [النمل: ١٤]؛ ولهذا قال لموسى - عليه
السلام - على سبيل الإنكار لرسالته والإظهار أنه ما ثم رب أرسله: ﴿ وَمَا رَبُّ
الْعَالَمِينَ ﴾ لأنهما قالوا له: ﴿ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾؛ فكأنه يقول لهما: ومن
رب العالمين؟ الذي تزعمان أنه أرسلكما وابتعثكما؟

فأجابه موسى قائلًا: ﴿ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ
مُوقِنِينَ ﴾؛ يعني: رب العالمين خالق هذه السماوات والأرض المشاهدة وما بينهما
من المخلوقات المتعددة، من السحاب والرياح والمطر والنبات والحيوانات، التي
يعلم كل موقن أنها لم تحدث بأنفسها، ولا بد لها من موجد ومحدث وخالق؛ وهو
الله الذي لا إله إلا هو رب العالمين.

﴿ قَالَ ﴾؛ أي: فرعون ﴿ لِمَنْ حَوْلَهُ ﴾: من أمرائه ومرازبته^(١) ووزرائه
على سبيل التهكم والتنقص لما قرره موسى - عليه السلام -: ﴿ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴾؛
يعنى: كلامه هذا!

﴿ قَالَ ﴾ موسى مخاطباً له ولهم: ﴿ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾؛ أي:

(١) جمع مرزبان، وهو الفارس الشجاع المقدم على القوم دون الملك.

هو الذي خلقكم والذين من قبلكم من الآباء والأجداد والقرون السالفة في الآباد؛ فإنَّ كلَّ أحدٍ يعلم أنَّه لم يخلق نفسه، ولا أبوه ولا أمُّه، ولم يحدث من غير محدث، وإلَّما أوجده وخلقهُ ربُّ العالمين.

وهذان المقامان هما المذكوران في قوله - تعالى - : ﴿ سَتَرِيهِنَّ ءَايَتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِنَّ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ۗ ﴾ [فصلت: ٥٣].

ومع هذا كلُّه؛ لم يستفك فرعون من رقدته، ولا نزع عن ضلَّالته، بل استمر على طغيانه وعناده وكفرانه: ﴿ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ۖ ﴾ [١٧] قَالَ رَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٨﴾ ۖ أي: هو المسخر لهذه الكواكب الزاهرة المسيرة للأفلاك الدائرة، خالق الظلام والضياء، وربُّ الأرض والسماء، وربُّ الأولين والآخرين، خالق الشمس والقمر، والكواكب السائرة، والثوابت الحائرة، خالق الليل بظلامه، والنهار بضياءه، والكل تحت قهره وتسخيرهِ وتسييره سائرون، وفي فلك يسبحون، يتعاقبون في سائر الأوقات ويدورون؛ فهو - تعالى - الخالق المالك المتصرف في خلقه بما يشاء.

فلَمَّا قامت الحجج على فرعون وانقطعت شبهه، ولم يبق له قول سوى العناد؛ عدل إلى استعمال سلطانه وجاهه وسطوته؛ ﴿ قَالَ لِيْنِ اتَّخَذَتِ الْإِلَٰهَ غَيْرِي لِأَجْعَلَكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴾ [١٩] قَالَ أَوْلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴿٢٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِمِثْلِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنُّظَرِ ﴿٢٣﴾ [الشعراء: ٢٩-٣٣].

وهذان هما البرهانان اللذان أيده الله بهما، وهما: العصا واليد. وذلك مقام أظهر فيه الخارق العظيم الذي بهر به العقول والأبصار، حين ألقى عصاه؛ فإذا هي ثعبان مبین؛ أي: عظيم الشكل، بديع في الضخامة والهول، والمنظر العظيم الفظيع الباهر.

وهكذا لما أدخل موسى - عليه السلام - يده في جيبه واستخرجها؛ أخرجها وهي كفلقة القمر تتلألأ نوراً يبهر الأبصار؛ فإذا أعادها إلى جيبه واستخرجها؛ رجعت إلى صفتها الأولى.

ومع هذا كلُّه؛ لم ينتفع فرعون - لعنه الله - بشيء من ذلك، بل استمر على

ما هو عليه، وأظهر أن هذا كله سحر، وأراد معارضته بالسحرة، فأرسل يجمعهم من سائر مملكته ومن هم في رعيته وتحت قهره ودولته؛ كما سيأتي بسطه وبيانه في موضعه من إظهار الله الحق المبين، والحجة الباهرة القاطعة على فرعون وملئه، وأهل دولته وملته، والله الحمد والمنة.

وقال -تعالى- في سورة طه [٤٠-٤٦]: ﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ ۖ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَفَتَلَّتْ نَفْسًا وَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَمْوَسَّىٰ ۖ وَأَصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ۖ أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِمَا يَنْتَبِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ۖ أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ۖ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّئِنَّا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ۖ قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَىٰ ۖ قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ۖ﴾.

يقول -تعالى- مخاطباً لموسى فيما كلمه به ليلة أوحى إليه وأنعم بالنبوة عليه، وكلمه منه إليه: قد كنت مشاهداً لك وأنت في دار فرعون، وأنت تحت كنفي وحفظي ولطفي، ثم أخرجتك من أرض مصر إلى أرض مدين بمشيئتي وقدرتي وتدبري، فلبث فيها سنين، ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ﴾؛ أي: مني لذلك، فوافق ذلك تقديري وتسييري ﴿وَأَصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾؛ أي: اصطفتك لنفسي؛ برسالي وبكلامي.

﴿أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِمَا يَنْتَبِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾؛ يعني: ولا تفترأ في ذكري إذا قدمتما عليه ووفدتما إليه؛ فإن ذلك عون لكما على مخاطبته ومجاوبته وأداء النصيحة إليه وإقامة الحجّة عليه.

وقال -تعالى-: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۖ﴾ [الأنفال: ٤٥].

ثم قال -تعالى-: ﴿أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ۖ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّئِنَّا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ۖ﴾: وهذا من حلمه -تعالى- وكرمه ورأفته ورحمته بخلقه، مع علمه بكفر فرعون وعتوه وتجبره، وهو إذ ذاك أردى خلقه، وقد بعث إليه صفوته من خلقه في ذلك الزمان، ومع هذا يقول لهما ويأمرهما أن

يدعوا إليه بالتي هي أحسن برفق ولين ويعامله معاملته من يرجو أن يتذكر أو يخشى؛ كما قال لرسوله: ﴿ اذْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْ لَهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل: ١٢٥]، وقال -تعالى-: ﴿ وَلَا تُجَدِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ﴾ [العنكبوت: ٤٦].
قال الحسن البصري: ﴿ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا ﴾؛ أعذرا إليه، قولا له: إِنَّ لَكَ رَبًّا، ولك معادًا، وَإِنَّ بَيْنَ يَدَيْكَ جَنَّةَ وَنَارًا.

وقال وهب بن منبه: قولا له: إِنِّي إِلَى الْعَفْوِ وَالْمَغْفِرَةِ أَقْرَبُ مِنِّي إِلَى الْغَضَبِ وَالْعُقُوبَةِ.

قال يزيد الرقاشي عند هذه الآية: يَا مَنْ يَتَجَبَّبُ إِلَى مِنْ يَعَادِيهِ؛ فكيف بمن يتولاه وينادي به!

﴿ قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَقْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى ﴾ [١]؛ وذلك أَنَّ فرعون كان جباراً عنيداً وشيطاناً مريداً، له سلطان في بلاد مصر طويل عريض، وجاه وجنود، وعساكر وسطوة، فهاباه من حيث البشرية، وخافا أنا يسطو عليهما في بادئ الأمر، فنبتهما -تعالى- وهو العليُّ الأعلى، فقال: ﴿ قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى ﴾ [٢]؛ كما قال في الآية الأخرى: ﴿ إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ ﴾ [الشعراء: ١].

﴿ فَأَتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِبَيِّنَاتٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنْ أَتَّبَعَ الْهُدَى ﴾ [٣] إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَيَّ مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴾ [طه: ٤٧-٤٨]؛ يذكر -تعالى- أنه أمرهما أن يذهبا إلى فرعون فيدعوا إلى الله -تعالى- أن يعبد به وحده لا شريك له، وأن يرسل معهما بني إسرائيل ويطلقهم من أسرهم وقهره ولا يعذبهم، ﴿ قَدْ جِئْنَاكَ بِبَيِّنَاتٍ مِنْ رَبِّكَ ﴾؛ وهو البرهان العظيم في العصا واليد، ﴿ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنْ أَتَّبَعَ الْهُدَى ﴾؛ تقييد مفيد بليغ عظيم. ثم تهدداه وتوعدها على التكذيب، فقالا: ﴿ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَيَّ مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴾ [٤]؛ أي: كذب بالحق بقلبه، وتولى عن العمل بقلبه.

وقال الله مخبراً عن فرعون: ﴿ قَالَ فَمَنْ رَّبُّكُمْ يَا مُوسَى ﴾ [٥] قَالَ رَبُّنَا

الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴿١﴾ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى ﴿٢﴾
 قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى ﴿٣﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ
 الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ
 أَزْوَاجًا مِّنْ نَّبَاتٍ شَتَّى ﴿٤﴾ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَمَكُمُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً
 لِّأُولِي الْأَلْبَانِ ﴿٥﴾ * مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً
 أُخْرَى ﴿٦﴾ [طه: ٤٩-٥٥].

يقول -تعالى- مخبراً عن فرعون: أنه أنكر إثبات الصانع -تعالى- قائلاً:
 ﴿فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمُوسَىٰ﴾ ﴿١﴾ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ
 هَدَى ﴿٢﴾ أي: هو الذي خلق الخلق، وقدر لهم أعمالاً وأرزاقاً وأجالاً،
 وكتب ذلك عنده في كتابه اللوح المحفوظ، ثم هدى كل مخلوق إلى ما قدره له،
 فطابق عمله فيهم على الوجه الذي قدره وعلمه؛ لكمال علمه وقدرته وقدره،
 وهذه الآية كقوله -تعالى-: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ
 ﴿٢﴾ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾﴾ [الأعلى: ١-٣]؛ أي: قدر قادراً وهدى الخلائق إليه.
 ﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ﴾ ﴿٤﴾ يقول فرعون لموسى: فإذا كان
 ربك هو الخالق المقدر الهادي الخلائق لما قدره، وهو بهذه المثابة من أنه لا يستحق
 العبادة سواه؛ فلم عبد الأولون غيره وأشركوا به من الكواكب والأنداد ما قد
 علمت؟! فهلا اهتدى إلى ما ذكرته القرون الأولى! ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي
 كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴾ ﴿٥﴾ أي: هم وإن عبدوا غيره؛ فليس ذلك
 بحجة لك، ولا يدل على خلاف ما أقول؛ لأنهم جهلة مثلك، وكل شيء فعلوه
 مستطر عليهم في الزُّبر، من صغير وكبير، وسيجزئهم على ذلك ربِّي -عز وجل-،
 ولا يظلم أحداً مثقال ذرة؛ لأن جميع أفعال العباد مكتوبة عنده في كتاب لا يضل
 عنه شيء ولا ينسى ربِّي شيئاً.

ثم ذكر له عظمة الرب وقدرته على خلق الأشياء، وجعله الأرض مهاداً
 والسماء سقفاً محفوظاً، وتسخيره السحاب والأمطار لرزق العباد ودوابهم
 وأنعامهم؛ كما قال: ﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَمَكُمُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّأُولِي
 الْأَلْبَانِ﴾ ﴿٥﴾ أي: لذوي العقول الصحيحة المستقيمة، والفطر القويمة غير

السقيمة؛ فهو -تعالى- الخالق الرّازق؛ وكما قال -تعالى-: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة: ٢١-٢٢].

ولما ذكر إحياء الأرض بالمطر، واهتزازها بإخراج نباتها فيه؛ نبّه به على المعاد، فقال: ﴿مِنْهَا﴾؛ أي: من الأرض ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾؛ كما قال -تعالى-: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾، وقال -تعالى-: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْأَمَلُ الْآخِرُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾ [الروم: ٢٧].

[يوم الزينة]

ثم قال -تعالى-: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى ﴿٥٩﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَمْوَسَى ﴿٦٠﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلَفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٦١﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُخَشِّرَ النَّاسُ ضُحًى ﴿٦٢﴾﴾ [طه: ٥٩-٦٢].

يخبر -تعالى- عن شقاء فرعون وكثرة جهله وقلة عقله؛ في تكذيبه بآيات الله، واستكباره عن اتباعها، وقوله لموسى: إن هذا الذي جئت به سحراً ونحن نعارضك بمثله! ثم طلب من موسى أن يواعده إلى وقت معلوم ومكان معلوم، وكان هذا من أكبر مقاصد موسى -عليه السلام-: أن يُظهر آيات الله وحججه وبراهينه جهرة بحضرة الناس؛ ولهذا قال: ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ﴾ وكان يوم عيد من أعيادهم ومجتمع لهم ﴿وَأَنْ يُخَشِّرَ النَّاسُ ضُحًى﴾؛ أي: من أول النهار في وقت اشتداد ضياء الشمس، فيكون الحقُّ أظهر وأجلى، ولم يطلب أن يكون ذلك ليلاً في ظلام، كيما يروج عليهم محالاً وباطلاً، بل طلب أن يكون نهاراً جهرة؛ لأنه على بصيرة من ربّه، ويقين بأن الله سيظهر كلمته ودينه، وإن رغمت أنوف القبط!

قال الله - تعالى -: ﴿ فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى ﴾ ٦٠ قَالَ لَهُمْ مُوسَىٰ وَيَلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى ٦١ فَتَنَزَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَى ٦٢ قَالُوا إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى ٦٣ فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ آتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى ٦٤ ﴾ [طه: ٦٠-٦٤].

يخبر - تعالى - عن فرعون أنه ذهب فجمع من كان ببلاده من السحرة، وكانت بلاد مصر في ذلك الزمان مملوءة سحرة فضلاء في فنههم غاية، فجمعوا له من كل بلد ومن كل مكان، فاجتمع منهم خلق كثير وجم غفير، وحضر فرعون وأمرؤه وأهل دولته وأهل بلده عن بكرة أبيهم، وذلك أن فرعون نادى فيهم أن يحضروا هذا الموقف العظيم، فخرجوا وهم يقولون: ﴿ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحْرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴾ [الشعراء: ٤٠].

وتقدم موسى - عليه السلام - إلى السحرة فوعظهم، وزجرهم عن تعاطي السحر الباطل، الذي فيه معارضة لآيات الله وحججه، فقال: ﴿ وَيَلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى ﴾ ٦١ ﴿ فَتَنَزَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ﴾: قيل: معناه: أنهم اختلفوا فيما بينهم؛ فقالوا يقول: هذا كلام نبي وليس بساحر، وقائل منهم يقول: بل هو ساحر! فالله أعلم. وأسروا التناجي بهذا وغيره: ﴿ قَالُوا إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى ﴾ ٦٣ يقولون: إن هذا وأخاه هارون، ساحران عليمان مطبقان متقنان لهذه الصناعة، ومرادهما أن يجتمع الناس عليهما ويصولا على الملك وحاشيته، ويستأصلاكم عن آخركم، ويستأمرا عليكم بهذه الصناعة؛ ﴿ فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ آتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى ﴾ ٦٤: وإنما قالوا الكلام الأول ليتدبروا ويتواصوا ويأتوا بجميع ما عندهم من المكيدة والمكر والخديعة والسحر والبهتان.

وهيهات! كذبت والله الظنون، وأخطأت الآراء، أتى يعارض البهتان والسحر والهديان خوارق العادات التي أجراها الديان على يدي عبده الكريم

ورسوله الكريم المؤيد بالبرهان، الذي يبهّر الأبصار وتحار فيه العقول والأذهان؟! وقولهم: ﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ﴾؛ أي: جميع ما عندكم. ﴿ثُمَّ انْثُؤُوا صَفًّا﴾؛ أي: جملة واحدة، ثم حضّوا بعضهم بعضاً على التّقدم في هذا المقام؛ لأن فرعون كان قد وعدهم ومثّاهم، وما يعدم الشّيطان إلا غروراً.

﴿قَالُوا يَمُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقَىٰ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ﴾ ﴿٦٩﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٧٠﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى ﴿٧١﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَىٰ ﴿٧٢﴾ وَأَلْقَ مَا فِي يَمِينِكَ تَلَقَّفَ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سَاحِرٌ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٧٣﴾ [طه: ٦٩-٧٥].

لما اصطفّى السحرة ووقف موسى وهارون -عليهما السلام- تجاههم؛ قالوا له: إما أن تلقي قبلنا، وإما أن نلقي قبلك. ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا﴾: أنتم.

وكانوا قد عمدوا إلى حبال وعصي، فأودعوها الزئبق وغيره من الآلات التي تضطرب بسببها تلك الحبال والعصي اضطراباً يخيل للرائي أنّها تسعى باختيارها، وإثماً تتحرك بسبب ذلك؛ فعند ذلك سحروا أعين الناس واسترهبوهم، وألقوا حبالهم وعصيهم، وهم يقولون: ﴿بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾.

قال الله -تعالى-: ﴿قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ ﴿٧٣﴾ [الأعراف: ١١٦]، وقال الله -تعالى-: ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ ﴿٧٠﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى ﴿٧١﴾؛ أي: خاف على الناس أن يفتنوا بسحرمهم ومُحالمهم، قبل أن يلقي ما في يده؛ فإنه لا يصنع شيئاً قبل أن يؤمر.

فأوحى الله إليه في الساعة الراهنة: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَىٰ﴾ ﴿٧٢﴾ وَأَلْقَ مَا فِي يَمِينِكَ تَلَقَّفَ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سَاحِرٌ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٧٣﴾ فعند ذلك ألقى موسى عصاه وقال: ﴿مَا جِئْتُمْ بِهِ السَّحَرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ ﴿٧٤﴾ وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٧٥﴾ [يونس: ٨١-٨٢].

وقال -تعالى-: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلَقَّفُ

مَا يَأْفِكُونَ ﴿٧٦﴾ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٧٧﴾ فَعَلَبُوا هُنَالِكَ
وَأَنقَلَبُوا صَغِيرِينَ ﴿٧٨﴾ وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَجْدِينَ ﴿٧٩﴾ قَالُوا ءَأَمْنَا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ
﴿٨٠﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿[الأعراف: ١١٧-١٢٢]﴾.

وذلك أن موسى -عليه السلام- لما ألقاها؛ صارت حية عظيمة ذات قوائم
- فيما ذكره غير واحد من علماء السلف - وعنق عظيم وشكل هائل مزعج؛
بحيث إنَّ النَّاسَ المحازوا منها وهربوا سراعاً وتأخروا عن مكانها، وأقبلت هي على
ما ألقوه من الحبال والعصي، فجعلت تلقفه واحداً واحداً في أسرع ما يكون من
الحركة، والناس ينظرون إليها ويتعجبون منها!

وأما السحرة؛ فإنهم رأوا ما هالهم وحيرهم في أمرهم، واطَّلَعُوا على أمر لم
يكن في خلدتهم ولا بالهم ولا يدخل تحت صناعتهم وأشغالهم؛ فعند ذلك وهنالك
تحققوا بما عندهم من العلم أن هذا ليس بسحر ولا شعوذة، ولا محال ولا خيال،
ولا زور ولا بهتان ولا ضلال، بل حق لا يقدر عليه الا الحق، الذي ابتعث هذا
المؤيد به الحق، وكشف الله عن قلوبهم غشاوة الغفلة، وأنارها بما خلق فيها من الهدى
وأزاح عنها القسوة، وأنابوا إلى ربهم وخروا له ساجدين، وقالوا جهرة للحاضرين، ولم
يخشوا عقوبة ولا بلوى: ﴿ءَأَمْنَا بِرَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ [طه: ٧٠].

﴿قَالَ ءَأَمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ
السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خَلْفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ
النَّخْلِ وَلَتَعْلَمَنَّ أَنَّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾ ﴿٨١﴾ قَالُوا لَن نُّؤَيِّرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا
مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ
الدُّنْيَا﴾ ﴿٨٢﴾ إِنَّا ءَأَمْنَا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطِئَنَا وَمَا أَكْثَرَتْهُنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ
خَبِيرٌ وَأَبْقَى﴾ ﴿٨٣﴾ إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا
يَحْيَىٰ﴾ ﴿٨٤﴾ وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ
الْعُلَىٰ﴾ ﴿٨٥﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ
مَنْ تَزَكَّى﴾ ﴿[طه: ٧١-٧٦]﴾.

قال سعيد بن جبير وعكرمة والقاسم بن أبي بزة والأوزاعي وغيرهم: لما
سجد السحرة؛ رأوا منازلهم وقصورهم في الجنة تُهَيَّأ لهم، وتزخرف لقدمهم؛

ولهذا لم يلتفتوا إلى تهويل فرعون وتهديده ووعيده.

وذلك؛ لأن فرعون لما رأى هؤلاء السحرة قد أسلموا وأشهروا ذكر موسى وهارون في الناس على هذه الصفة الجميلة؛ أفزعه ذلك، ورأى أمراً بهره، وأعمى بصيرته وبصره، وكان فيه كيد ومكر وخداع وصنعة بليغة في الصّد عن سبيل الله، فقال مخاطباً السحرة بحضرة الناس: ﴿ءَامَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾؛ أي: هلاً شاوَرتموني فيما صنعتُم من الأمر الفظيع بحضرة رعيّتي؟! ثم تهدّد وتوعّد وأبرق وأرعد، وكذب فابعد؛ قائلاً: ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾؛ وقال في الآية أخرى: ﴿إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٣].

وهذا الذي قاله من البهتان، الذي يعلم كلُّ فرد عاقل ما فيه من الكفر والكذب والهديان، بل لا يروج مثله على الصّبيان؛ فإن الناس كلهم من أهل دولته وغيرهم يعلمون أن موسى لم يره هؤلاء يوماً من الدهر؛ فكيف يكون كبيرهم الذي علّمهم السّحر؟ ثم هو لم يجمعهم ولا علم باجتماعهم، حتى كان فرعون هو الذي استدعاهم واجتباهم من كل فج عميق ووادٍ سحيق، من حواضر بلاد مصر والأطراف، ومن المدن والأرياف.

قال الله -تعالى- في سورة الأعراف [١٠٣-١٢٦]: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَيَّ أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَآذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سِحْرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَاءَ السّٰحِرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُوا يَمُوسَىٰ إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْكِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا

سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ ﴿٦٥﴾ * وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٦٦﴾ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٧﴾ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَغِيرِينَ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سِحْرَاجِدِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٠﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿٧١﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكْرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٧٢﴾ لَأَقْطِعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ ثُمَّ لَأَضِلَّ بَيْنَكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا نَنصِفُ مِنْكَ إِلَّا أَنْ ءَامَنَّا بِمَا نَبَيُّنَا رَبَّنَا لَمَّا جَاءَنَا رَبَّنَا فَأُفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوْفَنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴿٧٦﴾

وقال - تعالى - في سورة يونس [٧٥-٨٢]: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّحَرُونَ ﴾ ﴿٧٨﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْفِتَنَّا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمُ الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتَقْتُونَنِي بِكُلِّ سِحْرِ عَلَيْهِمْ ﴾ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُمْ بِهِ السَّحَرُ إِنَّ اللَّهَ سَيَبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٢﴾ وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴾ ﴿٨٣﴾

وقال - تعالى - في سورة الشعراء [٢٩-٥١]: ﴿ قَالَ لَنْ اتَّخَذَتِ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴾ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوْلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظَرِ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَابٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَإِنِّ

لَنَا لِأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿٦٥﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٦٦﴾
 قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ﴿٦٧﴾ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ
 فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴿٦٨﴾ فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٦٩﴾
 فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سِحْرَهُمْ ﴿٧٠﴾ قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾ رَبِّ مُوسَى
 وَهَارُونَ ﴿٧٢﴾ قَالَ ءَامَنُتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ
 السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَا أَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَا أُصْلِبَنَّكُمْ
 أَجْمَعِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿٧٤﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا
 رَبُّنَا خَطِيئَتَنَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٥﴾ ﴿٧٦﴾

والمقصود: أن فرعون كذب وافتري وكفر غاية الكفر في قوله: ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ [طه: ٧١]، وأتى بيهتان يعلمه العالمون في قوله: ﴿إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٣]، وقوله: ﴿لَا أَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ﴾ [الشعراء: ٤٩]؛ يعني: يقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى وعكسه ﴿وَلَا أُصْلِبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾؛ أي: ليجعلنهم مثلة ونكالا؛ لئلا يقتدي بهم أحد من رعيته وأهل ملته؛ ولهذا قال: ﴿وَلَا أُصْلِبَنَّكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ﴾ [طه: ٧١]؛ أي: على جذوع النخل؛ لأنها أعلى وأشهر ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾؛ يعني: في الدنيا.

﴿قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ﴾ [طه: ٧٢]؛ أي: لن نطيعك ونترك ما وقر في قلوبنا من البينات والدلائل القاطعات ﴿وَالَّذِي فَطَرَنَا﴾ [طه: ٧٢]؛ قيل: معطوف، وقيل: قسم. ﴿فَأَقْضَ مَا أَنْتَ قَاضٍ﴾؛ أي: فافعل ما قدرت عليه ﴿إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾؛ أي: إنما حكمك علينا في هذه الحياة الدنيا؛ فإذا انتقلنا منها إلى الدار الآخرة؛ صرنا إلى حكم الذي أسلمنا له وأبئنا رسله. ﴿إِنَّا ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطِيئَتَنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [طه: ٧٣]؛ أي: ثوابه خير مما وعدتنا به من التقريب والترغيب، ﴿وَأَبْقَى﴾؛ أي: وأدوم من هذه الدار الفانية. وفي الآية الأخرى: ﴿قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾ [طه: ٧٤]؛ إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَتَنَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٥﴾ [الشعراء: ٥٠-٥١]؛ أي: ما اجترمناه من

المآثم والمحارم ﴿ أَنْ كُتِبَ أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء: ٥١] أي: من القبط، بموسى وهارون -عليهما السلام-.

وقالوا له -أيضا-: ﴿ وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ ءَامَنَّا بِمَا نُرِيكَ لَمَّا جَاءَنَا ﴾ [الأعراف: ١٢٦]؛ أي: ليس لنا عندك ذنب إلا إيماننا بما جاءنا به رسولنا، واتباعنا آيات ربنا لما جاءتنا ﴿ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا ﴾ [الأعراف: ١٢٦]؛ أي: ثبتنا على ما ابتلينا به من عقوبة هذا الجبار العنيد، والسلطان الشديد، بل الشيطان المرید ﴿ وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ [الأعراف: ١٢٦].

وقالوا -أيضا- يعظونه ويخوفونه بأس ربه العظيم: ﴿ إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ﴾ [طه: ٧٤] يقولون له: فإياك أن تكون منهم؛ فكان منهم ﴿ وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى ﴾ [طه: ٧٥] أي: المنازل العالية. ﴿ جَنَّاتٍ عَدْنٍ تَجْرَى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّى ﴾ [طه: ٧٦]؛ فاحرص أن تكون منهم. فحالت بينه وبين ذلك الأقدار التي لا تغالب ولا تمنع، وحكم العلي العظيم؛ بأن فرعون - لعنه الله - من أهل الجحيم؛ لياشر العذاب الأليم؛ يصب من فوق رأسه الحميم، ويقال له على وجه التقريع والتوبيخ، وهو المقبوح المنبوح والذميم اللئيم: ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾ [الدخان: ٤٩].

والظاهر من هذه السياقات أن فرعون - لعنه الله - صلبهم وعذبهم -رضي الله عنهم-.

قال عبد الله بن عباس وعبيد بن عمير: كانوا من أول النهار سحرة؛ فصاروا من آخره شهداء بررة!

ويؤيد هذا قولهم: ﴿ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ [الأعراف: ١٢٦].

فصل

[في تحريض كبراء القبط على إيذاء موسى وبني إسرائيل]

ولما وقع ما وقع من الأمر العظيم، وهو الغلب الذي غلبته القبط في ذلك الموقف الهائل، وأسلم السحرة الذين استنصروا بهم؛ لم يزداهم ذلك إلا كفرًا وعنادًا وبعدًا عن الحق.

قال الله - تعالى - بعد قص ما تقدم في سورة الأعراف: ﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَدْرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴾ [١٢٧] قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [١٢٨] قَالُوا أَوْذَيْنَا مِنْ قَبْلُ أَنْ تَأْتِنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٢٧-١٢٩].

يخبر - تعالى - عن المملأ من قوم فرعون - وهم الأمراء والكبراء - أنهم حرّضوا ملكهم فرعون على أذية نبي الله موسى - عليه السلام -، ومقابلته - بدل التصديق بما جاء به - بالكفر والرد والأذى.

قالوا: ﴿ أَتَدْرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ ﴾؛ يعنون - قبحهم الله -: أن دعوته إلى عبادة الله وحده لا شريك له، والنهي عن عبادة ما سواه، فساد بالنسبة إلى اعتقاد القبط - لعنهم الله - وقرأ بعضهم: ﴿ وَيَذَرَكَ وَإِلَهِتَكَ ﴾؛ أي: وعبادتك، ويحتمل شيئين: أحدهما: ويذر دينك، وتقويه القراءة الأخرى.

والثاني: ويذر أن يعبدك؛ فإنه كان يزعم أنه إله - لعنه الله -.

﴿ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ﴾؛ أي: لنلا يكثر مقاتلتهم ﴿ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴾؛ أي: غالبون.

﴿ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا ﴾؛ أي: إذا هم هموا بأذيتكم

والفتك بكم؛ فاستعينوا أنتم بربكم واصبروا على بليّتكم ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾؛ أي: فكونوا أنتم المتقين لتكون لكم العاقبة؛ كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَقَالَ مُوسَى يَنْقُومُ إِنْ كُنْتُمْ ءَامَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ﴾ ﴿٢٤﴾ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾ [يونس: ٨٤-٨٦].

وقولهم: ﴿قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ [الأعراف: ١٢٩]؛ أي: قد كانت الأبناء تقتل قبل مجيئك وبعد مجيئك إلينا ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَهْلِكَ عِذُّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾. وقال الله -تعالى- في سورة حم المؤمن [٢٣ و ٢٤]: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ قِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾﴾؛ وكان فرعون الملك، وهامان الوزير، وكان قارون إسرائيليًّا من قوم موسى؛ إلا أنه كان على دين فرعون وملئه، وكان ذا مال جزيل جداً؛ كما ستأتي قصته فيما بعد -إن شاء الله تعالى-.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ ﴿٢٥﴾ [غافر: ٢٥]: وهذا القتل للغلمان من بعد بعثة موسى إئما كان على وجه الإهانة والإذلال والتقليل لملا بني إسرائيل؛ لئلا يكون لهم شوكة يمتنعون بها، ويصلون على القبط بسببها، وكانت القبط منهم يحذرون، فلم ينفعهم ذلك، ولم يرد عنهم قدر الذي يقول للشيء: كن! فيكون.

﴿وَقَالَ قِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ ﴿٢٦﴾ [غافر: ٢٦]؛ ولهذا يقول الناس على سبيل التهكم: صار فرعون مذكراً! وهذا منه؛ فإن فرعون في زعمه خاف على الناس أن يضلهم موسى -عليه السلام-!

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ ﴿٢٧﴾ [غافر: ٢٧]؛ أي: عذت بالله ولجأت إليه واستجرت بمجانبه من أن

يسطو فرعون وغيره عليّ بسوء. وقوله: ﴿مَنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ﴾؛ أي: جبار عنيد لا يرعوي ولا ينتهي، ولا يخاف عذاب الله وعقابه؛ لأنه لا يعتقد معاداً ولا جزاء؛ ولهذا قال: ﴿مَنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ يَوْمَ الْحِسَابِ﴾.

[مؤمن آل فرعون]

﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾ [٢٨-٢٩].

الرَّشَادِ ﴿ [غافر: ٢٨-٢٩].

وهذا الرجل هو ابن عمّ فرعون، وكان يكتُم إيمانه من قومه خوفاً منهم على نفسه، وزعم بعض الناس أنّه كان إسرائيلياً! وهو بعيد ومخالف لسياق الكلام لفظاً ومعنى! والله أعلم.

والمقصود: أن هذا الرجل كان يكتُم إيمانه، فلما همّ فرعون -لعنه الله- بقتل موسى -عليه السلام-، وعزم على ذلك وشاور ملاه فيه؛ خاف هذا المؤمن على موسى، فتلطّف في ردّ فرعون بكلام جَمَعَ فيه الترغيب والترهيب؛ فقال كلمة حق على وجه المشورة والرأي.

وقد ثبت في الحديث عن رسول الله ﷺ؛ أنه قال: «أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر»^(١)، وهذا من أعلى مراتب هذا المقام؛ فإنّ فرعون لا أشدّ جوراً

(١) صحيح - أخرجه أبو داود (٤٣٤٤)، والترمذي (٢١٧٤)، وابن ماجه (٤٠١١)، وأحمد (٦١/٣ و ١٩/٣)، والحاكم (٥٠٥/٤) من حديث أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه-. وله شواهد بسطها شيخنا في «الصحيحة» (٤٩١).

وليس في هذا الحديث ما يدل على جواز التشهير بولاية الأمور على المنابر وفي المجالس وفي

منه، وهذا الكلام لا أعدل منه؛ لأن فيه عصمة نبي ويحتمل أنه كاشفهم بإظهار إيمانه، وصرح لهم بما كان يكتمه، والأول أظهر، والله أعلم.

قال: ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ ﴾؛ أي: من أجل أنه قال: ربِّي الله ! فمثل هذا لا يقابل بهذا، بل بالإكرام والإحترام و المواعدة وترك الانتقام؛ يعني: لأنه: ﴿ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾؛ أي: بالخوارق التي دلّت على صدقه فيما جاء به عنّ أرسله؛ فهذا إن وادعتموه؛ كنتم في سلامة؛ لأنه: ﴿ وَإِنْ يَكُ كَذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ ﴾: ولا يضرّكم ذلك. ﴿ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا ﴾ وقد تعرضتم له ﴿ يُضِيبُكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ﴾؛ أي: وأنتم تشفقون أن ينالكم أيسر جزاء ممّا يتوعّدكم به، فكيف بكم إن حلّ جميعه عليكم؟ وهذا الكلام في هذا المقام، من أعلى مقامات التلطّف والاحتراز والعقل التام.

وقوله: ﴿يَقَوْمِ لَكُمْ الْمَلِكُ الْيَوْمَ ظَهْرِينَ فِي الْأَرْضِ﴾: يحذّرهم أن يسلبوا هذا الملك العزيز؛ فإنه ما تعرّضت الدول للذين إلا سلبوا ملكهم وذلوا بعد عزهم. وكذا وقع لآل فرعون؛ ما زالوا في شكّ وريب ومخالفة ومعاندة لما جاءهم موسى به؛ حتى أخرجهم الله مما كانوا فيه من الملك والأموال، والدور والقصور، والنعمة والخبور، ثم حولوا إلى البحر مهانين، وثقلت أرواحهم بعد العلوّ والرّفعة إلى أسفل السافلين؛ ولهذا قال هذا الرجل المؤمن المصدّق، البارّ الراشد، التابع للحق، النّاصح لقومه، الكامل العقل: ﴿يَقَوْمِ لَكُمْ الْمَلِكُ الْيَوْمَ ظَهْرِينَ﴾؛ أي: عالين على الناس حاكمين عليهم ﴿فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا﴾؛ أي: لو كنتم أضعاف ما أنتم فيه من العدد والعُدّة، والقوّة والشّدّة لما نفعنا ذلك، ولا ردّ عنا بَأْسَ مالك الممالك.

﴿ قَالَ قِرْعَوْنُ ﴾؛ أي: في جوابه هذا كله: ﴿ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى ﴾؛ أي: ما أقول لكم إلا ما عندي ﴿ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾: وكذب في كل من هذين القولين وهاتين المقدمتين.

فإنه قد كان يتحقق في باطنه وفي نفسه أن هذا الذي جاء به موسى من عند الله لا محالة، وإنما كان يظهر خلافه بغياً وعدواناً وعتواً وكفراناً:

قال الله -تعالى- إخباراً عن موسى: ﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَافِرٍ وَإِنِّي لَأُظُنُّكَ يَفْرَعُونَ مُتَّبِعُونَ ﴾ ١٠٢ فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفْزِهِمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا ١٠٣ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَءِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ١٠٤ ﴾ [الإسراء: ١٠٢-١٠٤].

وقال -تعالى-: ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ ءَايَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ١٠٥ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلُمًا وَعُْلُوًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ١٠٦ ﴾ [النمل: ١٣-١٤].

وأما قوله: ﴿ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾؛ فقد كذب -أيضاً-؛ فإنه لم يكن على رشاد من الأمر، بل كان على سفه وضلال، وخبل وخيال، فكان أولاً ممن يعبد الأصنام والأمثال، ثم دعا قومه الجهلة الضلال أن اتبعوه وطاوعوه وصدّقوه فيما زعم من الكفر والمحال، في دعواه: أنه ربُّ تعالى الله ذو الجلال.

قال الله -تعالى-: ﴿ وَتَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَنْقُومِ الْإِنْسَ إِلَى مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرَى مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ١٠٧ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ١٠٨ فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسُورَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَأِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ١٠٩ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ١١٠ فَلَمَّا ءَاسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ١١١ ﴾ [الزعرور: ٥١-٥٥].

وقال -تعالى-: ﴿ فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى ١١٢ فَكَذَّبَ وَعَصَى ١١٣ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى ١١٤ فَحَشَرَ فَنَادَى ١١٥ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ١١٦ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى ١١٧ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى ١١٨ ﴾ [النازعات: ٢٠-٢٦].

وقال -تعالى-: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ١١٩ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ١٢٠ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوَرْدُ الْمَورُودُ ١٢١ وَأَتَّبَعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ بئسَ الْوَرْدُ الْمَرْفُودُ ١٢٢ ﴾ [هود: ٩٦-٩٩].

والمقصود بيان كذبه في قوله: ﴿ مَا أَرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى ﴾، وفي قوله: ﴿ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾.

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا يَنْقُومُ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِمْ مِثْلَ الْآخِرَابِ ﴾ (٣٥) مِثْلَ ذَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظَلَمًا لِلْعِبَادِ ﴿٣٦﴾ وَيَنْقُومُ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِمْ مِثْلَ الْثَنَادِ ﴿٣٧﴾ يَوْمَ تُؤَلَّفُونَ مَدِيرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٨﴾ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ ﴿٣٩﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ لَكُمْ فِتْنَةً إِذْ بَدَّلَ اللَّهُ بَعْضَ أَسْمَاءِ بَعْضٍ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ كَبِيرٌ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٤٠﴾ [غافر: ٣٠-٣٥].

يُحَذِّرُهُمْ وَلِي اللَّهِ إِنْ كَذَبُوا بِرَسُولِ اللَّهِ مُوسَى أَنْ يَحِلَّ بِهِمْ مَا حُلَّ بِالْأَمَمِ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الثَّقَمَاتِ وَالْمَثَلَاتِ، مِمَّا تَوَاتَرَ عَنْهُمْ وَعِنْدَ غَيْرِهِمْ، مِمَّا حُلَّ بِقَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَمِنْ بَعْدِهِمْ إِلَى زَمَانِهِمْ ذَلِكَ، مِمَّا أَقَامَ اللَّهُ بِهِ الْحُجَجَ عَلَى أَهْلِ الْأَرْضِ قَاطِبَةً فِي صَدَقِ مَا جَاءَتْ بِهِ الْأَنْبِيَاءُ، لَمَّا أَنْزَلَ مِنَ النِّقْمَةِ بِمَكْدُبِهِمْ مِنَ الْأَعْدَاءِ، وَمَا أَنْجَى اللَّهُ مِنْ أَتْبَعِهِمْ مِنَ الْأَوْلِيَاءِ. وَخَوْفُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَهُوَ يَوْمَ الثَّنَادِ؛ أَي: حِينَ يَنَادِي النَّاسُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، حِينَ يُؤَلَّفُونَ إِنْ قَدَرُوا عَلَى ذَلِكَ، وَلَا إِلَى ذَلِكَ سَبِيلًا: ﴿ يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفْقَرُ ﴾ (٤١) كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿٤٢﴾ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ﴿٤٣﴾ [القيامة: ١٠-١٢]، وَقَالَ -تَعَالَى-: ﴿ يَمْعَشِرَ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِنْ أَسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ﴾ (٤٤) فَبِأَيِّ ءَالٍ رَبِّكُمْ تَكْذِبَانِ ﴿٤٥﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمْ شَوَاطِلٌ مِّنْ نَّارٍ وَنَحَاسٍ فَلَا تَنْتَصِرَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالٍ رَّبِّكُمْ تَكْذِبَانِ ﴿٤٧﴾ [الرحمن: ٣٣-٣٦].

وَقَرَأَ بَعْضُهُمْ: ﴿ يَوْمَ الثَّنَادِ ﴾؛ بِتَشْدِيدِ الدَّالِّ؛ أَي: يَوْمَ الْفَرَارِ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ يَوْمَ يُحِلُّ اللَّهُ بِهِمُ الْبَاسَ؛ فَيُؤَدُّونَ الْفَرَارَ، وَلَاتِ حِينَ مَنَاصٍ؛ ﴿ فَلَمَّا أَحْسَوْا بِبَأْسِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ ﴾ (٤٨) لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسْكِنُكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ ﴿٤٩﴾ [الأنبياء: ١٢-١٣].

ثم أخبرهم عن نبوة يوسف في بلاد مصر، وما كان منه من الإحسان إلى الخلق في دنياهم وأخراهم، وهذا من سلالة وذريته، ويدعو الناس إلى توحيد الله وعبادته، وألا يشركوا به أحداً من بريته، وأخبر عن أهل الديار المصرية في ذلك الزمان، وأن من سجيّتهم التكذيب بالحق ومخالفة الرسل؛ ولهذا قال: ﴿فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكِّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا﴾؛ أي: وكذبتم في هذا؛ ولهذا قال: ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ﴾ (١) الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ﴾؛ أي: يردّون حجج الله وبراهينه ودلائل توحيده بلا حجة ولا دليل عندهم من الله؛ فإن هذا أمر بمقتة الله غاية المقت؛ أي: يبغيض من تلبس به من الناس، ومن اتصف به من الخلق، ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ قرئ بالإضافة وبالنعت (١)، وكلاهما متلازم؛ أي: هكذا إذا خالفت القلوب الحق - ولا تخالفه إلا بلا برهان - فإن الله يطبع عليها؛ أي: يختم عليها بما فيها.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَهْمَنُ ابْنُ لِي صَرَحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ﴾ (٢) أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأُظَنُّهُ كَذِبًا وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ (٣) [غافر: ٣٦-٣٧].

كذب فرعون موسى - عليه السلام - في دعواه أن الله أرسله، وزعم فرعون لقومه ما كذبه وافتراه في قوله لهم: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَتَأْتِيهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهِ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَهْمَنُ عَلَى الْطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرَحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأُظَنُّهُ مِنَ الْكَذِبِينَ﴾ (٤) [القصص: ٣٨]، وقال هاهنا: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَهْمَنُ ابْنُ لِي صَرَحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ﴾ (٥) أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ﴾؛ أي: طرقها ومسالكها ﴿فَأَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأُظَنُّهُ

(١) قراءة النعت: (قلوب متكبر)، قرأ بها أبو عمرو البصري، وقرأ الباقون بالإضافة:

(قلوب متكبر).

انظر: «النشر في القراءات العشر» (٢/ ٣٦٥).

كَذِبًا ۖ وَيَحْتَمِلُ هَذَا مَعْنِينَ:

أحدهما: وإني لأظنه كاذباً في قوله: أَنْ لِلْعَالَمِ رَبًّا غَيْرِي.

والثاني: في دعواه أَنَّ اللَّهَ أَرْسَلَهُ.

والأول أشبه بظاهر حال فرعون؛ فإنه كان ينكر ظاهراً إثبات الصانع.

والثاني: أقرب إلى اللفظ؛ حيث قال: ﴿فَأُطِّلِعَ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ﴾؛ أي:

فأسأله هل أرسله أم لا؟ ﴿وَإِنِّي لِأُظَنُّهُ كَذِبًا﴾؛ أي: في دعواه ذلك.

وإنما كان مقصود فرعون أن يصدّ النَّاسَ عن تصديق موسى -عليه

السلام-، وأن يحثهم على تكذيبه قال الله -تعالى-: ﴿وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ

سُوءَ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ﴾. وقرئ: ﴿وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ﴾^(١).

﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾: قال ابن عباس ومجاهد^(٢): يقول:

إِلَّا فِي خَسَارٍ؛ أي: باطل، لا يحصل له شيء من مقصوده الذي رامه؛ فإنه لا سبيل

للنَّاسِ أن يتوصَّلوا بقواهم إلى نيل السماء أبداً -أعني السماء الدنيا-؛ فكيف بما

بعدها من السماوات العلى وما فوق ذلك من الارتفاع الذي لا يعلمه إلا الله

-عز وجل-!.

وذكر غير واحد من المفسرين: أن هذا الصَّرح - وهو القصر الذي بناه

وزير هامان له - لم يربَّ بناء أعلى منه، وأنه كان مبنياً من الأجر المشوي بالنار؛

ولهذا قال: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَهْمَمُنُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا﴾ [القصص: ٣٨].

﴿أَوْذَيْنَا مِنْ قَبْلُ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ

عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٩]؛

فوعدهم بأنَّ العاقبة لهم على القِبْطِ، وكذلك وقع، وهذا من دلائل النبوة.

ولنرجع إلى نصيحة المؤمن وموعظته واحتجاجه:

قال الله -تعالى-: ﴿وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَلْقَوْنَ أَتْبَعُونَ أَهْدِيكُمْ سَبِيلَ

(١) قرأ يعقوب والكوفيون (صُدَّ) بالضم، وقرأ الباقون (صَدَّ) بالفتح انظر: «النشر في

القراءات العشر» (٢/ ٢٩٨).

(٢) أخرجه عنهما الطبري في «جامع البيان» (٤٣/ ٢٤).

الرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَنْقُومُ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَّعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ [غافر: ٣٨-٤٠].

يدعوهم -رضي الله عنه- إلى طريق الرشاد الحق، وهي متابعة نبي الله موسى وتصديقه فيما جاء به من عند ربه، ثم زهدهم في الدنيا الدنية الفانية المنقضية لا محالة، ورغبتهم في طلب الثواب عند الله، الذي لا يضيع عمل عامل لديه، القدير الذي ملكوت كل شيء بيديه، الذي يعطي على القليل كثيراً، ومن عدله لا يجازي على السيئة إلا مثلاً، وأخبرهم أن الآخرة هي دار القرار، التي من وافاها مؤمناً قد عمل الصالحات؛ فله الجنات العليات، والغرف الآمات، والخيرات الكثيرة الفائقات، والأرزاق الدائمة التي لا تبيد، والخير الذي كل ما لهم منه في مزيد.

ثم شرع في إبطال ما هم عليه، وتخويفهم مما يصيرون إليه؛ فقال: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ ﴿٣٨﴾ * وَيَنْقُومُ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجْوَةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ﴿٣٩﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْعَفْوَ ﴿٤٠﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَكُمْ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنْ مَّرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَبْنِ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٤١﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَفَؤُصُّ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٤٢﴾ فَوَقَّعَهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِإِثْمِهِمْ قِرْعُونَ سَوَاءُ الْعَذَابِ ﴿٤٣﴾ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿٤٤﴾ [غافر: ٤٠-٤٦].

كان يدعوهم إلى عبادة رب السماوات والأرض، الذي يقول للشيء: كن؛ فيكون، وهم يدعونه إلى عبادة فرعون الجاهل الضال الملعون؛ ولهذا قال لهم على سبيل الإنكار: ﴿* وَيَنْقُومُ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجْوَةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ﴾ ﴿٣٨﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى

الْعَزِيزِ الْعَفْرِ ﴿١١﴾.

ثم بين لهم بطلان ما هم عليه من عبادة ما سوى الله من الأنداد والأوثان، وأنها لا تملك من نفع ولا إضرار، فقال: ﴿لَا جَرَمَ أَنْمَّا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنْ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ ﴿١٢﴾؛ أي: لا تملك تصرفاً ولا حكماً في هذه الدار؛ فكيف تملكه يوم القرار؟ وأما الله - عز وجل -؛ فإنه الخالق الرازق للأبرار والفجار، وهو الذي أحيا العباد ويميتهم ويبعثهم فيدخل طائعتهم الجنة وعاصيهم إلى النار.

ثم توعدهم إن هم استمروا على العناد بقوله: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَفَوضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ ﴿١٣﴾. قال الله: ﴿فَوَقْنَهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكَرُوا﴾؛ أي: بإنكاره سلم مما أصابهم من العقوبة؛ على كفرهم بالله، ومكرهم في صدّهم على سبيل الله، مما أظهروا للعامة من الخيالات والمحالات، التي لبسوا بها على عوامهم وطغامهم، ولهذا قال: ﴿وَحَاقَ﴾؛ أي: أحاط ﴿بِقَالِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ ﴿١٤﴾ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾؛ أي: تعرض أرواحهم في برزخهم صباحاً ومساءً على النار. ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾؛ وقد تكلمنا على دلالة هذه الآية على عذاب القبر في «التفسير»، والله الحمد.

[الآيات البيّنات في عذاب آل فرعون]

والمقصود: أن الله - تعالى - لم يهلكهم إلا بعد إقامة الحجج عليهم، وإرساله الرسول إليهم، وإزاحة الشبهة عنهم، وأخذ الحجة عليهم منهم؛ بالترهيب تارة والترغيب أخرى؛ كما قال - تعالى -: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصِ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾ ﴿١٥﴾ فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيِّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَّيَّرَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنْ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿١٦﴾ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتَانَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنَسْحَرَنَّ بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٧﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ

وَالَّذِمَّ ءَايَتٍ مَّفْصَّلَتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾
[الأعراف: ١٣٠-١٣٣].

يخبر - تعالى - آله ابتلى آل فرعون - وهم قومه من القبط - بالسنين - وهي أعوام الجذب التي لا يُستغل فيها زرع ولا يُنتفع فيها بضرع - وقوله: ﴿ وَنَقْصُ مِنَ الثَّمَرَاتِ ﴾: وهي قلة الثمار من الأشجار ﴿ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ ﴾؛ أي: فلم ينتفعوا ولم يرتدعوا، بل تمرّدوا واستمروا على كفرهم وعنادهم ﴿ فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ ﴾: والخصب ونحوه ﴿ قَالُوا لَنَا هَذِهِ ﴾؛ أي: هذا الذي نستحقه، وهذا الذي يليق بنا ﴿ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ ﴾؛ أي: يقولون هذا بشؤمهم أصابنا هذا؛ ولا يقولون في الأول: إنه ببركتهم وحسن مجاورتهم لهم! ولكن قلوبهم منكرة مستكبرة نافرة عن الحق، إذا جاء الشر؛ أسندوه إليه، وإن رأوا خيراً؛ ادّعوه لأنفسهم. قال الله - تعالى -: ﴿ أَلَا إِنَّمَا طَبَّرْهُمُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾؛ أي: الله يجزيهم على هذا أوفر الجزاء ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾.

﴿ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَخْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿١٣٤﴾؛ أي: مهما جئتنا به من الآيات - وهي الخوارق للعادات - ؛ فلسنا نؤمن بك ولا نتبعك ولا نطيعك، ولو جئتنا بكل آية، وهكذا أخبر الله عنهم في قوله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ﴿١٣٥﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ ﴿١٣٦﴾ [يونس: ٩٦-٩٧].

قال الله - تعالى -: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالَّذِمَّ ءَايَتٍ مَّفْصَّلَتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ ﴿١٣٧﴾؛ أما الطوفان؛ فعن ابن عباس: هو كثرة الأمطار المغرقة المتلفة للزروع والثمار^(١).

وبه قال سعيد بن جبیر وقتادة والسُّدِّيُّ والضُّحَّاك.

وأما الجراد؛ فمعروف مشهور، وهو مأكول؛ لما ثبت في « الصحيحين » عن أبي يعفور؛ قال: سألت عبد الله بن أبي أوفى عن الجراد؟ فقال: غزونا مع رسول

(١) أخرجه الطبري في « جامع البيان » (٢٤/٩).

الله ﷺ سبع غزوات ناكل الجراد^(١)، وقد تكلمنا على ما ورد فيه من الأحاديث والآثار في «التفسير»، وترك النبي ﷺ أكله إنما هو على وجه التقدير له؛ كما ترك أكل الضب^(٢)، وتنزه عن أكل البصل والثوم والكراث^(٣).
والمقصود: أنه استاق خضراءهم فلم يترك لهم زرعاً ولا ثماراً ولا سبداً ولا لبداً^(٤).

وأما القملُ. حكى ابن جرير^(٥) عن أهل العربية: أنها الحمنان، وهو صغار القردان فوق القمقامة^(٦)، فدخل معهم البيوت والفرش، فلم يقر لهم قرار، ولم يمكنهم معه الغمض ولا العيش. وفسره عطاء بن السائب بهذا القمل المعروف. وقرأها الحسن البصري كذلك بالتخفيف.

وأما الضفادع؛ فمعروفة. لبستهم حتى كانت تسقط في أطعمتهم وأوانيهم، حتى إن أحدهم إذا فتح فاه لطعام أو شراب؛ سقطت فيه ضفدعة من تلك الضفادع.

وأما الذم؛ فكان قد مزج ماؤهم كله به فلا يستقون من النيل شيئاً إلا وجدوه دماً عبيطاً^(٧)، ولا من نهر ولا بئر ولا شيء؛ إلا كان دماً في الساعة الراهنة.

هذا كله؛ ولم ينل بني إسرائيل من ذلك شيء بالكلفة! وهذا من تمام المعجزة الباهرة والحجة القاطعة؛ أن هذا كله يحصل لهم عن فعل موسى -عليه السلام-

(١) أخرجه البخاري (٥٤٩٥)، ومسلم (١٩٥٢).

(٢) أخرجه البخاري (٥٥٣٧)، ومسلم (١٩٤٥ و ١٩٤٦) من حديث عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما-.

(٣) أخرجه البخاري (٨٥٤ و ٨٥٥)، ومسلم (٥٦٤) من حديث جابر بن عبد الله -رضي الله عنه-.

(٤) لم يترك قليلاً ولا كثيراً.

(٥) في «جامع البيان» (٣٤/٦).

(٦) من صغار القراد.

(٧) طري حديث السيلان.

فيناھم عن آخرھم، ولا یحصل هذا لأحد من بني إسرائيل، وفي هذا أدلّ دليل.
قال الله -تعالى-: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَمُوسَىٰ أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ
بِمَا عٰهَدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَءِيلَ
﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُمْ بِنَٰلِهِ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ﴿١٣٥﴾
فَإِن تَقَمَّنا مِنْهُمْ فَاَعْرِفْنَهُمْ فِي آلِئِمِّ يَأْتُهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ
﴿١٣٦﴾﴾ [الأعراف: ١٣٤-١٣٦].

يخبر -تعالى- عن كفرهم وعتوهم واستمرارهم على الضلال والجهل،
والاستكبار عن أثباع آيات الله وتصديق رسوله؛ مع ما أيده به من الآيات العظيمة
الباهرة، والحُجج البليغة القاهرة، التي أراهم الله إياها عياناً، وجعلها عليهم دليلاً
وبرهاناً، وكلّما شاهدوا آية وعايونها؛ وجهدهم وأضنكهم؛ حلفوا وعاهدوا
موسى لئن كشف عنهم هذه؛ ليؤمننّ به، وليُرسِلنّ معه من هو من حزبه، فكلّما
رفعت عنهم تلك الآية؛ عادوا إلى شرّ مما كانوا عليه، وأعرضوا عمّا جاءهم به من
الحقّ ولم يلتفتوا إليه، فيرسل الله عليهم آية أخرى هي أشدّ ممّا كانت قبلها
وأقوى، فيقولون ويكذبون، ويعدون ولا يفون: ﴿لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ
لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ [الأعراف: ١٣٤]، فيكشف عنهم ذلك
العذاب الوبيل، ثم يعودون إلى جهلهم العريض الطويل.

هذا؛ والعظيم الحليم القدير؛ ينظرهم ولا يُعجل عليهم، ويؤخرهم ويتقدّم
بالوعد إليهم، ثم أخذهم بعد إقامة الحجة عليهم والاعذار إليهم أخذ عزيز
مقتدر، فجعلهم عبرة ونكالاّ وسلفاً لمن أشبههم من الكافرين، ومثلاً لمن اتعظ من
عباده المؤمنين!

كما قال -تبارك وتعالى- وهو أصدق القائلين، في سورة حم والكتاب
المبين: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ
رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣٥﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿١٣٦﴾ وَمَا نُرِيهِمْ
مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٣٧﴾
وَقَالُوا يَتَأْتِيَ السَّاحِرُ أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عٰهَدَ عِنْدَكَ إِنَّا لَمُهْتَدُونَ ﴿١٣٨﴾ فَلَمَّا
كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ﴿١٣٩﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ

يَقْوِمَ الْيَسَرَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرَى مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥٦﴾
أَمْرًا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٧﴾ فَلَوْلَا أَلْقَى عَلَيْهِ أَسْوَرةٌ
مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَاطَاعُوهُ
أَنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٩﴾ فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ
أَجْمَعِينَ ﴿٦٠﴾ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ ﴿٦١﴾ [الرؤف: ٤٦-٥٦].

يذكر - تعالى - إرساله عبده الكليم الكريم، إلى فرعون الخسيس اللئيم، وأنه
- تعالى - آيد رسوله بآيات بينات واضحات تستحق أن يُقابل بالتعظيم والتصديق
وأن يرتدعوا عما هم فيه من الكفر ويرجعوا إلى الحق والصراط المستقيم؛ فإذا هم
منها يضحكون، وبها يستهزئون، وعن سبيل الله يصدّون، وعن الحق ينصرفون،
فأرسل الله عليهم الآيات ترى يتبع بعضها بعضاً، وكل آية أكبر من التي تتلوها؛
لأن التوكيد أبلغ مما قبله، ﴿ وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ .

﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَ السَّاحِرِ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴾
﴿ ٦٢ ﴾ : لم يكن لفظ الساحر في زمنهم نقصاً ولا عيباً؛ لأن علماءهم في ذلك
الوقت هم السحرة؛ ولهذا خاطبوه به في حين احتياجهم إليه، وضراعتهم لديه.
قال الله - تعالى - : ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ﴾ ﴿ ٦٣ ﴾ .

ثم أخبر - تعالى - عن تبجح فرعون بملكه، وعظمة بلده وحسنها، وتخرق
الأنهار فيها، وهي الخلجانات التي يكسرونها أيام زيادة النيل، ثم تبجح بنفسه
وحليته، وأخذ ينتقص رسول الله موسى - عليه السلام - ويزدريه بكونه ﴿ وَلَا
يَكَادُ يُبِينُ ﴾ ؛ يعني: كلامه بسبب ما كان في لسانه من بقية تلك اللثغة، التي هي
شرف له وكمال وجمال، ولم تكن مانعة له أن كلمه الله - تعالى - وأوحى إليه،
وأنزل بعد ذلك التوراة عليه. وثقفه فرعون - لعنه الله - بكونه لا أساور في يديه
ولا زينة عليه ! وإنما ذلك من حلية النساء، لا يليق بشهامة الرجال؛ فكيف
بالرسل الذين هم أكمل عقلاً وأتم معرفة وأعلى همة وأزهد في الدنيا، وأعلم بما
أعد الله لأوليائه في الآخرة؟!

وقوله: ﴿ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴾ ؛ لا يحتاج الأمر إلى ذلك:
فإن كان المراد أن تعظمه الملائكة؛ فالملائكة يعظمون ويتواضعون لمن هو دون

موسى - عليه السلام - بكثير؛ كما جاء في الحديث: «إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع»^(١)، فكيف يكون تواضعهم وتعظيمهم لموسى الكريم - عليه الصلاة والتسليم والتكريم - ؟ !

وإن كان المراد شهادتهم له بالرسالة؛ فقد أيد من المعجزات بما يدل قطعاً لذوي الأبواب، ولمن قصد إلى الحق والصواب، ويعمى عما جاء به من البينات والحجج الواضحات من نظر إلى القشور وترك لب اللباب، وطبع على قلبه رب الأرياب، وختم عليه بما فيه من الشك والارتياب؛ كما هو حال فرعون القبطي العمي الكذاب.

قال الله - تعالى - : ﴿ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ ﴾؛ أي: استخف عقولهم ودرجهم من حال إلى حال إلى أن صدقوه في دعواه الربوبية - لعنه الله وقبحهم - ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَسِيقِينَ ﴾ ﴿ فَلَمَّا آسَفُونَا ﴾؛ أي: أغضبونا ﴿ أَنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾؛ أي: بالغرق، والإهانة، وسلب العز، والتبذل بالذل، وبالعذاب بعد النعمة، والهوان بعد الرفاهية، والثار بعد طيب العيش؛ عياداً بالله العظيم وسلطانه القديم من ذلك؛ ﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا ﴾؛ أي: لمن اتبعهم في الصفات. ﴿ وَمَثَلًا ﴾؛ أي: لمن اتعظ بهم وخاف من وييل مصرعهم ممن بلغه جليئة خبرهم وما كان من أمرهم!

كما قال الله - تعالى - : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُقْتَرَى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴾ ﴿ وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ وَمَن تَكُونُ لَهُ عَنقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَتَأَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾

(١) صحيح - أخرجه الترمذي (٣٥٣٦ و ٣٥٣٥)، وأحمد (٣/ ٢٣٩ و ٢٤٠)، والطبائسي (١١٦٥)، وابن حبان (١٣١٩)، والحاكم (١/ ١٠٠)، وابن خزيمة (١٧) من حديث صفوان بن عسال بإسناد صحيح، صححه الحاكم والذهبي وشيخنا. وله شاهد من حديث أبي الدرداء بإسناد حسن. وبالجمل؛ فالحديث ثابت صحيح، والله أعلم.

فَأَوْقَدَ لِي يَهْمَنُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطْلُعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى
وَإِنِّي لَأُظَنُّهُ مِنَ الْكَذَّابِينَ ﴿٣٦﴾ وَأَسْتَكْبَرُ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ
الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُم إِلَيْنَا لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣٧﴾ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ
فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٣٨﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ
وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ وَاتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ هُمْ
مِنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٠﴾ [القصص: ٣٦-٤٢].

يخبر - تعالى - أنهم لما استكبروا عن اتباع الحق، وادّعى ملكهم الباطل،
ووافقوه عليه، وأطاعوه فيه؛ اشتد غضب الربّ القدير العزيز الذي لا يغالب ولا
يمانع عليهم، فانتقم منهم أشدّ الانتقام، وأغرقه هو وجنوده في صبيحة واحدة، فلم
يفلت منهم أحد، ولم يبق منهم ديار، بل كلّ قد غرق فدخل النار، واتبعوا في هذه
الدار لعنة بين العالمين، ويوم القيامة بشس الرفد المرفود، ويوم القيامة هم من
المقبوحين.

ذكر هلاك فرعون وجنوده

لما تمادى قبط مصر على كفرهم وعتوهم وعنادهم؛ متابعة لملكهم فرعون، ومخالفة لنبي الله ورسوله وكليمه موسى بن عمران -عليه السلام-؛ أقام الله على أهل مصر الحجج العظيمة القاهرة، وأراهم من خوارق العادات ما بهر الأبصار وحيّر العقول، وهم مع ذلك لا يرفعون ولا ينتهون، ولا ينزعون ولا يرجعون، ولم يؤمن منهم إلا القليل؛ قيل: ثلاثة، وهم امرأة فرعون - ولا علم لأهل الكتاب بخبرها -، ومؤمن آل فرعون الذي تقدمت حكاية موعظته ومشورته وحجته عليهم، والرجل الناصح الذي جاء يسعى من أقصا المدينة؛ فقال: ﴿ قَالَ يَمُوسَىٰ إِنَّكَ أَلَمَلًا يَأْتِمِرُونَ بِكَ لَيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّصِيحِينَ ﴾ [القصص: ٢٠]؛ قاله ابن عباس فيما رواه ابن أبي حاتم^(١) عنه.

ومراده غير السحرة؛ فإنهم كانوا من القبط. وقيل: بل آمن به طائفة من القبط من قوم فرعون، والسحرة كلهم، وجميع شعب بني إسرائيل. ويدل على هذا قوله -تعالى-: ﴿ فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴾ [يونس: ٨٣]؛ فالضمير في قوله: ﴿ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ ﴾: عائد على فرعون؛ لأن السياق يدل عليه، وقيل: على موسى لقربه، والأول أظهر؛ كما هو مقرر في «التفسير».

وإيمانهم كان خفياً؛ لمخافتهم من فرعون وفسطوته وجبروته وسلطته، ومن ملتهم أن ينموا عليهم إليه؛ فيفتنهم عن دينهم.

قال الله -تعالى- خبراً عن فرعون -وكفى بالله شهيداً-: ﴿ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ ﴾؛ أي: جبار عنيد مستغلٍ بغير الحق ﴿ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴾؛

(١) في «التفسير» (١٠/٣٢٦٦/١٨٤٣١).

أي: في جميع أموره وشؤونه وأحواله. ولكنه جرثومة^(١) قد حان انجافها^(٢)، وثمره خبيثة قد آن قطافها، ومهجة ملعونة قد حتم إتلافها.

وعند ذلك قال موسى: ﴿يَقُومُ إِنْ كُنْتُمْ ءَامِنْتُمْ بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُواْ إِنْ كُنْتُمْ مُّسْلِمِينَ﴾ ٨٤ ﴿فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ٨٥ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِّنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ [يونس: ٨٤-٨٦]؛ فأمرهم بالتوكل على الله والاستعانة به والالتجاء إليه، فأتمروا بذلك، فجعل الله لهم مما كانوا فيه فرجاً ومخرجاً.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٨٧].

أوحى الله -تعالى- إلى موسى وأخيه هارون -عليهما السلام- أن يتخذوا لقومهما بيوتاً متميزة فيما بينهم عن بيوت القبط؛ ليكونوا على أهبة الرحيل إذا أمروا به؛ ليعرف بعضهم بيوت بعض، وقوله: ﴿وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾؛ قيل: مساجد، وقيل: معناه كثرة الصلاة فيها؛ ومعناه على هذا: الاستعانة على ما هم فيه من الضُرِّ والشدة والضيقة بكثرة الصلاة؛ كما قال -تعالى-: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَاةِ﴾ [البقرة: ٤٥]، وكان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلى^(٣).

وقيل معناه: أنهم لم يكونوا حينئذ يقدرون على إظهار عبادتهم في مجتمعاتهم ومعابدهم؛ فأمرُوا أن يُصلُّوا في بيوتهم عوضاً عما فاتهم من إظهار شعائر الدين الحق في ذلك الزمان الذي اقتضى حالهم إخفاءه خوفاً من فرعون وملئه، والمعنى الأول أقوى؛ لقوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، وإن كان لا ينافي الثاني -أيضاً-، والله أعلم.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَٓئَهُ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوٓاْ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَيَّ أَمْوَالَهُمْ وَٱشْدُدْ عَلَيَّ

(١) أصل.

(٢) استتصلها.

(٣) حسن - أخرجه أبو داود (١٣١٩)، وأحمد (٣٨٨/٥) وغيرهما بإسناد حسن، وقد

حسنه شيخنا - رحمه الله -.

قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ [يونس: ٨٨-٨٩].

هذه دعوة عظيمة دعا بها كلیم الله موسى على عدو الله فرعون؛ غضبا لله عليه؛ لتكبره عن اتباع الحق، وصدده عن سبيل الله، ومعاندته وعتوه وتمرده، واستمراره على الباطل، ومكابرتة الحق الواضح الجلي الحسي والمعنوي والبرهان القطعي؛ فقال: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ﴾؛ يعني: قومه من القبط ومن كان على ملته ودان بدينه ﴿زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوهُ عَنِ سَبِيلِكَ﴾؛ أي: وهذا يغتر به من يعظم أمر الدنيا، فيحسب الجاهل أنهم على شيء، ولكن هذه الأموال وهذه الزينة من اللباس والمراكب الحسنة الهنية، والدور الأنيقة والقصور المبنية، والمآكل الشهية والمناظر البهية، والملك العزيز والتمكين، والجاه العريض؛ في الدنيا لا الدين. ﴿رَبَّنَا أَطْمِسْ عَلَيَّ أَمْوَالِهِمْ﴾؛ قال ابن عباس ومجاهد: أي: أهلكها^(١).

وقوله: ﴿وَأَشَدُّ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾؛ وهذه دعوة غضب الله -تعالى- ولدينه ولبراهينه، فاستجاب الله -تعالى- لها، وحققها وتقبلها؛ كما استجاب لنوح في قومه حيث قال: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِنْ تَذَرَهُمْ يُضِلُّوْا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاغِرًا كَفَّارًا﴾ ﴿٢٧﴾ [نوح: ٢٦-٢٧]؛ ولهذا قال -تعالى- مخاطبا لموسى حين دعا على فرعون وملته وأمن أخوه هارون على دعائه، فنزل ذلك منزلة الداعي أيضا؛ ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٨٩﴾.

قال المفسرون وغيرهم من أهل الكتاب^(٢): استأذن بنو إسرائيل فرعون في الخروج إلى عيد لهم، فأذن لهم وهو كاره، ولكنهم تجهزوا للخروج وتاهبوا له، وإنما كان في نفس الأمر مكيدة بفرعون وجنوده ليتخلصوا منهم ويخرجوا عنهم،

(١) انظر: «جامع البيان» (١١/١٠٩)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (٦/١٩٧٨).

(٢) (سفر الخروج: الإصحاح: ١١-١٣).

وأمرهم الله - تعالى - فيما ذكره أهل الكتاب - أن يستعبروا خلياً منهم، فأعاروهم شيئاً كثيراً، فخرجوا بليل، فساروا مستمرين ذاهبين من فورهم طالين بلاد الشام، فلما علم بذهابهم فرعون؛ حنق عليهم كل الحنق، واشتد غضبه عليهم، وشرع في استحاث جيشه وجمع جنوده ليلحقهم ويمحقهم!

قال الله - تعالى -: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكَ مُتَّبَعُونَ ﴿١٠٠﴾ فَأَرْسَلْنَا فِرْعَوْنَ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿١٠١﴾ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿١٠٢﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآظُونَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ خَادِرُونَ ﴿١٠٤﴾ فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٠٥﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿١٠٦﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْزَيْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٠٧﴾ فَأَتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ ﴿١٠٨﴾ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرِكُونَ ﴿١٠٩﴾ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿١١٠﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿١١١﴾ وَأَرْزَقْنَاهُم مِّنْ الْخَرِيرِ ﴿١١٢﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَنْ مَّعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١١٣﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿١١٤﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٥﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١١٦﴾ [الشعراء: ٥٢-٦٨].

قال علماء التفسير: لما ركب فرعون في جنوده طالباً بني إسرائيل يقفوا أثرهم؛ كان في جيش كثيف عرمرم^(١)، لحقهم بالجنود، فأدركهم عند شروق الشمس، وتراءى الجمعان، ولم يبق ثم ريب ولا لبس، وعان كل من الفريقين صاحبه وتحققه ورآه، ولم يبق إلا المقاتلة والمجادلة والمحاماة؛ فعندها قال أصحاب موسى وهم خائفون: ﴿ إِنَّا لَمُدْرِكُونَ ﴾! وذلك لأنهم اضطروا في طريقهم إلى البحر، فليس لهم طريق ولا محيد إلا سلوكه وخوضه، وهذا ما لا يستطيعه أحد ولا يقدر عليه، والجبال عن يسرتهم وعن أيمنهم، وهي شاهقة منيفة، وفرعون قد غالقهم وواجههم وعاینوه في جنوده وجيوشه وعدده وعُدَدِهِ، وهم منه في غاية الخوف والدُّعْر؛ لما قاسوا في سلطانه من الإهانة والمكر، فشكوا إلى نبي الله ما هم فيه مما قد شاهدوه وعاینوه؛ فقال لهم الرسول الصادق المصدق: ﴿ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ

رَبِّي سَيَّهْدِينِ ﴿١﴾، وكان في الساقية^(١)، فتقدّم إلى المقدّمة، ونظر إلى البحر وهو يتلاطم بأمواجه ويتزايد زيد أجاجه، وهو يقول: هاهنا أمرت! ومعه أخوه هارون، ويوشع بن نون، وهو يومئذ من سادات بني إسرائيل وعلمائهم وعبّادهم الكبار، وقد أوحى الله إليه وجعله نبياً بعد موسى وهارون -عليهما السلام-؛ كما سنذكره فيما بعد -إن شاء الله-، ومعهم -أيضاً- مؤمن آل فرعون وهم وقوف، وبنو إسرائيل بكمالهم عليهم عكوف.

فلما تفاقم الأمر وضاق الحال واشتدّ الأمر، واقترب فرعون وجنوده في جدّهم وحدّهم وحديدهم، وغضبهم وحنقهم، وزاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر؛ عند ذلك أوحى الحليم العظيم، القدير ربّ العرش الكريم، إلى موسى الكليم: ﴿أَنْ أَضْرِبَ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ﴾! فلما ضربه؛ انفلق بإذن الله! قال الله -تعالى-: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَضْرِبَ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ۖ﴾ وهكذا كان ماء البحر قائماً مثل الجبال، مكفوفاً بالقدرّة العظيمة الصادرة من الذي يقول للشيء: كن! فيكون، وأمر الله ريح الدُّبور^(٢) فلفحت^(٣) حال البحر^(٤) فأذهبتَه حتّى صار يابساً لا يعلّق في سنايك^(٥) الخيول والدّواب؛ قال الله -تعالى-: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعَبَادِي فَأَضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفُ دَرَكًا وَلَا تُخْشَىٰ ۚ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ۚ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ﴾ [طه: ٧٧-٧٩].

والمقصود: أنّه لما آل أمر البحر إلى هذه الحال بإذن الربّ العظيم الشديد الحال؛ أمر موسى - عليه السلام - أن يجوزه ببني إسرائيل، فالتحدروا فيه مسرعين

(١) مؤخر الجيش.

(٢) ريح قوية مؤذية.

(٣) ضربت.

(٤) طين البحر الأسود.

(٥) حوافر.

مستبشرين مبادرين، وقد شاهدوا من الأمر العظيم ما يحير الناظرين ويهدي قلوب المؤمنين! فلما جازوه وجاوزوه، وخرج آخرهم منه وانفصلوا عنه، كان ذلك عند قدوم أول جيش فرعون إليه ووفودهم عليه، فأراد موسى - عليه السلام - أن يضرب البحر بعصاه ليرجع كما كان عليه؛ لئلا يكون لفرعون وجنوده وصول إليه ولا سبيل عليه، فأمره القدير ذو الجلال أن يترك البحر على هذه الحال؛ كما قال وهو الصادق في المقال: فقله - تعالى -: ﴿وَأَتْرَكِ الْبَحْرَ رَهْوًا﴾؛ أي: ساكنًا على هيئته، لا تغيره عن هذه الصفة.

فلما تركه على هيئته وحالته، وانتهى فرعون فرأى ما رأى وعاین ما عاین؛ فبادر مسرعاً، هذا وفرعون لا يملك من نفسه ضراً ولا نفعاً، فلما رآته الجنود قد سلك البحر؛ اقتحموا وراءه مسرعين، فحصلوا في البحر أجمعين أكتعين أبصعين^(١)، حتى هم أولهم بالخروج منه؛ فعند ذلك أمر الله - تعالى - كلمه فيما أوحاه إليه أن يضرب بعصاه البحر، فضربه فارتطم عليهم البحر كما كان، فلم ينج منهم إنسان.

قال - تعالى -: ﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ﴾ ٦٥ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ٦٦ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ٦٧ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ٦٨﴾ [الشعراء: ٦٥-٦٨]؛ أي: في إنجائه أوليائه فلم يفرق منهم أحد، وإغراقه أعداءه فلم يخلص منهم أحد؛ آية عظيمة وبرهان قاطع على قدرته - تعالى - العظيمة وصدق رسوله فيما جاء به عن ربه من الشريعة الكريمة والمناهج المستقيمة.

وقال - تعالى -: ﴿وَجَنَوزْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَذْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ ٦٩ ءَالْتَنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ٧٠ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ ٧١﴾ [يونس: ٩٠-٩٢].

يخبر - تعالى - عن كيفية غرق فرعون زعيم كفر القبط، وأنه لما جعلت الأمواج تحفضه تارة وترفعه أخرى، وبنو إسرائيل ينظرون إليه وإلى جنوده؛ ماذا أحل الله به وبهم من البأس العظيم والخطب الجسيم؟! ليكون أقرّ لأعين بني إسرائيل وأشفى لنفوسهم.

فلما عاين فرعون الهلكة وأحيط به وبأشر سكرات الموت؛ أناب حينئذ وتاب، وآمن حين لا ينفع نفساً إيمانها؛ كما قال - تعالى -: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [يونس: ٩٦-٩٧].

وقال - تعالى -: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴾ [يونس: ٩٨]. فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴾ [غافر: ٨٤-٨٥].

وهكذا دعا موسى على فرعون وملئه أن يطمس على أموالم ويشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم؛ أي: حين لا ينفعهم ذلك ويكون حسرة عليهم، وقد قال - تعالى - لهما؛ - أي: لموسى وهارون - حين دعوا بهذا: ﴿ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا ﴾ [يونس: ٨٩]؛ فهذا من إجابة الله - تعالى - دعوة كلمه وأخيه هارون - عليهما السلام -.

عن ابن عباس؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «قال لي جبريل: لو رأيته وأنا آخذ من حال البحر؛ فأدسه في فم فرعون؛ مخافة أن تناله الرحمة»^(١).

وقوله - تعالى -: ﴿ ءَالْتَنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [يونس: ٩١] استفهام إنكار، ونصّ على عدم قبوله - تعالى - منه ذلك؛ لأنه - والله أعلم - لو رُدَّ إلى الدنيا كما كان؛ لعاد إلى ما كان عليه؛ كما أخبر - تعالى - عن الكفار إذا عاينوا النار وشاهدوها أنهم يقولون: ﴿ يَلَيْتَنَّا نُرَدُّ وَلَا نَكْذِبَ

(١) صحيح - أخرجه الطيالسي (٢٦١٨)، والترمذي (٣١٠٨)، والطبري (١١٢/١١)،
واحد (١/٢٤٠ و ٣٤٠)، والحاكم (١/٥٧ و ٢/٣٤٠ و ٤/٢٤٩)، وابن أبي حاتم (١٩٨٢/٦) وغيرهم بسند صحيح. وصححه شيخنا - رحمه الله - في «الصحيحة» (٢٠١٥).

بِأَيَّتِ رَبَّنَا وَتَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿[الأنعام: ٢٧]﴾ قال الله: ﴿بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنعام: ٢٨] وقوله: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً﴾ [يونس: ٩٢].

قال ابن عباس وغير واحد^(١): شك بعض بني إسرائيل في موت فرعون، حتى قال بعضهم: إنه لا يموت، فأمر الله البحر فرفعه على مرتفع؛ قيل: على وجه الماء، وقيل: على نجوة^(٢) من الأرض، وعليه درعه التي يعرفونها من ملابسه؛ ليتحققوا بذلك هلاكه، ويعلموا قدرة الله عليه؛ ولهذا قال: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾؛ أي: مصاحباً درعك المعروفة بك ﴿لِتَكُونَ﴾؛ أي: أنت آية ﴿لِمَنْ خَلَقَكَ﴾؛ أي: من بني إسرائيل، ودليلاً على قدرة الله الذي أهلكك؛ ولهذا قرأ بعض السلف: ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً﴾^(٣). ويحتمل أن يكون المراد: ننجيك بمجسّدك مصاحباً درعك؛ لتكون علامة لمن وراءك من بني إسرائيل على معرفتك وأنت هلكت، والله أعلم.

وقد كان هلاكه وجنوده في يوم عاشوراء.

عن ابن عباس؛ قال: قدم النبي ﷺ المدينة واليهود تصوم يوم عاشوراء؛ فقال: «ما هذا اليوم الذي تصومونه؟» فقالوا: هذا يوم ظهر فيه موسى على فرعون، قال النبي ﷺ لأصحابه: «أنتم أحق بموسى منهم؛ فصوموا»^(٤).

(١) انظر «جامع البيان» (١١/١١٤)، و«تفسير القرآن العظيم» للمصنف (٤/٣٧٤).

(٢) مرتفع.

(٣) انظر «الجامع لأحكام القرآن» (٨/٣٨١).

(٤) أخرجه البخاري (٢٠٠٤ و٣٣٧٩ و٤٧٣٧)، ومسلم (١١٣٠)، والنسائي في

«الكبرى» (٢٨٣٤ و٢٨٣٥)، وابن ماجه (١٧٣٤) وغيرهم.

فصل فيما كان من أمر بني إسرائيل بعد هلاك فرعون

قال الله - تعالى -: ﴿ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ۝ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانَتْ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ۝ وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَمُوسَىٰ اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ۝ إِنَّ هَؤُلَاءِ مَتَّبِعُوا مَا هُمْ فِيهِ وَيَطِلُوا مَا كَانُوا يَْعْمَلُونَ ۝ قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْإِلَاحِينَ ۝ وَإِذْ أَجْتَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِّنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ۝ ۱٤١-١٣٦]

يذكر - تعالى - ما كان من أمر فرعون وجنوده في غرقهم، وكيف سلبهم عزهم ومالهم وأنفسهم، وأورث بني إسرائيل جميع أموالهم وأملاكهم؛ كما قال: ﴿ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بِنِي إِسْرَءِيلَ ۝ ۱٣٦ ﴾ [الشعراء: ٥٩]، وقال: ﴿ وَتُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَيْمَةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ۝ ۱٣٧ ﴾ [القصص: ٥]، وقال هاهنا: ﴿ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانَتْ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ۝ ۱٣٨ ﴾ [الأعراف: ١٣٧]؛ أي: أهلك ذلك جميعه، وسلبهم عزهم العزيز العريض في الدنيا، وهلك الملك وحاشيته وأمرأؤه وجنوده، ولم يبق ببلد مصر سوى العامة والرعايا.

ذكر ابن عبد الحكم في « تاريخ مصر »^(۱): أنه من ذلك الزمان تسلط نساء مصر على رجالها؛ بسبب أن نساء الأمراء والكبراء تزوجن بمن دونهن من العامة، فكانت هن السطوة عليهم؛ واستمرت هذه سنة نساء مصر إلى يومنا هذا !

وقد قال الله - تعالى - في كتابه العزيز المهيمن على ماعده من الكتب: ﴿ وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَيَّ قَوْمٌ يَعْكُفُونَ عَلَيَّ أَصْنَامٌ لَهُمْ قَالُوا يَمُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَّبِعُونَ مَا هُم فِيهِ وَبِطُلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ ﴾ [الأعراف: ١٣٨-١٣٩].

قالوا هذا الجهل والضلال، وقد عاينوا من آيات الله وقدرته ما دلهم على صدق ما جاءهم به رسول ذي الجلال والإكرام! وذلك آلهم مروا على قوم يعبدون أصناماً، قيل: كانت على صور البقر، فكانهم سألوهم: لم يعبدونها؟ فزعموا لهم: آلهما تنفعهم وتضرهم ويسترزقون بها عند الضروريات! فكان بعض الجهال منهم صدقوهم في ذلك، فسألوا نبياهم الكريم العظيم أن يجعل لهم آلهة كما لأولئك آلهة؛ فقال لهم مبيناً لهم أنهم لا يعقلون ولا يهتدون: ﴿ إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَّبِعُونَ مَا هُم فِيهِ وَبِطُلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ﴿١٣٨﴾، ثم ذكرهم نعمة الله عليهم في تفضيله إياهم على عالمي زمانهم؛ بالعلم، والشرع، والرسول الذي بين أظهرهم، وما أحسن به إليهم، وما امتن به عليهم؛ من إنجائهم من قبضة فرعون الجبار العنيد، وإهلاكه إياه وهم ينظرون، وتوريثه إياهم ما كان فرعون وملؤه يجمعونه من الأموال والسعادة، وما كانوا يعرشون، وبين لهم أنه لا تصلح العبادة إلا لله وحده لا شريك له؛ لأنه الخالق الرازق القهار.

وليس كل بني إسرائيل سأل هذا السؤال، بل هذا الضمير عائد على الجنس في قوله: ﴿ وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَيَّ قَوْمٌ يَعْكُفُونَ عَلَيَّ أَصْنَامٌ لَهُمْ قَالُوا يَمُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ﴾؛ أي: قال بعضهم؛ كما في قوله: ﴿ وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾ ﴿١٣٩﴾ وَعَرَضُوا عَلَيَّ رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا ﴾ ﴿١٤٠﴾

[الكهف: ٤٧-٤٨]؛ فالذين زعموا هذا بعض الناس لا كلهم.
عن أبي واقد الليثي؛ قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ قِبَلَ حَنِين، فمررنا
بسدره، فقلنا: يا رسول الله ! اجعل لنا هذه ذات أنواط كما للكفار ذات أنواط!
وكان الكفار ينوطون سلاحهم بسدره يعكفون حولها؛ فقال النبي ﷺ: «الله أكبر!
هذا كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿ أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ﴾ إنكم
تركبون سنن الذين من قبلكم»^(١).

[نكول بني اسرائيل عن قتال الجبارين]

والمقصود: أن موسى -عليه السلام-؛ لما انفصل من بلاد مصر وواجه بلاد
بيت المقدس؛ وجد فيها قوماً من الجبارين، من الحثيين والفزاريين والكنعانيين
وغيرهم، فأمرهم موسى -عليه السلام- بالدخول عليهم ومقاتلتهم، وإجلالهم
إياهم عن بيت المقدس؛ فإن الله كتب لهم، ووعدهم إياه على لسان إبراهيم الخليل
وموسى الكليم الجليل، فأبوا ونكلوا عن الجهاد، فسلب الله عليهم الخوف،
وألغاهم في التيه يسرون ويحلون ويرتحلون ويذهبون ويحيثون، في مدة من السنين
طويلة هي من العدد أربعون؛ كما قال الله -تعالى-: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ
يَنْقُومِ آذِكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ
مَا لَمْ يُوْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴾ [١٢٠] يَنْقُومِ آذِكُرُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ
لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴾ [١٢١] قَالُوا يَمْوَسَىٰ إِنَّ فِيهَا
قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنَنُذِلُّهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا

(١) صحيح- أخرجه أحمد (٢١٨/٥)، وعبد الرزاق في «المصنف» (٢٠٧٦٣)، و
«التفسير» (٢٣٥/٢/١)، والنسائي في «التفسير» (٢٠٥)، والترمذي (٢١٨٠)، والطبري
(٣١/٩ و ٣٢-٣١)، والطيالسي (١٣٤٦)، والحميدي (٨٤٨) وغيرهم كثير بطرق عن الزهري
به.

دَخُلُوا ۖ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٦﴾ قَالُوا يَمُوسَى إِنَّا لَنَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَادْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٨﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٩﴾ [المائدة: ٢٠-٢٦].

يذكرهم نبي الله نعمة الله عليهم وإحسانه إليهم بالنعم الدينية والدنيوية، ويأمرهم بالجهاد في سبيل الله ومقاتلة أعدائه؛ فقال: ﴿يَقَوْمُ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ﴾؛ أي: تنكصوا على أعقابكم، وتنكلوا عن قتال أعدائكم ﴿فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾؛ أي: فتخسروا بعد الرِّبح، وتنقصوا بعد الكمال.

﴿قَالُوا يَمُوسَى إِنَّا فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾؛ أي: عتاة كفرية متمردين ﴿وَأَنَّا لَنَدْخُلُهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾؛ خافوا من هؤلاء الجبارين؛ وقد عاينوا هلاك فرعون؛ وهو أجبر من هؤلاء، وأشد بأساً، وأكثر جمعاً وأعظم جنداً! وهذا يدل على أنهم ملومون في هذه المقالة، ومذمومون على هذه الحالة؛ من الذلّة عن مصالوة الأعداء، ومقاومة المردة الأشقياء.

وقد ذكر كثير من المفسرين هاهنا آثاراً فيها مجازفات كثيرة باطلة، يدل العقل والنقل على خلافها؛ من أنهم كانوا أشكالا هائلة ضخاماً جداً حتى إنهم ذكروا أن رسل بني إسرائيل لما قدموا عليهم تلقاهم رجل من رسل الجبارين، فجعل يأخذهم واحداً واحداً، ويلفهم في أكمامه وحُجْزِهِ سراويله، وهم اثنا عشر رجلاً، فجاء بهم، فنثرهم بين يدي ملك الجبارين، فقال: ما هؤلاء؟ ولم يعرف أنهم من بني آدم حتى عرفوه! وكل هذه هذيانات وخرافات لا حقيقة لها.

وأن الملك بعث معهم عنباً، كل عنبة تكفي الرجل، وشيئاً من ثمارهم؛ ليعلموا ضخامة أشكالهم! وهذا ليس بصحيح.

وذكروا هاهنا أن عُوَجَ بن عنق خرج من عند الجبارين إلى بني إسرائيل

ليهلكهم، وكان طوله ثلاثة آلاف ذراع وثلاثمائة وثلاثة وثلاثين ذراعاً وثلاث ذراع! هكذا ذكره البغوي^(١) وغيره! وليس بصحيح؛ كما قدمنا بيانه عند قوله ﷺ: «إن الله خلق آدم طوله ستون ذراعاً، ثم لم يزل الخلق ينقص حتى الآن»^(٢).

قالوا: فعمد عوج إلى قمة جبل، فاقتلعها، ثم أخذها بيديه ليلقيها على جيش موسى، فجاء طائر، فنقر تلك الصخرة، فخرقها فصارت طوقاً في عنق عوج بن عنق، ثم عمد موسى إليه، فوثب في الهواء عشرة أذرع وطوله عشر أذرع، ويده عصاه وطولها عشرة أذرع، فوصل إلى كعب قدمه، فقتله.

يروى هذا عن نوف البكالي، ونقله ابن جرير^(٣) عن ابن عباس، وفي إسناده إليه نظر، ثم هو مع هذا كله من الإسرائيليات، وكل هذه من وضع جهال بني إسرائيل؛ فإن الأخبار الكاذبة قد كثرت عندهم، ولا تميز لهم بين صحتها وباطلها.

ثم لو كان هذا صحيحاً؛ لكان بنو إسرائيل معذورين في النكول عن قتالهم، وقد ذمهم الله على نكولهم، وعاقبهم بالثي على ترك جهادهم ومخالفتهم رسولهم! وقد أشار عليهم رجلان صالحان منهم بالإقدام، ونهياهم عن الإحجام، ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ﴾؛ أي: يخافون الله، وقرأ بعضهم: ﴿يُخَافُونَ﴾؛ أي: يهابون؛ ﴿أَنعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾؛ أي: بالإسلام والإيمان والطاعة والشجاعة: ﴿ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: إذا توكلتم على الله واستعنتم به ولجأتم إليه؛ نصركم على عدوكم وأيدكم عليهم وأظفركم بهم.

﴿قَالُوا يَنْمُوسَى إِنَّآ لَن نَّدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾^(٤)؛ فصمّم ملؤهم على النكول عن الجهاد، ووقع أمر عظيم ووهن كبير.

(١) كما في «معالم التنزيل» (٢/٢٥٣).

(٢) تقدم تخريجه (ص ٦٨).

(٣) في «جامع البيان» (٤/٥١٥)، و«تاريخ الأمم والملوك» (١/٤٣١).

عن طارق - هو ابن شهاب - : أن المقداد قال لرسول الله ﷺ يوم بدر: يا رسول الله! إنا لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون.

وله طرق أخرى: عن طارق بن شهاب؛ قال: قال عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه -، لقد شهدت من المقداد مشهدا؛ لأن أكون أنا صاحبه أحب إلي مما عدل به، أتى رسول الله ﷺ وهو يدعو على المشركين، فقال: والله يا رسول الله! لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾، ولكننا نقاتل عن يمينك وعن يسارك ومن بين يديك ومن خلفك، فرأيت وجه رسول الله ﷺ يشرق لذلك وسر بذلك^(١).

عن أنس: أن رسول الله ﷺ لما سار إلى بدر؛ استشار المسلمين، فأشار عليه عمر، ثم استشارهم، فقالت الأنصار: يا معشر الأنصار! إياكم يريد رسول الله ﷺ، قالوا: إذا؛ لا نقول له كما قال بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾، والذي بعثك بالحق؛ لو ضربت أكبادها إلى برك الغماد؛ لا تبعناك^(٢).

(١) أخرجه أحمد (١/٣٨٩ و٤٢٨ و٤٥٠)، والبخاري (٣٩٥٢ و٤٦٠٩).

(٢) صحيح - أخرجه ابن مردويه في «تفسيره»؛ كما في «تفسير القرآن العظيم» للمصنف (٢/٤٠)، وأحمد (٣/١٠٥ و١٨٨)، والنسائي في «التفسير» (١٦١)، وأبو يعلى في «المسند» (٣٧٦٦ و٣٨٠٣)، وابن حبان في «صحيحه» (٤٧٢١ - إحصان).

قلت: وسنده صحيح.

فصل في دخول بني إسرائيل النيه وما جرى لهم فيه من الأمور العجيبة

قد ذكرنا نكول بني إسرائيل عن قتال الجبارين، وأن الله - تعالى - عاقبهم بالنيه، وحكم بأنهم لا يخرجون منه إلى أربعين سنة.

ولم أر في كتاب أهل الكتاب قصة نكولهم عن قتال الجبارين.

وقد قال الله - تعالى -: ﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ قَدْ أَجْتَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلَوى ﴿٨٠﴾ كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى ﴿٨١﴾ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى ﴿٨٢﴾﴾ [طه: ٨٠-٨٢].

يذكر - تعالى - مثته وإحسانه إلى بني إسرائيل؛ بما أنجاهم من أعدائهم، وخلصهم من الضيق والخرج، وآته وعدهم صحبة نبيهم إلى جانب الطور الأيمن؛ أي: منهم؛ لئيزل عليه أحكاماً عظمية فيها مصلحة لهم في دنياهم وأخراهم، وأنه - تعالى - أنزل عليهم في حال شدتهم وضرورتهم في سفرهم في الأرض التي ليس فيها زرع ولا ضرع مثلاً من السماء؛ يصبحون فيجدونه خلال بيوتهم، فيأخذون منه قدر حاجتهم في ذلك اليوم إلى مثله من الغد، ومن أذخر منه لأكثر من ذلك؛ فسد، ومن أخذ منه قليلاً؛ كفاء، أو كثيراً؛ لم يفضل عنه، فيصنعون منه مثل الخبز، وهو في غاية البياض والحلاوة؛ فإذا كان من آخر النهار؛ غشيهم طير السلوى، فيقتنصون منها بلا كلفة ما يحتاجون إليه حسب كفايتهم لعشائهم، وإذا كان فصل الصيف ظلل الله عليهم الغمام، وهو السحاب الذي يستر عنهم حر الشمس وضوءها الباهر.

كما قال - تعالى - في سورة البقرة: ﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِنِّي فَأَرْهَبُكُمْ ﴿١٠١﴾ وَءَامِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا

قَلِيلًا وَإِنِّي فَاتَّقُونَ ﴿١٤﴾ إِلَى أَنْ قَالُوا: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكَ مِنَ آلِ فِرْعَوْنَ
يَسُومُونَكَ سُوءَ الْعَذَابِ يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ
بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ
فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴿١٦﴾ وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ
مِن بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِّن بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ
تَشْكُرُونَ ﴿١٨﴾ وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٩﴾ وَإِذْ
قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا
إِلَىٰ بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ
هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٢٠﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً
فَأَخَذْتَكُمُ الصَّلِيقَةَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاكَ مِّن بَعْدِ مَوْتِكَ لَعَلَّكُمْ
تَشْكُرُونَ ﴿٢٢﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّٰ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا
مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ أَنْ
قَالَ: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ
مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ
اللَّهِ وَلَا تَعْتَوُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ
وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُثْبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا
وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصِلَهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ
خَيْرٌ أَهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ
وَبَاءَ وَبِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ
النَّبِيَّ بَعْدَ الْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [البقرة: ٤٠-٦١].

فذكر - تعالى - إنعامه عليهم وإحسانه إليهم بما يسر لهم من المن والسلوى؛
طعامين شهيين بلا كلفة ولا سعي لهم فيه، بل يُنزل الله المنُّ باكراً، ويرسل عليهم
طير السلوى عشيّاً، وأنبع الماء لهم بضرب موسى - عليه السلام - حجراً كانوا
يحملونه معهم بالعصا، فتفجر منه اثنتا عشرة عينا، لكل سبط عين منه؛ تنبجس،
ثم تفجر ماء زلالاً، فيستقون؛ فيشربون ويسقون دوابهم، ويدخرون كفايتهم،
وظلل عليهم الغمام من الحر.

وهذه نعم من الله عظيمة، وعطيات جسيمة؛ فما رعوها حق رعايتها، ولا قاموا بشكرها وحق عبادتها، ثم ضجر كثير منهم منها وتبرموا بها وسألوا أن يستبدلوا منها ببدلها، مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها! فقرعهم الكليم ووجههم وأبهم على هذه المقالة وعنفهم قائلاً: ﴿قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ أَهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَّا سَأَلْتُمْ﴾ [البقرة: ٦١]؛ أي: هذا الذي تطلبونه وتريدونه بدل هذه النعم التي أنتم فيها حاصل لأهل الأمصار الصغار والكبار موجود بها، وإذا هبطتم إليها؛ أي: ونزلتم عن هذه المرتبة التي لا تصلحون لمنصبها؛ تجدون بها ما تشتهون وما ترومون مما ذكرتم من المأكَل الدنيئة والأغذية الرديئة، ولكني لست أجيبكم إلى سؤال ذلك هاهنا ولا أبلغكم ما تعثم به من المنى.

وكل هذه الصفات المذكورة عنهم الصادرة منهم تدل على أنهم لم يتيهوا عما نهوا عنه؛ كما قال -تعالى-: ﴿وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ﴾ ﴿٨١﴾ [طه: ٨١]؛ أي: فقد هلك، وحق له والله الهلاك والدمار؛ وقد حل عليه غضب الملك الجبار.

ولكنه -تعالى- مزج هذا الوعيد الشديد، بالرجاء لمن أناب وتاب ولم يستمر على متابعة الشيطان المريد؛ فقال: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ ﴿٨٢﴾ [طه: ٨٢].

سؤال الرؤية

قال - تعالى -: ﴿ وَوَعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ قَتْمٍ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلِفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (١) وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرِنِي وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرِنِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَنَكَ ثَبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٢) قَالَ يَمْوَسَّى إِنِّي أَصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلِمِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ (٣) وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَنْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخَذَهَا بِقُوَّةٍ وَأَمَرَ قَوْمَهُ بِأَخْذِهَا بِأَحْسَنِهَا سَأُورِيكُمْ دَارَ الْفَلْسَفِينَ ﴾ (٤) سَأَصْرِفُ عَنْ آيَتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾ (٥) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (٦) [الأعراف: ١٤٢-١٤٧].

قال جماعة من السلف منهم ابن عباس ومسروق ومجاهد: الثلاثون ليلة هي شهر ذي القعدة بكماله، وأتمت أربعين ليلة بعشر من ذي الحجة^(١).

فعلى هذا يكون كلام الله له يوم عيد النحر، وفي مثله أكمل الله - عز وجل - لمحمد ﷺ دينه، وأقام حجته وبراهينه.

والمقصود: أن موسى - عليه السلام - لما استكمل الميقات، وكان فيه صائماً، يقال: إنه لم يستطعم الطعام، فلما كمل الشهر؛ أخذ لحاء شجرة، فمضغه ليطيب ريح فمه، فأمره الله أن يمسك عشرة أخرى، فصارت أربعين ليلة؛ ولهذا ثبت في

(١) انظر: «جامع البيان» (٩/ ٣٢-٣٣).

الحديث: « أن خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك »^(١).
فلما عزم على الذهاب استخلف على شعب بني إسرائيل أخاه هارون
المحبب المبجل الجليل، وهو ابن أمه وأبيه، ووزيره في الدعوة إلى مصطفىه، فوصاه
وأمره، وليس في هذا لعلو منزلته في نبوته منافاة.

قال الله - تعالى -: ﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا ۖ أَي: في الوقت الذي
أمر بالحمى فيه ﴾ وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ ۖ أَي: كلمه الله من وراء حجاب؛ إلا أنه أسمع
الخطاب، فناداه وناجاه وقربه وأدناه، وهذا مقام رفيع ومعقل منيع، ومنصب
شريف ومنزل منيف؛ فصلوات الله عليه ترى، وسلامه عليه في الدنيا والآخرة.

ولما أعطي هذه المنزلة العلية والمرتبة السنية، وسمع الخطاب؛ سأل رفع
الحجاب، فقال للعظيم الذي لا تدركه الأبصار القوي البرهان: ﴿ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ
إِلَيْكَ ﴾ ثم بين - تعالى - أنه لا يستطيع أن يثبت عند تجليه - تبارك وتعالى -؛ لأن
الجبل الذي هو أقوى وأكبر ذاتاً وأشدُّ ثباتاً من الإنسان، لا يثبت عند التجلي من
الرحمن؛ ولهذا قال: ﴿ وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنْ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ
تَرَنِينِي ﴾. وفي الكتب المتقدمة: أن الله - تعالى - قال له: يا موسى! إنه لا يراني
حي إلا مات، ولا يابس إلا تدهده.

عن أبي موسى، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «حجابه النور - وفي رواية:
النار -، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»^(٢).

ولهذا قال - تعالى -: ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى
صَعْقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَنَكَ ثَبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾: قال
مجاهد: ﴿ وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنْ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَنِينِي ﴾؛ فإنه
أكبر منك وأشدُّ خلقاً، ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ ﴾؛ فنظر إلى الجبل لا يتمالك،
وأقبل الجبل فذك على أوله، ورأى موسى ما يصنع الجبل؛ فخر صعقاً.

(١) أخرجه البخاري (١٨٩٤)، ومسلم (١١٥١) من حديث أبي هريرة - رضي الله

عنه - به.

(٢) أخرجه مسلم في «صحيحه» (١٧٩).

عن أنس: أن رسول الله ﷺ قرأ: ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا ﴾؛ قال هكذا بأصبعه، ووضع النبي ﷺ الإبهام على المفصل الأعلى من الخنصر، فساخ الجبل^(١).

﴿ فَلَمَّا أَفَاقَ ﴾؛ ﴿ قَالَ سُبْحَنَكَ ﴾: تنزيه وتعظيم وإجلال أن يراه بعظمته أحد ﴿ تَبَّتْ إِلَيْكَ ﴾؛ أي: فلست أسأل بعد هذا الرؤية ﴿ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾: أنه لا يراك أحد حي إلا مات، ولا يابس إلا تدهده.

وقد ثبت في «الصحيحين»^(٢)، عن أبي سعيد الخدري؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تخيروني من بين الأنبياء؛ فإن الناس يُصعقون يوم القيامة، فأكون أول من يفيق؛ فإذا أنا بموسى أخذ بقائمة من قوائم العرش، فلا أدري أفاق قبلي أم جوزي بصعقة الطور؟» لفظ البخاري، وفي أوله قصة اليهودي الذي لطم وجهه الأنصاري حين قال: لا، والذي اصطفى موسى على البشر؛ فقال رسول الله ﷺ: «لا تخيروني من بين الأنبياء».

وفي «الصحيحين»^(٣) عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ بنحوه، وفيه: «لا تخيروني على موسى...» وذكر تمامه.

وهذا من باب: الهضم والتواضع، أو التَّهْيِي عن التفضيل بين الأنبياء على وجه الغضب والعصبية، أو: ليس هذا إليكم، بل الله هو الذي رفع بعضهم فوق بعض درجات، وليس ينال هذا بمجرد الرأي، بل بالتوقيف.

ومن قال: إن هذا قاله قبل أن يعلم أنه أفضل، ثم نسخ باطلاعه على أفضليته عليهم كلهم؛ ففي قوله نظر؛ لأن هذا من رواية أبي سعيد وأبي هريرة،

(١) صحيح- أخرجه أحمد (٣/١٢٥ و٢٠٩)، والترمذي (٣٠٧٤)، والطبري في «جامع

البيان» (٣٧/٩)، والحاكم (٢/٣٢٠ و٥٧٧).

قال الحاكم: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي.
قلت: وهو كما قال.

وقال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح غريب».

(٢) أخرجه البخاري (٢٤١٢)، ومسلم (٢٣٧٤).

(٣) أخرجه البخاري (٢٤١١)، ومسلم (٢٣٧٣).

وما هاجر أبو هريرة إلا عام حنين متأخراً، فيبعد أنه لم يعلم بهذا إلا بعد هذا، والله أعلم.

ولا شك أنه - صلوات الله وسلامه عليه - أفضل البشر؛ بل الخليفة. قال الله - تعالى -: ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران: ١١٠] وما كملوا إلا بشرف نبيهم.

وثبت بالتواتر عنه - صلوات الله وسلامه عليه -، أنه قال: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر»^(١)، ثم ذكر اختصاصه بالمقام المحمود، الذي يغطه به الأولون والآخرون، الذي تحيد عنه الأنبياء والمرسلون، حتى أولوا العزم الأكملون: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم.

وقوله ﷺ: «فأكون أول من يفيق، فأجد موسى باطشاً بقائمة العرش - أي: أخذاً بها - فلا أدري أفاق قبلي أم جوزي بصعقة الطور؟» دليل على أن هذا الصعق الذي يحصل للخلائق في عرصات القيامة حين يتجلى الرب لفصل القضاء بين عباده؛ فيصعقون من شدة الهيبة والعظمة والجلال، فيكون أولهم إفاقة محمد خاتم الأنبياء ومصطفى رب الأرض والسماء على سائر الأنبياء، فيجد موسى باطشاً بقائمة العرش.

قال الصادق المصدوق: «فلا أدري أصعق فأفاق قبلي؟ أي: وكانت صعقته خفيفة؛ لأنه قد ناله بهذا السبب في الدنيا صعق، «أو جوزي بصعقة الطور»؛ يعني فلم يصعق بالكلية.

وهذا فيه شرف كبير لموسى - عليه السلام - من هذه الحيثية، ولا يلزم تفضيله بها مطلقاً من كل وجه؛ ولهذا نبه رسول الله ﷺ على شرفه وفضيلته بهذه الصفة؛ لأن المسلم لما ضرب وجه اليهودي حين قال: لا، والذي اصطفى موسى على البشر، قد يحصل في نفوس المشاهدين لذلك هضم بجانب موسى - عليه الصلاة والسلام -، فين النبي ﷺ فضيلته وشرفه.

وقوله - تعالى -: ﴿ قَالَ يَمْوَسَّىٰ إِنِّي أَصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي

وقوله -تعالى-: ﴿ فَخُذْ مَا آتَيْتَكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾؛ أي: فخذ ما أعطيتك من الرسالة والكلام، ولا تسأل زيادة عليه، وكن من الشاكرين على ذلك.

﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ ﴾؛ أي: عن فهمها وتدبرها وتعقل معناها الذي أريد منها ودل عليه مقتضاها ﴿ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كَلًّا آيَةً لَا يُؤْمِنُوا بِهَا ﴾؛ أي: ولو شاهدوا مهما شاهدوا من الخوارق والمعجزات؛ لا ينقادون لاتباعها ﴿ وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ آلِ رُشْدٍ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ﴾؛ أي: لا يسلكوه ولا يتبعوه ﴿ وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ آلِ غَيٍّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾؛ أي: صرفناهم عن ذلك لتكذيبهم بآياتنا وتغافلهم عنها، وإعراضهم عن التصديق بها والتفكير في معناها وترك العمل بمقتضاها ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾.

(۲) تقدم تخريجه (ص ۱۵۵).

قصة عبادتهم العجل في غيبة كلير الله موسى - عليه السلام - عنهم

قال الله - تعالى -: ﴿ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ خُلَيْهِمْ عَجَلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴾ (١٥٤) وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (١٥٥) وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَنَ أَسَفًا قَالَ بِسْمَا خَلَقْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّوْنِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ (١٥٦) قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ (١٥٧) إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتِرِينَ ﴾ (١٥٨) وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (١٥٩) وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَحَ وَفِي نُسخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾ (١٦٠) [الأعراف: ١٤٨-١٥٤].

وقال - تعالى -: ﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ ﴾ (١٦١) قَالَ هُمْ أَوْلَاءُ عَلَىٰ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴾ (١٦٢) قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴾ (١٦٣) فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَنَ أَسَفًا قَالَ يَنْقُومِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي ﴾ (١٦٤) قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا وَلَكِنَّا حُمِلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ﴾ (١٦٥) فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴾ (١٦٦) أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴾ (١٦٧) وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَنْقُومِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴾ (١٦٨) قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ

يَرْجِعْ إِلَيْنَا مُوسَى ﴿١٧﴾ قَالَ يَنْهَرُونَ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴿١٨﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿١٩﴾ قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٢٠﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَسْمِرُ ﴿٢١﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿٢٢﴾ قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّنْ تُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلْهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴿٢٣﴾ إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿٢٤﴾ ﴿طه: ٨٣-٩٨﴾.

يذكر - تعالى - ما كان من أمر بني إسرائيل حين ذهب موسى - عليه السلام - إلى ميقات ربه فمكث على الطور يناجيه ربه ويسأله موسى - عليه السلام - عن أشياء كثيرة وهو - تعالى - يجيبه عنها، فعمد رجل منهم يقال له: هارون السامري؛ فأخذ ما كانوا استعاروه من الحلي، فصاغ منه عجلاً، وألقى فيه قبضة من التراب كان أخذها من أثر فرس جبريل حين رآه يوم أغرق الله فرعون على يديه، فلما ألقاها في فيه؛ خار كما يخور العجل الحقيقي، كانت الريح إذا دخلت من دبره؛ خرجت من فمه، فيخور كما تخور البقرة، فيرقصون حوله ويفرحون! ﴿فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ﴾ [طه: ٨٨]؛ أي: فنسى موسى ربه عندنا! وذهب يتطلبه وهو هاهنا!! تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً، وتقدس أسماءه وصفاته، وتضاعفت آلاؤه وهباته. قال الله - تعالى - مبيناً بطلان ما ذهبوا إليه وما عولوا عليه من إلهية هذا الذي قصاره أن يكون حيواناً بهيماً أو شيطاناً رجيماً: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ إِلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ [طه: ٨٩]، وقال: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٨]؛ فذكر أن هذا الحيوان؛ لا يتكلم، ولا يرد جواباً، ولا يملك ضراً ولا نفعاً، ولا يهدي إلى رشد؛ اتخذوه وهم ظالمون لأنفسهم، عالمون في أنفسهم بطلان ما هم عليه من الجهل والضلال.

﴿وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾ [الأعراف: ١٤٩]؛ أي: ندموا على ما صنعوا ﴿وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ

الْخَسِرِينَ ﴿ [الأعراف: ١٤٩].

ولما رجع موسى -عليه السلام- إليهم، ورأى ما هم عليهم من عبادة العجل، ومعه الألواح المتضمنة التوراة؛ ألقاها، فيقال: إنه كسرها- وهكذا هو عند أهل الكتاب^(١) - وإن الله أبدله غيرها ! وليس في اللفظ القرآني ما يدل على ذلك. إلا أنه ألقاها حين عاين ما عاين. وعند أهل الكتاب: أنهما كانا لوحين! وظاهر القرآن أنها ألواح متعددة، ولم يتأثر بمجرد الخبر من الله -تعالى- عن عبادة العجل، فأمره بمعاينة ذلك، ولهذا جاء في الحديث عن ابن عباس؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس الخبر كالمعاينة»^(٢).

ثم أقبل عليهم فعنفهم ووجعهم وهجنهم في صنيعهم هذا القبيح، فاعتذروا إليه بما ليس بصحيح؛ قالوا: إنا ﴿ حُمِلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ﴾ [طه: ٨٧]: تخرجوا من تملك حلي آل فرعون -وهم أهل حرب وقد أمرهم الله بأخذه وأباحه لهم- ولم يتخرجوا بجهلهم وقلة علمهم وعقلهم من عبادة العجل الجسد الذي له خوار، مع الواحد الأحد الفرد الصمد القهار !

ثم أقبل على أخيه هارون -عليهما السلام- قائلاً له: ﴿ يَهْتَرُونَ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ۖ أَلا تَتَّبِعُنِ ﴾ [طه: ٩٢-٩٤]؛ أي: هلا لما رأيت ما صنعوا اتبعني فأعلمتني بما فعلوا! فقال: ﴿ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴾ [طه: ٩٤]؛ أي: تركتهم وجتني وأنت قد استخلفتني فيهم. ﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِإِخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ [الأعراف: ١٥١].

وقد كان هارون -عليه السلام- نهاهم عن هذا الصنيع الفظيع أشد النهي،

(١) (سفر الخروج: الإصحاح ٣٢).

(٢) صحيح- أخرجه أحمد (٢٧١/١)، وابن حبان في « صحيحه » (٦٢١٣ و٦٢١٤)، والبخاري في « مسنده » (٢٠٠-كشف)، وأبو الشيخ في « الأمثال » (٥)، وابن عدي في « الكامل » (٢٥٩٦/٧)، والحاكم (٣٨٠ و٣٢١/٢) وغيرهم بسند صحيح.

وزجرهم عنه أتم الزجر؛ قال الله -تعالى-: ﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَتَقَوَّمُوا أِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ ﴾ [طه: ٩٠] ؛ أي: إنما قدر الله أمر هذا العجل وجعله يخور فتنة واختباراً لكم ﴿ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ ﴾ [طه: ٩٠] ؛ أي: لا هذا ﴿ فَاتَّبِعُونِي ﴾ [طه: ٩٠] ؛ أي فيما أقول لكم ﴿ وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴾ ﴿ ١٠٠ ﴾ قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى ﴾ [طه: ٩٠-٩١]: يشهد الله هارون -عليه السلام، ﴿ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾ - أنه نهاهم وزجرهم عن ذلك فلم يطيعوه ولم يتبعوه.

ثم أقبل موسى على السامري: ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَسْمِيرُ ﴾ ﴿ ١٠١ ﴾ [طه: ٩٥] ؛ أي: ما حملك على ما صنعت؟ ﴿ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ ﴾ [طه: ٩٦] أي: رأيت جبريل وهو راكب فرساً ﴿ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ ﴾ [طه: ٩٦] ؛ أي: من أثر فرس جبريل. وقد ذكر بعضهم أنه رآه، وكلمها وطئت بحوافرها على موضع؛ أخضر وأعشب، فأخذ من أثر حافرها، فلما ألقاه في هذا العجل المصنوع من الذهب؛ كان من أمره ما كان؛ ولهذا قال: ﴿ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴾ ﴿ ١٠٢ ﴾ قَالَ فَادْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ ﴾ [طه: ٩٦-٩٧] وهذا دعاء عليه بالآيس أحداً؛ معاقبة له على مسه ما لم يكن له مسه، هذا معاقبة له في الدنيا، ثم توعدته في الآخرة فقال: ﴿ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ - وقرئ: لن تخلفه ^(١) - وَأَنْظُرْ إِلَى إِلْهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُْحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴾ [طه: ٩٧]: قال: فعمد موسى -عليه السلام- إلى هذا العجل، فحرقه؛ قيل: بالنار؛ كما قاله قتادة وغيره، وقيل: بالمبارد؛ كما قاله علي وابن عباس وغيرهما، وهو نص أهل الكتاب ^(٢). ثم ذراه في البحر، ثم قال -تعالى- إخباراً عن موسى أنه قال لهم: ﴿ إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلُّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ ﴿ ١٠٣ ﴾ [طه: ٩٨].

وقال -تعالى-: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴾ ﴿ ١٠٤ ﴾ [الأعراف: ١٥٢]:

(١) وهي قراءة ابن كثير وأبي عمرو.

(٢) (سفر الخروج: الإصحاح ٣٢).

وهكذا وقع، وقد قال بعض السلف: ﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴾: مسجلة لكل صاحب بدعة إلى يوم القيامة.

ثم أخبر - تعالى - عن حلمه ورحمته بخلقه وإحسانه على عبده في قبوله توبة من تاب إليه بتوبته عليه، فقال: ﴿ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَءَامَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ۝٥٣ ﴾ [الأعراف: ٥٣]: لكن لم يقبل الله توبة عابدي العجل إلا بالقتل؛ كما قال - تعالى -: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يُقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ۝٥٤ ﴾ [البقرة: ٥٤].

ثم قال - تعالى -: ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَابَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ۝٥٥ ﴾ [الأعراف: ٥٤] استدل بعضهم بقوله: ﴿ وَفِي نُسْخَتِهَا ﴾: على أنها تكسرت، وفي هذا الاستدلال نظر، وليس في اللفظ ما يدل على أنها تكسرت، والله أعلم.

وقد ذكر ابن عباس في حديث الفتن - كما سيأتي -: أن عبادتهم العجل كانت على أثر خروجهم من البحر، وما هو ببعيد؛ لأنهم حين خرجوا: ﴿ قَالُوا يَمُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ۝١٣٨ ﴾ [الأعراف: ١٣٨] وهكذا عند أهل الكتاب؛ فإن عبادتهم العجل كانت قبل مجيئهم بلاد بيت المقدس.

﴿ وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنِّي أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ۝٥٦ ﴾ * وَاصْتَبْنَا لَنَا فِي هَدْيِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدَيْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ۝٥٧ ﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُخْلِ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ

وَاتَّبَعُوا النَّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥٧﴾
[الأعراف: ١٥٥-١٥٧].

ذكر السدي وابن عباس وغيرهما أن هؤلاء السبعين كانوا علماء بني إسرائيل، ومعهم موسى وهارون ويوشع وناداب وأبيهو، ذهبوا مع موسى - عليه السلام - ليعتذروا عن بني إسرائيل في عبادة من عبد منهم العجل، وكانوا قد أمروا أن يتطيبوا ويتطهروا ويغتسلوا، فلما ذهبوا معه واقتربوا من الجبل وعليه الغمام وعمود النور ساطع؛ صعد موسى الجبل: فذكر بنو إسرائيل أنهم سمعوا كلام الله! وهذا قد وافقهم عليه طائفة من المفسرين!! وحلوا عليه قوله - تعالى -: ﴿ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٧٥]، وليس هذا بلازم؛ لقوله - تعالى -: ﴿ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ﴾ [التوبة: ٦]؛ أي: مبلغاً، وهكذا هؤلاء سمعوه مبلغاً من موسى - عليه السلام - وزعموا - أيضاً - أن السبعين رأوا الله، وهذا غلط منهم؛ لأنهم لما سألوا الرؤية؛ أخذتهم الرجفة؛ كما قال - تعالى -: ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَمْوِسَّىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴾ [البقرة: ٥٥-٥٦] وقال هاهنا: ﴿ فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِنِّي ﴾ [الأعراف: ١٥٥].

وقوله: ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ ﴾؛ أي: اختبارك وابتلاؤك وامتحانك؛ قاله غير واحد من علماء السلف والخلف؛ يعني: أنت الذي قدرت هذا وخلقت ما كان من أمر العجل اختباراً تختبرهم به كما قال لهم هارون من قبل: ﴿ يَنْقُورِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ ﴾ [طه: ٩٠]؛ أي: اختبرتم.

ولهذا قال: ﴿ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ ﴾ [الأعراف: ١٥٥]؛ أي: من شئت أضللته باختبارك إياه، ومن شئت هديته؛ لك الحكم والمشيئة، ولا مانع ولا راد لما حكمت وقضيت ﴿ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴾ * وَاصْتَبْنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدَّنَا إِلَيْكَ ﴿ [الأعراف: ١٥٥]؛ أي: تبنا إليك ورجعنا وأنبأنا؛ قاله غير واحد، وهو كذلك في اللغة. ﴿ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَن أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾

[الأعراف: ۱۵۶]؛ أي: أنا أعذب من شئت بما أشاء من الأمور التي أخلقها وأقدرها ﴿وَرَحِمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾؛ كما ثبت في «الصحيحين»^(۱) عن رسول الله ﷺ؛ أنه قال: «إن الله لما فرغ من خلق السماوات والأرض كتب كتاباً فهو موضوع عنده فوق العرش: إن رحمتي تغلب غضبي»؛ ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ۱۵۶]؛ أي: فسأوجبها حتماً لمن يتصف بهذه الصفات: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ﴾ [الأعراف: ۱۵۷] الآية.

وهذا فيه تنويه بذكر محمد ﷺ وأمه من الله لموسى -عليه السلام- في جملة ما ناجاه به وأعلمه وأطلععه عليه؛ وقد تكلمنا على هذه الآية وما بعدها في «التفسير»^(۲) بما فيه كفاية ومقنع، والله الحمد والمنة.

وقد ذكر كثير من الناس ما كان من مناجاة موسى -عليه السلام-، وأوردوا أشياء كثيرة لا أصل لها، ونحن نذكر ما تيسر ذكره من الأحاديث والآثار بعون الله وتوفيقه وحسن هدايته ومعونته وتأييده.

عن المغيرة بن شعبه يقول على المنبر عن النبي ﷺ: «إن موسى -عليه السلام- سأل ربه -عز وجل-: أي أهل الجنة أدنى منزلة؟ فقال: رجل يجيء بعدما يدخل أهل الجنة الجنة، فيقال له: ادخل الجنة، فيقول: كيف أدخل الجنة وقد نزل الناس منازلهم وأخذوا أخذاتهم؟ فيقال له: أترضى أن يكون لك من الجنة مثل ما كان لملك من ملوك الدنيا؟ فيقول: نعم أي رب. فيقال: لك هذا ومثله ومثله ومثله. فيقول: أي رب! رضيت. فيقال له: إن لك هذا وعشرة أمثاله. فيقول: أي رب! رضيت. فيقال له: لك مع هذا ما اشتئت نفسك ولدت عينك. وسأل ربه: أي أهل الجنة أرفع منزلة؟ قال: سأحدثك عنهم: غرست كرامتهم بيدي، وختمت عليها؛ فلا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب

(۱) أخرجه البخاري (۳۱۹۴)، ومسلم (۲۷۵۱) من حديث أبي هريرة -رضي

الله عنه-.

(۲) (۳/ ۶۳۱) وما بعدها.

بشر»^(١).

ومصدق ذلك في كتاب الله - عز وجل - : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة: ١٧].

عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «سأل موسى ربه - عز وجل - عن ست خصال كان يظن أنها له خالصة، والسابعة لم يكن موسى يجيها؟ قال: يارب! أي! عبادك أتقى؟ قال: الذي يذكر ولا ينسى. قال: فأبي عبادك أهدى؟ قال: الذي يتبع الهدى. قال: فأبي عبادك أحكم؟ قال: الذي يحكم للناس كما يحكم لنفسه. قال: فأبي عبادك أعلم؟ قال: عالم لا يشيع من العلم؛ يجمع علم الناس إلى علمه. قال: فأبي عبادك أعز؟ قال: الذي إذا قدر غفر. قال: فأبي عبادك أغنى؟ قال: الذي يرضى بما يؤتى. قال: فأبي عبادك أفقر؟ قال: صاحب منقوص».

قال رسول الله ﷺ: «ليس الغني عن ظهر، إنما الغني غني النفس، وإذا أراد الله بعبده خيراً جعل غناه في نفسه وتقاه في قلبه، وإذا أراد بعبده شراً؛ جعل فقره بين عينيه»^(٢).

قال ابن حبان: قوله: «صاحب منقوص» يريد به منقوص حالته، يستقل ما أوتي ويطلب الفضل.

عن أبي سعيد، عن النبي ﷺ: أنه قال: «قال موسى: يارب! علمني شيئاً أذكرك به وأدعوك به. قال: قل يا موسى: لا إله إلا الله. قال: يارب! كل عبادك يقول هذا. قال: قل لا إله إلا الله. قال: إنما أريد شيئاً تخصني به. قال: يا موسى! لو أن أهل السماوات السبع والأرضين السبع في كفة، ولا إله إلا الله في كفة؛ مالت بهم لا إله إلا الله»^(٣).

(١) أخرجه مسلم (١٨٩)، والترمذي (٣١٩٨)، وابن حبان (٦٢١٦ و٧٤٢٦).

(٢) حسن - أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (٦٢١٧) بسند حسن؛ لأن رجاله ثقات إلا دراجاً أبا السمح، فحديثه عن أبي الهيثم ضعيف، وأما عن غيره؛ فحسن، وهذا منها، فتدبر.

(٣) حسن لغيره - أخرجه ابن حبان (٦٢١٨) - إحصان، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (٨٣٤ و١١٤١)، وأبو يعلى في «المسند» (١٣٩٣)، والطبراني في «الدعاء» =

ويشهد لهذا الحديث حديث البطاقة^(١).

وأقرب شيء إلى معناه الحديث المروي في «السنن» عن النبي ﷺ أنه قال: «أفضل الدعاء دعاء عرفة، وأفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير»^(٢).

وقال الله - تعالى -: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِمَّنْ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [البقرة: ٦٣-٦٤].
وقال - تعالى -: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾﴾ [الأعراف: ١٧١].

قال ابن عباس وغير واحد من السلف: لما جاءهم موسى بالألواح فيها التوراة؛ أمرهم بقبولها والأخذ بها بقوة وعزم، فقالوا: أنشرها علينا؛ فإن كانت أوامرنا ونواهيها سهلة؛ قبلناها؛ فقال: بل اقبلوها بما فيها؛ فراجعوه مراراً!! فأمر الله الملائكة فرفعوا الجبل على رؤوسهم حتى صار كأنه ظلة - أي: غمامة - على رؤوسهم، وقيل لهم: إن لم تقبلوها بما فيها، وإلا؛ سقط هذا الجبل عليكم. فقبلوا ذلك، وأمروا بالسجود؛ فسجدوا، فجعلوا ينظرون إلى الجبل بشق وجوههم، فصارت سنة لليهود إلى اليوم؛ يقولون: لا سجدة أعظم من سجدة رفعت عنا العذاب.

= (١٤٨٠ و ١٤٨١)، وأبو نعيم في «الحلية» (٣٢٨/٨)، والحاكم (٥٢٨/١) وغيرهم كثير بسند ضعيف؛ ضعفه الهيثمي، وشيخنا الألباني.

وصح نحوه عن نوح - عليه السلام -: انظر «الصحيحة» (١٣٤).

لكن يشهد له ما بعده؛ كما قال المصنف - رحمه -.

(١) صحيح - أخرجه الترمذي (٢٦٣٩)، وابن ماجه (٤٣٠٠)، وأحمد (٢/٢١٣) و

(٢٢١)، وابن حبان في «صحيحه» (٢٢٥) وغيرهم. قلت: وهو حديث صحيح؛ صححه الترمذي وابن حبان والحاكم والذهبي والمنذري وشيخنا وغيرهم.

(٢) صحيح - أخرجه الترمذي (٣٥٨٥)، وصححه بمجموع شواهده شيخنا الألباني

- رحمه الله - في «الصحيحة» (١٥٠٣).

قال الله - تعالى - : ﴿ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ ﴾ [البقرة: ٦٤] ؛ أي : ثم بعد مشاهدة هذا الميثاق العظيم والأمر الجسيم نكثتم عهودكم ومواثيقكم ﴿ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [البقرة: ٦٤] : بأن تدارككم بالإرسال إليكم وإنزال الكتب عليكم ؛ ﴿ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [البقرة: ٦٤] .

قصة بقرة بني إسرائيل

قال الله - تعالى -: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُؤًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ٧١﴾ قَالُوا أَذْغُ لَنَا رَبِّكَ يُبَيِّنَ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانُ بَيْنَ ذَلِكَ فافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ٧٢﴾ قَالُوا أَذْغُ لَنَا رَبِّكَ يُبَيِّنَ لَنَا مَا لَوْهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفَرَاءُ فَاقِعٌ لَوُثُهَا تَسُرُّ النَّظِيرِينَ ٧٣﴾ قَالُوا أَذْغُ لَنَا رَبِّكَ يُبَيِّنَ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ٧٤﴾ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِئَةَ فِيهَا قَالُوا آلَتَنَ جِثَّتْ بِالْحَقِّ فَذَبْحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ٧٥﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادْرَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ٧٦﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ٧٧﴾ [البقرة: ٦٧-٧٣].

قال غير واحد من السلف: كان رجل في بني إسرائيل كثير المال، وكان شيخا كبيرا، وله بنو أخ، وكانوا يتمنون موته؛ ليرثوه، فعمد أحدهم فقتله في الليل وطرحه في مجمع الطرق، ويقال: على باب رجل منهم.

فلما أصبح الناس؛ اختصموا فيه، وجاء ابن أخيه، فجعل يصرخ ويتظلم؛ فقالوا: ما لكم تختصمون ولا تأتون نبي الله؟ فجاء ابن أخيه، فشكا أمر عمه إلى رسول الله موسى - عليه السلام - فقال موسى - عليه السلام -: أنشد الله رجلا عنده علم من أمر هذا القتل إلا أعلمنا به: فلم يكن عند أحد منهم علم منه، وسألوه أن يسأل في هذه القضية ربه - عز وجل -، فسأل ربه - عز وجل - في ذلك؟ فأمره الله أن يأمرهم بذبح بقرة فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُؤًا﴾؟ يعنون: نحن نسألك عن أمر هذا القتل، وأنت تقول لنا هذا؟ ﴿قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾؟ أي: أعوذ بالله أن أقول عنه غير ما أوحى إلي، وهذا هو الذي أجابني حين سألته عما سألتهموني أن أسأله فيه.

قال ابن عباس^(١) وعبيدة^(٢) ومجاهد^(٣) وعكرمة^(٤) وغير واحد: فلو أنهم عمدوا إلى أي بقرة فذبجوها؛ لحصل المقصود منها، ولكن شددوا؛ فشدد عليهم. وقد ورد فيه حديث مرفوع، وفي إسناده ضعف. فسألوا عن صفتها؟ ثم عن لونها؟ ثم عن سننها؟ فأجيبوا بما عز وجوده عليهم. وقد ذكرنا تفسير ذلك كله في «التفسير».

والمقصود: أنهم أمروا بذبح بقرة عوان، وهي الوسط النصف بين الفارض (وهي الكبيرة)، والبكر (وهي الصغيرة)؛ قاله جماعة^(٥). ثم شددوا وضيقوا على أنفسهم، فسألوا عن لونها؟ فأمروا بصفراء فاقع لونها؛ (أي: مشرب بحمرة) تسر الناظرين. وهذا اللون عزيز. ثم شددوا - قالوا - ﴿قَالُوا آذَعْ لَنَا رَبِّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ ﴿٧﴾.

﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾: وهذه الصفات أضيقت مما تقدم، حيث أمروا بذبح بقرة ليست بالذللول، (وهي المذللة بالخرانة وسقي الأرض بالسانية)، مسلمة (وهي الصحيحة التي لا عيب فيها)؛ قاله قتادة^(٦)، وقوله: ﴿لَّا شَيْءَ فِيهَا﴾؛ أي: ليس فيها لون يخالف لونها، بل هي مسلمة من العيوب، ومن مخالطة سائر الألوان غير لونها. فلما حددها بهذه الصفات، وحصرها بهذه النعوت والأوصاف؛ ﴿قَالُوا أَلَكُنْ جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾:

فأمرهم نبي الله بذبجها ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾؛ أي: وهم يترددون في أمرها.

ثم أمرهم عن الله أن يضربوا ذلك القتل ببعضها؛ فلما ضربوه ببعضها

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٢٣٥) بسند صحيح، وصححه المصنف في «التفسير» (١١٣/١).

(٢) أخرجه الطبري (١٢٣٦-١٢٣٨) بسند صحيح.

(٣) أخرجه الطبري (١٢٤٠-١٢٤٢) بسند صحيح.

(٤) أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (٥٠/١/١)، والطبري (١٢٣٩) بسند صحيح.

(٥) انظر: «تفسير القرآن العظيم» (١١٤/١).

(٦) أخرجه الطبري (١٢٥٨ و١٢٥٩)، وابن أبي حاتم (٧٣٨) بسند صحيح.

أحياء الله - تعالى -، فقام وهو يشخب أوداجه، فسأله نبي الله موسى: من قتلك ؟ قال: قتلني ابن أخي. ثم عاد ميتاً كما كان.

قال الله - تعالى -: ﴿كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾؛ أي: كما شاهدتم إحياء هذا القليل عن أمر الله له، كذلك أمره في سائر الموتى؛ إذا شاء إحياءهم؛ أحياءهم في ساعة واحدة؛ كما قال: ﴿مَا خَلَقُكُمْ وَلَا بِعَنُكُمُ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨].

قصة موسى والخضر - عليهما السلام -

قال الله - تعالى -: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَتْلِهِ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ ❶ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ❷ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِقَتْلُهُ إِتَيْنَا عَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ❸ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ❹ قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا ❺ فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا إِتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا ❻ قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَني مِمَّا عَلَّمْتَ رُسُلًا ❼ قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ❽ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ❾ قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ❿ قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ⓫ فَاَنْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ⓬ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ⓭ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ⓮ فَاَنْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقْتَلْتَنِي زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا ⓯ * قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ⓰ قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَحِّبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا ⓱ فَاَنْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطَعَمَا أَهْلُهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّقُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ⓲ قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِيعَ عَلَيْهِ صَبْرًا ⓳ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ⓴ وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ⓵ فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ⓶ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَتَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ

كَنَزْنَاهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ [الكهف: ٦٠-٨٢].

قال بعض أهل الكتاب: إن موسى هذا -الذي رحل إلى الخضر- هو موسى ابن منسا بن يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل، وتابعهم على ذلك بعض من يأخذ من صحفهم وينقل عن كتبهم! منهم نوف بن فضالة الحميري الشامي البكالي- ويقال: إنه دمشقي- وكانت أمه زوجة كعب الأحبار! والصحيح: الذي دل عليه سياق القرآن ونص الحديث الصحيح الصريح المتفق عليه أنه موسى بن عمران صاحب بني إسرائيل.

روى البخاري^(١) عن سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس: إن نوحاً البكالي يزعم أن موسى صاحب الخضر ليس هو صاحب بني إسرائيل؟ فقال ابن عباس: كذب عدو الله! حدثنا أبي بن كعب: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إن موسى قام خطيباً في بني إسرائيل فسئل: أي الناس أعلم؟ فقال: أنا؛ فغضب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه، فأوحى الله إليه: إن لي عبداً يجمع البحرين هو أعلم منك. قال موسى: يارب! فكيف لي به؟ قال: تأخذ معك حوتاً، فتجعله في مكث؛ فحيثما فقدت الحوت، فهو ثم. فأخذ حوتاً فجعله في مكث، ثم انطلق وانطلق معه فتاه يوشع بن نون، حتى إذا أتيا الصخرة؛ وضعا رؤوسهما فناهما، واضطرب الحوت في المكث، فخرج منه فسقط في البحر، واتخذ سبيله في البحر سرباً، وأمسك الله عن الحوت جرية الماء، فصار عليه مثل الطاق، فلما استيقظ؛ نسي صاحبه أن يخبره بالحوت، فانطلقا بقية يومهما وليلتهما، حتى إذا كان من الغد؛ قال موسى لفتاه: ﴿ءَاتَيْنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾. قال ولم يجد موسى النصب حتى جاوز المكان الذي أمره الله به، فقال له فتاه: ﴿أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَن أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾. قال: فكان للحوت سرباً، ولموسى ولفتاه عجباً. فقال

(١) في «صحيحه» (٤٧٢٥)، وأخرجه -أيضاً- (٤٧٢٦ و٤٧٢٧)، ومسلم (٢٣٨٠).

له موسى: ﴿ قَالَ ذَلِكْ مَا كُنَّا نَنْبَغُ فَأَرْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا ۝ ﴾ .
 قال: « فرجعا يقصان آثارهما حتى انتهيا إلى الصخرة، فإذا رجل مسجي
 بثوب، فسلم عليه موسى، فقال الخضر: وأنى بأرضك السلام ؟ قال: أنا موسى.
 قال: موسى بني إسرائيل ؟ قال: نعم، أتيتك لتعلمني عما علمت رشداً ﴿ قَالَ إِنَّكَ
 لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ۝ ﴾ يا موسى! إني على علم من علم الله علمنيه الله
 لا تعلمه أنت، وأنت على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه. فقال موسى:
 ﴿ قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ۝ ﴾ . فقال له
 الخضر: ﴿ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ أُخْبِرَكَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ۝ ﴾
 فَأَنْطَلَقَا ﴿ يَمْشِيَانِ عَلَىٰ سَاحِلِ الْبَحْرِ، فَمَرَّتْ سَفِينَةٌ فَكَلَمُوهُمْ أَن يَحْمِلُوهُمْ،
 فَعَرَفُوا الْخَضَرَ، فَحَمَلُوهُمْ بِغَيْرِ نَوْلٍ، فَلَمَّا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ لَمْ يَفْجَأَا إِلَّا وَالْخَضِرُ قَدْ
 قَلَعَ لَوْحًا مِنَ الْوَاحِ السَّفِينَةَ بِالْقُدُومِ! فَقَالَ لَهُ مُوسَى: قَوْمَ حَمَلُونَا بِغَيْرِ نَوْلٍ؛
 عَمِدْتَ إِلَىٰ سَفِينَتِهِمْ فَخَرَقْتَهَا؛ ﴿ لَتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ۝ ﴾ قَالَ أَلَمْ
 أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ۝ ﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا
 تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ۝ ﴾ . قال: وقال رسول الله ﷺ: فكانت الأولى من
 موسى نسياناً. قال: وجاء عصفور فوق على حرف السفينة فنقر في البحر نقرة،
 فقال له الخضر: ما علمي وعلمك من علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور من
 هذا البحر.

ثم خرجا من السفينة، فبينما هما يمشيان على الساحل؛ إذ أبصر الخضر
 غلاماً يلعب مع الغلمان، فأخذ الخضر رأسه بيده، فاقتلعه بيده، فقتله! فقال له
 موسى: ﴿ قَالَ أَقْتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا ۝ ﴾ قَالَ
 أَلَمْ أَقُلْ لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ۝ ﴾؛ قال: وهذه أشد من الأولى
 ﴿ قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَحِّبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي
 عُذْرًا ۝ ﴾ فَأَنْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلُهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّقُوهُمَا
 فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنْقُضَ ﴿ قَالَ: مائل، فقام الخضر؛ ﴿ فَأَقَامَهُ ﴾ بيده؛
 فقال موسى: قوم أتيناهم فلم يطعمونا ولم يضيفونا؛ ﴿ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ
 أَجْرًا ۝ ﴾ قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ ﴿ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿ ذَلِكْ تَأْوِيلُ مَا لَمْ

تَسْطِيعَ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٢٤﴾ فقال رسول الله ﷺ: «وددنا أن موسى كان صبر حتى يقص الله علينا من خبرهما».

قال سعيد بن جبیر: فكان ابن عباس يقرأ: (وكان أمامهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا) وكان يقرأ: (وأما الغلام فكان كافرا وكان أبواه مؤمنين).

وقد تفصينا طرق هذا الحديث والفاظه في تفسير سورة الكهف، والله الحمد.
وقوله: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ﴾: ﴿وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا﴾: كان لوحاً من ذهب مكتوباً فيه علم.

وقوله: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾: فيه دلالة على أن الرجل الصالح يحفظ في ذريته، والله المستعان.

وقوله: ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [الكهف: ٨٢]: دليل على أنه كان نبياً، وأنه ما فعل شيئاً من تلقاء نفسه، بل بأمر ربه؛ فهو نبي.

وقد قال الله -تعالى-: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَّا آتَيْنَاكُمْ مِّنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [آل عمران: ٨١]؛ فأخذ الله ميثاق كل نبي على أن يؤمن بمن يجيء بعده من الأنبياء وينصره، واستلزم ذلك الإيمان وأخذ الميثاق لمحمد ﷺ؛ لأنه خاتم الأنبياء، فحق على كل نبي أدركه أن يؤمن به وينصره، فلو كان الخضر حياً في زمانه، لما وسعه إلا اتباعه والاجتماع به والقيام بنصره، ولكن من جملة من تحت لوائه يوم بدر، كما كان تحتها جبريل وسادات من الملائكة.

وقصارى الخضر -عليه السلام- أن يكون نبياً وهو الحق، أو رسولاً كما قيل، أو ملكاً فيما ذكر، وأياً ما كان؛ فجبريل رئيس الملائكة، وموسى أشرف من الخضر، ولو كان حياً؛ لوجب عليه الإيمان بمحمد ونصرته؛ فكيف إن كان الخضر ولياً كما يقوله طوائف كثيرون؟! فأولى أن يدخل في عموم البعثة وأخرى. ولم ينقل في حديث حسن؛ بل ولا ضعيف يعتمد أنه جاء يوماً واحداً إلى

رسول الله ﷺ، ولا اجتمع به، وما ذكر من حديث التعزية فيه؛ فإسناده ضعيف^(١)،
والله أعلم.

وسنفرد للخضر ترجمة على حدة بعد هذا.

ذكر الحديث الملقب بحديث الفتون

المتضمن قصة موسى مبسوطاً من أولها إلى آخرها

روى الإمام أبو عبد الرحمن النسائي في كتاب «التفسير» من «سننه» عند قوله -تعالى- في سورة طه [٤٠]: ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾: حديث الفتون: عن سعيد بن جبيرة؛ قال: سألت عبد الله بن عباس عن قول الله -تعالى- لموسى: ﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾ فسألته عن الفتون: ما هي؟ فقال: استأنف النهار يا ابن جبيرة؛ فإن لها حديثاً طويلاً، فلما أصبحت؛ غدوت إلى ابن عباس لأتتجز منه ما وعدني من حديث الفتون، فقال:

تذاكر فرعون وجلساؤه ما كان الله وعد إبراهيم -عليه السلام- أن يجعل في ذريته أنبياء وملوكاً، فقال بعضهم: إن بني إسرائيل ينتظرون ذلك، ما يشكون فيه، وكانوا يظنون أنه يوسف بن يعقوب، فلما هلك؛ قالوا: ليس هكذا كان وعد إبراهيم! فقال فرعون: فكيف ترون؟ فأتمروا وأجمعوا أمرهم على أن يبعث رجالاً معهم الشفار، يطوفون في بني إسرائيل؛ فلا يجدون مولوداً ذكراً؛ إلا ذبحوه! ففعلوا ذلك.

فلما رأوا أن الكبار من بني إسرائيل يموتون بآجالهم، والصغار يذبحون؛ قالوا: توشكون أن تغنوا بني إسرائيل، فتصيروا إلى أن تباشروا من الأعمال والخدمة التي كانوا يكفونكم! فاقتلوا عاماً كل مولود ذكر؛ فيقل نباتهم، ودعوا عاماً؛ فلا تقتلوا منهم أحداً، فيشب الصغار مكان من يموت من الكبار؛ فإنهم لن يكثرُوا بمن تستحيون منهم، فتخافوا مكائدهم إياكم، ولن يفنوا بمن تقتلون وتحتاجون إليهم؛ فأجمعوا أمرهم على ذلك.

فحملت أم موسى بهارون في العام الذي لا يقتل فيه الغلمان، فولدته علانية آمنة، فلما كان من قابل؛ حملت بموسى -عليه السلام-، فوقع في قلبها الهم والحزن، وذلك من الفتون يا ابن جبيرة! ما دخل عليه في بطن أمه مما يراد به. فأوحى الله إليها أن ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنْ

الْمُرْسَلِينَ ﴿ فَأَمَرَهَا إِذَا وَلَدَتْ أَنْ تَجْعَلَهُ فِي تَابُوتٍ وَتَلْقِيَهُ فِي الْيَمِّ . فَلَمَّا وَلَدَتْ ، فَعَلْتَ ذَلِكَ ، فَلَمَّا تَوَارَى عَنْهَا ابْنُهَا ؛ أَتَاهَا الشَّيْطَانُ ، فَقَالَتْ فِي نَفْسِهَا : مَا فَعَلْتُ بَابْنِي ؟ ! لَوْ ذَبَحَ عِنْدِي فَوَارِيَّتَهُ وَكَفَفْتَهُ كَانَ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَلْقِيَهُ إِلَى دَوَابِ الْبَحْرِ وَحَيْثَانَهُ !

فَانْتَهَى الْمَاءُ بِهِ حَتَّى أَوْفَى عِنْدَ فُرْضَةٍ ^(١) تَسْتَقِي مِنْهَا جَوَارِي امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ ، فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَخَذَنَّهُ ، فَهَمَّ أَنْ يَفْتَحْنَ التَّابُوتَ ، فَقَالَ بَعْضُهُنَّ : إِنْ فِي هَذَا مَالًا ، وَإِنَّا إِنْ فَتَحْنَاهُ ؛ لَمْ تَصْدُقْنَا امْرَأَةَ الْمَلِكِ بِمَا وَجَدْنَا فِيهِ . فَحَمَلْنَهُ كَهَيْئَتِهِ ؛ لَمْ يَخْرُجَنَّ مِنْهُ شَيْئًا حَتَّى دَفَعْنَهُ إِلَيْهَا . فَلَمَّا فَتَحَتْهُ ؛ رَأَتْ فِيهِ غَلَامًا ، فَأَلْقَى اللَّهُ عَلَيْهِ مِنْهَا حَبَّةً لَمْ يُلْقَ مِنْهَا عَلَى أَحَدٍ قَطْ .

﴿ وَأَصْبَحَ قُوَادُ أُمِّ مُوسَى فَرِحًا ﴾ مِنْ ذَكَرِ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ ذَكَرِ مُوسَى . فَلَمَّا سَمِعَ الذَّبَّاحُونَ بِأَمْرِهِ ؛ أَقْبَلُوا بِشَفَارِهِمْ إِلَى امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ ؛ لِيَذْبُوهُ ، وَذَلِكَ مِنَ الْفَتُونِ يَا ابْنَ جَبْرِ !

فَقَالَتْ لَهُمْ : أَقْرُوهُ ؛ فَإِنَّ هَذَا الْوَاحِدَ لَا يَزِيدُ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ ، حَتَّى آتِي فِرْعَوْنَ فَاسْتَوْهَبَهُ مِنْهُ ؛ فَإِنْ وَهَبَهُ مِنِّي ؛ كُنْتُمْ قَدْ أَحْسَنْتُمْ وَأَجَلْتُمْ ، وَإِنْ أَمَرَ بِذَبْحِهِ ؛ لَمْ أَلْكُمْ . فَاتَتْ فِرْعَوْنَ فَقَالَتْ : ﴿ قُرْتُ عَيْنَ لِي وَلَكَ ﴾ . فَقَالَ فِرْعَوْنَ : يَكُونُ لَكَ ، فَأَمَّا لِي ؛ فَلَا حَاجَةَ لِي فِيهِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « وَالَّذِي يُخَلِّفُ بِهِ ؛ لَوْ أَقْرَ فِرْعَوْنَ أَنْ يَكُونَ قَرَّةَ عَيْنٍ لَهُ كَمَا أَقْرَتْ امْرَأَتُهُ ؛ لَهْدَاهُ اللَّهُ كَمَا هَدَاهَا ، وَلَكِنْ حَرَمَهُ ذَلِكَ » . فَأَرْسَلَتْ إِلَى مَنْ حَوْلَهَا إِلَى كُلِّ امْرَأَةٍ لَهَا ؛ لِأَنْ تَخْتَارَ لَهُ ظَنْرًا ، فَجَعَلَ كُلُّهَا أَخَذَتْهُ امْرَأَةٌ مِنْهُنَّ لَتَرْضِعَهُ ؛ لَمْ يَقْبَلْ عَلَى ثَدْيِهَا ، حَتَّى أَشْفَقَتْ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ أَنْ يَمْتَنَعَ مِنَ اللَّبَنِ فَيَمُوتَ ، فَأَحْزَنَهَا ذَلِكَ ؛ فَأَمَرَتْ بِهِ ، فَأَخْرَجَتْهُ إِلَى السُّوقِ وَمَجْمَعَ النَّاسِ ؛ تَرْجُو أَنْ تَجِدَ لَهُ ظَنْرًا تَأْخُذُهُ مِنْهَا ، فَلَمْ يَقْبَلْ .

وَأَصْبَحَتْ أُمُّ مُوسَى وَالْهَاءُ ^(٢) ، فَقَالَتْ لِأَخْتِهَا : قَصِّي أَثَرَهُ وَاطْلُبِيهِ ؛ هَلْ تَسْمَعِينَ لَهُ ذِكْرًا ؟ أَحْيِ ابْنِي أَمْ قَدْ أَكَلَتْهُ الدَّوَابُّ ؟ وَنَسِيتَ مَا كَانَ اللَّهُ وَعْدَهَا فِيهِ .

(١) ثغرة.

(٢) شديدة الحزن كثيرة الجزع.

فبصرت به أخته عن جنب وهم لا يشعرون، والجنب: أن يسمو بصر الإنسان إلى شيء بعيد وهو إلى جنبه لا يشعر به، فقالت من الفرح حين أعياهم الظنورات أنــــا: ﴿أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَصِيحُونَ﴾ فأخذوها، فقالوا: ما يدريك؟ ما نصحهم له؟ هل يعرفونه؟ حتى شكوا في ذلك! وذلك من الفتون يا ابن جبير! فقالت: نصحهم له وشفقتهم عليه رغبتهم في صهر الملك ورجاء منفعة الملك. فأرسلوها فانطلقت إلى أمها، فأخبرتها الخبر، فجاءت أمه، فلما وضعت في حجرها، نزا إلى ثديها فمصه حتى امتلأ جنباه رياً.

وانطلق البشير إلى امرأة فرعون يبشرها أن قد وجدنا لابنك ظئراً، فأرسلت إليها فأتت بها وبه، فلما رأت ما يصنع بها؛ قالت: امكثي؛ ترضعي ابني هذا؛ فإني لم أحب شيئاً حبه قط. قالت أم موسى: لا أستطيع أن أترك بيتي وولدي فيضيع؛ فإن طابت نفسك أن تعطينيه، فأذهب به إلى بيتي، فيكون معي لا آكوه خيراً؛ فعلت؛ فإني غير تاركة بيتي وولدي، وذكرت أم موسى ما كان الله وعدها، فتعاسرت على امرأة فرعون، وأيقنت أن الله منجز موعوده، فرجعت إلى بيتها من يومها، وأنبتة الله نباتاً حسناً، وحفظه لما قد قضى فيه. فلم يزل بنو إسرائيل وهم في ناحية القرية، ممتنعين من السخرة والظلم ما كان فيهم.

فلما ترعرع؛ قالت امرأة فرعون لأم موسى: أزييني ابني، فوعدتها يوماً تزيرها إياه فيه، وقالت امرأة فرعون لخزانها وظهورها وقهارمتها: لا يبقين أحد منكم إلا استقبل ابني اليوم بهدية وكرامة؛ لأرى ذلك فيه وأنا باعثة أميناً يحصي كل ما يصنع كل إنسان منكم! فلم تزل الهدايا والكرامة والنحل تستقبله من حين خرج من بيت أمه إلى أن دخل على امرأة فرعون، فلما دخل عليها؛ نخلته وأكرمته وفرحت به، ونخلت أمه؛ لحسن أثرها عليها. ثم قالت: لآتين به فرعون فلينحلنه وليكرمنه.

فلما دخلت به عليه؛ جعله في حجره، فتناول موسى لحية فرعون، فمدّها إلى الأرض، فقال الغواة من أعداء الله لفرعون: ألا ترى ما وعد الله إبراهيم نبيه؟! إنه زعم أنه يرثك ويعلوك ويصرعك! فأرسل إلى الذبّاحين ليذبحوه. وذلك من الفتون يا ابن جبير! بعد كل بلاء ابتلي به وأريد به. فجاءت امرأة فرعون تسعى

إلى فرعون، فقالت: ما بدا لك في هذا الغلام الذي وهبته لي؟! فقال: ألا تريه يزعم أن يصرعني ويعلونني؟ فقالت: اجعل بيني وبينك أمراً؛ تعرف فيه الحق، اثنتي بجمرتين ولؤلؤتين فقربهن إليه؛ فإن بطش باللؤلؤتين واجتنب الجمرتين؛ عرفت أنه يعقل، وإن تناول الجمرتين ولم يرد اللؤلؤتين؛ علمت أن أحداً لا يؤثر الجمرتين على اللؤلؤتين وهو يعقل. فقرب إليه الجمرتين واللؤلؤتين فتناول الجمرتين؛ فانتزعهما منه مخافة أن تحرقا يده؛ فقالت المرأة: ألا ترى؟ فصرفه الله عنه بعد ما كان هم به، وكان الله بالغاً فيه أمره.

فلما بلغ أشده وكان من الرجال؛ لم يكن أحد من آل فرعون يخلص إلى أحد من بني إسرائيل معه بظلم ولا سخرة، حتى امتنعوا كل الامتناع.

فبينما موسى -عليه السلام- يمشي في ناحية المدينة؛ إذا هو برجلين يقتتلان، أحدهما فرعوني والآخر إسرائيلي، فاستغاثه الإسرائيلي على الفرعوني، فغضب موسى غضباً شديداً؛ لأنه تناوله وهو يعلم منزلته من بني إسرائيل وحفظه لهم؛ لا يعلم الناس إلا أنه من الرضاع؛ إلا أم موسى؛ إلا أن يكون الله أطلع موسى من ذلك على ما لم يطلع عليه غيره. فوكز موسى الفرعوني فقتله، وليس يراهما أحد إلا الله -عز وجل- والإسرائيلي، فقال موسى حين قتل الرجل: ﴿هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ﴾، ثم قال: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ ١٠٠ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ ١٠١ ﴿ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ ١٠٢ ﴾ الأخبار.

فأتى فرعون، فقبل له: إن بني إسرائيل قتلوا رجلاً من آل فرعون؛ فخذ لنا بحقنا ولا ترخص لهم! فقال: ابغوني قاتله ومن يشهد عليه؛ فإن الملك؛ وإن كان صفوة مع قومه؛ لا ينبغي له أن يقتل بغير بينة ولا ثبت؛ فاطلبوا لي علم ذلك؛ آخذ لكم بحقكم!

فبينما هم يطوفون لا يجدون بينة؛ إذا بموسى من الغد قد رأى ذلك الإسرائيلي يقاتل رجلاً من آل فرعون آخر، فاستغاثه الإسرائيلي على الفرعوني، فصادف موسى وقد ندم على ما كان منه وكره الذي رأى، فغضب الإسرائيلي

وهو يريد أن يبطش بالفرعوني، فقال للإسرائيلي لما فعل بالأمس واليوم: ﴿إِنَّكَ لَعَوِيٌّ مُبِينٌ﴾! فنظر الإسرائيلي إلى موسى بعد ما قال له ما قال؛ فإذا هو غضبان كغضبه بالأمس الذي قتل فيه الفرعوني، فخاف أن يكون بعد ما قاله له: ﴿إِنَّكَ لَعَوِيٌّ مُبِينٌ﴾ أن يكون إياه أراد ولم يكن أراد، إنما أراد الفرعوني، فخاف الإسرائيلي وقال: ﴿قَالَ يَمْوَسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ؟﴾ وإنما قال له مخافة أن يكون إياه أراد موسى ليقتله فتاركاً. وانطلق الفرعوني، فأخبرهم بما سمع من الإسرائيلي من الخبر حين يقول: ﴿أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ﴾.

فأرسل فرعون الذباحين ليقتلوا موسى، فأخذ رسل فرعون في الطريق الأعظم يمشون على هيتهم يطلبون موسى وهم لا يخافون أن يفوتهم، فجاء رجل من شيعة موسى من أقصا المدينة، فاختصر طريقاً حتى سبقهم إلى موسى، فأخبره، وذلك من الفتون يا ابن جبير!

فخرج موسى متوجهاً نحو مدين؛ لم يلق بلاء قبل ذلك وليس له بالطريق علم إلا حسن ظنه بربه - عز وجل -؛ فإنه قال: ﴿عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ ﴿١﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ﴿٢﴾؛ يعني: بذلك حابستين غنمهما، فقال لهما: ﴿مَا خَطْبُكُمَا﴾ معتزتين لا تسقيان مع الناس؟ قالتا: ليس لنا قوة نزاحم القوم، وإنما ننتظر فضول حياضهم. فسقى لهما، فجعل يغترف من الدلو ماء كثيراً حتى كان أول الرعاء، وانصرفتا بغنمهما إلى أبيهما، وانصرف موسى فاستظل بشجرة، وقال: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾.

واستنكر أبوهما سرعة صدورهما بغنمهما حفلاً^(١) بطاناً^(٢)، فقال: إن لكما اليوم لشأناً! فأخبرناه بما صنع موسى، فأمر إحداهما أن تدعوه، فأتت موسى فدعته. فلما كلمه، قال: ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ ليس

(١) ممتلئة الضروع باللبن.

(٢) ممتلئة البطون بالطعام.

لفرعون ولا لقومه علينا من سلطان، ولسنا في مملكته، فقالت إحداهما: ﴿يَأْتِيَنَّكَ آسَافُ جَرَّةٍ إِنَّ خَيْرَ مَنْ آسَافُ جَرَّةٍ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾. فاحتلمته الغيرة على أن قال لها: ما يدريك ما قوته وما أمانته؟! فقالت: أما قوته؛ فما رأيت منه في الدلو حين سقى لنا لم أر رجلاً قط أقوى في ذلك السقي منه، وأما الأمانة؛ فإنه نظر إلي حين أقبلت إليه وشخصت له، فلما علم أنني امرأة صوب رأسه فلم يرفعه حتى بلغته رسالتك. ثم قال لي: امشي خلفي، وانعتي لي الطريق، فلم يفعل هذا إلا وهو أمين. فسري عن أبيها وصدقها، وظن به الذي قالت.

فقال له: هل لك ﴿أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَيَّ أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَنِي حِجَجٍ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ ففعل فكانت على نبي الله موسى ثمانين سنين واجبة، وكانت الستتان عدة منه، ففضى الله عنه عدته؛ فأتمها عشراً.

قال سعيد - وهو ابن جبير -: لقيني رجل من أهل النصرانية من علمائهم، فقال: هل تدري أي الأجلين قضى موسى؟ قلت: لا، وأنا يومئذ لا أدري. فلقيت ابن عباس، فذكرت ذلك له، فقال: أما علمت أن ثمانية كانت على نبي الله واجبة؛ لم يكن نبي الله لينقص منها شيئاً، وتعلم أن الله كان قاضياً عن موسى عدته التي وعده؟! فإنه قضى عشر سنين. فلقيت النصراني فآخبرته ذلك، فقال: الذي سألته فأخبرك أعلم منك بذلك؟ قلت: أجل، وأولى.

فلما سار موسى بأهله؛ كان من أمر النار والعصا ويده، ما قص الله عليك في القرآن، فشكا إلى الله - تعالى - ما يتخوف من آل فرعون في القتل، وعقدة لسانه؛ فإنه كان في لسانه عقدة تمنعه من كثير من الكلام، وسأل ربه أن يعينه بأخيه هارون، يكون له رده^(١)، يتكلم عنه بكثير مما لا يفصح به لسانه، فأثابه الله - عز وجل - سؤله، وحل عقدة من لسانه، وأوحى الله إلى هارون؛ فأمره أن يلقاه.

فاندفع موسى بعصاه حتى لقي هارون، فانطلقا جميعاً إلى فرعون، فأقاما على بابه حيناً لا يؤذن لهما، ثم أذن لهما بعد حجاب شديد فقالا: ﴿إِنَّا رَسُولَا

(١) ناصراً ومعيناً ومساعداً.

رَبِّكَ ﴿ قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا ﴾ فأخبراه بالذي قص الله عليك في القرآن. قال: فما تريدان ؟ وذكره القليل. فاعتذر بما قد سمعت، قال: أريد أن تؤمن بالله وترسل معي بني إسرائيل. فأبى عليه، وقال: ﴿ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ ۝ ﴾ فألقى عصاه فإذا هي حية عظيمة فاغرة فاها مسرعة إلى فرعون، فلما رآها فرعون قاصدة إليه، خافها، فاقتحم عن سريره واستغاث بموسى أن يكفها عنه! ففعل. ثم أخرج يده من جيبه، فرآها بيضاء من غير سوء؛ يعني: من غير برص، ثم ردها فعادت إلى لونها الأول.

فاستشار الملأ حوله فيما رأى فقالوا له: ﴿ قَالُوا إِنْ هَٰذَا لَسَٰحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى ۝ ﴾ يعني: ملكهم الذي هم فيه والعيش. وأبوا على موسى أن يعطوه شيئاً مما طلب، وقالوا له: اجمع السحرة؛ فإنهم بأرضك كثير، حتى تغلب بسحرك سحرهما!

فأرسل إلى المدائن؛ فحشر له كل ساحر متعلم، فلما أتوا فرعون؛ قالوا: بم يعمل هذا الساحر ؟ قالوا: يعمل بالحيات. قالوا: فلا والله، ما أحد في الأرض يعمل السحر بالحيات والحبال والعصي الذي نعمل، فما أجرتنا إن نحن غلبنا ؟ قال لهم: أنتم أقاربي وخاصتي، وأنا صانع إليكم كل شيء أحببتهم، فتواعدوا: ﴿ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُخَشِّرَ النَّاسُ ضُحًى ﴾. قال سعيد: فحدثني ابن عباس أن يوم الزينة- اليوم الذي أظهر الله فيه موسى على فرعون والسحرة- هو يوم عاشوراء. فلما اجتمعوا في صعيد؛ قال الناس بعضهم لبعض: انطلقوا؛ فلنحضر هذا

الأمر؛ ﴿ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ۝ ﴾! يعنون: موسى وهارون؛ استهزاء بهما! فقالوا: يا موسى- بعد تريثهم بسحرهم-؛ ﴿ إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ﴾. قال بل القوا! ﴿ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ۝ ﴾! فرأى موسى من سحرهم ما أوجس في نفسه خيفة، فأوحى الله إليه: ﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ﴾! فلما ألقاها؛ صارت ثعباناً عظيمة فاغرة فاها، فجعلت العصا تلتبس بالحبال، حتى صارت جرزاً^(١) إلى

الثعبان تدخل فيه، حتى ما أبقت عصاً ولا حبلًا إلا ابتلعتها!! فلما عرف السحرة ذلك؛ قالوا: لو كان هذا سحراً؛ لم يبلغ من سحرنا كل هذا، ولكنه أمر من الله -تعالى-، آمنا بالله وبما جاء به موسى، ونتوب إلى الله مما كنا عليه؛ فكسر الله ظهر فرعون في ذلك الموطن وأشياعه ﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٠٠) ﴿فَغَلَبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَغِيرِينَ﴾ (١٠١).

وامرأة فرعون بارزة متبذلة^(١) تدعو الله بالنصر لموسى على فرعون وأشياعه؛ فمن رآها من آل فرعون؛ ظن أنها إنما ابتذلت للشفقة على فرعون وأشياعه، وإنما كان حزنها وهمها لموسى.

فلما طال مكث موسى بمواعيد فرعون الكاذبة، كلما جاء بآية؛ وعده عندها أن يرسل معه بني إسرائيل؛ فإذا مضت؛ أخلف موعده؛ وقال: هل يستطيع ريك أن يصنع غير هذا؟! فأرسل الله على قومه الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات؛ كل ذلك يشكو إلى موسى، ويطلب إليه أن يكفها عنه؛ ليوافقه على أن يرسل معه بني إسرائيل؛ فإذا كف ذلك عنه؛ أخلف بوعده ونكث عهده!!

حتى أمر الله موسى بالخروج بقومه، فخرج بهم ليلاً؛ فلما أصبح فرعون ورأى أنهم قد مضوا؛ أرسل في المدائن حاشرين فتبعه بمجنود عظيمة كثيرة، وأوحى الله إلى البحر: إذا ضربك موسى عبدي بعصاه؛ فانفلق اثنتي عشرة فرقة، حتى يجوز موسى ومن معه، ثم التق على من بقى بعد من فرعون وأشياعه! فنسي موسى أن يضرب البحر بالعصا، وانتهى إلى البحر وله قصيف^(٢)؛ مخافة أن يضربه موسى بعصاه وهو غافل؛ فيصير عاصياً لله -عز وجل- فلما تراءى الجمعان وتقاربا ﴿قَالَ أَصْحَبُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُوكَ﴾ افعل ما أمرك به ربك؛ فإنه لم يكذب ولم تكذب! قال: وعدني ربي إذا أتيت البحر؛ انفرق اثنتي عشرة فرقة حتى أجاوزه. ثم ذكر بعد ذلك العصا ف ضرب البحر بعصاه حين دنا أوائل جند فرعون

(١) غير معتنية بشبابها وزينتها.

(٢) صوت شديد يشبه صوت الرعد.

من أواخر جند موسى. فانفرك البحر كما أمره ربه وكما وعد موسى فلما أن جاوز موسى وأصحابه كلهم البحر، ودخل فرعون وأصحابه؛ التقى عليهم البحر كما أمر، فلما جاوز موسى البحر؛ قال أصحابه: إنا نخاف ألا يكون فرعون غرق ولا نؤمن بهلاكه! فدعا ربه فأخرجه له ببدنه حتى استيقنوا بهلاكه.

ثم مروا بعد ذلك على قوم يعكفون على أصنام لهم؛ ﴿قَالُوا يَمُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ ١٦٠ إِنَّ هَؤُلَاءِ مَتَّبِعُوا مَا هُمْ فِيهِ وَبَطُلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦١﴾ قد رأيتم من العبر وسمعتهم ما يكفيكم!

ومضى فأنزلهم موسى منزلاً؛ وقال: أطيعوا هارون؛ فإن الله قد استخلفه عليكم؛ فإني ذاهب إلى ربي! وأجلهم ثلاثين يوماً أن يرجع إليهم فيها. فلما أتى ربه - عز وجل - وأراد أن يكلمه في ثلاثين يوماً وقد صامهن ليلهن ونهارهن، كره أن يكلم ربه وريح فيه ريح فم الصائم، فتناول موسى شيئاً من نبات الأرض، فمضغه، فقال له ربه حين أتاها: لم أفطرت؟ - وهو أعلم بالذي كان - قال: يارب! إني كرهت أن أكلمك إلا وفمي طيب الريح. قال: أوما علمت يا موسى أن ريح فم الصائم أطيب عندي من ريح المسك! ارجع فصم عشرين ثم اتني! ففعل موسى ما أمره به ربه.

فلما رأى قوم موسى أنه لم يرجع إليهم في الأجل؛ ساءهم ذلك، وكان هارون قد خطبهم فقال: إنكم خرجتم من مصر، ولقوم فرعون عندكم عواري وودائع، ولكم فيها مثل ذلك وأنا أرى أن تحتسبوا ما لكم عندهم، ولا أحل لكم ودیعة استودعتموها ولا عارية، ولسنا برادين إليهم شيئاً من ذلك ولا بمسكية لأنفسنا. فحفر حفيراً وأمر كل قوم عندهم من ذلك متاع أو حلية أن يقذفوه في ذلك الحفير، ثم أوقد عليه النار؛ فأحرقه، فقال: لا يكون لنا ولا لهم.

وكان السامري من قوم يعبدون البقر، جيران لبني إسرائيل، ولم يكن من بني إسرائيل، فاحتمل مع موسى وبني إسرائيل حين احتملوا فقضي له أن رأى أثراً، فقبض منه قبضة فمر بهارون، فقال له هارون: يا سامري! ألا تلقي ما في يدك؟ وهو قابض عليه لا يراه أحد طوال ذلك. فقال: هذه قبضة من أثر الرسول الذي

جاءوا بكم البحر، ولا ألقوها لشيء؛ إلا أن تدعو الله إذا ألقيتها أن يكون ما أريد. فألقاها، ودعا له هارون. فقال: أريد أن تكون عجلاً، فاجتمع ما كان في الحفرة من متاع أو حلية أو نحاس أو حديد، فصار عجلاً أجوف، ليس فيه روح وله خوار.

قال ابن عباس: لا والله؛ ما كان فيه صوت قط، إنما كانت الريح تدخل من دبره وتخرج من فيه، فكان ذلك الصوت من ذلك!

فتفرق بنو إسرائيل فرقاً، فقالت فرقة: يا سامري! ما هذا؛ وأنت أعلم به؟ قال: هذا ربكم، ولكن موسى أضل الطريق! وقالت فرقة: لا نكذب بهذا حتى يرجع إلينا موسى؛ فإن كان ربنا؛ لم نكن ضيعناه وعجزنا فيه حين رأيناه، وإن لم يكن ربنا؛ فإننا نتبع قول موسى. وقالت فرقة: هذا من عمل الشيطان، وليس بربنا، ولا نؤمن به ولا نصدق، وأشرب فرقة في قلوبهم الصدق بما قال السامري في العجل وأعلنوا عدم التكذيب به. فقال لهم هارون -عليه السلام-: ﴿يَقُولُونَ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ﴾، ليس هذا! قالوا: فما بال موسى وعدنا ثلاثين يوماً ثم أخلفنا؟! هذه أربعون يوماً قد مضت. وقال سفهاؤهم: أخطأ ربُّه فهو يطلبه ويبتغيه.

فلما كلم الله موسى وقال له ما قال؛ أخبره بما لقي قومه من بعده، ﴿فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضَبَيْنَ أَسِفًا﴾، فقال لهم ما سمعتم في القرآن ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾، وألقى الألواح من الغضب، ثم إنه عذر أخاه بعذره واستغفر له، وانصرف إلى السامري، فقال له: ما حملك على ما صنعت؟ قال: ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ﴾، وفطنت لها وعميت عليكم، ﴿فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾ ﴿قَالَ فَادْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّنْ تَخْلَفَنَّهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا﴾ ﴿وَلَوْ كَانَ إِلَهًا؛ لم يخلص إلى ذلك منه.

فاستيقن بنو إسرائيل بالفتنة، واغتبط الذين كان رأيهم فيه مثل رأي هارون، فقالوا لجماعتهم: يا موسى! سل لنا ربك أن يفتح لنا باب توبة نصنعها فتكفر عنا

ما عملنا.

فاختار موسى من قومه سبعين رجلاً لذلك، لا يألوا الخير، خيار بني إسرائيل ومن لم يشرك في الحق، فانطلق بهم يسأل لهم التوبة، فرجفت بهم الأرض، فاستحيا نبي الله -عليه السلام- من قومه ومن وفده حين فعل بهم ما فعل، فقال: ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنِّي أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا﴾ وفيهم من كان الله اطلع منه على ما أشرب قلبه من حب العجل وإيمانه به؛ لذلك رجفت بهم الأرض فقال: ﴿وَرَحِمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ ﴿[الأعراف: ١٥٦-١٥٧].

فقال: يارب! سألتك التوبة لقومي، فقلت: إن رحمتي كتبتها لقوم غير قومي! فليتك أخرتني حتى تخرجني في أمة ذلك الرجل المرحوم! فقال له: إن توبتهم أن يقتل كل رجل منهم من لقي من والد وولد، فيقتله بالسيف ولا يبالي من قتل في ذلك الموطن. وتاب أولئك الذين كان خفي على موسى وهارون ما اطلع الله من ذنوبهم، فاعترفوا بها، وفعلوا ما أمروا، وغفر الله للقاتل والمقتول.

ثم سار بهم موسى -عليه السلام- متوجهاً نحو الأرض المقدسة، وأخذ الألواح بعد ما سكت عنه الغضب فأمرهم بالذي أمر به من الوظائف، فثقل ذلك عليهم، وأبوا أن يقرأوا بها، فنتق الله عليهم الجبل كأنه ظلة، ودنا منهم حتى خافوا أن يقع عليهم، فأخذوا الكتاب بأيمانهم وهم مصغون ينظرون إلى الجبل، والكتاب بأيديهم، وهم من وراء الجبل؛ مخافة أن يقع عليهم.

ثم مضوا حتى أتوا الأرض المقدسة، فوجدوا مدينة فيها قوم جبارون؛ خلقهم خلق منكر، وذكروا من ثمارهم أمراً عجباً من عظمها. فقالوا: ﴿قَالُوا يَمْوَسَّىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾ لا طاقة لنا بهم، ولا ندخلها ما داموا فيها ﴿فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾. ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ﴾؛ قيل ليزيد: هكذا قرأه؟ قال: نعم، من الجبارين، آمنا بموسى وخرجنا إليه، فقالوا: نحن أعلم بقومنا؛ إن كنتم إنما تخافون ما رأيتم من أجسامهم وعددهم؛ فإنهم لا

قلوب لهم ولا منعة عندهم. فادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه؛ فإنكم غالبون. ويقول أناس: إنهم من قوم موسى.

فقال الذين يخافون من بني إسرائيل: ﴿قَالُوا يَمْوَسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴿١١﴾﴾ فأغضبوا موسى، فدعا عليهم، وسماهم فاسقين، ولم يدع عليهم قبل ذلك لما رأى منهم من المعصية وإساءتهم حتى كان يومئذ، فاستجاب الله له، وسماهم كما سماهم موسى فاسقين، فحرمها عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض؛ يصبحون كل يوم، فيسيرون، ليس لهم قرار.

ثم ظلل عليهم الغمام في التيه، وأنزل عليهم المن والسلوى، وجعل لهم ثياباً لا تبلى ولا تتسخ، وجعل بين ظهرانيهم حجراً مربعاً، وأمر موسى فضربه بعصاه، فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا، في كل ناحية ثلاثة أعين، وأعلم كل سبط عينهم التي يشربون منها؛ فلا يرتحلون من محلة إلا وجدوا ذلك الحجر بينهم بالمكان الذي كان فيه بالأمس.

رفع ابن عباس هذا الحديث إلى النبي ﷺ، وصدق ذلك عندي: أن معاوية سمع ابن عباس يحدث هذا الحديث، فأنكر عليه أن يكون الفرعوني الذي أفشى على موسى أمر القتل الذي قتل، فقال: كيف يفشي عليه ولم يكن علم به ولا ظهر عليه إلا الإسرائيلي الذي حضر ذلك؟! فغضب ابن عباس، فأخذ بيد معاوية، وانطلق به إلى سعد بن مالك الزهري، فقال له: يا أبا إسحاق! هل تذكر يوم حدثنا رسول الله ﷺ عن قتيل موسى الذي قتل من آل فرعون؟ الإسرائيلي الذي أفشى عليه أم الفرعوني؟ قال: إنما أفشى عليه الفرعوني بما سمع من الإسرائيلي الذي شهد ذلك وحضره.

هكذا ساق هذا الحديث الإمام النسائي، وأخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم في «تفسيرهما» من حديث يزيد بن هارون، والأشبه - والله أعلم - أنه موقوف^(١)، وكونه مرفوعاً فيه نظر، وغالبه متلقى من الإسرائيليات، وفيه شيء

(١) أخرجه النسائي في «تفسيره» (٢/٤١-٦٢/٣٤٦)، والطبري في «جامع البيان»

يسير مصرح برفعه في أثناء الكلام، وفي بعض ما فيه نظر ونكارة، والأغلب أنه من كلام كعب الأخبار، وقد سمعت شيخنا الحافظ أبا الحجاج المزني يقول ذلك، والله - سبحانه وتعالى - أعلم^(١).

= (١٢٥/١٦) وابن أبي حاتم في « تفسيره »؛ كما في « تفسير القرآن العظيم » (٣٧٧/٥)، والطحاوي في « مشكل الآثار » (٦٦)، وأبو يعلى في « مسنده » (٢٦١٨)، وابن عدي في « الكامل » (٤٠٠/١)، وأحمد بن منيع في « مسنده »؛ كما في « إتحاف الخيرة المهرة » (١١١/٨) - ٧٧٤٨/١٢٣ - ط الرشد وغيرهم بسند رجاله ثقات؛ كما قال الهيثمي في « مجمع الزوائد » (٦٩/٧).

قال الحافظ ابن حجر في « فتح الباري » (٤٢٧/٦): « لمح المصنف بهذه التفاسير، لما جرى لموسى في خروجه إلى مدين، ثم رجوعه إلى مصر، ثم في إخباره مع فرعون، ثم في غرق فرعون، ثم في ذهابه إلى الطور، ثم في عبادة بني إسرائيل العجل، وكأنه لم يثبت عنده في ذلك من المرفوعات ما هو على شرطه، وأصح ما ورد في جميع ذلك ما أخرجه النسائي وأبو يعلى بإسناد حسن عن ابن عباس في حديث الفتون الطويل. قلت: وقد رجّح المصنف، وشيخه المزني وقفه، وأن غالبه متلقى من الإسرائيليات، وليس كذلك - عندي - للوجوه الآتية:

- ١- التصريح برفعه إلى رسول الله ﷺ.
- ٢- أن مثله لا يقال بالرأي والاجتهاد.
- ٣- أن ابن عباس صح عنه عدم الأخذ عن أهل الكتاب، ونهى المسلمين عن ذلك؛ كما عند البخاري.

(١) ونحوه قال المصنف - رحمه الله - في « تفسيره » (٣٧٧/٥).

ذكر بناء قبة الزمان

قال أهل الكتاب^(١): وقد أمر الله موسى -عليه السلام- بعمل قبة من خشب الشمشاز وجلود الأنعام وشعر الأغنام، وأمر بزيتها بالحرير المصبغ والذهب والفضة على كيفيات مفصلة عند أهل الكتاب، ولها عشر سرادقات؛ طول كل واحد ثمانية وعشرون ذراعاً، وعرضه أربعة أذرع، ولها أربعة أبواب وأطنا من حرير ودمقس مصبغ، وفيها رفوف وصفائح من ذهب وفضة، ولكل زاوية بابان وأبواب أخر كبيرة وستور من حرير مصبغ وغير ذلك مما يطول ذكره. ويعمل تابوت من خشب الشمشاز يكون طوله ذراعين ونصفاً، وعرضه ذراعاً ونصفاً، وارتفاعه ذراعاً ونصفاً، ويكن مضيقاً بذهب خالص من داخله وخارجه، وله أربع حلق في أربع زواياه، ويكون على حافته كرويان من ذهب - يعنون صفة ملكين بأجنحة - وهما متقابلان؛ صنعة رجل اسمه: بصلييل. وأمره أن يعمل مائدة من خشب الشمشاز، طولها ذراعان، وعرضها ذراع ونصف، وارتفاعها ذراع ونصف، لها ضباب ذهب وإكليل ذهب بشفة مرتفعة بإكليل من ذهب، وأربع حلق من نواحيها من ذهب، مغرزة في مثل الرمان من خشب ملبس ذهباً، وأن يعمل صحافاً ومصافي وقصاعاً على المائدة. ويصنع منارة من الذهب، ذي فيها ست قصبات من ذهب، من كل جانب ثلاثة، على كل قصبة ثلاثة سرج، وليكن في المنارة أربع قناديل، ولتكن هي وجميع هذه الآنية من قنطار ذهب.

ونصبت هذه القبة أول يوم من سنتهم، وهو أول يوم من الربيع، ونصب تابوت الشهادة، وهو - والله أعلم - المذكور في قوله -تعالى-: ﴿إِنَّ آيَةَ

(١) (سفر الخروج: الإصحاح ٢٥-٣١).

قلت: وليس في الإسلام خبر ينفي بناء هذه القبة، وأما التابوت ففي قصة طالوت ما يشير إليه، والله أعلم.

مُلْكِهِمْ أَنْ يَأْتِيَكُمْ أَلْتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ [البقرة: ٢٤٨].

وقد بسط هذا الفصل في كتابهم مطولاً جداً، وفيه شرائع لهم وأحكام وصفة قربانهم وكيفيته، وفيه أن قبة الزمان كانت موجودة قبل عبادتهم العجل الذي هو متقدم على مجيئهم بيت المقدس، وأنها كانت لهم كالكعبة يصلون فيها وإليها ويتقربون عندها، وأن موسى -عليه السلام- كان إذا دخلها؛ يقفون عندها، وينزل عمود الغمام على بابها، فيخرون عند ذلك سجداً لله - عز وجل -، ويكلم الله موسى - عليه السلام - من ذلك العمود الغمام الذي هو نور ويخاطبه ويناجيه ويأمره وينهاه وهو واقف عند التابوت صامداً إلى ما بين الكروبيين؛ فإذا فصل الخطاب؛ يخبر بني إسرائيل بما أوحاه الله - عز وجل - إليه من الأوامر والنواهي، وإذا تحاكموا إليه في شيء ليس عنده من الله فيه شيء؛ يجيء إلى قبة الزمان، ويقف عند التابوت، ويصمد لما بين ذينك الكروبيين، فيأتيه الخطاب بما فيه فصل تلك الحكومة.

وقد كان هذا مشروعاً لهم في زمانهم؛ أعني: استعمال الذهب والحرير المصبغ واللآلئ في معبدتهم وعند مصلاهم. فأما في شريعتنا؛ فلا، بل قد نهينا عن زخرفة المساجد وتزيينها^(١)؛ لئلا تشغل المصلين؛ كما قال عمر بن الخطاب^(٢) -رضي الله عنه- لما وسع مسجد رسول الله ﷺ للذي وكله على عمارته: ابن للناس ما يكتنهم، وإياك أن تحمر أو تصفر؛ فتفتن الناس! وقال ابن عباس^(٣): لتزخرفنها كما زخرفت اليهود والنصارى كنائسهم! وهذا من باب التشريف والتكريم والتنزيه؛ فهذه الأمة غير مشابهة من كان قبلهم من الأمم؛ إذ جمع الله همهم في صلاتهم على التوجه إليه والإقبال عليه، وصان أبصارهم وخواطرهم

(١) حسن - كما في «الصحيحة» لشيخنا - رحمه الله - (١٣٥١).

(٢) علقه البخاري (١/٥٣٩).

(٣) صحيح - كما بينته في كتابي «موسوعة المناهي الشرعية» (١/٣٥٣).

عن الاشتغال والتفكير في غير ما هم بصدده من العبادة العظيمة، فله الحمد والمنة.

وقد كانت قبة الزمان هذه مع بني إسرائيل في التيه، يصلون إليها وهي قبلتهم وكعبتهم، وإمامهم كليم الله موسى -عليه السلام-، ومقدم القربان أخوه هارون -عليه السلام-، فلما مات هارون ثم موسى -عليهما السلام-؛ استمر بنو هارون في الذي كان يليه أبوهم من أمر القربان، وهو فيهم إلى الآن. وقام بأعباء النبوة بعد موسى وتدبير الأمر بعده فتاه يوشع بن نون -عليه السلام- وهو الذي دخل بهم بيت المقدس.

والمقصود هنا: أنه لما استقرت يده على البيت المقدس؛ نصب هذه القبة على صخرة بيت المقدس، فكانوا يصلون إليها؛ فلما بادت؛ صلوا إلى محلتها وهي الصخرة؛ فلهذا كانت قبلة الأنبياء بعده إلى زمان رسول الله ﷺ.

وقد صلى إليها رسول الله ﷺ قبل الهجرة، وكان يجعل الكعبة بين يديه، فلما هاجر أمر بالصلاة إلى بيت المقدس فصلى إليه ستة عشر - وقيل سبعة عشر شهراً-، ثم حولت القبلة إلى الكعبة - وهي قبلة إبراهيم - في شعبان سنة اثنتين في وقت صلاة العصر، وقيل: الظهر^(١)؛ كما بسطنا ذلك في «التفسير»^(٢) عند قوله تعالى: ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّيْتُمْ عَنْ قِبَلَتِهِمْ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ﴾ إلى قوله: ﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ [البقرة: ١٤٢-١٤٤].

(١) «صحيح البخاري» (٤٠ و ٣٩٩ و ٤٤٩٢ و ٧٢٥٢)، و «صحيح مسلم» (٥٢٥).

(٢) (٢٧٣/١-٢٨٢).

قصة قارون مع موسى - عليه السلام -

قال الله - تعالى -: ﴿ إِنَّ قُرُونَكَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بَلِّغْنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قُرُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ كِتَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَتَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَآبُ اللَّهُ بِبَسْطِ الرِّزْقِ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيَكَآبُ لَهُ لَا يَفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ تَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَلَقَبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [القصص: ٧٦-٨٣].

عن ابن عباس؛ قال: كان قارون ابن عم موسى^(١). وكذا قال إبراهيم النخعي وعبد الله بن الحارث بن نوفل وسماك بن حرب وقتادة ومالك بن دينار وابن جريج. قال ابن جرير^(٢): وهذا قول أكثر أهل العلم؛ أنه كان ابن عم موسى. قال قتادة^(٣): وكان يسمى المنور؛ لحسن صوته بالتوراة، ولكن عدو الله نافق كما

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٧٥ / ٢٠) بسند حسن.

(٢) في «تاريخ الأمم والملوك» (٢٦٢ / ١).

(٣) أخرجه الطبري (٦٧ / ٢٠) بسند صحيح.

نافق السامري، فأهلكه البغي؛ لكثرة ماله.

وقد ذكر الله -تعالى- كثر كنوزه، حتى إن مفاتحه كان يثقل حملها على الفئام^(۱) من الرجال الشداد، وقد قيل: إنها كانت من الجلود، وإنها كانت تحمل على ستين بغلاً، فאלله أعلم.

وقد وعظه النصحاء من قومه قائلين: ﴿لَا تَفْرَحْ﴾؛ أي: لا تبطر بما أعطيت، وتفخر على غيرك؛ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ وَأَبْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ؛ يقولون: لتكن همتك مصروفة لتحصيل ثواب الله في الدار الآخرة؛ فإنه خير وأبقى، ومع هذا: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾؛ أي: وتناول منها بما لك ما أحل الله لك؛ فتمتع لنفسك بالملاذ الطيبة الحلال، ﴿وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾؛ أي: وأحسن إلى خلق الله كما أحسن الله خالقهم وبارئهم إليك، ﴿وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ﴾؛ أي: ولا تسعى إليهم ولا تفسد فيهم، فتقابلهم ضد ما أمرت فيهم؛ فيعاقبك ويسلبك ما وهبك، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾.

فما كان جوابه لقومه على هذه النصيحة الصحيحة الفصيحة؛ إلا أن ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾؛ يعني: أنا لا أحتاج إلى استماع ما ذكرتم، ولا إلى ما إليه أشرت؛ فإن الله إنما أعطاني هذا لعلمه أنني أستحقه وأنني أهل له، ولولا أنني حبيب إليه وحظي عنده؛ لما أعطاني ما أعطاني.

قال الله -تعالى- رداً عليه فيما ذهب إليه: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾؛ أي: قد أهلكنا من الأمم الماضية بذنوبهم وخطاياهم من هو أشد من قارون قوة وأكثر أموالاً وأولاداً؛ فلو كان ما قال صحيحاً؛ لم نعاقب أحداً ممن كان أكثر مالاً منه، ولم يكن ماله دليلاً على محبتنا له واعتنائنا به؛ كما قال -تعالى-: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ [سبا: ۳۷] وقال -تعالى-: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ

مِنْ مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ [المؤمنون: ٥٥].

وهذا الرد عليه يدل على صحة ما ذهبنا إليه من معنى قوله: ﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي ﴾، وأما من زعم أن المراد من ذلك: أنه كان يعرف صنعة الكيمياء، أو أنه كان يحفظ الاسم الأعظم؛ فاستعمله في جمع الأموال؛ فليس بصحيح؛ لأن الكيمياء^(١) تخيل وصبغة لا تحيل الحقائق، ولا تشابه صنعة الخالق. والاسم الأعظم لا يصعد الدعاء به من كافر به، وقارون كان كافراً في الباطن منافقاً في الظاهر. ثم لا يصح جوابه لهم بهذا على التقدير، ولا يبقى بين الكلامين تلازم، وقدوضحنا هذا في كتابنا «التفسير»^(٢)، والله الحمد.

قال الله -تعالى-: ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ﴾: ذكر كثير من المفسرين أنه خرج في تجمل عظيم؛ من ملابس ومراكب وخدم وحشم، فلما رآه من يعظم زهرة الحياة الدنيا؛ تمنوا أن لو كانوا مثله، وغبطوا بما عليه وله، فلما سمع مقالتهم العلماء ذوو الفهم الصحيح الزهاد الألباء؛ قالوا لهم: ﴿ وَيَلَكُم مِّنْ ثَوَابِ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنِ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾؛ أي: ثواب الله في الدار الآخرة خير وأبقى وأجل وأعلى.

قال الله -تعالى-: ﴿ وَلَا يُلْقِنَهَا إِلَّا لَاصْطِرُونَ ﴾؛ أي: وما يلقى هذه النصيحة وهذه المقالة وهذه المهمة السامية إلى الدار الآخرة العلية، عند النظر إلى زهرة هذه الدنيا الدنية؛ إلا من هدى الله قلبه وثبت فؤاده، وأيد لبه وحقق مراده. وما أحسن ما قال بعض السلف: إن الله يحب البصر النافذ عند ورود الشبهات ! والعقل الكامل عند حلول الشهوات.

قال الله -تعالى-: ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِمُ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ

(١) الكيمياء: الحيلة والخذق، وكانت عند القدماء: تحويل بعض المعادن الخسيسة إلى

أخرى نفيسة كالذهب.

وهي على هذا تلبس وتدلّيس وتمويه، أما الآن؛ فهي علم تجريبي ذو أهمية في جميع الصناعات.

(٢) (٦/ ٢٦٤-٢٦٥).

يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴿٨٨﴾: لما ذكر - تعالى - خروجه في زينته واختياله فيها وفخره على قومه بها؛ قال: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ﴾؛ كما روى البخاري^(١) عن النبي ﷺ؛ قال: «بينما رجل يجر إزاره؛ إذ خسف به؛ فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة».

ثم رواه البخاري^(٢) عن أبي هريرة عن النبي ﷺ نحوه.

وقد ذكر عن ابن عباس^(٣) والسدي: أن قارون أعطى امرأة بغياً مالا على أن تقول لموسى - عليه السلام - وهو في ملأ من الناس: إنك فعلت بي كذا وكذا؛ فيقال: إنها قالت له ذلك، فأرعد من الفرق^(٤)، وصلى ركعتين، ثم أقبل عليها؛ فاستحلفها: من ذلك على ذلك، وما حملك عليه؟ فذكرت أن قارون هو الذي حملها على ذلك، واستغفرت الله وتابت إليه. فعند ذلك خر موسى لله ساجداً، ودعا الله على قارون؛ فأوحى الله إليه: إني قد أمرت الأرض أن تطيعك فيه. فأمر موسى الأرض أن تبتلعه وداره، فكان ذلك، فالله أعلم.

وقد قيل: إن قارون لما خرج على قومه في زينته، مر بحفله^(٥) وبغاله وملابسه على مجلس موسى - عليه السلام -، وهو يذكر قومه بأيام الله، فلما رآه الناس انصرف وجوه كثير منهم ينظرون إليه، فدعاه موسى - عليه السلام - فقال له: ما حملك على هذا؟ فقال: يا موسى! أما لئن كنت فضلت علي بالنبوة؛ فقد فضلت عليك بالمال، ولئن شئت؛ لتخرجن فلتدعون علي ولأدعون عليك! فخرج موسى وخرج قارون في قومه، فقال له موسى: تدعو أو أدعو أنا؟ قال: أدعو أنا، فدعا قارون فلم يجب له في موسى. فقال موسى: أدعو؟ قال: نعم. فقال موسى: اللهم! مر الأرض؛ فلتطعني اليوم! فأوحى الله إليه: إني قد فعلت. فقال موسى:

(١) في «صحيحه» (٣٤٨٥).

(٢) في «صحيحه» (٥٧٩٠)، وكذا أخرجه مسلم (٢٠٨٨).

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٧٥ / ٢٠) بسند حسن.

(٤) أخذته القشعريرة من الخوف.

(٥) الجيش الكبير.

يا أرض! خذيهما! فأخذتهم إلى أقدامهم، ثم قال: خذيهما! فأخذتهم إلى ركبهم، ثم إلى مناكبهم؛ ثم قال: أقبلي بكنوزهم وأموالهم! فأقبلت بها حتى نظروا إليها، ثم أشار موسى بيده فقال: اذهبوا بني لاوي، فاستوت بهم الأرض.
وقد روي عن قتادة^(١) أنه قال: يخسف بهم كل يوم قامة إلى يوم القيامة.
وقد ذكر كثير من المفسرين هاهنا إسرائيليات كثيرة، أضربنا عنها صفحاً وتركناها قصداً.

وقوله - تعالى -: ﴿فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُوهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ﴾: لم يكن ناصر له من نفسه ولا من غيره؛ كما قال: ﴿فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ [الطارق: ١٠].

ولما حل به ما حل؛ من الخسف، وذهاب الأموال، وخراب الدار، وإهلاك النفس والأهل والعقار؛ ندم من كان يتمني مثل ما أوتى، وشكروا الله - تعالى -، الذي يدبر عباده بما يشاء من حسن التدبير المخزون؛ ولهذا قالوا: ﴿لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيَكَآئُنَّهُ لَا يَقْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾: وقد تكلمنا على لفظ: ﴿وَيَكَآئُنَّهُ﴾ في «التفسير»^(٢)، وقد قال قتادة: ﴿وَيَكَآئُنَّهُ﴾ بمعنى: ألم تر أن. وهذا قول حسن من حيث المعنى، والله أعلم.

ثم أخبر - تعالى -: أن ﴿الْدَّارُ الْآخِرَةُ﴾، وهي دار القرار، وهي الدار التي يغبط من أعطيها ويعزى من حرمها؛ إنما هي مُعَدَّةٌ ﴿لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾: فالعلو: هو التكبر والفخر والأشر والبطر، والفساد: هو عمل المعاصي اللازمة والمتعدية؛ من أخذ أموال الناس، وإفساد معاشهم، والإساءة إليهم، وعدم النصح لهم، ثم قال - تعالى -: ﴿وَالْعَنَقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾.
وقصة قارون هذه قد تكون قبل خروجهم من مصر؛ لقوله: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ﴾؛ فإن الدار ظاهرة في البنيان، وقد تكون بعد ذلك في التيه،

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٧٦/٢٠) بسند صحيح.

(٢) (٣٨٢/٦).

وتكون الدار عبارة على المحلة التي تضرب فيها الخيام؛ كما قال عنتره^(١) :
يا دار عبلة بالجواء^(٢) تكلمى وعمى صباحاً دار عبلة واسلمى
والله أعلم.

وقد ذكر الله - تعالى - مذمة قارون في غير ما آية من القرآن.
قال الله: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَنٍ مُّبِينٍ ۖ إِلَىٰ
فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقُرُوتَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ۝ ﴾ [غافر: ٢٣-٢٤]، وقال
- تعالى - في سورة العنكبوت بعد ذكر عاد وحمود: ﴿ وَقُرُوتَ وَفِرْعَوْنَ
وَهَامَانَ ۚ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا
سَابِقِينَ ۝ ﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِمْ فَمِنْهُمْ مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَّنْ
أَخَذْتُهُ الصَّيْحَةَ وَمِنْهُمْ مَّنْ حَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ
لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝ ﴾ [العنكبوت: ٣٩-٤٠]؛ فالذي
خسف به الأرض قارون كما تقدم، والذي أغرق فرعون وهامان وجنودهما أنهم
كانوا خاطئين.

(١) ديوانه (ص ٩٨).

(٢) اسم موضع.

باب ذکر فضائل موسی - علیه السلام -

وشمائله وصفاته ووفاته

قال الله - تعالى -: ﴿ وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ۖ وَنَذَيْنَهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ۖ وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ۖ ﴾ [مرم: ۵۱-۵۳].

وقال - تعالى -: ﴿ قَالَ يَمُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلِمِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِنَ الشَّاكِرِينَ ۖ ﴾ [الأعراف: ۱۴۴].

وتقدم^(۱) في «الصحاحين» عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا تفضلوني على موسى؛ فإن الناس يصعقون يوم القيامة، فأكون أول من يفيق، فأجد موسى باطشا بقائمة العرش؛ فلا أدري؛ أصعق فأفاق قبلي؟ أم جوزي بصعقة الطور؟».

وقد قدمنا أنه من رسول الله ﷺ من باب الهضم والتواضع، وإلا؛ فهو صلوات الله وسلامه عليه خاتم الأنبياء وسيد ولد آدم في الدنيا والآخرة، قطعاً جزماً لا يحتمل النقيض.

وقال - تعالى -: ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ ۚ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ ۖ إِلَىٰ أَنْ قَالُوا: ﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ۖ ﴾ [النساء: ۱۶۳-۱۶۴].

وقال - تعالى -: ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَادَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا ۖ ﴾ [الأحزاب: ۶۹].

روى الإمام أبو عبد الله البخاري: عن أبي هريرة؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن موسى كان رجلاً حياً ستيراً لا يرى من جلده شيء استحياء منه، فأذاه من آذاه من بني إسرائيل، فقالوا: ما يستتر هذا التستر إلا من عيب بجلده: إما برص،

ولما أدركه^(١)، ولما آفة! وإن الله عز وجل - أراد أن يبرئه مما قالوا لموسى، فخلا يوماً وحده، فوضع ثيابه على الحجر ثم اغتسل، فلما فرغ؛ أقبل على ثيابه ليأخذها، وإن الحجر عدا بثوبه، فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر فجعل يقول: ثوبي حجر! ثوبي حجر! حتى انتهى إلى ملأ من بني إسرائيل فرأوه عرياناً أحسن ما خلق الله، وبرأه الله مما يقولون، وقام الحجر فأخذ ثوبه، فلبسه، وطفق بالحجر ضرباً بعصاه، فوالله إن بالحجر لندباً من أثر ضربه ثلاثاً أو أربعاً أو خمساً؛ فذلك قوله - عز وجل -: ﴿يَتَأْتِيهَا اللَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَادَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾ [الأحزاب: ٦٩] ^(٢).

قال بعض السلف: كان من وجاهته أنه شفع في أخيه عند الله، وطلب منه أن يكون معه وزيراً، فأجابه الله إلى سؤاله وأعطاه طلبته وجعله نبياً؛ قال ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾ [مريم: ٥٣].

ثم روى البخاري: عن عبد الله بن عباس؛ قال: قسم رسول الله ﷺ قسماً، فقال رجل: إن هذه لقسمة ما أريد بها وجه الله، فأتيت النبي ﷺ فأخبرته فغضب، حتى رأيت الغضب في وجهه، ثم قال: «يرحم الله موسى؛ قد أودى بأكثر من هذا فصبر» ^(٣).

وقد ثبت في «الصحيح» في أحاديث الإسراء: أن رسول الله ﷺ مر بموسى وهو قائم يصلي في قبره. رواه مسلم ^(٤) عن أنس.

وفي «الصحيحين» ^(٥) من رواية قتادة، عن أنس، عن مالك بن صعصعة، عن النبي ﷺ أنه مر ليلة أسري به بموسى في السماء السادسة، فقال له جبريل: هذا

(١) انتفاخ الخصى.

(٢) أخرجه البخاري (٢٧٨ و ٣٤٠)، ومسلم (٣٣٩)، وأحمد (٣١٥/٢) و ٣٩٢ و ٥١٥ و ٥٢٥.

(٣) أخرجه البخاري (٣٤٠٥)، ومسلم (١٠٦٢).

(٤) في «صحيحه» (٢٣٧٥)، وكذا أحمد (١٢٠/٣) و ١٤٨ و ٢٤٨.

(٥) أخرجه البخاري (٣٢٠٧ و ٣٣٩٣ و ٣٤٣٠ و ٣٨٨٧)، ومسلم (١٦٤).

موسى؛ فسلم عليه. قال: «فسلمت عليه فقال: مرحباً بالنبي الصالح والأخ الصالح، فلما تجاوزت؛ بكى. قيل له: ما يبكيك؟ قال: أبكي؛ لأن غلاماً بعث بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر مما يدخله من أمتي».

وذكر إبراهيم في السماء السابعة، وهذا هو المحفوظ، وما وقع في حديث شريك بن أبي نمر، عن أنس؛ من أن إبراهيم في السادسة وموسى في السابعة، بتفضيل كلام الله؛ فقد ذكر غير واحد من الحفاظ أن الذي عليه الجادة: أن موسى في السادسة وإبراهيم في السابعة، وأنه مسند ظهره إلى البيت المعمور، الذي يدخله كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة ثم لا يعودون إليه آخر ما عليهم.

واتفقت الروايات كلها على أن الله - تعالى - لما فرض على محمد ﷺ وأمه خمسين صلاة في اليوم واللييلة؛ مر بموسى، فقال: ارجع إلى ربك؛ فسله التخفيف لأمتك؛ فإنني قد عاجلت بني إسرائيل قبلك أشد المعالجة، وإن أمتك أضعف أسماعاً وأبصاراً وأفئدة. فلم يزل يتردد بين موسى وبين الله - عز وجل -، ويخفف عنه في كل مرة، حتى صارت إلى خمس صلوات في اليوم واللييلة، وقال الله - تعالى -: هي خمس، وهي خمسون. أي: بالمضاعفة؛ فجزى الله عنا محمداً ﷺ خيراً، وجزى الله عنا موسى - عليه السلام - خيراً^(١).

وروى البخاري^(٢): عن ابن عباس؛ قال: خرج علينا رسول الله ﷺ يوماً، فقال: «عرضت علي الأمم ورأيت سواداً كثيراً سدّ الأفق، فقليل: هذا موسى في قومه». مختصراً.

ورواه الإمام أحمد^(٣) مطولاً؛ عن حصين بن عبد الرحمن؛ قال: كنت عند سعيد بن جبير، فقال: أيكم رأى الكوكب الذي انقض البارحة؟ قلت: أنا، ثم

(١) وقول موسى - عليه السلام - لنبينا محمد ﷺ من باب الخبرة بالناس والنصح لهذه الأمة المرحومة، وليس من باب الوصاية؛ كما زعم من لا علم عنده؛ فطعن في حديث الإسراء لذلك، وزعم أنها الإسرائيليات!

(٢) في « صحيحه » (٣٤١٠).

(٣) في « مسنده » (٢٧١ / ١)، وكذا رواه البخاري (٥٧٠٥)، ومسلم (٢٢٠).

قلت: إني لم أكن في صلاة، ولكن لدغت. قال: وكيف فعلت؟ قلت: استرقيت، قال: وما حملت على ذلك؟ قال: قلت: حديث حدثناه الشعبي عن بريدة الأسلمي: أنه قال: لا رقية إلا من عين أو حمة^(١). فقال سعيد - يعني: ابن جبير -: قد أحسن من انتهى إلى ما سمع. ثم قال: حدثنا ابن عباس، عن النبي ﷺ؛ قال: «عرضت علي الأمم فرأيت النبي ومعه الرهط، والنبي معه الرجل والرجلان، والنبي وليس معه أحد؛ إذ رفع لي سواد عظيم، فقلت: هذه أمي؟ فقيل: هذا موسى وقومه، ولكن انظر إلى الأفق؛ فإذا سواد عظيم، ثم قيل: انظر إلى هذا الجانب. فإذا سواد عظيم، فقيل: هذه أمتك ومعهم سبعون ألفا يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب». ثم نهض رسول الله ﷺ فدخل، فخاض القوم في ذلك، فقالوا: من هؤلاء الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب؟ فقال بعضهم: لعلمهم الذين صحبوا النبي ﷺ. وقال بعضهم: لعلمهم الذين ولدوا في الإسلام ولم يشركوا بالله شيئاً قط... وذكروا أشياء. فخرج إليهم رسول الله ﷺ، فقال: «ما هذا الذي كنتم تخوضون فيه؟». فأخبروه بمقاتلتهم؛ فقال: «هم الذين لا يكتوون ولا يسترقون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون». فقام عكاشة بن محصن الأسدي فقال: أنا منهم يا رسول الله؟ قال: «أنت منهم». ثم قام آخر فقال: أنا منهم يا رسول الله؟ فقال: «سبقك بها عكاشة».

وهذا الحديث له طرق كثيرة جداً، وهو في الصحاح والحسان وغيرها، وقد أوردناها في باب صفة الجنة^(٢) عند ذكر أحوال القيامة وأهوالها.

وقد ذكر الله - تعالى - موسى - عليه السلام - في القرآن كثيراً، وأثنى عليه وأورد قصته في كتابه العزيز مراراً، وكررها كثيراً؛ مطولة ومبسوطة ومختصرة، وأثنى عليه ثناءً بليغاً.

وكثيراً ما يقرنه الله ويذكره ويذكر كتابه مع محمد ﷺ وكتابه؛ كما قال في

(١) لدغة من كل ذات سم من الهوام.

(٢) في «البداية والنهاية» (١٠/٥٧٨) - فصل أمه محمد أكثر أهل الجنة عدداً وأعلامهم مكاناً ومكانة).

سورة البقرة: ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾ [البقرة: ١٠١].

وقال -تعالى-: ﴿ اَلَمْ يَكُنْ لِلَّهِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴿١﴾ نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٢﴾ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِبَايَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴿٣﴾ ﴾ [آل عمران: ١-٤].

وقال -تعالى- في سورة الأنعام [٩١ و ٩٢]: ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَن أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ يَجْعَلُونَهُ قُرْآنًا يَسْتَدِينُونَ وَكَثِيرًا مِّنْهُمْ كَفَرُوا وَكَثِيرًا مِّنْهُمْ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ قُلُوبُهُمْ قُلُوبُ الْغُلَامِ قُلْ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿١﴾ وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقٌ لِّلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٢﴾ ﴾ فائنى الله -تعالى- على التوراة، ثم مدح القرآن العظيم مدحاً عظيماً.

وقال -تعالى- في آخرها: ﴿ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَىٰ الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤﴾ ﴾ [الأنعام: ١٥٤ و ١٥٥].

وقال -تعالى- في سورة المائدة [٤٤-٤٨]: ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَّحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَآخِشُوا وَلَا تَشْتَرُوا بِبَايَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَن لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارٌ لَهُ وَمَن لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢﴾ وَفَقَيْنَا عَلَىٰ عَائِلِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ

مِنَ التَّوْرَةِ وَءَاتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٦﴾ وَلِيَحْكُمَ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٧﴾ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ سَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُم فَاسْتَقِيمُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٨﴾ ﴿١٩﴾

فجعل القرآن حاكماً على سائر الكتب غيره، وجعله مصداقاً لها ومبيناً ما وقع فيها من التحريف والتبديل، فإن أهل الكتاب استحفظوا على ما بأيديهم من الكتب، فلم يقدروا على حفظها ولا على ضبطها وصونها؛ فلهذا دخلها ما دخلها من تغييرهم وتبديلهم؛ لسوء فهمهم، وقصورهم في علومهم، ورداءة قصودهم، وخيانتهم لمعبودهم؛ عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة؛ ولهذا يوجد في كتبهم من الخطأ البين على الله وعلى رسوله ما لا يجد ولا يوصف، وما لا يوجد مثله ولا يعرف.

وقال -تعالى- في سورة الأنبياء [٤٨-٥٠]: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾

وقال الله -تعالى- في سورة القصص [٤٨ و ٤٩]: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٩﴾﴾؛ فأتى الله على الكتابين وعلى الرسولين -عليهما السلام-.

وقالت الجن لقومهم: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾ [الأحقاف: ٣٠].

وقال ورقة بن نوفل لما قص عليه رسول الله خبر ما رأى من أول الوحي وتلا عليه: ﴿ أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝ ﴾ [العلق: ١-٥]؛ قال: سبوح سبوح، هذا الناموس الذي أنزل على موسى بن عمران^(١).

وبالجملة؛ فشريعة موسى -عليه السلام- كانت شريعة عظيمة، وأمتة كانت أمة كثيرة، ووجد فيها أنبياء وعلماء، وعباد وزهاد وألباء، وملوك وأمراء، وسادات وكبراء؛ لكنهم كانوا فبادوا، وتبدلوا كما بدلت شريعتهم، ومسخوا قردة وخنازير ثم نسخت بعد كل حساب ملتهم، وجرت عليهم خطوب وأمور يطول ذكرها، ولكن سنورد ما فيه مقنع لمن أراد أن يبلغه خبرها -إن شاء الله تعالى-، وبه الثقة وعليه التكلان.

(١) أخرجه البخاري (٣)، ومسلم (١٦٠).

ذكر حجه - عليه السلام - إلى البيت العتيق وصفته

روى الإمام أحمد^(١): عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ مر بوادي الأزرق، فقال: «أي واد هذا؟». قالوا: وادي الأزرق. قال: «كأنني أنظر إلى موسى، وهو هابط من الثنية، وله جوار إلى الله - عز وجل - بالتلبية». حتى أتى على ثنية هرشاء، فقال: «أي ثنية هذه؟». قالوا: هذه ثنية هرشاء. قال: «كأنني أنظر إلى يونس بن متى، على ناقة حمراء، عليه جبة من صوف، خطام ناقته خلبة - قال هشيم: يعني: ليفا - وهو يلي».

وروى الإمام أحمد^(٢): عن مجاهد؛ قال: كنا عند ابن عباس، فذكروا الدجال، فقال: إنه مكتوب بين عينيه (ك ف ر). فقال: ما يقولون؟ قال: يقولون: مكتوب بين عينيه (ك ف ر). فقال ابن عباس: لم أسمعه قال ذلك، ولكن قال: «أما إبراهيم؛ فانظروا إلى صاحبكم، وأما موسى؛ فرجل آدم جعد الشعر على جمل أحمر مخطوم بخلبة، كأنني أنظر إليه وقد انحدر من الوادي يلي».

قال هشيم: الخلبة: الليف.

وروى الإمام أحمد^(٣): عن أبي العالية، حدثنا ابن عم نبيكم ابن عباس؛ قال: قال نبي الله ﷺ: «رأيت ليلة أسري بي موسى بن عمران رجلاً أدم طوالاً جعداً؛ كأنه من رجال شنوءة، ورأيت عيسى ابن مريم مربوع الخلق، إلى الحمرة والبياض، سبط الرأس».

وروى الإمام أحمد^(٤): عن أبي هريرة؛ قال: قال رسول الله ﷺ - حين أسري به - : «لقد لقيت موسى، فنعتته»؛ قال: رجل - حسبته قال: - مضطرب، رجل

(١) في «مسنده» (٢١٥/١)، وكذا مسلم (١٦٦).

(٢) في «المسند» (٢٧٦-٢٧٧)، والبخاري (٣٣٥٥)، ومسلم (١٦٦/٢٧٠).

(٣) في «المسند» (٢٤٥ و ٢٥٩)، وأخرجه البخاري (٣٢٣٩)، ومسلم (١٦٦).

(٤) في «المسند» (٢٨٢/٢)، وأخرجه البخاري (٣٣٩٤)، ومسلم (١٦٨).

الرأس؛ كأنه من رجال شنوءة، ولقيت عيسى فنعته رسول الله ﷺ، فقال: «ربعة
أحمر كأنما خرج من ديماس» - يعني: حماما - قال: «ورأيت إبراهيم وأنا أشبه ولده
به». الحديث.

وقد تقدم غالب هذه الأحاديث في ترجمة الخليل صلوات الله عليه
وسلامه-.

ذكر وفاته - عليه السلام -

روى البخاري في «صحيحه»^(١): وفاة موسى - عليه السلام -: عن أبي هريرة؛ قال: أرسل ملك الموت إلى موسى - عليه السلام -، فلما جاءه؛ صكّه؛ فرجع إلى ربه - عز وجل -، فقال: أرسلتني إلى عبد لا يريد الموت. قال: ارجع إليه فقل له: يضع يده على متن ثور^(٢)، فله بما غطت يده بكل شعرة سنة. قال: أي رب! ثم ماذا؟ قال: ثم الموت، قال: فالآن. قال: فسأل الله - عز وجل - أن يدينه من الأرض المقدسة رمية بحجر. قال أبو هريرة: فقال رسول الله ﷺ: «فلو كنت ثم؛ لأريتكم قبره إلى جانب الطريق عند الكثيب الأحمر».

وقد زعم بعضهم: أن موسى - عليه السلام - هو الذي خرج بهم من التيه ودخل بهم الأرض المقدسة! وهذا خلاف ما عليه أهل الكتاب وجمهور المسلمين!! ومما يدل على ذلك قوله لما اختار الموت: رب! أدنني إلى الأرض المقدسة رمية بحجر! ولو كان قد دخلها؛ لم يسأل ذلك، ولكن لما كان مع قومه بالتيه، وحانت وفاته - عليه السلام -؛ أحب أن يتقرب إلى الأرض التي هاجر إليها، وحث قومه عليها - ولكن حال بينهم وبينها القدر - رمية بحجر؛ ولهذا قال سيد البشر، ورسول الله إلى أهل الوبر والمدن: «فلو كنت ثم؛ لأريتكم قبره عند الكثيب الأحمر».

وقد قدمنا أنه لم يخرج أحد من التيه ممن كان مع موسى، سوى يوشع بن نون، وكالب بن يفته، وهو زوج مريم أخت موسى وهارون، وهما الرجلان المذكوران فيما تقدم، اللذان أشارا على ملا بني إسرائيل بالدخول عليهم.

(١) (١٣٣٩ و ٣٤٠٧) موقوفا ومرفوعا، وأخرجه مسلم - أيضا - (٢٣٧٢).

(٢) جلد.

ذكر نبوة يوشع

وقيامه بأعباء بني إسرائيل

بعد موسى وهارون - عليهما السلام -

هو يوشع بن نون، وقد ذكره الله - تعالى - في القرآن غير مصرح باسمه في قصة الخضر؛ كما تقدم من قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتْنِهِ﴾ [الكهف: ٦٠]، ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتْنِهِ ءَاتِنَا غَدَاءَنَا﴾ [الكهف: ٦٢]، وقدما ما ثبت في «الصحيح» من رواية أبي بن كعب - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ من أنه يوشع بن نون. وهو متفق على نبوته عند أهل الكتاب^(١)؛ فإن طائفة منهم - وهم السامرة - لا يقرون بنبوة أحد بعد موسى إلا يوشع بن نون؛ لأنه مصرح به في التوراة، ويكفرون بما وراءه، وهو الحق مصدقا لما معهم من ربهم؛ فعليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة!

وأما ما حكاه ابن جرير^(٢) وغيره من المفسرين عن محمد بن إسحاق من أن النبوة حولت من موسى إلى يوشع في آخر عمر موسى، فكان موسى يلقي يوشع، فيسأله ما أحدث الله إليه من الأوامر والنواهي؟ حتى قال له: يا كليم الله! إنني كنت لا أسألك عما يوحى الله إليك حتى تخبرني أنت ابتداء من تلقاء نفسك! فعند ذلك كره موسى الحياة وأحب الموت؛ ففي هذا نظر؛ لأن موسى - عليه السلام - لم يزل الأمر والوحي والتشريع والكلام من الله إليه من جميع أحواله حتى توفاه الله - عز وجل -، ولم يزل معززا مكرما مدللا وجيها عند الله؛ كما قدمنا في «الصحيح» من قصة فقته عين ملك الموت، ثم بعثه الله إليه: إن كان يريد الحياة؛ فليضع يده على جلد ثور؛ فله بكل شعرة وارت يده سنة يعيشها. قال: ثم ماذا؟ قال: الموت، قال: فالآن يا رب! وسأل الله أن يدينه إلى البيت المقدس رمية

(١) (سفر يشوع: الإصحاح ١).

(٢) في «تاريخه» (٢٥٥/١).

بحجر. وقد أجيب إلى ذلك -صلوات الله وسلامه عليه-.

فهذا الذي ذكر محمد بن إسحاق: إن كان إنما يقوله من كتب أهل الكتاب؛ ففي كتابهم الذي يسمونه التوراة^(١): أن الوحي لم يزل ينزل على موسى في كل حين يحتاجون إليه إلى آخر مدة موسى؛ كما هو المعلوم من سياق كتابهم عند تابوت الشهادة في قبة الزمان.

ولقد ذكروا في السفر الثالث^(٢): أن الله أمر موسى وهارون أن يعدا بني إسرائيل على أسباطهم، وأن يجعلوا على كل سبط من الاثني عشر أميراً، وهو النقيب؛ وماذا إلا ليتأهبوا للقتال - قتال الجبارين - عند الخروج من التيه، وكان هذا عند اقتراب انقضاء الأربعين سنة.

ولهذا قال بعضهم: إنما فقا موسى - عليه السلام - عين ملك الموت؛ لأنه لم يعرفه في صورته تلك؛ ولأنه كان قد أمر بأمر كان يرتجى وقوعه في زمانه، ولم يكن في قدر الله أن يقع ذلك في زمانه، بل في زمان فتاه يوشع بن نون - عليه السلام -.

كما أن رسول الله ﷺ كان قد أراد غزو الروم بالشام؛ فوصل إلى تبوك، ثم رجع عامه ذلك في سنة تسع، ثم رجع فجهز جيش أسامة إلى الشام طليعة بين يديه، ثم كان على عزم الخروج إليهم؛ امثالاً لقوله -تعالى-: ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ [التوبة: ٢٩].

ولما جهز رسول الله جيش أسامة؛ توفي - عليه الصلاة والسلام - وأسامة مخيم بالجرف، فنقذه صديقه وخليفته أبو بكر الصديق - رضي الله عنه -، ثم لما لم شعث جزيرة العرب وما كان دها من أمر أهلها وعاد الحق إلى نصابه؛ جهز الجيوش بمنة ويسرة إلى العراق أصحاب كسرى ملك الفرس، وإلى الشام أصحاب قيصر ملك الروم؛ ففتح الله لهم، ومكن لهم وبهم، وملكهم نواصي أعدائهم؛ كما سنورده

(١) (سفر التثنية: الإصحاح ٢٨-٣٤).

(٢) بل في السفر الرابع، وهو (سفر العدد: الإصحاح ٢١).

عليك في موضعه إذا انتهينا إليه مفصلاً - إن شاء الله - بعونه وتوفيقه وحسن إرشاده.

وهكذا موسى - عليه السلام -؛ كان الله قد أمره أن يجند بني إسرائيل وأن يجعل عليهم نقباء؛ كما قال - تعالى -: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ [المائدة: ١٢]؛ يقول لهم: لئن قمتم بما أوجبت عليكم، ولم تنكروا عن القتال كما نكلتم أول مرة؛ لأجعلن ثواب هذه مكفراً لما وقع عليكم من عقاب تلك؛ كما قال - تعالى - لمن تخلف من الأعراب عن رسول الله ﷺ عن غزوة الحديبية: ﴿ قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سِتْرُ دَعْوَانِي إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [الفتح: ١٦]، وهكذا قال - تعالى - لبني إسرائيل: ﴿ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ [المائدة: ١٢]، ثم ذمهم - تعالى - على سوء صنيعهم ونقضهم مواعيدهم كما ذم من بعدهم من النصاري على اختلافهم في دينهم وأديانها، وقد ذكرنا ذلك في «التفسير»^(١) مستقصى، والله الحمد.

والمقصود: أن الله - تعالى - أمر موسى - عليه السلام - أن يكتب أسماء المقاتلة من بني إسرائيل، ممن يحمل السلاح ويقاتل وأن يجعل على كل سبط نقيباً منهم.

والمقصود: أن بني إسرائيل لم يبق منهم أحد ممن كان نكل عن دخول مدينة الجبارين الذين قالوا: ﴿ فَأَذْهَبَ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلْنَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴾ [المائدة: ٢٤]؛ قاله ابن عباس^(٢)، وناس من الصحابة، حتى قال ابن عباس وغيره

(١) (٦٢/٣).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «التفسير»؛ كما في «تفسير القرآن العظيم» للمصنف

(١٠٦/٣).

من علماء السلف والخلف: ومات موسى وهارون قبله كلاهما في التيه جميعاً.

[خروج بني إسرائيل من التيه]

وعلى كل تقدير؛ فالذي عليه الجمهور: أن هارون توفي بالتية قبل موسى أخيه بنحو من سنتين، وبعده موسى في التيه ، وأنه سأل ربه أن يقربه إلى بيت المقدس فأجيب إلى ذلك، فكان الذي خرج بهم من التيه وقصد بهم بيت المقدس هو يوشع بن نون -عليه السلام-.

فذكر أهل الكتاب^(١) وغيرهم من أهل التاريخ: أنه قطع بني إسرائيل نهر الأردن، وانتهى إلى أريحا، وكانت من أحصن المدائن سوراً وأعلاها قصوراً، وأكثرها أهلاً، فحاصرها ستة أشهر، ثم إنهم أحاطوا بها يوماً وضربوا بالقرون - يعني: الأبواق -، وكبروا تكبيرة رجل واحد، فتنسخ سورها وسقط وجبة واحدة، فدخلوها وأخذوا ما وجدوا فيها من الغنائم، وقتلوا اثني عشر ألفاً من الرجال والنساء، وحاربوا ملوكاً كثيرة. وذكروا أنه انتهى محاصرته إلى يوم الجمعة بعد العصر، فلما غربت الشمس أو كادت تغرب، ويدخل عليهم السبب الذي جعل عليهم وشرع لهم ذلك الزمان؛ قال لها: إنك مأمورة وأنا مأمور، اللهم! احبسها علي؛ فحبسها الله عليه حتى تمكن من فتح البلد، وأمر القمر فوقف عند الطلوع. وهذا يقتضي أن هذه الليلة كان الرابعة عشرة من الشهر.

والأول- وهو قصة الشمس المذكورة -في الحديث الذي سأذكره. وأما قصة القمر؛ فمن عند أهل الكتاب، ولا ينافي الحديث؛ بل فيه زيادة تستفاد؛ فلا تصدق ولا تكذب.

ولكن ذكرهم أن هذا في فتح أريحا فيه نظر، والأشبه - والله أعلم - أن هذا كان في فتح بيت المقدس، الذي هو المقصود الأعظم، وفتح أريحا كان وسيلة إليه، والله أعلم.

(١) (سفر يشوع: الإصحاح ٢-٦).

روى الإمام أحمد^(١) عن أبي هريرة؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الشمس لم تحبس لبشر إلا ليوشع ليالي سار إلى بيت المقدس».

وفيه دلالة على أن الذي فتح بيت المقدس هو يوشع بن نون -عليه السلام- لا موسى، وأن حبس الشمس كان في فتح بيت المقدس لا أريحا كما قلنا. وفيه أن هذا كان من خصائص يوشع -عليه السلام-، فبدل على ضعف الحديث الذي روينا: أن الشمس رجعت حتى صلى علي بن أبي طالب صلاة العصر، بعد ما فاتته بسبب نوم النبي ﷺ على ركبته، فسأله رسول الله أن يردها الله عليه حتى يصلي العصر فرجعت^(٢).

وقد صححه أحمد بن صالح المصري، ولكنه منكر ليس في شيء من الصحاح ولا الحسان، وهو مما تتوافر الدواعي على نقله.

وروى الإمام أحمد^(٣) عن أبي هريرة؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «غزا نبي من الأنبياء، فقال لقومه: لا يتبعني رجل قد ملك بضع امرأة وهو يريد أن يبيي بها ولما بين، ولا آخر قد بنى بنياناً ولم يرفع سقفها، ولا آخر قد اشترى غنماً أو خلفات وهو ينتظر أولادها. قال: فغزا، فدنا من القرية حين صلى العصر أو قريباً من ذلك، فقال للشمس: أنت مأمورة وأنا مأمور، اللهم! احبسها عليّ شيئاً».

(١) في «المسند» (٣٢٥/٢)، وكذا الطحاوي في «مشكل الآثار» (١٠/٢) بسند حسن، وجوّده شيخنا -رحمه الله- في «الصحيحة» (٢٠٢).

(٢) موضوع- أخرجه الطحاوي (٨/٢-٩ و٤/٣٨٨)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٢٤/٣٨٢ و٣٩٠)، وابن الجوزي في «الموضوعات» (١/٣٥٦).

قال ابن الجوزي: «موضوع بلا شك».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في «منهاج السنة النبوية» (٨/١٦٥): «الحققون من أهل العلم والمعرفة بالحديث يعلمون أن هذا الحديث موضوع».

وقال شيخنا الألباني -رحمه الله- في «الضعيفة» (٢/٣٩٥): «وجملة القول: إن العاقل إذا تأمل فيما سبق من كلام هؤلاء الحفاظ على هذا الحديث من جهة متنه، وعلم قبل ذلك أنه ليس له إسناد يحتج به؛ يتقن أن الحديث كذب موضوع لا أصل له».

(٣) في «مسنده» (٢/٣١٨)، وأخرجه البخاري (٣١٢٤ و٥١٥٧)، ومسلم (١٧٤٧).

فحبست عليه حتى فتح الله عليه. قال: فجمعوا ما غنموا، فأتت النار لتأكله، فأبت أن تطعمه، فقال: فيكم غلول! فليبايعني من كل قبيلة رجل، فبايعوه فلصقت يد رجل بيده، فقال: فيكم الغلول؛ فليبايعني قبيلتك. فبايعته قبيلته. قال: فلصقت بيد رجلين أو ثلاثة، فقال: فيكم الغلول؛ أنتم غللتهم. قال: فأخرجوا له مثل رأس بقرة من ذهب. قال: فوضعوه بالمال وهو بالصعيد؛ فأقبلت النار، فأكلته. فلم تحمل الغنائم لأحد من قبلنا، ذلك بأن الله رأى ضعفنا وعجزنا؛ فطيهها لنا.

والمقصود: أنه لما دخل بهم باب المدينة؛ أمروا أن يدخلوها سجداً؛ أي: ركعاً متواضعين شاكرين الله - عز وجل - على ما من به عليهم من الفتح العظيم الذي كان الله وعدهم إياه، وأن يقولوا حال دخولهم: حطة؛ أي: حُطَّ عنا خطايانا التي سلفت، من نكولنا الذي تقدم منا!

ولهذا؛ لما دخل رسول الله ﷺ مكة يوم فتحها، دخلها وهو راكب ناقته، وهو متواضع حامد شاكر، حتى إن عشنونه - وهو طرف لحيته - ليمس مورّك رحله، مما يطأطئ رأسه خضوعاً لله - عز وجل -^(١) ومعه الجنود والجيوش ممن لا يرى منه إلا الحدق، ولا سيما الكتيبة الخضراء التي فيها رسول الله ﷺ، ثم لما دخلها؛ اغتسل وصلى ثماني ركعات^(٢)، وهي صلاة الشكر على النصر على المشهور من قول العلماء. وقيل: إنها صلاة الضحى. وما حمل هذا القائل على

(١) حسن - أخرجه أبو يعلى (٣٣٩٣) - وعنه ابن عدي في «الكامل» (١٥٧١/٤) -، والحاكم (٤٧/٣) - وعنه البيهقي في «دلائل النبوة» (٦٨/٥ - ٦٩) - من طريق عبد الله بن أبي بكر المقدمي ثنا جعفر بن سليمان الضبعي عن ثابت عن أنس بنحوه.
قلت: صححه الحاكم على شرط مسلم؛ فوهم؛ فإن مسلماً لم يخرج للمقدمي شيئاً، وهو ضعيف الحديث.

وله شاهد مرسل من حديث عبد الله بن أبي بكر بن حزم باللفظ الذي ذكره المؤلف:
أخرجه ابن إسحاق في «السيرة» (١٩/٤) - ومن طريقه البيهقي (٦٨/٥) - حدثني عبد الله به.

فلعل الحديث بمجموعهما حسن.

(٢) أخرجه البخاري (٤٢٩٢)، ومسلم (٣٣٦).

قوله هذا إلا لأنها وقعت وقت الضحى.

وأما بنو إسرائيل؛ فإنهم خالفوا ما أمروا به قولاً وفعلًا، فدخلوا الباب يزحفون على أستاههم^(١) وهم يقولون: حبة في شعرة! وفي رواية: حنطة في شعرة! وحاصله: أنهم بدلوا ما أمروا به واستهزؤا به؛ كما قال -تعالى- حاكياً عنهم في سورة الأعراف [١٦١ و ١٦٢] -وهي مكية-: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنْ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾.

وقال في سورة البقرة [٥٨-٥٩] -وهي مدنية- مخاطباً لهم: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

عن ابن عباس: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾؛ قال: ركعاً من باب صغير. وقوله: ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾؛ الواو هنا حالية لا عاطفة؛ أي: ادخلوا سجداً في حال قولكم: حطة.

قال ابن عباس^(٢) وعطاء^(٣): أمروا أن يستغفروا.

روى البخاري^(٤): عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ؛ قال: «قيل لبني إسرائيل: ﴿ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ﴾ فدخلوا؛ يزحفون على أستاههم، فبدلوا وقالوا: «حطة؛ حبة في شعرة».

(١) جمع إست، وهو المؤخرة.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥٨٤)، والطبري في «جامع البيان»

(١٠١٢ و ١٠١٦) بسند حسن.

(٣) أخرجه الطبري (١٠١٤) بسند جيد.

(٤) في «صحيحه» (٤٤٧٩/١٦٤/٨).

وروى عبد الرزاق^(١): عن أبي هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «قال الله لبني إسرائيل ﴿ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرَ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ﴾؛ فبدلوا فدخلوا الباب يزحفون على أستاههم فقالوا: حبة في شعرة».

وقد ذكر الله - تعالى - أنه عاقبهم على هذه المخالفة بإرسال الرجز الذي أنزله عليهم، وهو الطاعون؛ كما ثبت في «الصحيحين» من حديث أسامة بن زيد، عن رسول الله ﷺ: أنه قال: «إن هذا الوجع - أو: السقم - رجز عذب به بعض الأمم قبلكم»^(٢).

وروى النسائي عن سعد بن أبي وقاص، وأسماء بن زيد وخزيمة بن ثابت؛ قالوا: قال رسول الله ﷺ: «الطاعون رجز عذب به من كان قبلكم»^(٣). ولما استقرت يد بني إسرائيل على بيت المقدس؛ استمروا فيه، وبين أظهرهم نبي الله يوشع يحكم بينهم بكتاب الله التوراة، حتى قبضه الله إليه.

(١) في «تفسيره» (٥٨/٦٩/١).

(٢) أخرجه البخاري (٦٩٧٤ و ٣٤٧٣)، ومسلم (٢٢١٨/٩٦ و ٩٨)، ومالك في «الموطأ» (٨٩٥/٢) - رواية يحيى الليثي، و (١٨٦٨) - رواية أبي مصعب الزهري.

(٣) أخرجه مسلم (٩٧/٢٢١٨)، والنسائي في «الكبرى» (٧٥٢٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥٩٥) وغيرهم.

وقد فات المصنف - رحمه الله - أن يعزو هذه الطريق لمسلم، وهو أولى كما لا يخفى.

ذكر قصتي الخضر وإلياس عليهما السلام

[قصة الخضر عليه السلام -]

أما الخضر؛ فقد تقدم أن موسى -عليه السلام- رحل إليه في طلب ما عنده من العلم اللدني، وقص الله من خبرهما في كتابه العزيز في سورة الكهف، وذكرنا في تفسير ذلك هنالك، وأوردنا هنا^(١) ذكر الحديث المصرح بذكر الخضر -عليه السلام-، وأن الذي رحل إليه هو موسى بن عمران نبي بني إسرائيل -عليه السلام- الذي أنزلت عليه التوراة.

وقد اختلف في الخضر، اسمه، ونسبه، نبوته، وحياته إلى الآن على أقوال. والأشبه - والله أعلم - أن الخضر لقب غلب عليه.

روى البخاري^(٢) - رحمه الله -: عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «إنما سمي الخضر؛ لأنه جلس على فروة بيضاء؛ فإذا هي تهتز من خلفه خضراء». قال عبد الرزاق: الفروة: الخشيش الأبيض وما أشبه؛ يعني: الهشيم اليابس. وقال الخطابي: وقال أبو عمر: الفروة: الأرض البيضاء التي لا نبات فيها. وقال غيره: هو الهشيم اليابس شبهه بالفروة، ومنه قيل: فروة الرأس وهي جلده بما عليها من الشعر؛ كما قال الراعي^(٣):

ولقد ترى الحبشى حول بيوتنا جذلاً إذا مانال يوماً مأكلاً
صعلاً أسكّ كأن فروة رأسه بذرت فأنبت جانباه فُلُفلاً

قال الخطابي: ويقال: إنما سمي الخضر خضراً؛ لحسنه وإشراق وجهه. قلت: وهذا لا ينافي ما ثبت في «الصحيح»؛ فإن كان ولا بد من التعليل بأحدهما؛ فما ثبت في «الصحيح» أولى وأقوى، بل لا يلتفت إلى ما عداه.

(١) في هذا الكتاب وقد تقدم (ص ٣٤١).

(٢) في «صحيحه» (٣٤٠٢).

(٣) «ديوان الراعي النميري» (ص ٢١٨).

[الاختلاف في نبوة الخضر وولايته]

وتقدم أن موسى ويوشع -عليهما السلام- لما رجعا يقصان الأثر؛ وجدها على طنفسة خضراء، على كبد البحر، وهو مسجى بثوب، قد جعل طرفاه من تحت رأسه وقدميه، فسلم موسى -عليه السلام- فكشف عن وجهه؛ فرد، وقال: أنى بأرضك السلام؟ من أنت؟ قال: أنا موسى. قال: نبي بني إسرائيل؟ قال: نعم... فكان من أمرهما ما قصه الله في كتابه عنهما.

وقد دل سياق القصة على نبوته من وجوه:

أحدها: قوله -تعالى-: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِمَّا لَدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥].

الثاني: قول موسى له: ﴿قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَ مِنَّمَا عَلَّمْتَ رُشْدًا﴾ [١١] قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا [١٢] وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا [١٣] قَالَ سَتَجِدُنِي إِنِ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا [١٤] قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا [١٥] [الكهف: ٦٦-٧٠]؛ فلو كان ولياً وليس بنبي؛ لم يخاطبه موسى بهذه المخاطبة، ولم يرد على موسى هذا الرد، بل موسى إنما سأل صحبته لينال ما عنده من العلم الذي اختصه الله به دونه؛ فلو كان غير نبي، لم يكن معصوماً، ولم تكن لموسى - وهو نبي عظيم ورسول كريم واجب العصمة - كبير رغبة ولا عظيم طلبه في علم ولي غير واجب العصمة، ولما عزم على الذهاب إليه والتفتيش عنه ولو أنه يمضي حقاً من الزمان - قيل: ثمانين سنة -، ثم لما اجتمع به؛ تواضع له وعظمه واتبعه في صورة مستفيد منه، فدل على أنه نبي مثله؛ يوحى إليه كما يوحى إليه، وقد خص من العلوم اللدنية والأسرار النبوية بما لم يطلع الله عليه موسى الكليم نبي بني إسرائيل الكريم.

وقد احتج بهذا المسلك بعينه الرماني على نبوة الخضر -عليه السلام-.

الثالث: أن الخضر أقدم على قتل ذلك الغلام، وما ذاك إلا للوحي إليه من

الملك العلام، وهذا دليل مستقل على نبوته، وبرهان ظاهر على عصمته؛ لأن الولي لا يجوز له الإقدام على قتل النفوس بمجرد ما يلقي في خلدته؛ لأن خاطره ليس بواجب العصمة؛ إذ يجوز عليه الخطأ بالاتفاق، ولما أقدم الخضر على قتل ذلك الغلام الذي لم يبلغ الحلم - علماً منه بأنه إذا بلغ يكفر ويحمل أبويه على الكفر لشدة محبتهم له فيتابعانه عليه؛ ففي قتله مصلحة عظيمة تربو على بقاء مهجته؛ صيانة لأبويه عن الوقوع في الكفر وعقوبته -؛ دل ذلك على نبوته، وأنه مؤيد من الله بعصمته.

وقد رأيت الشيخ أبا الفرج بن الجوزي طرق هذا المسلك بعينه في الاحتجاج على نبوة الخضر وصححه، وحكى الاحتجاج عليه الرماني - أيضاً -.

الرابع: أنه لما فسر الخضر تأويل الأفاعيل لموسى، ووضح له عن حقيقة أمره وجلّى؛ قال بعد ذلك كله: ﴿ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ﴾ [الكهف: ٨٢]؛ يعني: ما فعلته من تلقاء نفسي، بل أمر أمرت به وأوحى إلي فيه.

فدلت هذه الوجوه على نبوته، ولا ينافي ذلك حصول ولايته، بل ولا رسالته؛ كما قاله آخرون، وأما كونه ملكاً من الملائكة؛ فقول غريب جداً.

وإذا ثبتت نبوته - كما ذكرناه -؛ لم يبق لمن قال بولايته وأن الولي قد يطلع على حقيقة الأمور دون أرباب الشرع الظاهر مستند يستندون إليه ولا معتمد يعتمدون عليه.

[هل الخضر لا يزال حياً؟]

وأما الخلاف في وجوده إلى زماننا هذا؛ فالجمهور على أنه باق إلى اليوم. وذكروا أخباراً استشهدوا بها على بقائه إلى الآن، وسنوردها مع غيرها - إن شاء الله تعالى وبه الثقة -.

... وهذه الروايات والحكايات هي عمدة من ذهب إلى حياته إلى اليوم، وكل من الأحاديث المرفوعة ضعيفة جداً، لا يقوم بمثلها حجة في الدين، والحكايات لا تخلو أكثرها عن ضعف في الإسناد، وقصاراها أنها صحيحة إلى من ليس بمعصوم

من صحابي أو غيره؛ لأنه يجوز عليه الخطأ، والله أعلم.
وروى عبد الرزاق^(١): عن أبي سعيد قال: حدثنا رسول الله ﷺ حديثاً طويلاً كان الدجال، وقال فيما يحدثنا: «يأتي الدجال - وهو مُحَرَّم عليه أن يدخل نقاب المدينة فيخرج إليه يومئذ رجل هو خير الناس - (أو: من خیرهم) - فيقول: أشهد أنك أنت الدجال الذي حدثنا عنك رسول الله ﷺ بحديثه. فيقول الدجال: رأيتم إن قتل هذا ثم أحبيته أتشكون في الأمر؟ فيقولون: لا، فيقتله ثم يحياه، فيقول حين يحيا: والله؛ ما كنت أشد بصيرة فيك مني الآن. قال: فريد قتله الثانية فلا يسلط عليه».

قال معمر^(٢): بلغني أنه يجعل على حلقه صحيفة من نحاس، وبلغني أنه الخضر الذي يقتله الدجال ثم يحياه^(٣).

وقال أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن سفيان الفقيه الراوي عن مسلم «الصحيح» يقال: إن هذا الرجل الخضر. وقول معمر وغيره: «بلغني» ليس فيه حجة.

وقد ورد في بعض ألفاظ الحديث: فيأتي بشاب ممتلئ شباباً، فيقتله، وقوله: الذي حدثنا عنه رسول الله ﷺ لا يقتضي المشافهة، بل يكفي التواتر.
وقد تصدى الشيخ أبو الفرج بن الجوزي - رحمه الله - في كتابه: «عجالة المنتظر في شرح حالة الخضر» للأحاديث الواردة في ذلك؛ من المرفوعات؛ فيبين أنها موضوعة، ومن الآثار عن الصحابة والتابعين فمن بعدهم فبين ضعف أسانيدھا

(١) في «المصنف» (٢٠٨٢٤)، وأخرجه البخاري (٧١٣٢)، ومسلم (٢٩٣٨).

(٢) في «جامعه» (٣٩٣/١١).

(٣) قلت: ولا حجة اتفاقاً في كلامه هذا؛ لأنه بلاغ لا يدري قائله، ولو دري؛ فهو مقطوع - وليس هو بحجة - والخضر قد مات قبل النبي ﷺ ولم يدركه؛ على ما هو الراجح عند المحققين؛ كما سيفصله المصنف - رحمه الله - فيما سيأتي. ولذلك قال ابن العربي؛ كما في «فتح الباري» (١٣/١٠٤): «سمعت من يقول: إن الذي يقتله الدجال هو الخضر!! وهذه دعوى لا برهان لها».

بيان أحوالها وجهالة رجالها، وقد أجاد في ذلك وأحسن الانتقاد^(١).

وأما الذين ذهبوا إلى أنه قد مات، ومنهم: البخاري، وإبراهيم الحربي، وأبو الحسين بن المنادي، والشيخ أبو الفرج بن الجوزي وقد انتصر لذلك وألف فيه كتاباً أسماه «عجالة المنتظر في شرح حالة الخضر»؛ فيحتج لهم بأشياء كثيرة: منها: قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ﴾ [الأنبياء: ٣٤]؛ فالخضر إن كان بشراً؛ فقد دخل في هذا العموم لا محالة، ولا يجوز تخصيصه منه إلا بدليل صحيح، والأصل عدمه حتى يثبت، ولم يذكر فيه دليل على التخصيص عن معصوم يجب قبوله.

ومنها: أن الله - تعالى - قال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَآءِ اتَّيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [آل عمران: ٨١].

قال ابن عباس: ما بعث الله نبياً؛ إلا أخذ عليه الميثاق؛ لئن بعث محمد وهو حي؛ ليؤمنن به ولينصرنه، وأمره أن يأخذ على أمته الميثاق؛ لئن بعث محمد وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرنه.

فالخضر إن كان نبياً أو ولياً؛ فقد دخل في هذا الميثاق؛ فلو كان حياً في زمن رسول الله ﷺ لكان أشرف أحواله أن يكون بين يديه؛ يؤمن بما أنزل الله عليه، وينصره أن يصل أحد من الأعداء إليه؛ لأنه إن كان ولياً؛ فالصديق أفضل منه، وإن كان نبياً؛ فموسى أفضل منه.

وقد روى الإمام أحمد في «مسنده»: عن جابر بن عبد الله: أن رسول الله ﷺ قال: «والذي نفسي بيده؛ لو أن موسى كان حياً؛ ما وسعه إلا أن يتبعني»^(٢). وهذا الذي يقطع به، ويعلم من الدين علم الضرورة.

(١) والله در الإمام الهمام ابن قيم الجوزية حيث قال في «المنار المنيف» (ص ٦٧):

«الاحاديث التي يذكر فيها الخضر وحياته؛ كلها كذب، ولا يصح في حياته حديث واحد».

(٢) تقدم تخريجه (ص ٢٥٨).

وقد دلت عليه هذه الآية الكريمة: أن الأنبياء كلهم؛ لو فرض أنهم أحياء مكلفون في زمن رسول الله ﷺ؛ لكانوا كلهم أتباعاً له، وتحت أوامره وفي عموم شرعه؛ كما أنه -صلوات الله وسلامه عليه- لما اجتمع بهم ليلة الإسراء؛ رفع فوقهم كلهم، ولما هبطوا معه إلى بيت المقدس وحانت الصلاة أمره جبريل عن أمر الله أن يؤمهم، فصلى بهم في محل ولايتهم ودار إقامتهم؛ فدل على أنه الإمام الأعظم، والرسول الخاتم المبجل المقدم -صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين-.

فإذا علم هذا - وهو معلوم عند كل مؤمن -؛ علم أنه لو كان الخضر حياً؛ لكان من جملة أمة محمد ﷺ؛ ومن يقتدي بشرعه؛ لا يسعه إلا ذلك... هذا عيسى ابن مريم -عليه السلام- إذا نزل في آخر الزمان؛ يحكم بهذه الشريعة المطهرة؛ لا يخرج منها ولا يحيد عنها؛ وهو أحد أولي العزم الخمسة المرسلين وخاتم أنبياء بني إسرائيل... والمعلوم أن الخضر لم ينقل بسند صحيح ولا حسن تسكن النفس إليه أنه اجتمع برسول الله ﷺ في يوم واحد، ولم يشهد معه قتالاً في مشهد من المشاهد، وهذا يوم بدر يقول الصادق المصدوق فيما دعا به لربه -عز وجل-، واستنصره واستفتحه على من كفره: «اللهم ! إن تهلك هذه العصابة؛ لا تعبد بعدها في الأرض»^(١).

وتلك العصابة كان تحتها سادة المسلمين يومئذ، وسادة الملائكة، حتى جبريل -عليه السلام-؛ كما قال حسان بن ثابت^(٢) في قصيدة له في بيت يقال: إنه أفخر بيت قالته العرب:

وببئر بدر إذ يرُدُّ وجوههم جبريل تحت لوائنا ومحمد
فلو كان الخضر حياً؛ لكان وقوفه تحت هذه الراية أشرف مقاماته وأعظم غزواته.

قال القاضي أبو يعلى محمد بن الحسين بن الفراء الحنبلي: سئل بعض

(١) أخرجه مسلم (١٨٦٣).

(٢) أورده ابن هشام في «السيرة» (١٥٨/١) ونسبه لكعب بن مالك.

أصحابنا عن الخضر: هل مات ؟ فقال: نعم. قال: وبلغني مثل هذا عن أبي طاهر ابن الغباري؛ قال: وكان يحتج بأنه لو كان حيا ؛ لجاء إلى رسول الله ﷺ . نقله ابن الجوزي في «العجالة».

فإن قيل: فهل يقال: إنه كان حاضرا في هذه المواطن كلها؛ ولكن لم يكن أحد يراه ؟.

فالجواب: أن الأصل عدم هذا الاحتمال البعيد، الذي يلزم منه تخصيص العموميات بمجرد التوهمات !! ثم ما الحامل له على هذا الاختفاء؛ وظهوره أعظم لأجره وأعلى في مرتبته وأظهر لمعجزته !؟ ثم لو كان باقيا بعده؛ لكان تبليغه عن رسول الله ﷺ الأحاديث النبوية والآيات القرآنية، وإنكاره لما وقع من الأحاديث المكذوبة والروايات المقلوبة والآراء البدعية والأهواء العصبية، وقتاله مع المسلمين في غزواتهم، وشهود جمعهم وجماعاتهم، ونفعه إياهم، ودفعه الضرر عنهم ممن سواهم، وتسديده العلماء والحكام، وتقريره الأدلة والأحكام، أفضل مما يقال عنه من كونه في الأمصار، وجوبه الفيافي والأقطار، واجتماعه بعباد لا يعرف أحوال كثير منهم، وجعله لهم كالنقيب المترجم عنهم. وهذا الذي ذكرناه لا يتوقف فيه أحد بعد التفهيم، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

ومن ذلك: ما ثبت في «الصحيحين»^(١) وغيرهما عن عبد الله بن عمر: أن رسول الله ﷺ صلى ليلة العشاء، ثم قال: «أرأيتم ليلتكم هذه ؟ فإنه إلى مائة سنة لا يبقى ممن هو على وجه الأرض اليوم أحد». وفي رواية «عين تطرف». قال ابن عمر: فوهل الناس من مقالة رسول الله ﷺ هذه، وإنما أراد انخرام قرنه.

روى الإمام أحمد^(٢): عن عبد الله بن عمر؛ قال: صلى رسول الله ﷺ ذات ليلة صلاة العشاء في آخر حياته، فلما سلم؛ قام؛ فقال: «أرأيتم ليلتكم هذه ؟ فإن على رأس مائة سنة لا يبقى ممن على ظهر الأرض أحد».

(١) أخرجه البخاري (١١٦)، ومسلم (٢٥٣٧)، وأحمد (٢/١٢١ و١٣١).

(٢) في «مسنده» (٨٨/٢) وسنده صحيح.

وروى الإمام أحمد^(١): عن جابر بن عبد الله؛ قال: قال رسول الله ﷺ قبل موته بقليل أو بشهر: «ما من نفس منفوسة - أو ما منكم من نفس اليوم منفوسة - يأتي عليها مائة سنة وهي يومئذ حية».

قال ابن الجوزي: فهذه الأحاديث الصحاح تقطع دابر دعوى حياة الخضر. قالوا: فالخضر إن لم يكن قد أدرك زمان رسول الله ﷺ كما هو المظنون الذي يترقى في القوة إلى القطع؛ فلا إشكال، وإن كان قد أدرك زمانه؛ فهذا الحديث يقتضي أنه لم يعيش بعد مائة سنة، فيكون الآن مفقودا لا موجودا؛ لأنه داخل في هذا العموم والأصل عدم المخصص له حتى يثبت بدليل صحيح يجب قبوله، والله أعلم.

وقد حكى الحافظ أبو القاسم السهيلي في كتابه «التعريف والأعلام»^(٢) عن البخاري وشيخه أبي بكر العربي: أنه أدرك حياة النبي ﷺ ولكن مات بعده؛ لهذا الحديث !

وفي كون البخاري - رحمه الله - يقول بهذا وأنه بقي إلى زمان النبي ﷺ نظر. ورجح السهيلي بقاءه، وحكاه عن الأكثرين. قال: وأما اجتماعه مع النبي ﷺ وتعزيتة لأهل البيت بعده؛ فمروي من طرق صحاح ! ثم ذكر^(٣) ما تقدم مما ضعفناه، ولم يورد أسانيدها^(٤)، والله أعلم.

(١) في «مسنده» (٣/ ٣٠٥)، وكذا أخرجه مسلم (٤/ ١٩٦٦).

(٢) (ص ١٩٠).

(٣) (ص ١٩٥-١٩٨).

(٤) وانظر ردها وبيان ضعفها في «الإصابة» (١/ ٤٤٣).

قصة إيلياس - عليه السلام -

وأما إيلياس - عليه السلام - فقال الله - تعالى - بعد قصة موسى وهارون من سورة الصافات: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [١٢٢] إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٣﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴿١٢٤﴾ اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٢٥﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٦﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٧﴾ وَتَوَكَّلْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٢٨﴾ سَلَّمَ عَلَىٰ إِيْلَاسِينَ ﴿١٢٩﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣١﴾ ﴿[الصافات: ١٢٣-١٣٢].

قال علماء النسب: هو إيلياس التشي، قالوا: وكان إرساله إلى أهل بعلبك غربي دمشق، فدعاهم إلى الله - عز وجل - وأن يتركوا عبادة صنم لهم كانوا يسمونه بعلا. ولهذا قال لهم: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [١٢٣] أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴿١٢٤﴾ اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴿فكذبوا وخالفوا وأرادوا قتله!

وقد ذكر أن إيلياس والخضر يجتمعان في كل عام في شهر رمضان بيت المقدس، وأنهما يحجان كل سنة، ويشربان من زمزم شربة تكفيهما إلى مثلها من العام المقبل! أنهما يجتمعان بعرفات كل سنة! ولكن لم يصح شيء من ذلك، وأن الذي يقوم عليه الدليل: أن الخضر مات، وكذلك إيلياس - عليهما السلام -.

وما ذكر وهب بن منبه وغيره: أنه لما دعا ربه - عز وجل - أن يقبضه إليه لما كذبه وأذوه؛ فجاءته دابة لونها لون النار، فركبها، وجعل الله له ريشا، وألبسه النور، وقطع عنه لذة الطعام والمشرب، وصار ملكيا بشريا سماويا أرضيا، وأوصى إلى اليسع بن أخطوب!

ففي هذا نظر، وهو من الإسرائيليات التي لا تصدق ولا تكذب، بل الظاهر أن صحتها بعيدة. والله أعلم.

فأما الحديث الذي رواه الحافظ أبو بكر البيهقي: عن أنس بن مالك؛ قال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر، فنزلنا منزلا؛ فإذا رجل في الوادي يقول: اللهم

اجعلني من أمة محمد ﷺ المرحومة المغفورة المثاب لها، قال: فأشرفت على الوادي؛ فإذا رجل طوله أكثر من ثلاثمائة ذراع، فقال لي: من أنت ؟ فقلت: أنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ ، قال: فأين هو ؟ قلت: هو ذا يسمع كلامك، قال: فأتته، فأقرئه مني السلام، وقل له: أخوك إلياس يقرئك السلام. قال: فأتيت النبي ﷺ فأخبرته، فجاء حتى لقيه فعانقه وسلم، ثم قعدا يتحادثان فقال له: يا رسول الله ! إنني ما أكل في السنة إلا يوماً، وهذا يوم فطري، فأكل أنا وأنت. قال: فنزلت عليهما مائدة من السماء، عليها خبز وحت وكرفس، فأكلا وأطعماني، وصلينا العصر، ثم ودعه ورأيتَه مرّ في السحاب نحو السماء^(١)؛ فقد كفانا البيهقي أمره، وقال: هذا حديث ضعيف بمرة.

والعجب أن الحاكم أبا عبد الله النيسابوري أخرجه في « مستدركه على الصحيحين »، وهذا مما يستدرك به على « المستدرك »؛ فإنه حديث موضوع، يخالف للأحاديث الصحاح من وجوه، ومعناه لا يصح -أيضاً-؛ فقد تقدم^(٢) في « الصحيحين »: أن رسول الله ﷺ قال: « إن الله خلق آدم طوله ستون ذراعاً في السماء » - إلى أن قال - : « ثم لم يزل الخلق ينقص حتى الآن ».

وفيه أنه لم يأت رسول الله ﷺ حتى كان هو الذي ذهب إليه ! وهذا لا يصح؛ لأنه كان أحق بالسعي إلى بين يدي خاتم الأنبياء. وفيه أنه يأكل في السنة مرة ! وقد تقدم عن وهب أنه سلبه الله لذة المطعم والمشرب ! وفيما تقدم عن بعضهم: أنه يشرب من زمزم كل سنة شربة تكفيه إلى مثلها من الحول الآخر! وهذه أشياء متعارضة وكلها باطلة لا يصح شيء منها.

وقد ساق ابن عساكر^(٣) هذا الحديث من طريق أخرى، واعترف بضعفها،

(١) موضوع - أخرجه أبو الشيخ في « العظمة » (١٠١٢)، والحاكم (٦١٧/٢)، والبيهقي في « دلائل النبوة » (٤٢١/٥)، وابن عساكر (٢١٢/٩)، وابن الجوزي في « الموضوعات » (١٩٩/١) بسند موضوع. وقد حكم ابن الجوزي والذهبي والسيوطي بوضعه.

(٢) مضي (ص ٤٣).

(٣) في « تاريخ دمشق » (٢١٢/٩ - ٢١٤)، وقال عقبه: « هذا حديث منكر، وليس بالقوي ».

وهذا عجب منه؛ كيف تكلم عليه؟ فإنه أورده عن واثلة بن الأسقع... فذكر نحو هذا مطولاً. وفيه أن ذلك كان في غزوة تبوك، وأنه بعث إليه رسول الله ﷺ أنس ابن مالك وحذيفة بن اليمان؛ قالوا: فإذا هو أعلى جسماً منا بذراعين أو ثلاثة، واعتذر بعدم قدرته على دخول عسكر المسلمين؛ لئلا تنفر الإبل. وفيه أنه لما اجتمع به رسول الله ﷺ؛ أكلوا من طعام الجنة، وقال: إن لي في كل أربعين يوماً أكلة، وفي المائدة خبز من عنب وموز ورطب وبقل ما عدا الكراث. وفيه أن رسول الله ﷺ سأله عن الخضر؟ فقال: عهدي به عام أول، وقال لي: إنك ستلقاه؛ فأقرئه مني السلام.

وهذا يدل على أن الخضر وإلياس - بتقدير وجودهما وصحة هذا الحديث - لم يجتمعا به إلى سنة تسع من الهجرة، وهذا لا يسوغ شرعاً. وهذا موضوع - أيضاً -.

وقد أورد ابن عساكر طرقات فيمن اجتمع بإلياس من العباد، وكلها لا يفرح بها؛ إما لضعف إسنادها، أو لجهالة المسند إليه فيها .
وقوله - تعالى -: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾ ١٦٠؛ أي: للعذاب، إما في الدنيا والآخرة، أو في الآخرة.

والأول أظهر على ما ذكره المفسرون والمؤرخون.
وقوله: ﴿ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾ ١٦١؛ أي: إلا من آمن منهم.
وقوله: ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴾ ١٦٢؛ أي: أبقينا بعده ذكراً حسناً له في العالمين؛ فلا يذكر إلا بخير؛ ولهذا قال: ﴿ سَلَّمَ عَلَى آلِ يَاسِينَ ﴾ ١٦٣؛ أي: سلام على إلياس، والعرب تلحق النون في أسماء كثيرة وتبدها من غيرها؛ كما قالوا: إسماعيل وإسماعين، وإسرائيل وإسرائيلين، وإلياس وإلياسين، وقد قرئ: ﴿ سَلَّمَ عَلَى آلِ يَاسِينَ ﴾ ١٦٤؛ أي: على آل محمد.

وقرأ ابن مسعود وغيره: « سلام على إدراسين »، ونقل عنه من طريق أبي إسحاق عن عبيدة بن ربيعة عن ابن مسعود: أنه قال: إلياس هو إدريس وإليه ذهب الضحاك بن مزاحم، وحكاه قتادة ومحمد بن إسحاق.

والصحيح أنه غيره؛ كما تقدم، والله - تعالى - أعلم بالصواب.

باب ذكر جماعة من أنبياء بني إسرائيل

بعد موسى - عليه السلام -

ثم نتبعهم بذكر داود وسليمان - عليهما السلام -

قال ابن جرير في «تاريخه»^(١): لا خلاف بين أهل العلم بأخبار الماضين وأمور السالفين من أمتنا وغيرهم أن القائم بأمور بني إسرائيل بعد يوشع: كالب ابن يفنة؛ يعني: أحد أصحاب موسى - عليه السلام - وهو زوج اخته مريم، وهو أحد الرجلين اللذين ممن يخافون الله، وهما يوشع وكالب، وهما القائلان لبني إسرائيل حين نكلوا عن الجهاد: ﴿ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣].

قال ابن جرير: ثم من بعده كان القائم بأمور بني إسرائيل حزقيل بن بوزي، وهو الذي دعا الله فأحيا الذين أخرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت.

قصة حزقيال

قال الله - تعالى -: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ [البقرة: ٢٤٣].

قال ابن إسحاق: فروا من الوباء، فنزلوا بصعيد من الأرض، فقال لهم الله: موتوا! فماتوا جميعاً، فحظروا عليهم حظيرة دون السباع، فمضت عليهم دهور طويلة فمر بهم حزقيال - عليه السلام - فوقف عليهم متفكراً فقبل له: أتحب أن يبعثهم الله وأنت تنظر؟ فقال: نعم. فأمر أن يدعو تلك العظام أن تكتسي لحماً وأن يتصل العصب بعضها ببعض؛ فناداهم عن أمر الله له بذلك، فقام القوم أجمعون وكبروا تكبيرة رجل واحد.

وعن ابن عباس: أنهم كانوا أربعة آلاف. وعنه: ثمانية آلاف. وعن أبي صالح: تسعة آلاف. وعن ابن عباس - أيضاً -: كانوا أربعين ألفاً. وعن سعيد بن عبد العزيز: كانوا من أهل أذرعات. وقال ابن جريج عن عطاء: هذا مثل؛ يعني: أنه سيق مثلاً مبيناً أنه لن يغني حذر من قدر! وقول الجمهور أقوى، إن هذا وقع. وقد روى الإمام أحمد وصاحب «الصحيح» عن عبد الله بن عباس: أن عمر ابن الخطاب خرج إلى الشام حتى إذا كان بسرغ؛ لقيه أمراء الأجناد؛ أبو عبيدة بن الجراح وأصحابه، فأخبروه أن الوباء وقع بالشام... فذكر الحديث يعني: في مشاورته المهاجرين والأنصار فاختلفوا عليه، فجاء عبد الرحمن بن عوف، وكان متغيباً ببعض حاجته، فقال: إن عندي من هذا علماً، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا كان بمرض وأنتم بها؛ فلا تخرجوا فراراً منه، وإذا سمعتم به بمرض؛ فلا تقدموا عليه»؛ فحمد الله عمر ثم انصرف^(١).

(١) أخرجه أحمد (١/ ١٩٤)، والبخاري (٥٧٢٩ و ٥٧٣٠ و ٦٩٧٣)، ومسلم (٢٢١٩).

وروى الإمام أحمد^(١): عن عبد الله بن عامر بن ربيعة: أن عبد الرحمن بن عوف أخبر عمر وهو في الشام عن النبي ﷺ: «أن هذا السقم عذب به الأمم قبلكم؛ فإذا سمعتم به في أرض؛ فلا تدخلوها، وإذا وقع بأرض وأنتم بها؛ فلا تخرجوا فراراً منه».

قال: فرجع عمر من الشام.

قال محمد بن إسحاق^(٢): ولم يُذكر لنا مدة لبث حزقيال في بني إسرائيل، ثم إن الله قبضه إليه، فلما قبض؛ نسي بنو إسرائيل عهد الله إليهم، وعظمت فيهم الأحداث، وعبدوا الأوثان وكان في جملة ما يعبدونه من الأصنام صنم يقال له: بعل، فبعث الله إليهم إلياس .

قلت: وقد قدمنا قصة إلياس تبعاً لقصة الخضر؛ لأنهما يقرنان في الذكر غالباً؛ ولأجل أنها بعد قصة موسى في سورة الصافات؛ فتعجلنا قصته لذلك، والله أعلم.

قال محمد بن إسحاق فيما ذكر له عن وهب بن منبه؛ قال: ثم تنبأ فيهم بعد إلياس وصيه اليسع بن أخطوب -عليه السلام- وهذه:

(١) في «المسند» (١٩٣/١) وسنده صحيح.

(٢) انظر: «تاريخ الأمم والملوك» (١/٤٦٠-٤٦١).

قصة اليسع - عليه السلام -

وقد ذكره الله - تعالى - مع الأنبياء في سورة الأنعام [٨٦] في قوله: قال
 -تعالى-: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُوسُفَ وَلُوطاً وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى
 الْعَالَمِينَ ۝﴾، وقال -تعالى- في سورة [ص: ٤٨] قال -تعالى-: ﴿وَأَذْكُرْ
 إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْآخِرِينَ ۝﴾.

فصل

قال ابن جرير وغيره: ثم مرج أمر بني إسرائيل، وعظمت منهم الخطوب
 والخطايا، وقتلوا من قتلوا من الأنبياء، وسلط الله عليهم بدل الأنبياء ملوكاً
 جبارين يظلمونهم ويسفكون دماءهم، وسلط الله عليهم الأعداء من غيرهم أيضاً،
 وكانوا إذا قاتلوا أحداً من الأعداء؛ يكون معهم تابوت الميثاق الذي كان فيه قبة
 الزمان؛ كما تقدم ذكره، فكانوا ينصرون ببركته وبما جعل الله فيه من السكينة
 والبقية مما ترك آل موسى وآل هارون، فلما كان في بعض حروبهم مع أهل غزة
 وعسقلان؛ غلبوهم وقهروهم على أخذه، فانتزعوه من أيديهم، فلما علم بذلك
 ملك بني إسرائيل في ذلك الزمان؛ مالت عنقه فمات كمدأ، وبقي بنو إسرائيل
 كالغنم بلا راع، حتى بعث الله فيهم نبياً من الأنبياء يقال له: شمويل، فطلبوا منه
 أن يقيم لهم ملكاً ليقاتلوا معه الأعداء، فكان من أمرهم ما سنذكره مما قص الله في
 كتابه.

قال ابن جرير^(١): فكان من وفاة يوشع بن نون إلى أن بعث الله - عز وجل -
 شمويل بن بالي أربعمئة سنة وستون سنة... ثم ذكر تفصيلها بمدد الملوك الذين
 ملكوا عليهم وسماهم واحداً واحداً. تركنا ذكرهم قصداً.

(١) في « تاريخه » (١/ ٢٧٥).

قصّة شمويل - عليه السلام -

وفيه ابداً أمر داود - عليه السلام -

قال الله - تعالى - في كتابه العزيز: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى آلِمِلَّةٍ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ لَهُمْ آتِئْنَا مَلَكًا نَقْتُلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَاءِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلَكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مَلَكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آدَمُ وَنُوحٌ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُم إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اعْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرَبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا اللَّهِ كَمْ مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبَّتْ أَقْدَامُنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٥١﴾ [البقرة: ٢٤٦ - ٢٥١]

قال أكثر المفسرين: كان نبي هؤلاء القوم المذكورين في هذه القصة هو شمويل.

والمقصود: أن هؤلاء القوم لما أنهكتهم الحروب وقهرهم الأعداء؛ سألوا نبي الله في ذلك الزمان، وطلبوا منه أن ينصب لهم ملكاً يكونون تحت طاعته؛ ليقاتلوا من ورائه ومعه وبين يديه الأعداء، فقال لهم: ﴿ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟ ﴾ أي: وأي شيء يمنعنا من القتال ﴿ وَقَدْ أَخْرَجْنَا مِنْ دِيرِنَا وَأَبْنَانَا ﴾؛ يقولون: نحن محروبون موتورون؛ فحقيق لنا أن نقاتل عن أبنائنا المنهزين المستضعفين فيهم المأسورين في قبضتهم.

قال -تعالى-: ﴿ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ ﴿١١﴾؛ كما ذكر في آخر القصة أنه لم يجاوز النهر مع الملك إلا القليل، الباقون رجعوا ونكلوا عن القتال.

﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ﴾؛ قال عكرمة والسدي: كان سقاء. وقال وهب بن منبه: كان دباغاً. وقيل: غير ذلك، والله أعلم.

وهذا ﴿ قَالُوا أَنْتَى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ ﴾؛ نفروا منه، وطعنوا في إمارته عليهم، وقالوا: نحن أحق بالملك منه! وقد ذكروا أنه فقير لا سعة من المال معه؛ فكيف يكون مثل هذا ملكاً؟!

﴿ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ﴾؛ قيل: في أمر الحروب، وقيل: بل مطلقاً. ﴿ وَالْجِسْمِ ﴾؛ قيل: الطول، وقيل: الجمال. والظاهر من السياق أنه كان أجملهم وأعلمهم بعد نبيهم -عليه السلام- ﴿ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾. ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمُ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴾ ﴿١٢﴾؛ وهذا -أيضاً- من بركة ولاية هذا الرجل الصالح عليهم وضمنه عليهم أن يرد الله عليهم التابوت الذي كان سلب منهم وقهرهم الأعداء عليه، وقد كانوا ينصرون على أعدائهم بسببه ﴿ فِيهِ سَكِينَةٌ

مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَارُونَ ﴿٤٠﴾ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ ﴿٤١﴾ أَي: تأتيكم به الملائكة يحملونه وأنتم ترون ذلك عياناً؛ ليكون آية الله عليكم وحجة باهرة على صدق ما أقوله لكم وعلى صحة ولاية هذا الملك الصالح عليكم؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾. وقيل: إنه لما غلب العمالقة على هذا التابوت، وكان فيه ما ذكر من السكينة والبقية المباركة، وقيل: كان فيه التوراة -أيضاً- فلما استقر في أيديهم؛ وضعوه تحت صنم لهم بأرضهم، فلما أصبحوا؛ إذا التابوت على رأس الصنم، فوضعوه تحته، فلما كان اليوم الثاني؛ إذا التابوت فوق الصنم، فلما تكرر هذا؛ علموا أن هذا أمر من الله -تعالى-، فأخرجوه من بلدهم، وجعلوه في قرية من قراهم، فأخذهم داء في رقابهم، فلما طال عليهم هذا جعلوه في عجلة، وربطوها في بقرتين، وأرسلوهما، فيقال: إن الملائكة ساقتهما حتى جاؤا بهما ملأً بني إسرائيل وهم ينظرون كما أخبرهم نبيهم بذلك، فالله أعلم على أي صفة جاءت به الملائكة.

والظاهر أن الملائكة كانت تحمله بأنفسهم كما هو المفهوم من الآية، والله أعلم، وإن كان الأول قد ذكره كثير من المفسرين أو أكثرهم.

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ﴾؛ قال ابن عباس وكثير من المفسرين: هذا النهر هو نهر الأردن، وهو المسمى بالشريرة، فكان من أمر طالوت بجنوده عند هذا النهر عن أمر نبي الله له عن أمر الله له اختباراً وامتحاناً: أن من شرب من هذا النهر؛ فلا يصحبي في هذه الغزوة، ولا يصحبي إلا من لم يطعمه؛ إلا غرفة بيده. قال الله -تعالى-: ﴿فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾.

وقد روى البخاري في «صحيحه»^(١)، عن البراء بن عازب؛ قال: كنا أصحاب محمد ﷺ نتحدث أن عدة أصحاب بدر على عدة أصحاب طالوت

الذين جاوزوا معه النهر، ولم يجاوز معه إلا بضعة عشر وثلاثمائة مؤمن.
 قال الله -تعالى-: ﴿ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ۚ ﴾ أي: استقلوا أنفسهم واستضعفوها عن مقاومة أعدائهم بالنسبة إلى قتلهم وكثرة عدد عدوهم! ﴿ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهِ كَمْ مِّنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ۚ ﴾ يعني: ثبتهم الشجعان منهم والفرسان، أهل الإيمان والإيقان، الصابرون على الجلال والجدال والطعان.

﴿ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ ﴿١٢٤﴾؛ طلبوا من الله أن يفرغ عليهم الصبر؛ أي: يغمرهم به من فوقهم، فتستقر قلوبهم ولا تقلق، وأن يثبت أقدامهم في مجال الحرب ومعترك الأبطال وحومة الوغى والدعاء إلى النزال، فسألوا التثبيت الظاهر والباطن، وأن ينزل عليهم النصر على أعدائهم وأعدائه من الكافرين الجاحدين بآياته وآلائه.

فأجابهم العظيم القدير السميع البصير الحكيم الخبير إلى ما سألوا، وأناهم ما إليهم فيه رغبا؛ ولهذا قال: ﴿ فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ ﴾ أي: بحول الله وقوته لا بحوهم، وبقوة الله ونصره لا بقوتهم وعددهم مع كثرة أعدائهم وكمال عددهم؛ كما قال الله -تعالى-: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَانْتَمَ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ ﴿١٢٥﴾ [آل عمران: ١٢٣].

وقوله -تعالى-: ﴿ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ۚ ﴾ فيه دلالة على شجاعة داود -عليه السلام- وأنه قتله قتلاً أذل به جنده وكسر جيشه، ولا أعظم من غزوة يقتل فيها ملك عدوه؛ فيغنم بسبب ذلك الأموال الجزيلة، ويأسر الأبطال والشجعان والأقران، وتعلو كلمة الإيمان على الأوثان، ويدال لأولياء الله على أعدائه، ويظهر الدين الحق على الباطل وأوليائه.

قصة داود - عليه السلام -

وما كان في أيامه

وذكر فضائله وشماله ودلائل نبوته وأعلامه

هو داود ، عبد الله ونبيه، وخليفته في أرض بيت المقدس.
لما قتل جالوت، فأحبته بنو إسرائيل ومالوا إليه وإلى ملكه عليهم، فكان من أمر طالوت ما كان، وصار الملك إلى داود -عليه السلام-، وجمع الله له بين الملك والنبوة؛ بين خير الدنيا والآخرة، وكان الملك يكون في سبط والنبوة في آخر فاجتمعا في داود هذا.

وهذا كما قال -تعالى-: ﴿ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾؛ أي: لولا إقامة الملوك حكماً على الناس؛ لأكل قوي الناس ضعيفهم؛ ولهذا جاء في بعض الآثار: السلطان ظل الله في أرضه^(١). وقال أمير المؤمنين عثمان بن عفان -رضي الله عنه-: إن الله لينزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن.

[كان يأكل من كسب يده]

وقال -تعالى-: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَنجِيَالُ أُوْبَسِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ۖ أَنْ أَعْمَلَ سَبْعِينَ وَفِي السَّرْدِ وَأَعْمَلُوا صَٰلِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝ ﴾ [سبا: ١٠-١١].

وقال -تعالى-: ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ۝ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِيُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ

(١) لا يصح مرفوعاً؛ كما في «الضعيفة» (١٦٦١-١٦٦٤) لشيخنا -رحمه الله-.

شَكَرُونَ ﴿ [الأنبياء: ٧٩-٨٠].

أعانه الله على عمل الدروع من الحديد؛ ليحصين المقاتلة من الأعداء، وأرشده إلى صنعها وكيفيتها، فقال: ﴿ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ ﴾؛ أي: لا تدق المسمار فيقلق، ولا تغلظه فيفصم؛ قاله مجاهد وقتادة والحكم وعكرمة. قال الحسن البصري وقتادة والأعمش: كان الله قد ألان له الحديد حتى كان يفتله بيده لا يحتاج إلى نار ولا مطرقة. قال قتادة: فكان أول من عمل الدروع من زرد، وإنما كانت قبل ذلك من صفائح. قال ابن شوذب: كان يعمل كل يوم درعاً يبيعها بستة آلاف درهم.

وقد ثبت في الحديث: « أن أطيّب ما أكل الرجل من كسبه، وأن نبي الله داود كان يأكل من كسب يده »^(١).

[تسبيح داود]

وقال -تعالى-: ﴿ وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَأَتَيْنَهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخِطَابِ ﴿٢٠﴾ ﴾ [ص: ١٧-٢٠].

قال مجاهد^(٢): الأيد: القوة في الطاعة؛ يعني: ذا قوة في العبادة والعمل الصالح. قال قتادة^(٣): أعطي قوة في العبادة وفقهاً في الإسلام. وقد ثبت في «الصحيحين»: أن رسول الله ﷺ قال: «أحب الصلاة إلى الله

(١) أخرجه البخاري (٢٠٧٢) بنحوه. وأخرج النسائي في «سننه» (٢٤١/٧)، وأحمد (٤٢/٦ و ٢٢٠)، والرامهرمزي في «المحدث الفاضل» (ص ٧٦) شطره الأول بحروفه من حديث عائشة -رضي الله عنها- به، وسنده صحيح.

(٢) أخرجه الطبري (٨٦/٢٣) بسند صحيح.

(٣) أخرجه الطبري (٨٦/٢٣) بسند صحيح.

صلاة داود، وأحب الصيام إلى الله صيام داود: كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه، وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً، ولا يفر إذا لاقى»^(١).

وقوله: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾^(٢) وَالطَّيْرَ تَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ ﴿٣﴾ كما قال: ﴿يَجِبَالُ أَوَّي مَعَهُ وَالطَّيْرُ﴾؛ أي: سبّحي معه. ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾^(٣)؛ أي: عند آخر النهار وأوله، وذلك أنه كان الله - تعالى - قد وهبه من الصوت العظيم ما لم يعطه أحد؛ بحيث إنه كان إذا ترنم بقراءة كتابه؛ يقف الطير في الهواء يُرجّع بترجيّعه ويسبح بتسبيحه، وكذلك الجبال تحييه وتسبح معه كلما سبّح بكرة وعشياً - صلوات الله وسلامه عليه -.

عن عبيد بن عمر يقول: كان داود - عليه السلام - يأخذ المعزفة، فيضرب بها، فيقرأ عليها، فتد عليه صوته. يريد بذلك أن يبكي ويبكي^(٤).

عن عائشة؛ قالت: سمع رسول الله ﷺ صوت أبي موسى الأشعري وهو يقرأ؛ فقال: «لقد أوتي أبي موسى من مزامير آل داود»^(٥).

عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «لقد أعطي أبو موسى من مزامير داود»^(٦).

عن أبي عثمان النهدي أنه قال: لقد سمعت الربط والمزمار؛ فما سمعت صوتاً أحسن من صوت أبي موسى الأشعري.

وقد كان مع هذا الصوت الرخيم سريع القراءة لكتابة الزبور؛ كما روى الإمام أحمد: عن أبي هريرة؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «خفف على داود القراءة،

(١) أخرجه البخاري (٣٤٢٠)، ومسلم (١١٥٩).

(٢) أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» (٤١٦٥)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١٧/١٠٠-١٠١).

(٣) أخرجه عبد الرزاق (٤١٧٧)، وأحمد (٦/٣٧ و١٦٧)، والنسائي (٢/١٨٠-١٨١)، والدارمي (٣٤٩/١) وغيرهم بسند صحيح.

(٤) أخرجه أحمد (٢/٣٦٩ و٤٥٠)، والنسائي (٢/١٨٠)، وابن ماجه (١٣٤١) وغيرهم بسند صحيح.

فكان يأمر بدابته فتسرج، فكان يقرأ القرآن من قبل أن تسرج دابته، وكان لا يأكل إلا من عمل يديه^(١).

والمراد بالقرآن هنا الزبور، الذي أنزله الله عليه وأوحاه إليه، وذكر «دوابه» أشبه أن يكون محفوظاً؛ فإنه كان ملكاً له أتباع، فكان يقرأ الزبور بمقدار ما تسرج الدواب، وهذا أمر سريع مع التدبر والترنم والتغني به على وجه التخشع -صلوات الله وسلامه عليه-.

وقد قال الله -تعالى-: ﴿وَأَتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ [النساء: ١٦٣]، والزبور: كتاب مشهور، وذكرنا في «التفسير» الحديث الذي رواه أحمد وغيره أنه أنزل في شهر رمضان^(٢)، وفيه من المواعظ والحكم ما هو مشهور معروف لمن نظر فيه.

[اجتماع الملك والنبوة لداود -عليه السلام-]

وقوله: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخِطَابَ﴾ ٥؛ أي: أعطيناه ملكاً عظيماً وحكماً نافذاً؛
وقوله -تعالى-: ﴿وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ﴾؛ أي: النبوة ﴿وَفَصَّلَ الْخِطَابَ﴾: وهو الفصل في الكلام وفي الحكم. واختاره ابن جرير.

[توبة داود -عليه السلام-]

﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَضِصِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾ ٦ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصِمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَأَحْكُمْ

(١) أخرجه أحمد (٣١٤/٢)، والبخاري (٣٤١٧).

(٢) صحيح - أخرجه أحمد (١٠٧/٤)، والطبري في «جامع البيان» (٢٨٢١)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٢٢/رقم ١٨٥)، و«الأوسط» (٣٧٥٢)، وقوام السنة الأصبهاني في «الترغيب والترهيب» (١٧٩١)، وابن عبد الهادي في «هداية الإنسان» (ق ٢/ب) وهو صحيح.

بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تَشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴿٢٠﴾ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴿٢١﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعَجِكَ إِلَى نَعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٢﴾ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَّآبٍ ﴿٢٣﴾ ﴿[ص: ٢١-٢٥].

وقد ذكر كثير من المفسرين من السلف والخلف هاهنا قصصاً وأخباراً أكثرها إسرائيلية، ومنها ما هو مكذوب لا محالة؛ تركنا إيرادها في كتابنا قصداً؛ اكتفاء واقتصاراً على مجرد تلاوة القصة من القرآن العظيم، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

وقد اختلف الأئمة في سجدة (ص)؛ هل هي من عزائم السجود، أو إنما هي سجدة شكر ليست من عزائم السجود؟ على قولين:

روى البخاري^(١) عن العوام؛ قال: سألت مجاهداً عن سجدة (ص)؟ فقال: سألت ابن عباس: من أين سجدت؟ قال: أو ما تقرأ: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدُ وَسُلَيْمَنَ ... أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدْنِهِمْ آفَنَدَ﴾ [الأنعام: ٨٤-٩٠]؛ فكان داود من أمر نبيكم ﷺ أن يقتدي به، فسجدها داود عليه السلام؛ فسجدها رسول الله ﷺ.

وروى الإمام أحمد^(٢): عن ابن عباس: أنه قال في السجود في (ص): ليست من عزائم السجود، وقد رأيت رسول الله ﷺ يسجد فيها. وروى النسائي^(٣): عن ابن عباس: أن النبي ﷺ سجد في (ص)، وقال:

(١) في «صحيحه» (٤٨٠٧).

(٢) في «مسنده» (٣٥٩/١)، وكذا أخرجه البخاري (٣٤٢٢)، وأبو داود (١٤٠٩)، والترمذي (٥٧٧)، والنسائي في «الكبرى» (١١١٧٠).

(٣) في «المجتبى» (١٥٩/٢)، و«الكبرى» (١١٤٣٨)، وكذا أخرجه عبد الرزاق (٥٨٧٠)، والطبراني في «الكبير» (١٢٣٨٦ و١٢٣٨٧)، والدارقطني (٤٠٧/١)، والبيهقي (٣١٩/٢) وسنده صحيح.

«سجدها داود توبة، ونسجدها شكراً».

وروى أبو داود^(١): عن أبي سعيد الخدري؛ قال: قرأ رسول الله ﷺ وهو على المنبر (ص)، فلما بلغ السجدة؛ نزل، فسجد وسجد معه الناس. فلما كان يوم آخر؛ قرأها، فلما بلغ السجدة؛ تشزن^(٢) الناس للسجود، فقال: «إنما هي توبة نبي، ولكن رأيكم تشزنتم»؛ فنزل وسجد.

وروى الترمذي وابن ماجه من حديث ابن عباس؛ قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله! إنني رأيت فيما يرى النائم كأنني أصلي خلف شجرة، فقرأت السجدة فسجدت الشجرة بسجودي، فسمعتها تقول وهي ساجدة: «اللهم اكتب لي بها عندك أجراً، واجعلها عندك ذخراً، وضع عني بها وزراً، واقبلها مني كما قبلت من عبدك داود»^(٣).

قال ابن عباس: فرأيت النبي ﷺ قام، فقرأ السجدة، ثم سجد، فسمعته يقول وهو ساجد كما حكى الرجل عن كلام الشجرة.
قال الله -تعالى-: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ

(١) في «سننه» (١٤٢٠)، وكذا أخرجه الدارمي (٣٤٢/١)، وابن خزيمة (١٤٥٥) و (١٧٩٥)، وابن حبان (٢٧٦٥)، والدارقطني (٤٠٨/١)، والحاكم (٢٨٤/١ و ٤٣١/٢)، والبيهقي (٣١٨/٢) بسند صحيح، صححه الحاكم والذهبي والنووي والزيلعي وشيخنا الإمام الألباني.

(٢) أي: تأهبوا وتهيؤوا واستعدوا.

(٣) صحيح- أخرجه الترمذي (٥٧٩ و ٣٤٢٤)، وابن ماجه (١٠٥٣)، وابن حبان (٦٩١-موارد)، والطبراني (١١/رقم ١١٢٦٢)، والحاكم (٢١٩/١)، والبيهقي (٣٢٠/٢) بسند ضعيف؛ لجهالة الحسن بن محمد بن عبيد الله بن أبي يزيد.
لكن له شاهد من مرسل بكر بن عبد الله المزني بنحوه؛ أخرجه عبد الرزاق (٥٨٦٩) وهو مرسل صحيح.

وآخر من حديث أبي سعيد الخدري؛ أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٤٧٦٥)، وأبو يعلى في «المسند» (١٠٦٩) بسند حسن لغيره.

وبالجملة؛ فهو مجموع ذلك صحيح بلا ريب، والله أعلم.

مَنَابٍ ﴿٢٥﴾ [ص: ٢٥]؛ أي: إن له يوم القيامة لزلفى، وهي القرية التي يقربه الله بها ويدنيه من حظيرة قدسه بسببها؛ كما ثبت في حديث: «المقسطون على منابر من نور عن يمين الرحمن، وكلتا يديه يمين، الذين يقسطون في أهلهم وحكمهم وما ولوا»^(١).

﴿ يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴾ [ص: ٢٦]: هذا خطاب من الله -تعالى- مع داود، والمراد: ولاية الأمور وحكام الناس، وأمرهم بالعدل واتباع الحق المنزل من الله لا ما سواه من الآراء والأهواء، وتوعد من سلك غير ذلك وحكم بغير ذلك.

[شيء من فضائله وأقواله]

وقد كان داود -عليه السلام- هو المقتدى به في ذلك الزمان في العدل وكثرة العبادة وأنواع القربات، حتى إنه كان لا يمضي ساعة من آناء الليل وأطراف النهار إلا وأهل بيته في عبادة ليلاً ونهاراً؛ كما قال تعالى: ﴿ أَعْمَلُوا ءَالَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُ ﴾ [سبأ: ١٣].
وقد أورد الحافظ بن عساكر في ترجمة داود -عليه السلام- أشياء كثيرة مليحة:

منها: قوله: كن لليتيم كالأب الرحيم، واعلم أنك كما تزرع كذلك تحصد.
وقوله: مثل الخطيب الأحق في نادي القوم كمثل المغني عند رأس الميت.
وقوله: ما أقبح الفقر بعد الغنى! وأقبح من ذلك الضلالة بعد الهدى.
وقال: انظر ما تكره أن يذكر عنك في نادي القوم؛ فلا تفعله إذا خلوت.
وقال: لا تعدن أخاك بما لا تنجزه له؛ فإن ذلك عداوة بينك وبينه.

(١) أخرجه مسلم (١٨٢٧) من حديث عبد الله بن عمرو -رضي الله عنهما-.

ذكر كمية حياته وكيفية وفاته

قد تقدم^(١) في ذكر الأحاديث الواردة في خلق آدم أن الله لما استخرج ذريته من ظهره، فرأى فيهم الأنبياء -عليهم السلام-، ورأى فيهم رجلاً يزهر، فقال: أي: رب! من هذا؟ قال: هذا ابنك داود. قال: أي: رب! كم عمره؟ قال: ستون عاماً. قال: أي: رب! زد في عمره! قال: لا؛ إلا أن أزيده من عمرك. وكان عمر آدم ألف عام فزاده أربعين عاماً، فلما انقضى عمر آدم؛ جاءه ملك الموت، فقال: بقي من عمري أربعون سنة، ونسي آدم ما كان وهبه لولده داود.

(١) (ص ٣١-٣٢).

قصة سليمان بن داود - عليهما السلام -

قال الله - تعالى -: ﴿ وَوَرَّثَ سُلَيْمَنُ دَاوُدَ وَقَالَ يَتَأَيُّهَا النَّاسُ عَلِمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأَوْتَيْنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنْ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴾ [النمل: ١٦]؛ أي: ورثه في النبوة والملك، وليس المراد ورثه في المال؛ لأنه قد كان له بنون غيره؛ فما كان ليخص بالمال دونهم، ولأنه قد ثبت في الصحاح من غير وجه عن جماعة من الصحابة: أن رسول الله ﷺ قال: «لا نورث؛ ما تركنا فهو صدقة»، وفي لفظه: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث»^(١).

فأخبر الصادق المصدوق أن الأنبياء لا تورث أموالهم عنهم كما يورث غيرهم، بل تكون أموالهم صدقة من بعدهم على الفقراء والمحاويج؛ لا يخصون بها أقربائهم؛ لأن الدنيا كانت أهون عليهم وأحقر عندهم من ذلك؛ كما هي عند الذي أرسلهم واصطفاهم وفضلهم.

[سعة علمه وعظيم ملكه]

وقال: ﴿ يَتَأَيُّهَا النَّاسُ عَلِمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأَوْتَيْنَا ﴾؛ يعني: أنه - عليه السلام - كان يعرف ما تتخاطب به الطيور بلغاتها ويعبر للناس عن مقاصدها وإرادتها.

وكذلك ماعداها من الحيوانات وسائر صنوف المخلوقات، والدليل على هذا قوله بعد هذا من الآيات: ﴿ وَأَوْتَيْنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ﴾؛ أي: من كل ما يحتاج الملك إليه من العدد والآلات والجنود والجيش والجماعات من الجن والإنس

(١) سيأتي تخريجه (ص ٤٤٢).

والطيور والوحوش والشياطين السارحات والعلوم والفهوم والتعبير عن ضمائر المخلوقات من الناطقات والصامتات.

ثم قال: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾؛ أي: من بارئ البريات وخالق الأرض والسموات؛ كما قال -تعالى-: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسْكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴿١٩﴾﴾ [النمل: ١٧-١٩].

يخبر -تعالى- عن عبده ونبيه وابن نبيه سليمان بن داود -عليهما الصلاة والسلام- أنه ركب يوماً في جيشه جميعه من الجن والإنس والطير؛ فالجن والإنس يسرون معه، والطير سائرة معه تظله بأجنحتها من الحر وغيره، وعلى كل من هذه الجيوش الثلاثة وزعة؛ (أي: نقباء) -يردون أوله على آخره؛ فلا يتقدم أحد عن موضعه الذي يسير فيه ولا يتأخر عنه.

قال الله -تعالى-: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسْكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ﴿١٨﴾؛ فأمرت وحذرت واعتذرت عن سليمان وجنوده بعدم الشعور.

والمقصود: أن سليمان -عليه السلام- فهم ما خاطبت به تلك النملة لأمتها من الرأي السديد والأمر الحميد، وتبسم من ذلك على وجه الاستيثار والفرح والسرور بما أطلعه الله عليه دون غيره، وليس كما يقوله بعض الجهلة من أن الدواب كانت تنطق قبل سليمان وتخطب الناس، حتى أخذ عليهم سليمان بن داود العهد وأجملها فلم تتكلم مع الناس بعد ذلك؛ فإن هذا لا يقوله إلا الذين لا يعلمون، ولو كان هذا هكذا؛ لم يكن لسليمان في فهم لغاتها مزية على غيره؛ إذ قد كان الناس كلهم يفهمون ذلك، ولو كان قد أخذ عليها العهد ألا تتكلم مع غيره وكان هو يفهمها لم يكن في هذا -أيضاً- فائدة يعول عليها.

ولهذا قال: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي﴾؛ أي: ألهمني وأرشدني ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَلَدَتِي وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَذِلَّ لِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾؛ فطلب من الله أن يقيضه للشكر على ما أنعم به عليه وعلى ما خصه به من المزية على غيره، وأن ييسر عليه العمل الصالح، وأن يحشره إذا توفاه مع عباده الصالحين، وقد استجاب الله - تعالى - له.

والمراد بوالديه: أبوه داود - عليه السلام - وأمه، وكانت من العابدات الصالحات.

[بين الهدد وملكة سبا]

وقال الله - تعالى -: ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾ (١) ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ (٢) ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ نَحُطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ﴾ (٣) ﴿إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ (٤) ﴿وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ (٥) ﴿أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ (٦) ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ (٧) ﴿قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ (٨) ﴿أَذْهَبَ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْفَقَهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ (٩) ﴿قَالَتْ يَأْأَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ﴾ (١٠) ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ (١١) ﴿أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَيَّ وَأُتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ (١٢) ﴿قَالَتْ يَأْأَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ﴾ (١٣) ﴿قَالُوا نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةً وَأُولُوا بَأْسَ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ (١٤) ﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرَازَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَالِكَ يَفْعَلُونَ﴾ (١٥) ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾ (١٦) ﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانُ قَالَ أَتُمِدُّونَنِي بِمَالٍ فَمَا أَتَسْنَأُ اللَّهُ خَيْرَ

مِمَّا ءَاتٰنٰكُمْ بَلْ اَنْتُمْ بِهَدْيَتِكُمْ تَفْرَحُوْنَ ﴿٣٧﴾ اَرْجِعِ اِلَيْهِمْ فَلَنَاْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا اَذْلََّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٣٨﴾ [النمل: ٢٠-٣٧].

يذكر -تعالى- ما كان من أمر سليمان والهدد، وذلك أن الطيور كان على كل صنف منها مقدمون؛ يقومون بما يطلب منهم، ويحضرون عنده بالنوبة؛ كما هي عادة الجنود مع الملوك. وكانت وظيفة الهدد على ما ذكره ابن عباس وغيره: أنهم كانوا إذا أعوزوا الماء في القفار في حال الأسفار؛ يجيء فينظر لهم: هل بهذه البقاع من ماء، وفيه من القوة التي أودعها الله -تعالى- فيه أن ينظر إلى الماء تحت تحوم الأرض؛ فإذا دهم عليه؛ حفروا عنه واستنبطوه وأخرجوه واستعملوه لحاجتهم. فلما طلبه سليمان -عليه السلام- ذات يوم؛ فقدته ولم يجده في موضعه من محل خدمته؛ ﴿فَقَالَ مَالِيَ لَا أَرَى الْهُدُودَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾؛ أي: ما له مفقود من هاهنا، أو: قد غاب عن بصري؛ فلا أراه بحضرتي ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا﴾: توعدته بنوع من العذاب اختلف المفسرون فيه، والمقصود حاصل على كل تقدير، ﴿أَوْ لَا أَذْبَحْنَهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِي بِسُلْطٰنٍ مُّبِينٍ﴾؛ أي: بحجة تنجيه من هذه الورطة.

قال الله -تعالى-: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾؛ أي: فغاب الهدد غيبة ليست بطويلة، ثم قدم منها ﴿فَقَالَ﴾ لسليمان: ﴿أَحْطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾؛ أي: اطلعت على ما لم تطلع عليه ﴿وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾؛ أي: بخبر صادق. ﴿إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾: يذكر ما كان عليه ملوك سبأ في بلاد اليمن من المملكة العظيمة والتبابعة المتوجين، وكان الملك قد آل في ذلك الزمان إلى امرأة منهم ابنة ملكهم لم يخلف غيرها، فملكوها عليهم. ويقال لها: بلقيس.

وقد ثبت في «صحيح البخاري»^(١) من حديث أبي بكرة: أن رسول الله ﷺ لما بلغه أن أهل فارس ملكوا عليهم ابنة كسرى؛ قال: «لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة».

وقوله: ﴿ وَأُوتِيتَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ﴾؛ أي: مما من شأنه أن تؤتاه الملوك ﴿ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾؛ يعني: سرير مملكتها، كان مزخرفاً بأنواع الجواهر واللاكي والذهب والحلي الباهر.

ثم ذكر كفرهم بالله، وعبادتهم الشمس من دون الله، وإضلال الشيطان لهم، وصده إياهم عن عبادة الله - تعالى - وحده لا شريك له، الذي يخرج الخبء في السماوات والأرض ويعلم ما يخفون وما يعلنون؛ أي: يعلم السرائر والظواهر من المحسوسات والمعنويات: ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ۝ ﴾؛ أي: له العرش العظيم الذي لا أعظم منه في المخلوقات.

فعند ذلك بعث سليمان - عليه السلام - كتابه يتضمن دعوته لهم إلى طاعة الله وطاعة رسوله والإنابة والإذعان إلى الدخول في الخضوع للملكه وسلطانه؛ ولهذا قال لهم: ﴿ أَلَا تَعْلَمُونَ عَلَيَّ ﴾؛ أي: لا تستكبروا عن طاعتي وامثال أوامري. ﴿ وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾؛ أي: واقدموا علي سامعين مطيعين بلا معاودة ولا مراودة. فلما جاءها الكتاب مع الطير - ومن ثم اتخذ الناس البطائق، ولكن؛ أين الثريا من الثرى؟! تلك البطاقة كانت مع طائر سامع مطيع فاهم عالم بما يقول ويقال له -؛ فذكر غير واحد من المفسرين وغيرهم: أن الهدهد حمل الكتاب، وجاء إلى قصرها، فالتقاء إليها وهي في خلوة لها، ثم وقف ناحية ينتظر ما يكون من جوابها عن كتابه.

فجمعت أمراءها ووزراءها وأكابر دولتها إلى مشورتها. ﴿ قَالَتْ يَأْأَيُّهَا الْمَلِكُ إِنِّي أَلْقَيْتُ إِلَيْكَ كِتَابَ كَرِيمٍ ۝ ﴾. ثم قرأت عليهم عنوانه أولاً: ﴿ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ ﴾، ثم قرأته: ﴿ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝ ﴾ أَلَا تَعْلَمُونَ عَلَيَّ

(١) (٤٤٢٥)، وكذا أخرجه الترمذي (٢٢٦٢)، والنسائي (٢٢٧/٨).

وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٥٦﴾، ثم شاورتهم في أمرها وما قد حل بها، وتأدبت معهم، وخطبتهم وهم يسمعون. ﴿قَالَتْ يَتَأْتِيهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُون﴾ ﴿٥٧﴾؛ تعني: ما كنت لأبت أمرًا إلا وأنتم حاضرون ﴿قَالُوا نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةً وَأَوْلُوا بِأَسِي شَدِيدٍ﴾؛ يعنون: لنا قوة وقدرة على الجلال والقتال ومقاومة الأبطال؛ فإن أردت منا ذلك؛ فإننا عليه من القادرين ﴿و﴾ مع هذا ﴿الْأَمْرُ إِلَيْكَ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾؛ فبذلوا لها السمع والطاعة، وأخبروها بما عندهم من الاستطاعة، وفوضوا إليها في ذلك الأمر؛ لترى فيه ما هو الأرشد لها ولهم، فكان رأيها أتم وأسد من رأيهم، وعلمت أن صاحب هذا الكتاب لا يغالب ولا يمانع ولا يخالف ولا يخادع.

﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ ﴿٥٨﴾: تقول برأيها السديد: إن هذا الملك؛ لو قد غلب على هذه المملكة؛ لم يخلص الأمر من بينكم إلا إلي، ولم تكن الحدة والشدة والسطوة البليغة إلا علي، ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْأَمْرُ سَلُونَ﴾ ﴿٥٩﴾: أرادت أن تصانع عن نفسها وأهل مملكتها بهدية ترسلها وتحف تبعثها ولم تعلم أن سليمان -عليه السلام- لا يقبل منهم -والحالة هذه- صرفاً ولا عدلاً؛ لأنهم كافرون، وهو وجنوده عليهم قادرون.

ولهذا؛ ﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَنَ قَالَ أُمِدُّونَنِي بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَانَكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ ﴿٦٠﴾؛ هذا؛ وقد كانت تلك الهدايا مشتملة على أمور عظيمة كما ذكره المفسرون. ثم قال لرسولها إليه ووافدها الذي قدم عليه والناس حاضرون يسمعون: ﴿أَرْجِعِ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ ﴿٦١﴾: يقول: ارجع بهديتك التي قدمت بها إلى من قد من بها؛ فإن عندي مما قد أنعم الله علي وأسداه إلي من الأموال والتحف والرجال ما هو أضعاف هذا وخير من هذا الذي أنتم تفرحون به وتفخرون على أبناء جنسكم بسببه. ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا﴾؛ أي: فلا بعثن إليهم بجنود لا يستطيعون دفاعهم ولا نزاهم ولا ممانعتهم، ولا

قتالهم، ولا يخرجهم من بلادهم وحوزتهم ومعاملتهم ودولتهم أذلة ﴿ وَهُمْ صَغِيرُونَ ﴾: عليهم الصغار والعار والدمار.

فلما بلغهم ذلك عن نبي الله؛ لم يكن لهم بد من السمع والطاعة، فبادروا إلى إجابته في تلك الساعة، وأقبلوا صحبة الملكة أجمعين سامعين مطيعين خاضعين.

فلما سمع بقدمهم عليه ووفودهم إليه؛ قال لمن بين يديه ممن هو مسخر له من الجان ما قصه الله عنه في القرآن: ﴿ قَالَ يَأْتِيهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ ١ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا ءَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ٢ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا ءَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ٣ قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرُ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الْآذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ٤ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ٥ وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ ٦ قِيلَ لَهَا اادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا قَالَتْ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ٧ ﴾ [النمل: ٣٨-٤٤].

لما طلب سليمان من الجان أن يحضروا له عرش بلقيس - وهو سرير مملكتها التي تجلس عليه وقت حكمها - قبل قدومها عليه. ﴿ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا ءَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَّقَامِكَ ﴾؛ يعني: قبل أن ينقضي مجلس حكمك، وكان فيما يقال: من أول النهار إلى قريب الزوال، يتصدى لمهمات بني إسرائيل وما لهم من الأشغال ﴿ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴾؛ أي: وإني ل ذو قدرة على إحضاره إليك، وأمانة على ما فيه من الجواهر النفيسة لديك.

﴿ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ ﴾: المشهور أنه آصف بن برخيا، ﴿ أَنَا ءَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾: قيل: معناه قبل أن تبعث رسولا إلى أقصى ما ينتهي إليه طرفك من الأرض ثم يعود إليك. وقيل: قبل أن يصل إليك

أبعد ما تراه من الناس. وقيل: قبل أن يَكِلَ طرفك إذا أدمت النظر به قبل أن تطبق جفنك. وقيل: قبل أن يرجع إليك طرفك إذا نظرت به إلى أبعد غاية منك ثم أغمضته. وهذا أقرب ما قيل.

﴿ فَلَمَّا رَأَاهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ ﴾؛ أي: فلما رأى عرش بلقيس مستقراً عنده في هذه المدة القريبة من بلاد اليمن إلى بيت المقدس في طرفة عين ﴿ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ﴾؛ أي: هذا من فضل الله علي، وفضله على عبيده ليختبرهم على الشكر أو خلافه ﴿ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ﴾؛ أي: إنما يعود نفع ذلك عليه. ﴿ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾؛ أي: غني عن شكر الشاكرين، ولا يتضرر بكفر الكافرين.

ثم أمر سليمان -عليه السلام- أن يغير حلي هذا العرش وينكر لها ليختبر فهمها وعقلها؛ ولهذا قال: ﴿ نَنْظُرُ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكَ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ ﴾: وهذا من فطنتها وجزارة فهمها؛ لأنها استبعدت أن يكون عرشها؛ لأنها خلفته وراءها بأرض اليمن، ولم تكن تعلم أن أحداً يقدر على هذا الصنع العجيب الغريب.

قال الله -تعالى- إخباراً عن سليمان وقومه: ﴿ وَأَوْتَيْنَا آلَ عِلْمٍ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴾ ﴿ وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾؛ أي: ومنعها عبادة الشمس التي كانت تسجد لها هي وقومها من دون الله اتباعاً لدين آبائهم وأسلافهم، لا لدليل قادم إلى ذلك ولا حادهم على ذلك.

وكان سليمان قد أمر ببناء صرح من زجاج، وعمل في ممره ماء، وجعل عليه سقفاً من زجاج، وجعل فيه السمك وغيرها من دواب الماء، وأمرت بدخول الصرح وسليمان جالس على سريره فيه؛ ﴿ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِيهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُثَمَّرٌ مِنْ قَوَارِيرٍ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾.

[الصافات الجياد]

وقال تعالى في سورة ص [٣٠-٤٠]: ﴿ وَوَهَبْنَا لِذَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ ﴿ إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ بِالْعَشيِّ الصَّفِينَتُ الْجِيَادُ ﴾ ﴿ فَقَالَ إِنِّي

أَحَبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴿٣٠﴾ رُدُّوَهَا عَلَيَّ
فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى
كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لَا يَنْبَغِي
لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٣٣﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً
حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٤﴾ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٥﴾ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي
الْأَصْفَادِ ﴿٣٦﴾ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا
لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَّثَابٍ ﴿٣٨﴾ ﴿٣٩﴾

يذكر - تعالى - أنه وهب لداود سليمان -عليهما السلام-، ثم أنشئ الله
-تعالى- عليه، فقال: ﴿نِعَمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٣٠]؛ أي: رجاع مطيع لله.
ثم ذكر -تعالى- ما كان من أمره في الخيل الصافنات، وهي: التي تقف على
ثلاثة وطرف حافر الرابعة. الجياد، وهي: المضمرة السراع.

﴿فَقَالَ إِنِّي أَحَبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ
﴿٣٠﴾﴾؛ يعني: الشمس. وقيل: الخيل -على ما سنذكره من القولين- ﴿رُدُّوَهَا عَلَيَّ
فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴿٣١﴾﴾؛ قيل: مسح عراقيها وأعناقها بالسيوف.
وقيل: مسح عنها العرق لما أجراها وسابق بينها بين يديه على القول الآخر.
والذي عليه أكثر السلف الأول، فقالوا: اشتغل بعرض تلك الخيول حتى خرج
وقت العصر وغربت الشمس.

وروي هذا عن علي بن أبي طالب وغيره.

والذي يقطع به أنه لم يترك الصلاة عمداً من غير عذر، اللهم إلا أن يقال:
إنه كان سائغاً في شريعتهم! فأخر الصلاة؛ لأجل أسباب الجهاد، وعرض الخيل من
ذلك.

وقد ادعى طائفة من العلماء في تأخير النبي ﷺ صلاة العصر يوم الخندق أن
هذا كان مشروعاً إذ ذاك حتى نسخ بصلاة الخوف؛ قاله الشافعي وغيره.
وقال مكحول والأوزاعي: بل هو حكم محكم إلى اليوم: أنه يجوز تأخيرها
بعذر القتال الشديد؛ كما ذكرنا تقرير ذلك في سورة النساء عند صلاة الخوف.

وقال آخرون: بل كان تأخير النبي ﷺ صلاة العصر يوم الخندق^(١) نسياناً. وعلى هذا؛ فيحمل فعل سليمان -عليه السلام- على هذا، والله أعلم.

وأما من قال: الضمير في قوله: ﴿حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾: عائذ على الخيل، وأنه لم يَفُتْه وقت الصلاة، وأن المراد بقوله: ﴿رُدُّوْهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾^(٢)؛ يعني: مسح العرق عن عراقيبها وأعناقها؛ فهذا القول اختاره ابن جرير^(٣)، ورواه الوالي عن ابن عباس في مسح العرق.

ووجه هذا القول ابن جرير: بأنه ما كان ليعذب الحيوان بالعرقبة، ويهلك مالاً بلا سبب، ولا ذنب لها.

وهذا الذي قاله فيه نظر؛ لأنه قد يكون هذا سائغاً في ملتهم ! وقد ذهب بعض علمائنا إلى أنه إذا خاف المسلمون أن يظفر الكفار على شيء من الحيوانات من أغنام ونحوها؛ جاز ذبحها وإهلاكها؛ لئلا يتقوا بها.

وعليه حل صنع جعفر بن أبي طالب يوم عقر فرسه بمؤتة.

وقد قيل: إنها كانت خيلاً عظيمة. قيل: كانت عشرة آلاف فرس. وقيل: كانت عشرين ألف فرس. وقيل: كان فيها عشرون فرساً من ذوات الأجنحة.

وقد روى أبو داود في «سننه»^(٤): عن عائشة؛ قالت: قدم رسول الله ﷺ من غزوة تبوك أو خير، وفي سهوتها^(٥) ستر، فهبّت الريح فكشفت ناحية الستر عن بنات لعائشة لعب، فقال: «ما هذا يا عائشة؟»، فقالت: بناتي. ورأى بينهن فرساً له جناحان من رقاع، فقال: «ما هذا الذي أرى وسطهن؟»، قالت: فرس. قال: «وما الذي عليه هذا؟»، قالت: جناحان. قال: «فرس له جناحان؟»، قالت: أما سمعت أن لسليمان خيلاً لها أجنحة؟ قالت: فضحك حتى رأيت نواجذه ﷺ.

(١) أخرجه البخاري (٤١١١ و٤١١٢)، ومسلم (٦٢٨ و٦٣١).

(٢) في «تفسيره» (٢٣/١٠٠).

(٣) (٤٩٣٢)، وكذا أخرجه النسائي في «الكبرى»؛ كما في «تحفة الأشراف» (١٢/٣٥٧).

بسند صحيح.

(٤) كوة تشبه ما يعرف اليوم بمخزاة الحائط.

قال بعض العلماء: لما ترك الخليل لله؛ عوضه الله عنها بما هو خير له منها، وهو الريح التي كانت غدوها شهر ورواحها شهر؛ كما سيأتي الكلام عليها؛ كما روى الإمام أحمد: عن أبي قتادة وأبي الدهماء - وكانا يكثران السفر نحو البيت -؛ قالاً: أتينا على رجل من أهل البادية، فقال البدوي: أخذ بيدي رسول الله ﷺ، فجعل يعلمني مما علمه الله - عز وجل - وقال: «إنك لا تدع شيئاً اتقاء الله - عز وجل -؛ إلا أعطاك الله خيراً منه»^(١).

[بناء بيت المقدس]

وقوله - تعالى -: ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ ﴾ [ص: ٣٤]: ذكر ابن جرير و ابن أبي حاتم وغيرهما من المفسرين هاهنا آثاراً كثيرة عن جماعة من السلف، وأكثرها أو كلها متلقاة من الإسرائيليات، وفي كثير منها نكارة شديدة، وقد نبهنا على ذلك في كتابنا «التفسير»^(٢)، واقتصرنا هاهنا على مجرد التلاوة.

ومضمون ما ذكره أن سليمان - عليه السلام - غاب عن سريره أربعين يوماً ثم عاد إليه: ولما عاد؛ أمر ببناء بيت المقدس، فبناه بناء محكماً! وقد قدمنا أنه جدده، وأن أول من جعله مسجداً لإسرائيل - عليه السلام -؛ كما ذكرنا ذلك عند قول أبي ذر: قلت: يا رسول الله! أي مسجد وضع أولاً؟ قال: «المسجد الحرام»، قلت: ثم أي؟ قال: «مسجد بيت المقدس»، قلت: كم بينهما؟ قال: «أربعون سنة»^(٣).

(١) صحيح - أخرجه أحمد (٥/٧٨ و٣٦٣)، ووكيع في «الزهد» (٣٥٦)، والنسائي في «السنن الكبرى»؛ كما في «تحفة الأشراف» (١١/١٩٩) وسنده صحيح.

(٢) (٧/٨٦ - وما بعدها).

(٣) تقدم تخريجه (ص ١٣٩).

ومعلوم أن بين إبراهيم الذي بنى المسجد الحرام وبين سليمان بن داود-
عليهما السلام- أزيد من ألف سنة، دع أربعين سنة!
وكان سؤاله الملك الذي لا ينبغي لأحد من بعده بعد إكماله البيت المقدس.
روى الإمام أحمد و النسائي وابن ماجه وابن خزيمة وابن حبان والحاكم عن
عبد الله بن عمرو بن العاص؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن سليمان لما بنى بيت
المقدس؛ سأل ربه -عز وجل- خلافاً ثلاثاً، فأعطاه اثنتين، ونحن نرجو أن تكون
له الثالثة: سألته حكماً يصادف حكمه؛ فأعطاه إياه، وسألته ملكاً لا ينبغي لأحد من
بعده؛ فأعطاه إياه، وسألته أيما رجل خرج من بيته لا يريد إلا الصلاة في هذا
المسجد؛ خرج من خطيئته مثل يوم ولدته أمه. فنحن نرجو أن يكون الله قد أعطاه
إياه!»^(١).

فأما الحكم الذي يوافق حكم الله -تعالى-؛ فقد أثنى الله -تعالى- عليه وعلى
أبيه في قوله: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَخْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ
وَكَئِنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا
وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴿٧٩﴾﴾
[الأنبياء: ٧٨-٧٩]، وقد ذكر شريح القاضي وغير واحد من السلف: أن هؤلاء القوم
كان لهم كرم، فنفضت فيه غنم قوم آخرين؛ أي: رعته بالليل، فأكلت شجره
بالكلية، فتحاكموا إلى داود -عليه السلام- فحكم لأصحاب الكرم بقيمته، فلما
خرجوا على سليمان قال: بم حكم لكم نبي الله؟ فقالوا: بكذا وكذا. فقال: أما لو
كنت أنا؛ لما حكمت إلا بتسليم الغنم إلى أصحاب الكرم فيستغلونها نتاجاً ودرأ

(١) صحيح- أخرجه أحمد (١٧٦/٢)، والنسائي في «المجتبى» (٣٤/٢)، و«الكبرى»

(١/رقم ٧٧٢)، وابن ماجه (١٤٠٨)، وابن خزيمة (١٣٣٤)، وابن حبان (١٦٣٣)، والحاكم

(٣٠/١) وغيرهم بسند صحيح، وقد صححه ابن خزيمة وابن حبان والحاكم والمنذري وشيخنا

الألباني.

حتى يصلح أصحاب الغنم كرم أولئك ويردوه إلى ما كان عليه، ثم يتسلموا غنمهم، فبلغ داود -عليه السلام- ذلك فحكم به.

وقريب من هذا ما ثبت في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «بينما امرأتان معهما ابناهما؛ إذ عدا الذئب فأخذ ابن إحداهما فتنازعتا في الآخر، فقالت الكبرى: إنما ذهب بابنك. وقالت الصغرى: بل إنما ذهب بابنك. فتحاكما إلى داود، فحكم به للكبرى، فخرجتا على سليمان، فقال: اتنوني بالسكين أشقه نصفين؛ لكل واحدة منكما نصفه. فقالت الصغرى: لا تفعل يرحمك الله؛ هو ابنها. ف قضى به لها»^(١).

ولعل كلاً من الحكمين كان سائغاً في شريعتهم، ولكن ما قاله سليمان أرجح؛ ولهذا أثنى الله عليه بما ألهمه إياه، ومدح بعد ذلك أباه، فقال: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالِ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴿٨٠﴾ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِيُخَفِّيَكُمْ بِأَسْكُكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ﴿٨١﴾﴾ [الأنبياء: ٧٩-٨٠].

ثم قال: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً ﴿٨٢﴾ أَي: وسخرنا لسليمان الريح عاصفة ﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا كُلَّ شَيْءٍ عَالِمِينَ ﴿٨٣﴾ وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الأنبياء: ٨١-٨٢].

وقال في سورة [ص: ٣٦-٤٠]: ﴿فَسَخَرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُحَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٨٥﴾ وَالشَّيَاطِينِ كُلُّ بَنَاءٍ وَعَوَاصٍ ﴿٨٦﴾ وَءَاخِرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٨٧﴾ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٨٨﴾ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَّثَابٍ ﴿٨٩﴾﴾.

(١) يعني: للصغرى، والحديث أخرجه البخاري (٣٤٢٧)، ومسلم (١٧٢٠)؛ كما قال المصنف - رحمه الله -.

لما ترك الخليل ابتغاء وجه الله؛ عوضه الله عنها الريح التي هي أسرع سيرا وأقوى وأعظم ولا كلفة عليه لها ﴿ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءَ حَيْثُ أَصَابَ ﴾ [ص: ٣٦]؛ أي: حيث أراد من أي البلاد، كان له بساط مركب من أخشاب؛ بحيث إنه يسع جميع ما يحتاج إليه من الدور المبنية والقصور والخيام والأمتعة والخيول والجمال والأثقال والرجال من الإنس والجان وغير ذلك من الحيوانات والطيور؛ فإذا أراد سفراً أو متزهاً أو قتال ملك أو أعداء من أي بلاد الله شاء؛ فإذا حمل هذه الأمور المذكورة على البساط؛ أمر الريح، فدخلت تحته فرفعته؛ فإذا استقل بين السماء والأرض؛ أمر الرخاء فسارت به؛ فإن أراد أسرع من ذلك؛ أمر العاصفة فحملته أسرع ما يكون، فوضعت في أي مكان شاء؛ بحيث إنه كان يرتحل في أول النهار من بيت المقدس، فتغذو به الريح، فتضعه بإصطخر مسيرة شهر، فيقيم هتلك إلى آخر النهار، ثم يروح من آخره، فترده إلى بيت المقدس.

كما قال -تعالى-: ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحُ غَدُوهاً شَهْرٌ وَرِيَّاحُها شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾ [سبا: ١٢-١٣].

وأما القطر؛ فقال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وقتادة وغير واحد: هو النحاس^(١). قال قتادة: وكانت باليمن أنبعاها الله له^(٢).

وقوله: ﴿ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾؛ أي: وسخر الله له من الجن عمالاً يعملون له ما يشاء لا يفترون ولا يخرجون عن طاعته، ومن خرج منهم عن الأمر؛ عذبه ونكل به.

(١) انظر: «جامع البيان» (٤٨/٢٢)، و«تفسير القرآن العظيم» (٦٦٠/٦).

(٢) أخرجه الطبري (٤٨/٢٢) بسند صحيح عنه.

﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحْرِبٍ﴾: وهي الأماكن الحسنة وصدور
المجالس ﴿وَتَمَثَّلَ﴾: وهي الصور في الجدران، وكان هذا سائغاً في شريعتهم
وملتهم. ﴿وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ﴾؛ قال ابن عباس: الجفنة كالجوبة من الأرض،
وعنه: كالحياض. وكذا قال مجاهد والحسن وقتادة والضحاك وغيرهم.
وعلى هذه الرواية يكون الجواب جمع جابية، وهي الخوض الذي يجبى فيه
الماء؛ كما قال الأعشى^(١):

تروح على^(٢) آل المخلق جفنة كجابية الشيخ^(٣) العراقي تفهق

وأما القدور الراسيات؛ فقال عكرمة: أثافها منها؛ يعني: أنهن ثوابت لا
يزلن عن أماكنهن. وهكذا قال مجاهد وغير واحد. ولما كان هذا بصدد إطعام
الطعام والإحسان إلى الخلق من إنسان وجان؛ قال -تعالى-: ﴿أَعْمَلُوا ءَالَ دَاوُدَ
شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ﴾.

وقال -تعالى-: ﴿وَالشَّيَاطِينُ كُلُّ بَنَاءٍ وَغَوَاصٍ﴾ و﴿وَأَخْرَيْنَ مُقَرَّرَيْنِ
فِي الْأَصْفَادِ﴾؛ يعني: أن منهم من قد سخره في البناء، ومنهم من يأمره
بالغوص في الماء لاستخراج ما هنالك من الجواهر واللائى وغير ذلك مما لا يوجد
إلا هناك. وقوله: ﴿وَأَخْرَيْنَ مُقَرَّرَيْنِ فِي الْأَصْفَادِ﴾؛ أي: قد عصوا؛ فقيدوا
مقرنين اثنين اثنين في الأصفاد، وهي القيود. وهذا كله من جملة ما هيأه الله وسخر
له من الأشياء التي هي من تمام الملك الذي لا ينبغي لأحد من بعده ولم يكن
-أيضاً- لمن كان قبله.

وقد وروى البخاري^(٤): عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ؛ قال: «إِنْ عَفَرْتَا مِنْ
الْجَنِّ تَفَلَّتْ عَلَيَّ الْبَارِحَةُ؛ لِيَقْطَعَ عَلَيَّ صَلَاتِي؛ فَأَمَكْنِي اللَّهُ مِنْهُ فَأَخَذْتَهُ، فَأَرَدْتُ أَنْ
أَرْبِطَهُ إِلَى سَارِيَةٍ مِنْ سَوَارِي الْمَسْجِدِ حَتَّى تَنْظُرُوا إِلَيْهِ كُلَّكُمْ، فَذَكَرْتُ دَعْوَةَ أَخِي

(١) ديوانه (ص ٢٢٥).

(٢) في الديوان: «نفى الذم عن».

(٣) في الديوان: «السيح».

(٤) في «صحيحه» (٣٤٢٣).

سليمان: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي﴾؛ فرددته خاسئاً».

وروى مسلم^(١) عن أبي الدرداء؛ قال: قام رسول الله ﷺ يصلي، فسمعناه يقول: «أعوذ بالله منك، ألعنك بلعنة الله» ثلاثاً، وبسط يده كأنه يتناول شيئاً. فلما فرغ من الصلاة؛ قلنا: يا رسول الله! قد سمعناك تقول في الصلاة شيئاً لم نسمعك تقوله قبل ذلك، ورأيناك بسطت يدك! قال: «إن عدو الله إبليس جاء بشهاب من نار؛ ليجعله في وجهي، فقلت: أعوذ بالله منك! ثلاث مرات، ثم قلت: ألعنك بلعنة الله التامة! فلم يستأخر! ثلاث مرات. ثم أردت أخذه، والله؛ لولا دعوة أخي سليمان؛ لأصبح موثقاً يلعب به ولدان أهل المدينة».

وروى أحمد: عن أبي عبيد صاحب سليمان، قال: رأيت عطاء بن يزيد الليثي قائماً يصلي، فذهبت أمر بين يديه فردني، ثم قال: حدثني أبو سعيد الخدري: أن رسول الله ﷺ قام، فصلى صلاة الصبح وهو خلفه، فقرأ فالتبست عليه القراءة، فلما فرغ من صلاته؛ قال: «لو رأيتموني وإبليس، فأهويت بيدي، فما زلت أخنقه حتى وجدت برد لعابه بين أصبعي هاتين الإبهام والتي تليها، ولولا دعوة أخي سليمان؛ لأصبح مربوطاً بسارية من سواري المسجد يتلاعب به صبيان المدينة؛ فمن استطاع منكم ألا يحول بينه وبين القبلة أحد؛ فليفعل».

روى أبو داود منه^(٢): «فمن استطاع» إلى آخره .

وقد ذكر غير واحد من السلف أنه كانت لسليمان من النساء ألف امرأة؛ وقد كان يطيق من التمتع بالنساء أمراً عظيماً جداً.

روى البخاري^(٣) عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «قال سليمان بن داود: لأطوفن الليلة على سبعين امرأة، تحمل كل امرأة فارساً يجاهد في سبيل الله. فقال

(١) في «صحيحه» (٥٤٢).

(٢) في «سننه» (٦٩٩)، وقال شيخنا -رحمه الله- في «صحيح سنن أبي داود» (٦٤٧):

«حسن صحيح».

(٣) في «صحيحه» (٣٤٢٤).

له صاحبه: إن شاء الله. فلم يقل. فلم تحمل شيئاً؛ إلا واحداً ساقطاً. أحد شقيه». فقال النبي ﷺ: «لو قالها؛ لجاهدوا في سبيل الله».

وروى أبو يعلى^(١): عن أبي هريرة؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «قال سليمان بن داود: لأطوفن الليلة على مائة امرأة، كل امرأة منهن تلد غلاماً يضرب بالسيف في سبيل الله. ولم يقل: إن شاء الله. فطاف تلك الليلة على مائة امرأة، فلم تلد منهن امرأة؛ إلا امرأة ولدت نصف إنسان». فقال رسول الله ﷺ: «لو قال: إن شاء الله؛ لولدت كل امرأة منهن غلاماً يضرب بالسيف في سبيل الله - عز وجل».

وروى الإمام أحمد^(٢): عن أبي هريرة؛ قال: قال سليمان بن داود: لأطوفن الليلة على مائة امرأة، تلد كل واحدة منهن غلاماً يقاتل في سبيل الله، ولم يستثن. فما ولدت إلا واحدة منهن بشق إنسان. قال: قال رسول الله ﷺ: «لو استثنى؛ لولد له مئة غلام، كلهم يقاتل في سبيل الله - عز وجل».

وروى الإمام أحمد^(٣): عن أبي هريرة؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «قال سليمان ابن داود: لأطوفن الليلة بمائة امرأة، تلد كل امرأة منهن غلاماً يقاتل في سبيل الله»، قال: «ونسي أن يقول: إن شاء الله، فأطاف بهن». قال: «فلم تلد منهن امرأة إلا واحدة نصف إنسان». فقال رسول الله ﷺ: «لو قال: إن شاء الله؛ لم يحنث، وكان دركاً لحاجته».

وقد كان له - عليه السلام - من أمور الملك واتساع الدولة وكثرة الجنود وتنوعها ما لم يكن لأحد قبله، ولا يعطيه الله أحداً بعده؛ كما قال: ﴿وَأَوْثَيْنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ١٦]، و﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [ص: ٣٥]، وقد أعطاه الله ذلك بنص الصادق المصدوق.

(١) في «مسنده»، - ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٢٢/٢٥٨)، - بسند صحيح على شرطهما.

(٢) في «مسنده» (٢/٢٢٩) وسنده صحيح على شرطهما - أيضاً.

(٣) في «المسند» (٢/٢٧٥)، وكذا أخرجه البخاري (٥٢٤٢)، ومسلم (١٦٥٤).

ولما ذكر -تعالى- ما أنعم به عليه وأسده من النعم الكاملة العظيمة إليه؛ قال: ﴿ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [ص: ٣٩]؛ أي: أعط من شئت واحرم من شئت؛ فلا حساب عليك؛ أي: تصرف في المال كيف شئت؛ فإن الله قد سوغ لك ما تفعله من ذلك، ولا يحاسبك على ذلك، وهذا شأن النبي الملك؛ بخلاف العبد الرسول؛ فإن من شأنه ألا يُعطي أحداً إلا بإذن الله له في ذلك.

وقد خير نبينا محمد -صلوات الله وسلامه عليه- بين هذين المقامين، فاختار أن يكون عبداً رسولاً.

وفي بعض الروايات أنه استشار جبريل في ذلك، فأشار إليه أن تواضع، فاختار أن يكون عبداً رسولاً -صلوات الله وسلامه عليه-^(١).

وقد جعل الله الخلافة والملك من بعده في أمته إلى يوم القيامة؛ فلا تزال طائفة من أمته ظاهرين حتى تقوم الساعة^(٢)؛ فله الحمد والمنة.

ولما ذكر -تعالى- ما وهبه لنبيه سليمان - عليه السلام - من خير الدنيا؛ نبه على ما أعد له في الآخرة من الثواب الجزيل والأجر الجميل والقربة التي تقربه إليه والفوز العظيم والإكرام بين يديه، وذلك يوم المعاد والحساب؛ حيث يقول -تعالى-: ﴿ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَّآبٍ ﴾ [ص: ٤٠].

(١) صحيح- أخرجه أحمد (٢/ ٢٣١)، وأبو يعلى (٦١٠٥)، والبخاري (٢٤٦٢)، وابن حبان (٦٣٦٥) بسند صحيح على شرط الشيخين.

(٢) أخرجه البخاري (٣٦٤١)، ومسلم (١٠٣٧) من حديث معاوية بن أبي سفيان -رضي الله عنهما-.

ذكر وفاته وكم كانت مدة ملكه وحياته

قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّو كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ۝٤١﴾.

عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «كان سليمان نبي الله عليه السلام- إذا صلى؛ رأى شجرة نابتة بين يديه، فيقول لها: ما اسمك؟ فتقول: كذا، فيقول: لأي شيء أنت؟ فإن كانت لغرس؛ غرس، وإن كانت لدواء؛ أنبت. فبينما هو يصلي ذات يوم؛ إذ رأى شجرة بين يديه، فقال لها: ما اسمك؟ قالت: الخروب، قال: لأي شيء أنت؟ قالت: لخراب هذا البيت؛ فقال سليمان: اللهم! عم على الجن موتي حتى تعلم الإنس أن الجن لا يعلمون الغيب؛ ففتحها عصا، فتروكا عليها حولا والجن تعمل، فأكلتها الأرضة^(١)؛ فتبينت الإنس أن الجن لو كانوا يعلمون الغيب؛ ما لبثوا حولا في العذاب المهين. (قال: وكان ابن عباس يقرأها كذلك) فشكرت الجن للأرضة، فكانت تأتيها بالماء»^(٢).

(١) دويبة بيضاء هي آفة الخشب.

(٢) ضعيف مرفوعا، صحيح موقوفا- أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٥١/٢٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره»؛ كما في «تفسير القرآن العظيم» (٦/٦٦٤)، والبزار في «مسنده» (٢٣٥٥)، والطبراني في «الكبير» (١٢٢٨١)، والحاكم (٤/٤٠٢)، والضياء في «الأحاديث المختارة» (٣٠٨/٢٩١/١٠) من طريق إبراهيم بن طهمان به.

قلت: وعطاء؛ اختلط بأخره، وسماع إبراهيم منه بعد الاختلاط.

وأخرجه البزار (٢٣٥٦) من طريق سفيان بن عيينة عن عطاء به موقوفا.

وابن عيينة سمع منه قبل اختلاطه؛ فهذا أصح- وهو موقوف-.

وأخرجه ابن المبارك في «الزهد» (١٠٧٢)، والحاكم (٤/١٩٨)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٢٢/٢٩٦-٢٩٧) من طريق سلمة بن كهيل عن سعيد بن جبير عن ابن عباس به

ذكر خراب بيت المقدس

وقوله - تعالى -: ﴿ وَءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ
 أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا ۝ ذُرِّيَّةً مِّن حَمَلِنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا
 شَكُورًا ۝ وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ
 وَلَتَعْلُنَّ عُلُوقًا كَبِيرًا ۝ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي
 بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ۝ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ
 الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُم أَكْثَرًا نِّفِيرًا ۝ إِنْ
 أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسْتَسْأُوا
 وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا
 ۝ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُمْ عُدتْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا
 ﴿١﴾ [الإسراء: ٢-٨] ^(١).

= موقوفاً. وسنده حسن.

وبالجملة ؛ فالصحيح والأقرب أن يكون هذا الأثر موقوفاً.

(١) وانظر -لزاماً- كتابي «الجماعات الإسلامية في ضوء الكتاب والسنة بفهم السلف

الصالح» (ص ٦١-٧٩).

ذكر شيء من خبر دانيال - عليه السلام -

قال أبو العالية: لما افتتحنا نُسْتَر؛ وجدنا في مال بيت الهرمزان سريراً عليه رجل ميت عند رأسه مصحف؛ فأخذنا المصحف، فحملناه إلى عمر بن الخطاب، فدعا له كعباً، فنسخه بالعربية، فأنا أول رجل من العرب قرأه، قرأته مثل ما أقرأ القرآن هذا. فقلت لأبي العالية: ما كان فيه؟ قال: سيركم وأموركم ولحون كلامكم وما هو كائن بعد، قلت: فما صنعتُم بالرجل؟ قال: حفرنا بالنهار ثلاثة عشر قبراً متفرقة، فلما كان بالليل دفناه وسوينا القبور كلها؛ لنعميه على الناس؛ فلا ينبشونه، قلت: فما يرجون منه؟ قال: كانت السماء إذا حبست عنهم؛ برزوا بسريره فيمطرون، قلت: من كنتم تظنون الرجل؟ قال: رجل يقال له: دانيال، قلت: منذ كم وجدتموه قد مات؟ قال: منذ ثلاثمائة سنة، قلت: ما تغير منه شيء؟ قال: لا؛ إلا شعرات من قفاه، إن لحوم الأنبياء لا تبليها الأرض ولا تأكلها السباع.

وهذا إسناد صحيح إلى أبي العالية، ولكن إن كان تاريخ وفاته محفوظاً من ثلاثمائة سنة؛ فليس بنبي، بل هو رجل صالح؛ لأن عيسى ابن مريم ليس بينه وبين رسول الله ﷺ نبي بنص الحديث الذي في البخاري، والفترة التي كانت بينهما أربعمائة سنة، وقيل: ستمائة، وقيل: ستمائة وعشرون سنة، وقد يكون تاريخ وفاته من ثمانمائة سنة، وهو قريب من وقت دانيال؛ إن كان كونه دانيال هو المطابق لما في نفس الأمر؛ فإنه قد يكون رجلاً آخر إما من الأنبياء أو الصالحين، ولكن قربت الظنون أنه دانيال؛ لأن دانيال كان قد أخذه ملك الفرس، فأقام عنده مسجوناً.

وقد روي بإسناد صحيح إلى أبي العالية: أن طول أنفه شبر، وعن أنس بن مالك بإسناد جيد: أن طول أنفه ذراع؛ فيحتمل على هذا أن يكون رجلاً من الأنبياء الأقدمين قبل هذه المدد، والله - تعالى - أعلم.

روي ابن أبي الدنيا: عن عبد الرحمن بن أبي الزناد، عن أبيه؛ قال: رأيت في يد أبي بردة بن أبي موسى الأشعري خاتماً نُقِشَ فَصُّهُ أسدان بينهما رجل يلحسان ذلك الرجل.

قال أبو بردة: وهذا خاتم ذلك الرجل الميت، الذي زعم أهل هذه البلدة أنه دانيال، أخذه أبو موسى يوم دفنه.

قال أبو بردة: فسأل أبو موسى علماء تلك القرية عن نقش ذلك الخاتم؟ فقالوا: إن الملك الذي كان دانيال في سلطانه جاءه المنجمون وأصحاب العلم، فقالوا له: إنه يولد ليلة كذا وكذا غلام يغور ملكك ويفسده. فقال الملك: والله؛ لا يبقى تلك الليلة غلام إلا قتلته. إلا أنهم أخذوا دانيال؛ فألقوه في أجمة الأسد، فبات الأسد ولبؤته يلحسانه ولم يضرا؛ فجاءت أمه، فوجدتهما يلحسانه، فنجاه الله بذلك حتى بلغ ما بلغ.

قال أبو بردة: قال أبو موسى: قال علماء تلك القرية: فنقش دانيال صورته وصورة الأسدين يلحسانه في فص خاتمه؛ لثلا ينسى نعمة الله عليه في ذلك. إسناد حسن.

وهذا ذكر عمارة بيت المقدس بعد خرابها
واجتماع الملأ من بني إسرائيل بعد تفرقهم
في بقاع الأرض وشعابها

قال الله - تعالى - في كتابه المبين وهو أصدق القائلين: ﴿أَوَكَلَّذِي مِرٍّ
عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا
فَأَمَّا اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتُ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ
قَالَ بَلْ لَبِثْتُ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى
حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا
لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾﴾

[البقرة: ٢٥٩].

قصة العزيز

المشهور أن عزيزاً نبي من أنبياء بني إسرائيل، وأنه كان فيما بين داود وسليمان وبين زكريا ويحيى، وأنه لما لم يبق في بني إسرائيل من يحفظ التوراة؛ ألهمه الله حفظها، فسردها على بني إسرائيل.

وروى ابن عساكر^(١) عن ابن عباس: أنه سأل عبد الله بن سلام عن قول الله -تعالى-: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠]: لم قالوا ذلك؟ فذكر له ابن سلام ما كان من كتبه لبني إسرائيل التوراة من حفظه وقول بني إسرائيل: لم يستطع موسى أن يأتينا بالتوراة إلا في كتاب، وإن عزيزاً قد جاءنا بها من غير كتاب! فرماه طوائف منهم، وقالوا: عزيز ابن الله!

ولهذا يقول كثير من العلماء: إن تواتر التوراة انقطع في زمن العزيز. وهذا متجه جداً إذا كان العزيز غير نبي؛ كما قاله عطاء بن أبي رباح والحسن والبصري. وقد ثبت في «الصحيح»: أن رسول الله ﷺ قال: «أنا أولى الناس بابن مريم، والأنبياء أولاد علات، ليس بيني وبينه نبي»^(٢).

وقد روى الجماعة سوى الترمذي عن أبي هريرة.

وكذلك رواه شعيب عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «نزل نبي من الأنبياء تحت شجرة؛ فلدغته نملة، فأمر بجهازه فأخرج من تحتها، ثم أمر بها فأحرقت بالنار، فأوحى الله إليه: فهلا نملة واحدة»^(٣). وروي عن ابن عباس ومجاهد والحسن البصري: أنه عزيز^(٤)، فالله أعلم.

(١) في «تاريخه» (٤٠/٣٢٥).

(٢) سيأتي تحريجه (ص ٤٩٦).

(٣) أخرجه البخاري (٣٠١٩ و ٣٣١٩)، ومسلم (٢٢٤١)، وأبو داود (٥٢٦٥) و (٥٢٦٦)، والنسائي (٧/٢١٠)، وابن ماجه (٣٢٢٥).

(٤) ولا يصح في ذلك شيء البته.

قصة زكريا ويحيى - عليهما السلام -

[خبر زكريا ويحيى - عليهما السلام - في القرآن الكريم]

قال الله - تعالى - في كتابه العزيز: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ: ﴿ كَتِهَيْقَصْ
 ﴿١﴾ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ
 رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا
 ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ
 وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ عَالِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ يٰزَكَرِيَّا إِنَّا
 نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّى
 يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ
 كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىٰ هَيْئٍ وَقَدْ خَلَقْنَاكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴿٩﴾ قَالَ
 رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ
 عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾ يٰيَحْيَىٰ
 خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ
 تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَنَرَا بُولَدِيهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَّمْ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ
 يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾ [مريم: ١-٥١]

وقال - تعالى -: ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا
 وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ
 يٰمَرْيَمُ أَنَّى لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ
 ﴿١٦﴾ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ
 سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿١٧﴾ فَنَادَتْهُ الْمَلٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ
 يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنْ
 الصَّٰلِحِينَ ﴿١٨﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ
 قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿١٩﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا

تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمَزًا وَادَّكَّرَ رَبُّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحَ بِالْعَشِيِّ
وَالْإِبْكَارِ ﴿٤١﴾ [آل عمران: ٣٧-٤١].

وقال -تعالى- في سورة الأنبياء [٨٩-٩٠]: ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ
رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ
يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا
رَعْبًا وَرَهْبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾.

وقال -تعالى-: ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِيلَاسَ كُلٌّ مِّنَ
الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [الأنعام: ٨٥].

والمقصود: أن الله -تعالى- أمر رسوله ﷺ أن يقص على الناس خبر زكريا
-عليه السلام- وما كان من أمره؛ حين وهبه الله ولدًا على الكبر، وكانت امرأته
مع ذلك عاقراً في حال شبيبته، وقد أسنت أيضاً، حتى لا يياس أحد من فضل
الله ورحمته ولا يقنط من فضله -تعالى- وتقديسه-.

فقال -تعالى-: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ﴿١﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ
نِدَاءً خَفِيًّا ﴿٢﴾﴾ [مريم: ٢-٣]؛ قال قتادة عند تفسيرها: إن الله يعلم القلب النقي
ويسمع الصوت الخفي^(١). وقال بعض السلف: قام من الليل فنادى ربه مناداة
أسرها عن كان حاضراً عنده مخافته، فقال: يا رب! يا رب! يا رب! فقال الله:
لييك لبيك لبيك ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي﴾؛ أي: ضعف وخار من
الكبر ﴿وَأَشْتَغَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾: استعارة من اشتعال النار في الخطب؛ أي:
غلب على سواد الشعر شيبه؛ كما قال ابن دريد في مقصورته^(٢):

أما ترى رأسي حاكى لونه طرة^(٣) صبح تحت أذيال الدجا

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٣٥ / ١٦) بسند صحيح عنه.

(٢) المقصورة من الشعر: ما كانت قافيته غتومه بألف مقصورة. وانظر «تخميس

مقصورة ابن دريد» (ص ٣١-٣٣ و٣٧).

(٣) الجبهة والناصية.

واشتعل المبيض في مسوده مثل اشتعال النار في جمر الغضا^(١)
وأض^(٢) عود اللهو يساً ذاوياً من بعد ما قد كان مجاج الشرى
يذكر أن الضعف قد استحوذ عليه باطناً وظاهراً. وهكذا قال زكريا - عليه
السلام -: ﴿ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا ۖ وَقَوْلُهُ: ﴿ وَلَمْ
أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۖ ۞ أَي: ما عودتني فيما أسألك إلا الإجابة.

وكان الباعث له على هذه المسألة أنه لما كفل مريم بنت عمران ، وكان
كلما دخل عليها محرابها؛ وجد عندها فاكهة في غير إبانها ولا في أوانها، وهذه من
كرامات الأولياء، فعلم أن الرزاق للشيء في غير أوانه قادر على أن يرزقه ولداً
وإن كان قد طعن في سنه؛ ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ
لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٨﴾ [آل عمران: ٣٨].

وقوله: ﴿ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا ۖ ۞ قيل:
المراد بالموالي العصبية، وكأنه خاف من تصرفهم بعده في بني إسرائيل بما لا يوافق
شرع الله وطاعته، فسأل وجود ولد من صلبه يكون براً تقياً مرضياً؛ ولهذا قال:
﴿ فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ۖ ۞ أَي: من عندك بحولك وقوتك. ﴿ وَلِيًّا ﴿٣٩﴾ يَرِثُنِي ۖ ۞
أَي: في النبوة والحكم في بني إسرائيل. ﴿ وَبَرِّثْ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ
رَضِيًّا ﴿٤٠﴾ ۞ يعني: كما كان آباؤه وأسلافه من ذرية يعقوب أنبياء؛ فاجعله مثلهم
في الكرامة التي أكرمهم بها من النبوة والوحي، وليس المراد هاهنا وراثة المال؛ كما
زعم ذلك من زعمه من الشيعة، ووافقهم ابن جرير^(٣) هاهنا وحكاه عن أبي
صالح من السلف؛ لوجوه:

أحدها: ما قدمناه عند قوله - تعالى -: ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَنُ دَاوُدَ ۖ ۞ [النمل: ١٦]؛
أَي: في النبوة والملك؛ لما ذكرنا في الحديث المتفق عليه بين العلماء، المروي في

(١) من شجر البادية.

(٢) صار.

(٣) في «جامع البيان» (٣٧/١٦).

الصحيح والمسانيد والسنن وغيرها من طرق عن جماعة من الصحابة: أن رسول الله ﷺ قال: «لا نورث؛ ما تركنا؛ فهو صدقة»^(١).

فهذا نص على أن رسول الله ﷺ لا يورث؛ ولهذا منع الصديق أن يصرف ما كان يختص به في حياته إلى أحد من ورثته الذين لولا هذا النص؛ لصرف إليهم، وهم ابنته فاطمة وأزواجه التسع وعمه العباس -رضي الله عنهم-، واحتج عليهم الصديق في منعه إياهم بهذا الحديث، وقد وافقه على روايته عن رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب والعباس بن عبد المطلب وعبد الرحمن بن عوف وطلحة والزبير وأبو هريرة وآخرون -رضي الله عنهم-.

والثاني: أن الترمذي رواه بلفظ يعم سائر الأنبياء: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث»، وصححه^(٢).

(١) أخرجه البخاري (٣٠٩٢-٣٠٩٤)، ومسلم (١٧٥٧-١٧٦١).

(٢) قلت: وقد وهم المصنف -رحمه الله- في هذا؛ فإن الترمذي لم يروه البتة بلفظ «نحن»؛ بل ليس هو في الكتب الستة ولا في شيء من كتب الحديث المسندة.

قال الذهبي؛ كما في «موافقة الخبر الخبر» (١/٤٨١): «ليس هو في الكتب الستة»، وقال الحافظ ابن حجر في «الفتح» (٨/١٢): «وأما ما اشتهر في كتب أهل الأصول وغيرهم بلفظ: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث»؛ فقد أنكره جماعة من الأئمة وهو كذلك بالنسبة لخصوص لفظ: «نحن»».

وقال في «موافقة الخبر الخبر» (١/٤٨٢): «وحاصل هذا: أن الخبر لم يوجد بلفظ: (نحن)، ووجد بلفظ: «إنا»، ومفادهما واحد، فلعل من ذكره ذكره بالمعنى، والله أعلم».

قلت: لفظ «إنا»؛ أخرجه النسائي في «السنن الكبرى» (٤/٦٤/٦٣٠٩-) ومن طريقه الحافظ ابن حجر في «موافقة الخبر الخبر» (١/٤٨١-٤٨٢-)، وأحمد في «المسند» (١٧٢)، وغيرهم بسند صحيح.

وأخرجه أحمد (٢/٤٦٣) من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه- بلفظ: «إنا»، وسنده

الثالث: أن الدنيا كانت أحقر عند الأنبياء من أن يكتنوزوا لها أو يلتفتوا إليها أو يهتمهم أمرها حتى يسألوا الأولاد ليحوزوها بعدهم؛ فإن من لا يصل إلى قريب من منازلهم في الزهادة لا يهتم بهذا المقدار أن يسأل ولداً يكون وارثاً له فيها.

الرابع: أن زكريا - عليه السلام - كان نجاراً يعمل بيده ويأكل من كسبها؛ كما كان داود - عليه السلام - يأكل من كسب يده، والغالب - ولا سيما من مثل حال الأنبياء - أنه لا يجهد نفسه في العمل إجهاداً يستفضل منه مالاً يكون ذخيرة له ولمن يخلفه من بعده، وهذا أمر بين واضح لكل من تأمله وتدبره وتفهمه إن شاء الله.

روى الإمام أحمد: عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «كان زكريا نجاراً»^(١).

[الملائكة تبشر زكريا ببيحيى - عليهما السلام -]

وقوله: ﴿يَزَكِّرِيَا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٧]: وهذا مفسر بقوله: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران: ٣٩].

فلما بُشر بالولد وتحقق البشارة؛ شرع يستعلم على وجه التعجب وجود الولد له والحالة هذه ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ [مريم: ٨]؛ أي: كيف يوجد ولد من شيخ كبير؟! قيل: كان عمره إذ ذاك سبعاً وسبعين سنة، والأشبه - والله أعلم - أنه كان أسن من ذلك، ﴿وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا﴾؛ يعني: وقد كانت امرأتي في حال شببيتها عاقراً لا تلد! والله أعلم.

(١) أخرجه أحمد (٢/٢٩٦ و٤٠٥ و٤٨٥)، ومسلم (٢٣٧٩)، وابن ماجه (٢١٥٠).

كما قال الخليل: ﴿ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمَ تَبَشِّرُونَ ﴾ [الحجر: ٥٤]، وقالت سارة: ﴿ قَالَتْ يَنْوِلَتْنِي ٱلْأَلْدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا ٱبْتَٰ هَٰذَا لَشَيْءٍ عَجِيبٌ ﴾ [٢٦] قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ رَحِمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مُّجِيدٌ ﴾ [هود: ٧٢-٧٣].

وهكذا أجيب زكريا -عليه السلام-؛ قال له الملك الذي يوحى إليه بأمر ربه: ﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىٰ هَٰئِلٍ ﴾؛ أي: هذا سهل يسير عليه. ﴿ وَقَدْ خَلَقْنَاكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴾ [٢٦]؛ أي: قدرته أوجدتك بعد أن لم تكن شيئاً مذكوراً، أفلا يوجد منك ولد وإن كنت شيخاً؟

وقال -تعالى-: ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسْرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَاتِ وَيَذْعُرُونَ رَعْبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا۟ لَنَا خَشِيعِينَ ﴾ [الأنبياء: ٩٠]: ومعنى إصلاح زوجته أنها كانت لا تحيض فحاضت.

﴿ قَالَ رَبِّ ٱجْعَلْ لِّي ءَايَةً ﴾ [مريم: ١٠]؛ أي: علامة على وقت تعلق مني المرأة بهذا الولد المبشر به ﴿ قَالَ ءَايَتُكَ ٱلْأَ تَكْلِمُ ٱلنَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴾ [مريم: ١٠]؛ يقول: علامة ذلك أن يعتريك سكت لا تنطق معه ثلاثة أيام إلا رمزاً، وأنت في ذلك سويّ الخلق صحيح المزاج معتدل البنية. وأمر بكثرة الذكر في هذه الحال بالقلب، واستحضار ذلك بفؤاده بالعشي والإبكار.

فلما بشر بهذه البشارة؛ خرج مسروراً بها على قومه من محرابه؛ ﴿ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾ [٢٦]: والوحي هاهنا هو الأمر الخفي: إما بكتابة؛ أو إشارة.

وقوله -تعالى-: ﴿ يَنبَحِثُنِي ٱلْكِتَٰبُ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَاهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴾ [مريم: ١٢]: يخبر -تعالى- عن وجود الولد وفق البشارة الإلهية لأبيه زكريا -عليه السلام- وأن الله علمه الكتاب والحكمة وهو صغير في حال صباه.

وأما قوله: ﴿ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا ﴾ [مریم: ١٣]، فروى ابن جرير عن عكرمة^(١) وقتادة^(٢) والضحاك^(٣): ﴿ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا ﴾؛ أي: رحمة من عندنا، رحمتنا بها زكريا، فوهبنا له هذا الولد.

وأما الزكاة؛ فهو طهارة الخلق وسلامته من النقائص والرذائل. والتقوى: طاعة الله بامتثال أوامره وترك زواجره.

ثم ذكر بره بوالديه، وطاعته لهما أمراً ونهياً، وترك عقوقهما قولاً وفعلاً؛ فقال: ﴿ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا ﴾ [مریم: ١٤]، ثم قال: ﴿ وَسَلِّمْ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴾؛ هذه الأوقات الثلاثة أشد ما تكون على الإنسان؛ فإنه ينتقل في كل منها من عالم إلى عالم آخر؛ فيفقد الأول بعد ما كان ألفه وعرفه، ويصير إلى الآخر ولا يدري ما بين يديه؛ ولهذا يستهل صارخاً إذا خرج من بين الأحشاء وفارق لينها وضمها، وانتقل إلى هذه الدار ليكابد همومها وغمها! وكذلك إذا فارق هذه الدار وانتقل إلى عالم البرزخ بينهما وبين دار القرار، وصار بعد الدور والقصور إلى عرصة الأموات سكان القبور، وانتظر هناك النفخة في الصور ليوم البعث والنشور؛ فمن مسرور ومحبور، ومن محزون ومثبور، وما بين جبير وكسير، وفريق في الجنة وفريق في السعيرا ولقد أحسن بعض الشعراء حيث يقول:

ولدتك أمك باكياً مستصرخاً والناس حولك يضحكون سروراً
فاحرص لنفسك أن تكون إذا بكوا في يوم موتك ضاحكاً مسروراً

ولما كانت هذه الواطن الثلاثة أشق ما تكون على ابن آدم؛ سلم الله على يحيى في كل موطن منها، فقال: ﴿ وَسَلِّمْ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴾ [مریم: ١٥].

(١) أخرجه الطبري (٤٣/١٦) بسند صحيح.

(٢) أخرجه الطبري (٤٣/١٦) بسند صحيح.

(٣) أخرجه الطبري (٤٣/١٦) بسند صحيح.

وأما قوله في الآية الأخرى: ﴿ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [آل عمران: ٣٩]؛ فقليل: المراد بالحصور: السذي لا يأتي النساء، وقيل: غير ذلك، وهو أشبه؛ لقوله: ﴿ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ﴾ [آل عمران: ٣٨].

وروى الإمام أحمد: عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ قال: « ما من أحد من ولد آدم إلا وقد أخطأ أو همَّ بخطيئة؛ ليس يحيى بن زكريا، وما ينبغي لأحد أن يقول: أنا خير من يونس بن متى »^(١).

وعن عبدالله بن عمرو بن العاص: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «كل ابن آدم يأتي يوم القيامة وله ذنب؛ إلا ما كان من يحيى بن زكريا»^(٢).

[من فضائل يحيى - عليه السلام -]

وروى الإمام أحمد: عن الحارث الأشعري: أن النبي ﷺ قال: «إن الله أمر يحيى بن زكريا بخمس كلمات: أن يعمل بهن، وأن يأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهن، وكاد أن يبطيء؛ فقال له عيسى - عليه السلام -: إنك قد أمرت بخمس كلمات: أن تعمل بهن وتأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهن؛ فإما أن تبلغهن وإما أن أبلغهن. فقال: يا أخي! إنني أخشى إن سبقتني أن أعذب أو يخسف بي».

قال: «فجمع يحيى بني إسرائيل في بيت المقدس حتى امتلأ المسجد، فقعده على الشرف، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: إن الله - عز وجل - أمرني بخمس كلمات: أن أعمل بهن، وأمركم أن تعملوا بهن:

(١) صحيح - أخرجه أحمد (١/٣٤٥ و ٢٩٥ و ٣٠١ و ٣٢٠)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (١١/٥٦٢ و ١١٩٨٥)، وأبو يعلى في «مسنده» (٤/٤١٨ و ٢٥٤٤)، والطبراني في «الكبير» (١٢/١٦٧ و ١٢٩٣٣)، والبزار في «مسنده» (٣/١٠٨ و ٢٣٥٨ - كشف)، والحاكم (٢/٥٩١)، والبيهقي (١٠/١٨٦)، وابن عساكر في «تاريخه» (١٨/٩٣).

قلت: وهذا إسناد ضعيف؛ فيه علي بن زيد بن جدعان، وهو ضعيف. وللحديث طرق أخرى وشواهد جمعها وأخرجها بتفصيل وحكم عليها شيخنا الألباني - رحمه الله - في «الصحيح» (٦/٢٩٨٤)؛ فانظره غير مأمور.

(٢) انظر: «الصحيح» (٦/١٢٠٨ - ١٢٠٩).

أولهن: أن تعبدوا الله لا تشركوا به شيئاً؛ فإن مثل ذلك مثل من اشترى عبداً من خالص ماله بورق أو ذهب، فجعل يعمل ويؤدي غلته إلى غير سيده؛ فأياكم يسره أن يكون عبده كذلك؟! وإن الله خلقكم ورزقكم؛ فاعبدوه ولا تشركوا به شيئاً.

وأمركم بالصلاة؛ فإن الله ينصب وجهه قبل عبده ما لم يلتفت؛ فإذا صليتم فلا تلتفتوا.

وأمركم بالصيام؛ فإن مثل ذلك كمثل رجل معه صرة من مسك في عصابة؛ كلهم يجد ريح المسك، وإن خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك. وأمركم بالصدقة؛ فإن مثل ذلك كمثل رجل أسره العدو، فشده يده إلى عنقه، وقدموه ليضربوا عنقه، فقال: هل لكم أن أفتدي نفسي منكم؟ فجعل يفندي نفسه منهم بالقليل والكثير حتى فك نفسه.

وأمركم بذكر الله - عز وجل - كثيراً؛ فإن مثل ذلك كمثل رجل طلبه العدو سراعاً في أثره، فأتى حصناً حصيناً، فتحصن فيه، وإن العبد أحصن ما يكون من الشيطان إذا كان في ذكر الله - عز وجل -.

قال: وقال رسول الله ﷺ: «وأنا آمركم بخمس - الله أمرني بهن - بالجماعة، والسمع، والطاعة، والهجرة، والجهاد في سبيل الله؛ فإن من خرج عن الجماعة قيد شبر؛ فقد خلع ربقة الإسلام^(١) من عنقه؛ إلا أن يرجع، ومن دعا بدعوى الجاهلية؛ فهو من جثا^(٢) جهنم».

قالوا: يا رسول الله ! وإن صام وصلى؟

قال: «وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم، ادعوا المسلمين بأسمائهم، بما سماهم الله - عز وجل -، المسلمين المؤمنين عباد الله - عز وجل -»^(٣).

(١) ربقة الإسلام: جمع ربقة، وهي العقدة في الحبل.

(٢) حجارته.

(٣) صحيح - أخرجه أحمد (٤/١٣٠ و٢٠٢)، والطيالسي (١١٦١ و١١٦٢)، والترمذي

بيان سبب قتل يحيى - عليه السلام -

وذكروا في قتله أسباباً:

من أشهرها: أن بعض ملوك ذلك الزمان بدمشق كان يريد أن يتزوج ببعض محارمه أو من لا يحل له تزويجها؛ فنهاه يحيى - عليه السلام - عن ذلك، فبقي في نفسها منه.

فلما كان بينها وبين الملك ما يجب منها؛ استوهبت منه دم يحيى، فوهبه لها، فبعثت إليه من قتله وجاء برأسه ودمه في طست إلى عندها، فيقال: إنها هلكت من فورها وساعتها.

ثم اختلف في مقتل يحيى بن زكريا: هل كان في المسجد الأقصى أم بغيره؟ على قولين:

فقال الثوري^(١): عن الأعمش، عن شمر بن عطية؛ قال: قتل على الصخرة التي بيت المقدس سبعون نبياً، منهم: يحيى بن زكريا - عليه السلام -.

وقال أبو عبيد القاسم بن سلام^(٢): عن سعيد بن المسيب؛ قال: قدم يختصر دمشق؛ فإذا هو بدم يحيى بن زكريا يغلي، فسأله عنه؟ فأخبروه، فقتل على دمه سبعين ألفاً، فسكن.

وهذا إسناد صحيح إلى سعيد بن المسيب، وهو يقتضي أنه قتل بدمشق.

= (٢٨٦٣ و ٢٨٦٤)، والنسائي في «الكبرى»؛ كما في «تحفة الأشراف» (٣/٣)، وأبو يعلى

(١٥٧١)، والطبراني (٣٤٢٧-٣٤٣١)، وابن خزيمة (٤٨٣ و ٩٣٠ و ١٨٩٥).

(١) ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١٨/١٠٥).

(٢) المصدر نفسه.

قصة عيسى ابن مريم

عبد الله ورسوله وابن أمته

- عليه من الله أفضل الصلاة والسلام -

قال الله - تعالى - في سورة آل عمران، والتي أنزل صدرها - وهو ثلاث وثمانون آية منها - في الرد على النصارى - عليهم لعائن الله -، الذين زعموا: أن الله ولد، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

وكان قد قدم وفد لجران منهم على رسول الله ﷺ، فجعلوا يذكرون ما هم عليه من الباطل من التثليث في الأقانيم^(١) ويدعون بزعمهم أن الله ثالث ثلاثة، وهم الذات المقدسة وعيسى ومريم؛ على اختلاف فرقهم^(٢)، فأنزل الله - عز وجل - صدر هذه السورة؛ بين فيها أن عيسى عبد من عباد الله؛ خلقه وصوره في الرحم كما صور غيره من المخلوقات، وأنه خلقه من غير أب كما خلق آدم من غير أب ولا أم، وقال له: كن ! فكان، سبحانه وتعالى، ويبين أصل ميلاد أمه مريم، وكيف كان من أمرها، وكيف حملت بولدها عيسى، وكذلك بسط ذلك في سورة مريم كما ستتكلم على ذلك كله بعون الله وحسن توفيقه وهدايته.

فقال - تعالى - وهو أصدق القائلين: ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ۝ ذُرِّيَّةٌ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ۝ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا

(١) المشهور عندهم - الآن - أن الأقانيم هي: الأب، والابن، والروح القدس.

وهذا لا ينافي أنهم اتخذوا المسيح وأمّه إلهين من دون الله، نعوذ بالله من ضلالهم وكفرهم.

(٢) انظر: «الملل والنحل» (٢/ ٢٤٤).

نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمْرِئُمُ أَنَّى لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ [آل عمران: ٣٣-٣٧].

يذكر -تعالى- أنه اصطفى آدم -عليه السلام- والخلص من ذريته المتبعين شرعه الملازمين طاعته، ثم خصص فقال: ﴿وَأَلَّابْرَاهِيمَ﴾؛ فدخل فيهم بنو إسماعيل وبنو إسحاق، ثم ذكر فضل هذا البيت الطاهر الطيب، وهم آل عمران، والمراد بعمران هذا والد مريم -عليها السلام-.

ولا خلاف أنها من سلالة داود -عليه السلام-، وكان أبوها عمران صاحب صلاة بني إسرائيل في زمانه، وكانت أمها من العابدات، وكان زكريا نبي ذلك الزمان زوج أخت مريم أشياخ في قول الجمهور.

[ميلاد مريم -عليها السلام-]

﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ﴾؛ وقرئ بضم التاء^(١). ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ﴾؛ أي: في خدمة بيت المقدس، وكانوا في ذلك الزمان ينذرون لبيت المقدس خداماً من أولادهم. وقولها: ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾: استدل به على تسمية المولود يوم يولد. وكما ثبت في «الصحيحين» عن أنس في ذهابه بأخيه إلى رسول الله ﷺ؛ فحنك أخاه، وسماه: عبد الله^(٢).

(١) وهي قراءة ابن عامر الدمشقي وشعبة عن عاصم ويعقوب البصري؛ كما في «النشر» (٢/٢٣٩).

(٢) أخرجه البخاري (٥٤٧٠)، ومسلم (٢١٤٤).

وجاء في حديث الحسن عن سمرة مرفوعاً: «كل غلام رهينة بعقيقته؛ تذبح عنه يوم سابعه، ويسمى، ويخلق رأسه». رواه أحمد وأهل السنن وصححه الترمذي^(١).

وقولها: ﴿وَإِنِّي أُعِيدُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾: قد استجيب لها في هذا؛ كما تقبل منها نذرها.

روى الإمام أحمد: عن أبي هريرة: أن النبي ﷺ قال: «ما من مولود؛ إلا والشيطان يمسه حين يولد، فيستهل صارخاً من مس الشيطان إياه؛ إلا مريم وابنها» ثم يقول أبو هريرة: واقراءوا إن شئتم: ﴿وَإِنِّي أُعِيدُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾.

وروى أحمد^(٢) - أيضاً -: عنه عن النبي ﷺ قال: «كل مولود من بني آدم يمسه الشيطان بأصبعه؛ إلا مريم بنت عمران وابنها عيسى».

وروى أحمد^(٣): أن النبي ﷺ قال: «كل إنسان تلده أمه يلكره الشيطان في حضنيه؛ إلا ما كان من مريم وابنها، ألم تر إلى الصبي حين يسقط كيف يصرخ؟». قالوا: بلى يا رسول الله! قال: «ذلك حين يلكره الشيطان بحضنيه».

وروى الإمام أحمد^(٤) عنه - أيضاً -: عن النبي ﷺ قال: «كل بني آدم يطعن الشيطان في جنبه حين يولد؛ إلا عيسى ابن مريم، ذهب يطعن فطعن في الحجاب».

(١) صحيح - أخرجه أحمد (١٧/٥ و ٢٢)، وأبو داود (٢٨٣٧)، والترمذي (١٥٢٢)، والنسائي (١٦٦/٧)، وابن ماجه (٣١٦٥) وغيرهم بسند صحيح. وقد فصلت تحريجه والكلام عليه في تحقيقي لكتاب «تحفة المودود» (ص ٧٢-٧٣).

(٢) في «المسند» (٢/٢٨٨) وسنده حسن.

(٣) في «المسند» (٢/٣٦٨) وسنده صحيح على شرط مسلم.

(٤) في «مسند» (٢/٥٢٣) وسنده على شرطهما.

[مريم في كفالة زكريا - عليه السلام -]

وقوله: ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ﴾؛ ذكر كثير من المفسرين أن أمها حين وضعتها؛ لفتها في خروقتها، ثم خرجت بها إلى المسجد، فسلمتها إلى العباد الذين هم مقيمون به، وكانت ابنة إمامهم وصاحب صلاتهم، فتنازعوا فيها.

والظاهر أنها إنما سلمتها إليهم بعد رضاعها وكفالة مثلها في صغرها. ثم لما دفعتها إليهم؛ تنازعوا في أيهم يكفلها، وكان زكريا نبيهم في ذلك الزمان، وقد أراد أن يستبد بها دونهم من أجل أن زوجته أختها أو خالتها على القولين. فشاحوه في ذلك وطلبوا أن يقترح معهم، فساعدته المقادير، فخرجت قرعته غالبية لهم، وذلك أن الحالة بمنزلة الأم.

قال الله - تعالى -: ﴿ وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ﴾؛ أي: بسبب غلبه لهم في القرعة؛ كما قال - تعالى -: ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَقْلَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٤٤]؛ قالوا: وذلك أن كلاً منهم ألقى قلمه معروفاً به، ثم حملوها ووضعوها في موضع، وأمروا غلاماً لم يبلغ الحنث^(١)، فأخرج واحداً منها، وظهر قلم زكريا - عليه السلام -. فطلبوا أن يقترحوا مرة ثانية، وأن يكون ذلك بأن يلقوا أقلامهم في النهر؛ فأيهم جرى قلمه على خلاف جرية الماء؛ فهو الغالب ففعلوها، فكان زكريا هو الذي جرى على خلاف جرية الماء؛ وسارت أقلامهم مع الماء ثم طلبوا منه أن يقترحوا ثالثة؛ فأيهم جرى قلمه مع الماء ويكون بقية الأقلام قد انعكس سيرها صعوداً؛ فهو الغالب، ففعلوا؛ فكان زكريا هو الغالب لهم، فكفلها إذ كان أحق بها شرعاً وقدرراً لوجوه عديدة.

(١) سن البلوغ.

قال الله - تعالى -: ﴿ كَلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمْرِئُْمُ أَنَّى لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ قال المفسرون: اتخذ لها زكريا مكانا شريفا من المسجد لا يدخله سواها، فكانت تعبد الله فيه وتقوم بما يجب عليها من سداة البيت إذا جاءت نوبتها، وتقوم بالعبادة ليلها ونهارها، حتى صارت يضرب بها المثل بعبادتها في بني إسرائيل، واشتهرت بما ظهر عليها من الأحوال الكريمة والصفات الشريفة، حتى إنه كان نبي الله زكريا؛ كلما دخل عليها موضع عبادتها؛ يجد عندها رزقا غريبا في غير أوانه، فكان يجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء، وفاكهة الشتاء في الصيف فيسألها ﴿ أَنَّى لَكَ هَذَا ؟! ﴾ فتقول: ﴿ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾؛ أي: رزق رزقيه الله ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾.

فعند ذلك وهنالك طمع زكريا في وجود ولد من صلبه؛ وإن كان قد أسن وكبر؛ ﴿ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ [آل عمران: ٣٨] قال بعضهم: قال: يا من يرزق مريم الثمر في غير أوانه! هب لي ولدا وإن كان في غير أوانه! فكان من خبره وقضيته ما قدمنا ذكره في قصته.

[اصطفاء الله لمريم - عليها السلام -]

﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَمْرِئُْمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴾ يَمْرِئُْمُ أَقْنَيْ لِرَبِّكِ وَأَسْجُدِي وَأَرْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَفْلَمْهُمْ أَثُمَّ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ إِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَمْرِئُْمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسَّسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ

أَنبَى قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنبَى أَخْلَقْتُ لَكُمْ مِّنَ الطَّيْنِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُخَيِّ الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَلَا أُجِلُّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿٥٢﴾ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥٣﴾ [آل عمران: ٤٢-٥١].

يذكر - تعالى - أن الملائكة بشرت مريم باصطفاء الله لها من بين سائر نساء عالمي زمانها؛ بأن اختارها لإيجاد ولد منها من غير أب، وبُشِّرَتْ بأن يكون نبياً شريفاً ﴿ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ ﴾؛ أي: في صغره؛ يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وكذلك في حال كهولته، فدل على أنه يبلغ الكهولة ويدعو إلى الله فيها، وأمرت بكثرة العبادة والقنوت والسجود والركوع؛ لتكون أهلاً لهذه الكرامة، ولتقوم بشكر هذه النعمة. فيقال: إنها كانت تقوم في الصلاة حتى تظرت قدماها رضي الله عنها ورحمها ورحم أمها وأباها.

فقول الملائكة: ﴿ يَمْرِيْمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ ﴾؛ أي: اختارك واجتباك ﴿ وَطَهَّرَكِ ﴾؛ أي: من الأخلاق الرذيلة، وأعطاك الصفات الجميلة ﴿ وَأَصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴾: يحتمل أن يكون المراد عالمي زمانها؛ كقوله لموسى: ﴿ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ ﴾، وكقوله عن بني إسرائيل: ﴿ وَلَقَدْ اخْتَرْنَاَهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ [الدخان: ٣٢]، ومعلوم أن إبراهيم - عليه السلام - أفضل من موسى، وأن محمداً ﷺ أفضل منهما، وكذلك هذه الأمة أفضل من سائر الأمم قبلها وأكثر عدداً وأفضل علماً وأزكى عملاً من بني إسرائيل وغيرهم. ويحتمل أن يكون قوله: ﴿ وَأَصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴾: محفوظ العموم، فتكون أفضل نساء الدنيا ممن كان قبلها أو وجد بعدها؛ لأنها:

إن كانت نبيه - على قول من يقول بنبوته ونسبته سارة أم إسحاق ونسبته أم موسى محتجاً بكلام الملائكة والوحي إلى أم موسى كما يزعم ذلك ابن حزم

وغيره-؛ فلا يمتنع على هذا أن تكون مريم أفضل من سارة وأم موسى؛ لعموم قوله: ﴿وَأَصْطَفَيْنَاكَ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾؛ إذ لم يعارضه غيره، والله أعلم.

وأما على قول الجمهور- كما قد حكاه أبو الحسن الأشعري وغيره من أهل السنة والجماعة- من أن النبوة مختصة بالرجال، وليس في النساء نبية؛ فيكون أعلى مقامات مريم؛ كما قال الله -تعالى-: ﴿مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾ [المائدة: ٧٥]؛ فعلى هذا لا يمتنع أن تكون أفضل الصديقات المشهورات ممن كان قبلها وممن يكون بعدها، والله أعلم.

وقد جاء ذكرها مقروناً مع آسية بنت مزاحم وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد ﷺ ورضي الله عنهن وأرضاهن:

وقد روى الإمام أحمد و البخاري ومسلم و الترمذي و النسائي، عن علي ابن أبي طالب -رضي الله عنه-؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «خير نسائها مريم بنت عمران، وخير نسائها خديجة بنت خويلد»^(١).

وروى الإمام أحمد: عن أنس؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «حسبك من نساء العالمين بأربع: مريم بنت عمران، وآسية امرأة فرعون، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد»^(٢).

وروى الإمام أحمد^(٣): عن أبي هريرة يحدث: أن النبي ﷺ قال: «خير نساء ركن الإبل صالح نساء قريش؛ أحناء على ولد في صغره، وأرعاه لزوج في ذات يده». قال أبو هريرة: ولم تركب مريم بغيراً قط.
وقد رواه مسلم في «صحيحه»^(٤).

(١) أخرجه أحمد (١/ ٨٤ و ١١٦ و ١٣٢ و ١٤٣)، والبخاري (٣٤٣٢)، ومسلم (٢٤٣٠)، والترمذي (٣٨٧٧)، والنسائي في «الكبرى»؛ كما في «تحفة الأشراف» (٧/ ٣٩٤).

(٢) صحيح- أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» (٢٠٩١٩)، وأحمد (٣/ ١٣٥)، والترمذي (٣٨٧٨)، وابن حبان (٧٠٠٣)، والحاكم (٣/ ١٥٧) وغيرهم بسند صحيح.

(٣) في «مسنده» (٢/ ٢٦٩ و ٢٧٥) وسنده صحيح.

(٤) (٢٥٢٧).

وروى أبو يعلى الموصلي^(١): عن ابن عباس؛ قال: خط رسول الله ﷺ في الأرض أربع خطوط، فقال: «أتدرون ما هذا؟»، قالوا: الله ورسوله أعلم، فقال رسول الله: «أفضل نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، ومريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون». ورواه النسائي^(٢) عن عائشة: أنها قالت لفاطمة: رأيت حين أكبت على رسول الله ﷺ فبكيت ثم ضحكت؟ قالت: أخبرني أنه ميت من وجعه هذا فبكيت، ثم أكبت عليه فأخبرني أنني أسرع أهله لحوقاً به وأني سيدة نساء أهل الجنة إلا مريم بنت عمران فضحكت^(٣). وأصل هذا الحديث في «الصحيح»، وهذا إسناد على شرط مسلم، وفيه أنهما أفضل الأربع المذكورات.

وهكذا الحديث الذي رواه الإمام أحمد^(٤): عن أبي سعيد، قال: قال رسول الله ﷺ: «فاطمة سيدة نساء أهل الجنة؛ إلا ما كان من مريم بنت عمران».

-
- (١) في «مسند» (٢٧٢٢/١١٠/٥) وسنده صحيح.
- (٢) في «السنن الكبرى» (٨٣٥٥/٩٣/٥)، وأخرجه -أيضاً- أحمد (١/٢٩٣ و٣٦٦ و٣٢٢)، وابن حبان في «صحيحه» (٧٠١٠) وغيرهم كثير.
- (٣) حسن- وأخرجه النسائي في «السنن الكبرى» (٨٣٦٦/٩٥/٥)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (١٢٣٢٠/١٢٦/١٢)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٢٢/١٠٣٤ رقم)، وابن حبان في «صحيحه» (١٥/١٥٢ رقم-إحسان) من طرق عن محمد بن عمرو به.
- قلت: وسنده حسن.
- والحديث أصله في البخاري (٣٦٢٣)، ومسلم (٢٤٥٠)، كما قال المصنف -رحمه الله-.
- (٤) في «مسند» (٨٠/٣)، و«فضائل الصحابة» (١٣٣١/٧٥٧/٢).
- وأخرجه عبد الله بن أحمد في «زوائد المسند» (٨٠/٣) عن عثمان بن محمد به.
- وأخرجه أحمد (٣/٦٢ و٦٣)، والترمذي (٣٧٧١)، وأبو يعلى (٢/٣٩٥ و١١٦٩)، والحاكم (٣/١٥٤) من طريقين عن عبد الرحمن بن أبي نعم به.
- قلت: وهو صحيح؛ كما قال الحاكم والذهبي وشيخنا الألباني.
- وانظر: «الصحيح» (٢/٤٢٤).

والمقصود: أن هذا يدل على أن مريم وفاطمة أفضل هذه الأربع، ثم يحتمل الاستثناء أن تكون مريم أفضل من فاطمة، ويحتمل أن يكونا على السواء في الفضيلة.

ولكن ورد حديث؛ إن صح؛ عين الاحتمال الأول؛ عن ابن عباس؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «سيدة نساء أهل الجنة مريم بنت عمران، ثم فاطمة، ثم خديجة، ثم آسية امرأة فرعون»^(١).

فإن كان هذا اللفظ محفوظاً بـثم التي للترتيب؛ فهو مبين لأحد الاحتمالين اللذين دل عليهما الاستثناء، وتقدم على ما تقدم من الألفاظ التي وردت بـواو العطف التي لا تقتضي الترتيب ولا تنفيه، والله أعلم.

وقد روى هذا الحديث أبو حاتم الرازي عن ابن عباس مرفوعاً^(٢). فذكره بـواو العطف لا بـثم الترتيبية، فخالفه إسناداً ومتناً، فالله أعلم.

فأما الحديث الذي رواه ابن مردويه، عن معاوية بن قره، عن أبيه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «كامل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا ثلاث: مريم بنت

(١) موضوع بهذا اللفظ؛ أخرجه الزبير بن بكار في «النسب»؛ كما في «الاستيعاب» (٢٧٥/٤) - ومن طريقه الطبراني في «المعجم الكبير» (٢/٧/٢٣)، وابن عساكر في «تاريخه» - به. قلت: ومحمد بن الحسن بن زبالة؛ كذبوه؛ كما في «التقريب».

قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢٢٦/٩): «رواه الطبراني؛ وفيه محمد بن الحسن بن زبالة، وهو متروك».

وقال الحافظ في «فتح الباري» (١٣٦/٧): «ليس بثابت».

(٢) صحيح - أخرجه أبو داود؛ كما في «تحفة الأشراف» (٢٠٠/٥)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١١/٣٢٨/١٢١٧٩) من طرق عن الدراوردي به.

قال شيخنا الإمام الألباني - رحمه الله - في «الصحيح» (٣/١٠/١٤٢٤): «وهذا إسناد صحيح على شرط مسلم».

وللحديث شواهد ذكرها شيخنا - رحمه الله -؛ فانظرها غير مأمور.

عمران، وآسية امرأة فرعون، وخديجة بنت خويلد، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام».

وهكذا الحديث الذي رواه الجماعة؛ إلا أبا داود، عن أبي موسى الأشعري؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون، ومريم بنت عمران، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام»^(١)؛ فإنه حديث صحيح كما ترى، اتفق الشيخان على إخراجهم، ولفظه يقتضي حصر الكمال في النساء في مريم وآسية، ولعل المراد بذلك في زمانهما؛ فإن كلاً منهما كفلت نبياً في حال صغره، فآسية كفلت موسى الكليم، ومريم كفلت ولدها عبدالله ورسوله؛ فلا ينفي كمال غيرهما في هذه الأمة كخديجة وفاطمة:

فخديجة خدمت رسول الله ﷺ قبل البعثة خمسة عشر سنة وبعدها أزيد من عشر سنين، وكانت له وزير صدق بنفسها وماها - رضي الله عنها وأرضاها - .
وأما فاطمة بنت رسول الله ﷺ؛ فإنها خصت بمزيد فضيلة على أخواتها؛ لأنها أصيبت برسول الله ﷺ وبقية أخواتها مُتن في حياة النبي ﷺ.

وأما عائشة؛ فإنها كانت أحب أزواج رسول الله ﷺ إليه، ولم يتزوج بكراً غيرها، ولا يعرف في سائر النساء في هذه الأمة - بل ولا في غيرها - أعلم منها ولا أفهم، وقد غار الله لها حين قال لها أهل الإفك ما قالوا؛ فأنزل الله براءتها من فوق سبع سماوات، وقد عُمرت بعد رسول الله ﷺ قريباً من خمسين سنة؛ تبلغ عنه القرآن والسنة وتفتي المسلمين، وتصلح بين المختلفين، وهي أشرف أمهات المؤمنين حتى خديجة بنت خويلد أم البنات والبنين في قول طائفة من العلماء السابقين واللاحقين، والأحسن الوقف فيهما - رضي الله عنهما -، وما ذاك إلا لأن قوله ﷺ: «وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام» يحتمل أن يكون

(١) أخرجه البخاري (٣٤١١)، ومسلم (٢٤٣١)، والترمذي (١٨٣٤)، والنسائي

(٦٨/٧)، وابن ماجه (٣٢٨٠)، وأحمد (٤/٣٩٤ و٤٠٩).

عاماً بالنسبة إلى المذكورات وغيرهن، ويحتمل أن يكون عاماً بالنسبة إلى ما عدا المذكورات، والله أعلم.

والمقصود هاهنا ذكر ما يتعلق بمريم بنت عمران -عليها السلام-؛ فإن الله طهرها واصطفها على نساء عالمي زمانها، ويجوز أن يكون تفضيلها على النساء مطلقاً كما قدمنا.

وقد روي أنها تكون من أزواج النبي ﷺ في الجنة هي وآسية بنت مزاحم. وقد ذكرنا في «التفسير»^(١) عن بعض السلف أنه قال ذلك واستأنس بقوله: ﴿ثِيَابَ وَأَبْكَارًا﴾ [التحریم: ٥]؛ قال: فالثيب آسية، ومن الأبكار مريم بنت عمران. وقد ذكرناه في آخر سورة التحريم، فالحق أعلم.

ذكر ميلاد العبد الرسول

عيسى ابن مريم العذراء البتول

قال الله - تعالى -: ﴿ وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ اتَّخَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ۖ فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ۖ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ۖ قَالَتْ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكَ غُلَامًا زَكِيًّا ۖ قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ۖ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّئٌ وَلِنَجْعِلُهُ ءَايَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا ۖ فَحَمَلَتْهُ فَاتَّخَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ۖ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا ۖ فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ۖ وَهَزَيْتِ إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا ۖ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ۖ فَأَنَّتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَلْمِزُهُ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا فَرِيًّا ۖ يَأْتُخْتُ هَرُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوِيًّا وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا ۖ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نَكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْأَمْهِدِ صَبِيًّا ۖ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَانِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۖ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ۖ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ۖ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ۖ ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ۖ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَنَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ۖ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ۖ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۖ

ءَايَةٌ لِّلْعٰلَمِيْنَ ﴿٣١﴾ [الأنبياء: ٨٩-٩١].

ينظرون إلى ظاهر الحال من غير تدبر ولا تعقل.

الروح الأمين جبريل عليه السلام - ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ ﴿١٧﴾

دليل، وهو من أسخف الأقوال.

﴿ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ ﴾ [مریم: ١٩]؛ أي: خاطبها الملك قائلاً: ﴿ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ ﴾؛ أي: لست ببشر، ولكني ملك بعثني الله إليك ﴿ لِأَهَبَ لَكَ غُلَامًا زَكِيًّا ﴾ [مریم: ١٩]؛ أي: ولداً زكياً.

﴿ قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ ﴾؛ أي: كيف يكون لي غلام أو يوجد لي ولد ﴿ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكْ بَغِيًّا ﴾؛ أي: ولست ذات زوج وما أنا ممن يفعل الفاحشة ١٩ ﴿ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّئٌ ﴾؛ أي: فأجابها الملك عن تعجبها من وجود ولد منها والحالة هذه قائلاً: ﴿ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ ﴾؛ أي: وعد أنه سيخلق منك غلاماً ولست بذات بعل، ولا تكونين ممن تبغين ﴿ هُوَ عَلَيَّ هَيِّئٌ ﴾؛ أي: وهذا سهل عليه ويسير لديه؛ فإنه على ما يشاء قدير.

وقوله: ﴿ وَلَنَجْعَلَنَّ آيَةً لِلنَّاسِ ﴾؛ أي: ولنجعل خلقه والحالة هذه دليلاً على كمال قدرتنا على أنواع الخلق، فإنه -تعالى- خلق آدم من غير ذكر ولا أنثى، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى، وخلق عيسى من أنثى بلا ذكر، وخلق بقية الخلق من ذكر وأنثى.

وقوله: ﴿ وَرَحْمَةً مِنَّا ﴾؛ أي: نرحم به العباد؛ بأن يدعوهم إلى الله في صغره وكبره في طفولته وكهولته؛ بأن يفرّدوا الله بالعبادة وحده لا شريك له، وينزّهوه عن اتخاذ صاحبة والأولاد والشركاء والنظراء والأضداد والأنداد.

وقوله: ﴿ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴾ ﴿ ﴾ يحتمل أن يكون هذا من تمام كلام جبريل معها؛ يعني: أن هذا أمر قد قضاه الله وحتمه وقدره وقرّره. وهذا معنى قول محمد بن إسحاق، واختاره ابن جرير^(١) ولم يحك سواه، والله أعلم.

ويحتمل أن يكون قوله: ﴿ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴾ ﴿ ﴾: كناية عن نفخ جبريل فيها؛ كما قال -تعالى-: ﴿ وَمَرْيَمَ أَبْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا ﴾ [التحریم: ١٢]؛ فذكر غير واحد من السلف أن جبريل نفخ في جيب درعها فنزلت النفخة إلى فرجها، فحملت من فورها كما تحمل المرأة

عند جماع بعلمها. ومن قال: إنه نفخ في فمها! أو إن الذي كان يخاطبها هو الروح الذي ولج فيها من فمها! فقله خلاف ما يفهم من سياقات هذه القصة في محالها من القرآن؛ فإن هذا السياق يدل على أن الذي أرسل إليها ملك من الملائكة، وهو جبريل -عليه السلام-، وأنه إنما نفخ فيها، ولم يواجه الملك الفرج، بل نفخ في جيبيها، فنزلت النفخة إلى فرجها فانسككت فيه؛ كما قال -تعالى-: ﴿فَتَنفَخَنَّا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا﴾؛ فدل على أن النفخة ولجت فيه لا في فمها؛ كما روي عن أبي بن كعب، ولا في صدرها؛ كما رواه السدي بإسناده عن بعض الصحابة.

ولهذا قال -تعالى-: ﴿فَحَمَلَتْهُ﴾؛ أي: فحملت ولدها ﴿فَأَنْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا﴾؛ وذلك؛ لأن مريم -عليها السلام- لما حملت؛ ضاقت به ذرعاً، وعلمت أن كثيراً من الناس سيكون منهم كلام في حقها.

فذكر غير واحد من السلف أنها لما ظهرت عليها مخايل الحمل؛ كان أول من فطن لذلك رجل من عباد بني إسرائيل يقال له: يوسف بن يعقوب النجار، وكان ابن خالها، فجعل يتعجب من ذلك عجباً شديداً، وذلك لما يعلم من ديانتها ونزاهتها وعبادتها، وهو مع ذلك يراها حبلًى وليس لها زوج! فعرض لها ذات يوم في الكلام فقال: يا مريم! هل يكون زرع من غير بذر؟ قالت: نعم؛ فمن خلق الزرع الأول؟ ثم قال: فهل يكون شجر من غير ماء ولا مطر؟ قالت: نعم؛ فمن خلق الشجر الأول؟ ثم قال: فهل يكون ولد من غير ذكر؟ قالت: نعم؛ إن الله خلق آدم من غير ذكر ولا أنثى، قال لها: فأخبريني خبرك؛ فقالت: إن الله بشرني ﴿بِكَلِمَةٍ مِنْهُ أَسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤١﴾ [آل عمران: ٤٥ و٤٦].

ويروى مثل هذا عن زكريا -عليه السلام- أنه سألها؛ فأجابته بمثل هذا، والله أعلم.

ثم الظاهر أنها حملت به تسعة أشهر؛ كما تحمل النساء ويضعن لميقات حملهن ووضعهن؛ إذ لو كان خلاف ذلك؛ لذكر.

وعن ابن عباس وعكرمة^(١): أنها حملت به ثمانية أشهر، وعن ابن عباس^(٢):
ما هو إلا أن حملت به فوضعت. قال بعضهم^(٣): حملت به تسع ساعات، واستأنسوا
لذلك بقوله: ﴿ فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ۖ ﴾ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ
إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ ﴿ [مرم: ٢٢-٢٣]. والصحيح: أن تعقيب كل شيء بحسبه؛ كقوله:
﴿ فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ﴾ [الحج: ٦٣]، وكقوله: ﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا النَّطْفَةَ عَلَقَةً
فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ
أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ۖ ﴾ [المؤمن: ١٤]، ومعلوم أن
بين كل حالين أربعين يوما؛ كما ثبت في الحديث المتفق عليه^(٤).
﴿ قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مِّنْهَا ۖ ﴾ [مريم: ٢٣]:
فيه دليل على جواز تمني الموت عند الفتن، وذلك أنها علمت أن الناس يتهمونها
ولا يصدقونها بل يكذبونها حين تأتيمهم بغلام على يدها؛ مع أنها قد كانت عندهم
من العابدات الناسكات المجاورات في المسجد المنقطعات إليه المعتكفات فيه، ومن
بيت النبوة والديانة، فحملت بسبب ذلك من الهم ما تمت أن لو كانت ماتت قبل
هذا الحال أو كانت ﴿ نَسِيًّا مِّنْهَا ۖ ﴾؛ أي: لم تخلق بالكلية.
وقوله: ﴿ فَتَادَنَهَا مَن تَحْتَهَا ۖ ﴾: وقرئ ﴿ فَتَادَنَهَا مِّن تَحْتِهَا ۖ ﴾ على
الخفض^(٥).

(١) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه»؛ كما في «الدر المنثور» (٤٩٨/٥).

(٢) أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (٧/٢)، والطبري في «جامع البيان» (٥٠/١٦)،
والفريابي وابن المنذر وابن أبي حاتم؛ كما في «الدر المنثور» (٤٩٧/٥).
(٣) هو الحسن البصري؛ أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» عنه؛ كما في «الدر المنثور»
(٤٩٧/٥).

(٤) أخرجه البخاري (٣٢٠٨)، ومسلم (٢٦٤٣) من حديث ابن مسعود-رضي الله

عنه- به.

(٥) قرأ ابن كثير المكي وأبو عمرو البصري وابن عامر الدمشقي وشعبة عن عاصم
الكوفي ﴿ مَن تَحْتَهَا ۖ ﴾ - بفتح الميم ونصب التاء، وقرأ الباقر ﴿ مِّن تَحْتِهَا ۖ ﴾ بكسر الميم

وفي المضمرة قولان: أحدهما: أنه جبريل؛ قاله العوفي عن ابن عباس^(١). قال: ولم يتكلم عيسى إلا بحضرة القوم. وبهذا قال سعيد بن جبير وعمرو بن ميمون^(٢) والضحاك^(٣) والسدي^(٤) وقتادة^(٥). وقال مجاهد^(٦) والحسن^(٧) وابن زيد^(٨) وسعيد ابن جبير^(٩) في رواية: هو ابنها عيسى، واختاره ابن جرير^(١٠). وقوله: ﴿أَلَا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكَ تَحْتَك سَرِيًّا﴾؛ قيل: النهر. وإليه ذهب الجمهور. وجاء فيه حديث رواه الطبراني^(١١)، لكنه ضعيف. واختاره ابن جرير^(١٢) وهو الصحيح. وعن الحسن والربيع بن أنس وابن أسلم وغيرهم^(١٣): أنه ابنها.

= وخفض التاء، انظر: «النشر في القراءات العشر» (٣١٨/٢)، وانظر: «حجة القراءات» لابن زنجلة (ص ٤٤٠).

- (١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٥٢/١٦) وسنده ضعيف جداً.
- (٢) ٥٣ و ٥٤ و ٥٥ أخرجها عنهم الطبري (٥١-٥٢/١٦)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (٦/٢).
- (٦) أخرجه الطبري (٥٢/١٦).
- (٧) أخرجه عبد الرزاق (٦/٢) - ومن طريقه الطبري (٥٢/١٦) -.
- (٨ و ٩ و ١٠) أخرجها عنهم الطبري (٥٢/١٦).
- (١١) في «المعجم الصغير» (رقم ٦٨٦) من حديث البراء بن عازب مرفوعاً بسند ضعيف، وضعفه شيخنا - رحمه الله - في «الصحيحة» (١١٩١)، ومن قبله المصنف - رحمه الله - في «تفسير القرآن العظيم» (٢٨٦/٥).
- لكن أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (٧-٦/٢)، والطبري في «جامع البيان» (٥٣/١٦)، والحاكم (٣٧٣/٢) من طريق سفيان الثوري وشعبة كلاهما عن أبي إسحاق السبيعي عن البراء به موقوفاً.
- قلت: وسنده صحيح موقوفاً؛ لكن له حكم الرفع، وصححه شيخنا الإمام الألباني - رحمه الله -.
- (١٢) في «جامع البيان» (٥٤/١٦).
- (١٣) انظر: «جامع البيان» (٥٤/١٦)، و«تفسير القرآن العظيم» (٢٨٦/٥).

الصحيح الأول؛ لقوله: ﴿ وَهَزَى إِلَيْكَ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسْقِطُ عَلَيْكَ رُطْبًا جَنِيًّا ۖ ﴾ [مريم: ٢٥]؛ فذكر الطعام والشراب؛ ولهذا قال: ﴿ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا ﴾ [مريم: ٢٦].

ثم قيل: كان جذع النخلة يابساً، وقيل: كانت نخلة مثمرة. فالله أعلم. ويحتمل أنها كانت نخلة، لكنها لم تكن مثمرة إذ ذاك؛ لأن ميلاده كان في زمن الشتاء وليس ذاك وقت ثمر، وقد يفهم ذلك من قوله -تعالى- على سبيل الامتنان: ﴿ تُسْقِطُ عَلَيْكَ رُطْبًا جَنِيًّا ۖ ﴾.

قال عمرو بن ميمون: ليس شيء أجود للنفساء من التمر والرطب، ثم تلا هذه الآية.

وقوله: ﴿ فَأَمَّا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنَّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ۖ ﴾ [مريم: ٢٦]؛ وهذا من تمام كلام الذي ناداها من تحتها؛ قال: ﴿ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَأَمَّا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ ۖ ﴾ أي: فإن رأيت أحداً من الناس ﴿ فَقُولِي ۖ ﴾ له؛ أي: بلسان الحال والإشارة: ﴿ إِنَّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا ۖ ﴾ أي: صمتاً، وكان من صومهم في شريعتهم ترك الكلام والطعام؛ قاله قتادة والسدي وابن أسلم، ويدل على ذلك قوله: ﴿ فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ۖ ﴾. فأما في شريعتنا؛ فيكره للصائم صمت يوم إلى الليل^(١).

وقوله -تعالى-: ﴿ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَمْرِئٌمُ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا فَرِيًّا ۖ ﴾ يَأْخُذَ هَرُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوِيًّا وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا ۖ ﴾ ذكر كثير من السلف ممن ينقل عن أهل الكتاب أنهم لما افتقدوها من بين أظهرهم؛ ذهبوا في طلبها، فمروا على محلتيها والأنوار حولها، فلما واجهوها؛ وجدوا معها ولدها، فقالوا لها: ﴿ قَالُوا يَمْرِئٌمُ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا فَرِيًّا ۖ ﴾ أي: أمراً عظيماً منكراً! وفي هذا الذي قالوه نظراً؛ مع أنه كلام ينقض أوله آخره!

(١) كما في سنن أبي داود (٢٨٧٣)، وهو حسن.

وذلك لأن ظاهر سياق القرآن العظيم يدل على أنها حملته بنفسها وأتت به قومها وهي تحمله. قال ابن عباس: وذلك بعد ما تعالت^(١) من نفاسها بعد أربعين يوما. والمقصود: أنهم لما رأوها تحمل معها ولدها؛ ﴿قَالُوا يَلْمِزُكُمْ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا فَرِيًّا﴾؛ والفرية هي الفعل المنكرة العظيمة من الفعال والمقال. ثم قالوا لها: ﴿يَتَأَخَّتْ هَرُونَ﴾ قيل: شبهوها بعباد من عباد زمانهم كانت تساميه في العبادة، وكان اسمه هارون. وقيل: شبهوها برجل فاجر في زمانهم اسمه هارون؛ قاله سعيد بن جبير. وقيل: أرادوا بهارون أخا موسى؛ شبهوها به في العبادة. وأخطأ محمد بن كعب القرظي في زعمه أنها أخت موسى وهارون نسبا؛ فإن بينهما من الدهور الطويلة ما لا يخفى على أدنى من عنده من العلم ما يرده عن هذا القول الفظيع! وكأنه غره أن في التوراة أن مريم أخت موسى وهارون ضربت بالدف يوم نجي الله موسى وقومه وأغرق فرعون وملأه، فاعتقد أن هذه هي هذه!

وهذا في غاية البطلان والمخالفة للحديث الصحيح مع نص القرآن؛ كما قررناه في «التفسير»^(٢) مطولا، والله الحمد والمنة. وقد ورد في الحديث الصحيح الدال على أنه قد كان لها أخ اسمه هارون، وليس في ذكر قصة ولادتها وتحرير أمها لها ما يدل على أنها ليس لها أخ سواها، والله أعلم.

روى الإمام أحمد^(٣): عن المغيرة بن شعبة؛ قال: بعثني رسول الله ﷺ إلى نجران فقالوا: أرايت ما تقرؤون: ﴿يَتَأَخَّتْ هَرُونَ﴾؛ وموسى قبل عيسى بكذا

(١) خرجت من نفاسها وطهرت.

(٢) (٢٨٩/٥ - ٢٩٠)

(٣) في «مسنده» (٢٥٢/٤). وأخرجه مسلم (٢١٣٥)، والترمذي (٣١٥٥)، والنسائي

في «التفسير» (٣٣٥).

وكذا؟! قال: فرجعت، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ؛ فقال: «ألا أخبرتهم أنهم كانوا يسمون بالأنبياء والصالحين قبلهم».

وفي رواية: «ألا أخبرتهم أنهم كانوا يسمون بأسماء صالحهم وأنبيائهم». والمقصود: أنهم قالوا: ﴿يَأْخُذْ هَارُونَ﴾، ودل الحديث على أنها قد كان لها أخ نسي اسمه هارون، وكان مشهورا بالدين والصلاح والخير؛ ولهذا قالوا: ﴿مَا كَانَ أَبُوكَ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا﴾؛ أي: لست من بيت هذا شيمتهم ولا سجيتهم؛ لا أخوك ولا أمك ولا أبوك.

فاتهموها بالفاحشة العظمى ورموها بالداهية الدهياء!

فلما ضاق الحال وانحصر المجال وامتنع المقال؛ عظم التوكل على ذي الجلال، ولم يبق إلا الإخلاص والاتكال؛ ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾؛ أي: خاطبوه وكلموه؛ فإِنْ جوابكم عليه، وما تبغون من الكلام لديه، فعندها ﴿قَالُوا﴾؛ من كان منهم جبارا شقيا: ﴿كَيْفَ نَكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾؛ أي: كيف تحيلينا في الجواب على صبي صغير لا يعقل الخطاب، وهو مع ذلك رضيع في مهده، ولا يميز بين غرض وزبده، وما هذا منك إلا على سبيل التهكم بنا والاستهزاء، والنقص لنا والازدراء؛ إذ لا ترددين علينا قولنا نطقيا، بل تحيلين في الجواب على من كان في المهد صبيا!

فعندها: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۖ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ۖ وَبَرَأَ بَوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ۖ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ۖ﴾ [مرم: ٣٠-٣٣].

هذا أول كلام تفوه به عيسى ابن مريم، فكان أول ما تكلم به أن قال: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾: اعترف لربه -تعالى- بالعبودية، وأن الله ربه، فنزه جناب الله عن قول الظالمين في زعمهم أنه ابن الله، بل هو عبده ورسوله وابن أمته، ثم برأ أمه عما نسبها إليه الجاهلون وقذفوها به ورموها بسببه بقوله: ﴿ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ فإن الله لا يعطي النبوة من هو كما زعموا -لعنهم الله وقبحهم-؛ كما قال -تعالى-: ﴿وَيَكْفُرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَنًا عَظِيمًا﴾،

وذلك أن طائفة من اليهود في ذلك الزمان قالوا: إنها حملت به من زنى في زمن الخيضر -لعنهم الله-. فبرأها الله من ذلك وأخبر عنها أنها صديقة، واتخذ ولدها نبيا مرسلا أحد أولي العزم الخمسة الكبار؛ ولهذا قال: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ﴾ وذلك أنه حيث كان؛ دعا إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ونزه جنابه عن النقص والعيب من اتخاذ الولد والصاحبة -تعالى وتقدس- ﴿وَأَوْصَيْنِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾: وهذه وظيفة العبيد في القيام بحق العزيز الحميد بالصلاة، والإحسان إلى الخليفة بالزكاة، وهي تشتمل على طهارة النفوس من الأخلاق الرذيلة، وتطهير الأموال الجزيلة بالعطية للمحاويج على اختلاف الأصناف، وقرى الأضياف، والنفقات على الزوجات والأرقاء والقربات وسائر وجوه الطاعات وأنواع القربات، ثم قال: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾؛ أي: وجعلني برا بوالدتي، وذلك أنه تأكد حقها عليه؛ لتمحض جهتها؛ إذ لا والد له سواها؛ ف سبحان من خلق الخليفة وبرأها، وأعطى كل نفس هداها ! ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾؛ أي: لست بفظ ولا غليظ، ولا يصدر مني قول ولا فعل ينافي أمر الله وطاعته. ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾: وهذه المواطن الثلاثة التي تقدم الكلام عليها في قصة يحيى بن زكريا -عليهما السلام-.

ثم لما ذكر -تعالى- قصته على الجلية وبين أمره ووضحه وشرحه؛ قال: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ (٣٤) مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَنَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٣٥) ﴿[مریم: ٣٤ و ٣٥] كما قال -تعالى- بعد ذكر قصته وما كان من أمره في آل عمران: ﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾ (٣٦) إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٣٧) الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ (٣٨) فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ (٣٩) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ

الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٣﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾ [آل عمران: ٥٨-٦٣].

ولهذا؛ لما قدم وفد لبحران، وكانوا ستين راكبا، يرجع أمرهم إلى أربعة عشر منهم، ويؤول أمر الجميع إلى ثلاثة هم أشرافهم وساداتهم، وهم العاقب والسيد وأبو حارثة بن علقمة، فجعلوا يناظرون في أمر المسيح؛ فأنزل الله صدر سورة آل عمران في ذلك، وبين أمر المسيح وابتداء خلقه وخلق أمه من قبله. وأمر رسوله بأن يباهلهم^(١) إن لم يستجيبوا له ويتبعوه، فلما رأوا عينيها وأذنيها نكصوا وامتنعوا عن المباهلة، وعدلوا إلى المسألة والموادة، وقال قائلهم - وهو العاقب عبد المسيح -: يا معشر النصارى ! لقد علمتم أن محمدا نبي مرسل، ولقد جاءكم بالفصل من خبر صاحبكم، ولقد علمتم أنه ما لاعن قوم نبيا قط؛ فبقي كبيرهم ولا نبت صغيرهم، وإنها للاستتصال منكم إن فعلتم؛ فإن كنتم قد أبستم إلا إلف دينكم والإقامة على ما أنتم عليه من القول في صاحبكم؛ فوادعوا الرجل وانصرفوا إلى بلادكم، فطلبوا ذلك من رسول الله ﷺ، وسألوه أن يضرب عليهم جزية، وأن يبعث معهم رجلا أمينا، فبعث معهم أبا عبيدة بن الجراح، وقد بينا ذلك في تفسير آل عمران^(٢)، وقد بسطنا هذه القصة في السيرة النبوية^(٣).

والمقصود: أن الله - تعالى - بين أمر المسيح؛ فقال لرسوله: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ ﴿٦٤﴾؛ يعني: من أنه عبد مخلوق من امرأة من عباد الله؛ ولهذا قال: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ ﴿٦٥﴾؛ أي: لا يعجزه شيء ولا يكرهه ولا يؤوده، بل هو القدير الفعال لما يشاء ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ ﴿٦٦﴾.

(١) دعاء كل فريق بالعذاب واللعنة على المبطل منهما.

(٢) انظر: «تفسير القرآن العظيم» (٢/٦٦-٧٢).

(٣) انظر «البداية والنهاية» (٣/٦٦٤).

وقوله: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ [مريم: ٣٦]: هو من تمام كلام عيسى لهم في المهد، أخبرهم أن الله ربه وربهم، وإلهه وإلههم، وأن هذا هو الصراط المستقيم.
قال الله - تعالى -: ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [مريم: ٣٧]؛ أي: فاختلف أهل الزمان ومن بعدهم فيه: فمن قائل من اليهود: إنه ولد زنية! واستمروا على كفرهم وعنادهم. وقابلهم آخرون في الكفر فقالوا: هو الله. وقال آخرون: هو ابن الله!.

وقال المؤمنون: هو عبد الله ورسوله، وابن أمته وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه.

وهؤلاء هم الناجون الثابون والمؤيدون المنصورون، ومن خالفهم في شيء من هذه القيود؛ فهم الكافرون الضالون الجاهلون، وقد توعدهم العلي العظيم الحكيم العليم بقوله: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾. روى البخاري^(١): عن عبادة بن الصامت، عن النبي ﷺ؛ قال: «من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، والجنة حق، والنار حق؛ أدخله الله الجنة على ما كان من العمل».

باب بیان أن الله تعالى منزه عن الولد

- تعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا -

وقال -تعالى- في آخر هذه السورة : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ۚ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ۚ ﴾ ﴿ شَيْئًا عَظِيمًا وَمَنكِرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا ۚ ﴾ ﴿ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ۚ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ۚ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ۚ ﴾ ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا ۚ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ۚ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا ۚ ﴾ [مریم: ٩٠-٩٤].

فبين أنه -تعالى- لا ينبغي له الولد؛ لأنه خالق كل شيء ومالكه، وكل شيء فقير إليه خاضع ذليل لديه وجميع سكان السماوات والأرض عبيده، هو ربهم، لا إله إلا هو، ولا رب سواه.

كما قال -تعالى-: ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ ﴾ ﴿ بَدِيعَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ ﴿ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَأَعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ ﴿ لَا تَدْرِكُهُ الْبَصَرُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْبَصَرَ فَكَيْفَ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ؟! والولد لا يكون إلا بين شيئين متناسبين، والله -تعالى- لا نظير له ولا شبيه ولا عدل له؛ فلا صاحبة له؛ فلا يكون له ولد.

كما قال -تعالى-: ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۚ اللَّهُ الصَّمَدُ ۚ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۚ ﴾ ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۚ ﴾ ﴿ يقرر أنه الأحد الذي لا نظير له في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله ﴾ ﴿ الصَّمَدُ ﴾ وهو السيد الذي كمل علمه وحكمته ورحمته وجميع صفاته ﴿ لَمْ يَلِدْ ﴾؛ أي: لم يوجد منه ولد ﴿ وَلَمْ يُولَدْ ﴾؛ أي: ولم يتولد عن شيء قبله ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾؛ أي: وليس له عدل ، لا مكافئ ولا مساو، فقطع النظر المداني والأعلى والمساوي، فانتفى أن يكون له

ولد؛ إذ لا يكون الولد إلا متولدا بين شيئين متعادلين أو متقاربين - تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا -.

وقال - تبارك وتعالى وتقدس - : ﴿يَأْهَلُ الْكَتَبَ لَا تَعْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أُلْقِيَتْهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾﴾ [النساء: ١٧١-١٧٣]: ينهى - تعالى - أهل الكتاب ومن شابههم عن الغلو والإطراء في الدين، وهو مجاوزة الحد، فالنصارى - لعنهم الله - غلوا وأطروا المسيح حتى جاوزوا الحد. فكان الواجب عليهم أن يعتقدوا أنه عبدالله ورسوله وابن أمته العذراء البتول، التي أحصنت فرجها، فبعث الله الملك جبريل إليها فنفخ فيها من أمر الله نفخة حملت منها بولدها عيسى - عليه السلام -، والذي اتصل بها من الملك هي الروح المضافة إلى الله إضافة تشريف وتكريم، وهي مخلوقة من مخلوقات الله تعالى، كما يقول: بيت الله، وناقة الله، وعبد الله، وكذا روح الله أضيفت إليه تشريفا لها وتكريما، وسمى عيسى بها؛ لأنه كان بها من غير أب، وهي الكلمة -أيضا- التي عنها خلق وبسببها وجد؛ كما قال - تعالى - : ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿١٧٤﴾﴾، وقال - تعالى - : ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانُونٌ ﴿١٧٥﴾ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿١٧٦﴾﴾ [البقرة: ١٧٦-١٧٧]، وقال - تعالى - : ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرُ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [التوبة: ٣٠]؛ فأخبر

- تعالى - أن اليهود والنصارى - عليهم لعائن الله -، كل من الفريقين ادعوا على الله شططا، وزعموا أن له ولدا، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا. وأخبر أنهم ليس لهم مستند فيما زعموه ولا فيما اتفقوه إلا مجرد القول ومشابهة من سبقهم إلى هذه المقالة الضالة؛ تشابهت قلوبهم ! وذلك أن الفلاسفة - عليهم لعنة الله - زعموا أن العقل الأول صدر عن واجب الوجود الذي يعبرون عنه بعلّة العلل والمبدأ الأول، وأنه صدر عن العقل الأول عقل ثان ونفس وفلك، ثم صدر عن الثاني كذلك... حتى تناهت العقول إلى عشرة، والنفوس إلى تسعة، والأفلاك إلى تسعة!! باعتبارات فاسدة ذكروها، واختيارات باردة أوردوها. ولبسط الكلام معهم وبيان جهلهم وقلة عقلهم موضع آخر. وهكذا طوائف من مشركي العرب زعموا لجهلهم أن الملائكة بنات الله وأنه صاهر سروات^(١) الجن، فتولد منها الملائكة!! تعالى الله عما يقولون وتنزه عما يشركون

كما قال - تعالى -: ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنثًا أَشْهَدُوا خَلَقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴾ [الزحرف: ١٩].
وقال - تعالى -: ﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ﴾ ١٥ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ ١٦ أَلَا إِنَّهُمْ مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ١٧ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ١٨ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ١٩ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ٢٠ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ٢١ أَمْ لَكُمْ سُلْطٰنٌ مُّبِينٌ ٢٢ فَاتَّبُوا بِكُتُبِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ٢٣ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ٢٤ سُبْحٰنَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ٢٥ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ٢٦ ﴾ [الصافات: ١٤٩-١٦٠].

وقال - تعالى -: ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمٰنُ وَلَدًا سُبْحٰنَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ١٥ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ١٦ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِّنْ خَشْيَتِهِ

(١) جمع سراة، مفردة سري: وهو الكريم الشريف.

مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ * وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ [الأنبياء: ٢٦-٢٩].

وقال -تعالى- في أول سورة الكهف [١-٥] -وهي مكية-: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ﴿١﴾ قِيمًا لِّيُنذِرَ بِأَسَا شَدِيدًا مِنَ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَكْثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾﴾.

وقال -تعالى-: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطٰنٍ بِهٰذَا أْتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ قُلْ إِنَّا الَّذِينَ يَفْتُرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٧﴾ مَتَّعْ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٨﴾﴾ [يونس: ٦٨-٧٠].

فهذه الآيات المكيات الكرميات تشمل الرد على سائر فرق الكفرة من الفلاسفة ومشركي العرب واليهود والنصارى الذين ادعوا وزعموا بلا علم أن الله ولدا- سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون المعتدون علوا كبيرا-.

ولما كانت النصارى -عليهم لعنة الله المتابعة إلى يوم القيامة- من أشهر من قال بهذه المقالة؛ ذكروا في القرآن كثيرا للرد عليهم، وبيان تناقضهم وقلة علمهم وكثرة جهلهم.

وقد تنوعت أقوالهم في كفرهم، وذلك أن الباطل كثير الشعب والاختلاف والتناقض وأما الحق؛ فلا يختلف ولا يضطرب؛ قال الله -تعالى-: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴿١٧﴾﴾ [النساء: ٨٢]؛ فدل على أن الحق يتحد ويتفق، والباطل يختلف ويضطرب:

فطائفة من ضلالهم وجهالهم زعموا أن المسيح هو الله -تعالى-.

وطائفة قالوا: هو ابن الله -عز وجل-.

وطائفة قالوا: هو ثالث ثلاثة! جل الله.

قال الله -تعالى- في سورة المائدة: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَرَبِّ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾ [المائدة: ١٧]؛ فأخبر -تعالى- عن كفرهم وجهلهم، وبين أنه الخالق، القادر على كل شيء، وأنه رب كل شيء ومليكه وإلهه.

وقال في أواخرها: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَنْبِيُّ إِسْرَءِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿٧٢﴾﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧٤﴾﴾ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ أَنْظِرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ أَنْظِرْ أَنِّي يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [المائدة: ٧٢-٧٥].

حكم -تعالى- بكفرهم شرعا وقدرًا، فأخبر أن هذا صدر منهم مع أن الرسول إليهم -هو عيسى ابن مريم- قد بين لهم أنه عبد مربوب، مخلوق مصور في الرحم، دأب إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وتوعدهم على خلاف ذلك بالنار، وعدم الفوز بدار القرار، والخزي في الدار الآخرة والهوان والعار؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

ثم قال: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾: قال ابن جرير^(١) وغيره: المراد بذلك قولهم بالأقانيم الثلاثة: أقنوم الأب، وأقنوم الابن،

(١) في «جامع البيان» (٦/٢٠٢).

وأقوم الكلمة المنبثقة من الأب والابن؛ على اختلافهم في ذلك ما بين الملكية واليعقوبية والنسطورية عليهم لعائن الله-؛ كما سنيين كيفية اختلافهم في ذلك ومجامعهم الثلاثة في زمن قسطنطين بن قسطنس، وذلك بعد المسيح بثلاثمائة سنة وقبل البعثة المحمدية بثلاثمائة سنة.

ولهذا قال -تعالى-: ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ﴾؛ أي: وما من إله إلا الله وحده لا شريك له ولا نظير له ولا كفؤ له ولا صاحبة له ولا ولد. ثم توعدهم وتهدهم، فقال: ﴿وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

ثم دعاهم برحمته ولطفه إلى التوبة والاستغفار من هذه الأمور الكبار والعظائم التي توجب النار، فقال: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

ثم بين حال المسيح وأمه، وأنه عبد رسول وأمه صديقة؛ أي: ليست بفاجرة كما يقول اليهود -لعنهم الله-، وفيه دليل على أنها ليست بنبية كما زعمه طائفة من علمائنا. وقوله: ﴿كَأَنَّا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾: كناية عن خروجه منهما كما يخرج من غيرهما؛ أي: ومن كان بهذه المثابة كيف يكون إلهما؟ ١ -تعالى الله عن قولهم وجهلهم علوا كبيرا-.

وقال السدي وغيره: المراد بقوله: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾: زعمهم في عيسى وأمه أنهما الإلهان مع الله؛ يعني: كما بين -تعالى- كفرهم في ذلك بقوله في آخر هذه السورة الكريمة:

﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالِ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١٧١﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مِمَّا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مِمَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧٢﴾ إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبْدُكَ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٧٣﴾﴾ [المائدة: ١١٦-١١٨].

يخبر - تعالى - أنه يسأل عيسى ابن مريم - عليه السلام - يوم القيامة على سبيل الإكرام له والتفريع والتوبيخ لعابديه ممن كذب عليه، وافترى وزعم أنه ابن الله، أو أنه الله أو أنه شريكه - تعالى الله عما يقولون - فيسأله وهو يعلم أنه لم يقع منه ما يسأله عنه، ولكن لتوبيخ من كذب عليه فيقول له: ﴿ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالِ سُبْحَانَكَ ۖ ﴾ أي: تعاليت أن يكون معك شريك ﴿ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۖ ﴾ أي: ليس هذا يستحقه أحد سواك ﴿ إِنْ كُنْتَ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾ ١١٠: وهذا تأدب عظيم في الخطاب والجواب ﴿ مَا قُلْتَ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ ۖ ﴾ أي: ما قلت غير ما أمرتني به حين أرسلتني إليهم وأنزلت علي الكتاب الذي كان يتلى عليهم. ثم فسر ما قاله لهم بقوله: ﴿ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۖ ﴾ أي: خالقي وخالقكم ورازقي ورازقكم. ﴿ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي ۖ ﴾ أي: رفعتني إليك حين أرادوا قتلي وصلي، فرحمتي وخلصتني منهم وألقيت شبيهي على أحدهم حتى انتقموا منه، فلما كان ذلك؛ ﴿ كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ ١١١.

ثم قال على وجه التفويض إلى الرب - عز وجل - والتبري من أهل النصرانية: ﴿ إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبْدُكَ ۖ ﴾ أي: وهم يستحقون ذلك ﴿ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ ١١٢، وهذا التفويض والإسناد إلى المشيئة بالشرط لا يقتضي وقوع ذلك؛ ولهذا قال: ﴿ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ ١١٣ ولم يقل: الغفور الرحيم.

وقد ذكرنا في «التفسير» ما رواه الإمام أحمد عن أبي ذر: أن رسول الله ﷺ قام بهذه الآية الكريمة ليلة حتى أصبح: ﴿ إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبْدُكَ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ ١١٤ وقال ﷺ: «إني سألت ربي - عز وجل - الشفاعة لأمتي، فأعطانيها، وهي نائلة - إن شاء الله تعالى - لمن لا يشرك بالله

شيئا»^(١) وقال -تعالى-: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعِبَادٍ ۖ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهَوًا لَآتَخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ ۖ﴾ ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمْ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ ﴿[الأنبياء: ١٦-٢٠].

وقال -تعالى-: ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَنَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ ﴿[الزمر: ٤٠ه].

وقال -تعالى-: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِ ۖ سُبْحَنَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ ﴿[الزحرف: ٨١ و٨٢].

وقال -تعالى-: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وِلِيُّ مِّنَ الدُّنْيَا وَكَبِيرُهُ تَكْبِيرًا﴾ ﴿[الإسراء: ١١١].

وقال -تعالى-: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۖ اللَّهُ الصَّمَدُ ۖ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۖ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ ﴿[الإخلاص: ١-٤].

(١) حسن بشواهد- أخرجه أحمد (١٤٩/٥ و ١٥٦/١٧٠ و ١٧٧)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٤٧٧/٢)، والنسائي في «المجتبى» (١٧٧/٢)، و«التفسير» (١٨١)، وابن ماجه (١٣٥٠)، والبزار في «مسنده» (٧٣٠-كشف)، والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (٣٤٧/١)، وابن نصر المروزي في «قيام الليل» (ص ٦٣- مختصر)، والحاكم (٢٤١/١)، والبيهقي (١٤/٣)، والبلغوي في «شرح السنة» (٩١٥) وغيرهم بسند حسن لغيره.

وله شاهد من حديث أبي هريرة مرفوعا بنحوه: أخرجه مسلم (١٩٩).

وآخر من حديث عائشة مرفوعا بنحوه: أخرجه الترمذي في «جامعه» (٤٤٨)،

و«الشمال» (٢٧٧)، والبلغوي (٩١٤) بسند صحيح.

وثبت في «الصحيح» عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يقول الله -تعالى-: شتمني ابن آدم ولم يكن له ذلك؛ يزعم أن لي ولدا، وأنا الأحد الصمد الذي لم ألد ولم أولد ولم يكن لي كفوا أحد»^(١).

وفي «الصحيح» -أيضا- عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله، إنهم يجعلون له ولدا، وهو يرزقهم ويعافيهم»^(٢).

ولكن ثبت في «الصحيح» -أيضا- عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته»، ثم قرأ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخْذَ الْفَرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ ﴿١٠٢﴾ [هود: ١٠٢]^(٣). وهكذا قوله -تعالى-: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمَلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ

أَخَذْتُهَا وَإِلَى الْمَصِيرِ﴾ ﴿٤٨﴾ [الحج: ٤٨].

وقال -تعالى-: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ ﴿١١﴾

[لقمان: ٢٤].

وقال -تعالى-: ﴿قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ ﴿١٠٠﴾ متنع في الدنيا ثم أَلَيْنَا مَرْجِعَهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ ﴿٧٠﴾ [يونس: ٦٩-٧٠].

وقال -تعالى-: ﴿فَمَهْلِ الْكَافِرِينَ أَهْمِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾ ﴿١٧﴾ [الطارق: ١٧].

(١) أخرجه البخاري (٣١٩٣).

(٢) أخرجه البخاري (٧٣٧٨)، ومسلم (٢٨٠٤).

(٣) أخرجه البخاري (٤٦٨٦)، ومسلم (٢٥٨٣).

ذكر منشأ عيسى ابن مريم - عليهما السلام -

ومرباه في صفه وصباه

وبيان بدء الوحي إليه من الله - تعالى -

قد تقدم أنه ولد ببית لحم قريبا من بيت المقدس، وزعم وهب بن منبه أنه ولد بمصر، وأن مريم سافرت هي ويوسف بن يعقوب النجار، وهي راكبة على حمار ليس بينهما وبين الإكاف^(١) شيء:

وهذا لا يصح، والحديث الذي تقدم ذكره دليل على أن مولده كان ببית لحم كما ذكرنا، ومهما عارضه؛ فباطل.

قال - تعالى -: ﴿ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَهُمَا إِلَى رِبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾ [المؤمنون: ٥٠].

وقد اختلف السلف والمفسرون في المراد بهذه الربوة التي ذكر الله من صفتها أنها ذات قرار ومعين، وهذه صفة غريبة الشكل، وهي أنها ربوة وهو المكان المرتفع من الأرض، الذي أعلاه مستو يقر عليه، وارتفاعه متسع، ومع علوه فيه عيون الماء المعين، وهو الجاري السارح على وجه الأرض؛ فقليل: المراد المكان الذي ولدت فيه المسيح، وهو نخلة بيت المقدس؛ ولهذا: ﴿ فَنَادَيْنَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴾ [مريم: ٢٤]، وهو النهر الصغير في قول جمهور السلف، وعن ابن عباس بإسناد جيد: أنها أنهار دمشق. فلعله أراد تشبيه ذلك المكان بأنهار دمشق.

بيان نزول الكتب الأربعة ومواقبتها

وقد ذكرنا في «التفسير»^(١) عند قوله: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ [البقرة: ١٨٥]: الأحاديث الواردة في ذلك، وفيها أن الإنجيل أنزل على عيسى ابن مريم - عليه السلام - في شهر رمضان.

[نبذة من أخبار عيسى - عليه السلام -]

قال الله - تعالى - وهو أصدق القائلين: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَذْكَرٌ نِعَمْتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَلَدَتِكَ إِذْ أُيْتُدْتُكَ بَرُوحَ الْقُدُسِ تَكْلِمُ النَّاسِ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ خَلَقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيِّئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتَبْرِئُ الْأَكْمَامَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾ وَإِذْ أُوحِيَ إِلَيَّ الْخَوَارِجُ أَنَّ ءَامِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا ءَامِنَا وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾﴾ [المائدة: ١١٠ و ١١١].

يذكره - تعالى - بنعمته عليه وإحسانه إليه؛ في خلقه إياه من غير أب بل من أم بلا ذكر، وجعله له آية للناس ودلالة على كمال قدرته - تعالى -، ثم إرساله بعد هذا كله. ﴿وَعَلَىٰ وَلَدَتِكَ﴾: في اصطفاؤها واختيارها لهذه النعمة العظيمة، وإقامة البرهان على براءتها مما نسبها إليه الجاهلون؛ ولهذا قال: ﴿إِذْ أُيْتُدْتُكَ بَرُوحَ الْقُدُسِ﴾: وهو جبريل؛ بإلقاء روحه إلى أمه، وقرينه معه في حال رسالته، ومدافعتة عنه لمن كفر به ﴿تَكْلِمُ النَّاسِ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾؛ أي: تدعو الناس إلى الله في حال صغرهم وفي كهولتهم ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾؛ أي: الخط والفهم. ونص عليه بعض السلف ﴿وَالَّتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾. وقوله: ﴿وَإِذْ خَلَقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيِّئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي﴾؛

أي: تصويره وتشكله من الطين على هيئة الطير عن أمر الله له بذلك. ﴿فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي﴾؛ أي: بأمرى؛ يؤكد -تعالى- بذكر الإذن له في ذلك لرفع التوهم. وقوله: ﴿وَتُبْرِئُ الْأَكْمَةَ﴾؛ قال بعض السلف: وهو الذي يولد أعمى، ولا سبيل لأحد من الحكماء إلى مداواته ﴿وَالْأَبْرَصَ﴾؛ هو الذي لا طب فيه، بل قد مرض بالبرص وصار داؤه عضالاً ﴿وَإِذَا تَخَرَّجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي﴾؛ أي: من قبورهم أحياء ﴿بِإِذْنِي﴾: وقد تقدم ما فيه دلالة على وقوع ذلك مرارا متعددة بما فيه كفاية. وقوله: ﴿وَإِذَا كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾؛ وذلك حين أرادوا صلبه، فرفعه الله إليه، وأنقذه من بين أظهرهم؛ صيانة لجنابه الكريم عن الأذى، وسلامة له من الردى. وقوله: ﴿وَإِذَا أَوْحَيْتُ إِلَى الْخَوَارِجِ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا ءَامَنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾؛ قيل: المراد بهذا الوحي وحي إلهام؛ أي: أرشدهم الله إليه ودلهم عليه؛ كما قال: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾، ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خَفَتْ عَلَيْهِ فَأَلْقَيْهِ فِي أَلْيَمِ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَأَوُوهَ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الفصل: ٧]. وقيل: المراد وحي بواسطة الرسول، وتوفيق في قلوبهم لقبول الحق؛ ولهذا استجابوا قائلين: ﴿ءَامَنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾؛ وهذا من جملة نعم الله على عبده ورسوله عيسى ابن مريم؛ أن جعل له أنصارا وأعوانا ينصرونه ويدعون معه إلى عبادة الله وحده لا شريك له؛ كما قال -تعالى- لعبده محمد ﷺ: ﴿هُوَ الَّذِي أَبَدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ [٢٦] وَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ [٢٧] [الأنفال: ٦٢-٦٣].

وقال -تعالى-: ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالْقُرْآنَ وَالْإِنجِيلَ﴾ [٢٨] وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقْتُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ وَأُخِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبَيِّتُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ [٢٩] وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ

يَدَى مِنَ التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ
مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ۖ إِنَّ اللَّهَ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ
مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥٠﴾ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ
الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥١﴾
رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٢﴾
وَمَكْرُوهٌ وَمَكْرَ اللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ ﴿٥٣﴾ ﴿آل عمران: ٤٨-٥٤﴾.

كانت معجزة كل نبي في زمانه بما يناسب أهل ذلك الزمان:

فذكروا أن موسى -عليه السلام- كانت معجزته مما يناسب أهل زمانه،
وكانوا سحرة أذكىاء، فبعث بآيات بهرت الأبصار وخضعت لها الرقاب، ولما كان
السحرة خبيرين بفنون السحر وما ينتهي إليه، وعانوا ما عانوا من الأمر الباهر
الهائل الذي لا يمكن صدوره إلا عمن أيده الله وأجرى الخارق على يديه تصديقا
له؛ أسلموا سراعا ولم يتلعثموا.

وهكذا عيسى ابن مريم؛ بعث في زمن الطبائعية الحكماء، فأرسل بمعجزات
لا يستطيعونها ولا يهتدون إليها، وأنى لحكيم إبراء الأكمة -الذي هو أسوأ حالا
من الأعمى- والأبرص والمجذوم ومن به مرض مزمن؟ وكيف يتوصل أحد من
الخلق إلى أن يقيم الميت من قبره؟ هذا -مما يعلم كل أحد- معجزة دالة على
صدق من قامت به وعلى قدرة من أرسله.

وهكذا محمد ﷺ وعليهم أجمعين؛ بعث في زمن الفصحاء البلغاء، فأنزل الله
عليه القرآن العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من
حكيم حميد، فلفظه معجز، تحدى به الإنس والجن أن يأتوا بمثله أو بعشر سور
مثله أو بسورة، وقطع عليهم بأنهم لا يقدرُونَ لا في الحال ولا في الاستقبال:
﴿فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾ [البقرة: ٢٤]، وما ذاك إلا لأنه كلام الخالق -عز
وجل-، والله -تعالى- لا يشبهه شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله.

والمقصود: أن عيسى -عليه السلام- لما أقام عليهم الحجج والبراهين؛
استمر أكثرهم على كفرهم وضلالهم وعنادهم وطغيانهم، فانتدب له من بينهم
طائفة صالحة، فكانوا له أنصارا وأعوانا قاموا بمتابعته ونصرته ومناصحته، وذلك

حين هم به بنو إسرائيل، ووشوا به إلى بعض ملوك ذلك الزمان، فعزموا على قتله وصلبه، فأقنذه الله منهم ورفعاه إليه من بين أظهرهم، وألقى شبهه على أحد أصحابه؛ فأخذوه؛ فقتلوه، وصلبوه، وهم يعتقدونه عيسى، وهم في ذلك غالطون، وللحق مكابرون، وسلم لهم كثير من النصارى ما ادعوه، وكلا الفريقين في ذلك مخطئون؛ قال -تعالى-: ﴿ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكِيرِينَ ﴾ [آل عمران: ٥٤].

[بشرى عيسى - عليه السلام - بمحمد ﷺ]

وقال -تعالى-: ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدٌ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ [١] وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [٢] يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ [٣] هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ [٤] يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَذُنُكُمْ عَلَى نَجْوِكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [٥] تَوَمَّنْ يَا أَلَلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [٦] يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسْكِنٍ طَيِّبَةٍ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [٧] وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِيرٌ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [٨] يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴾ [٩] [الصف: ٦-١٤].

فعيسى -عليه السلام- هو خاتم أنبياء بني إسرائيل، وقد قام فيهم خطيبا فبشرهم بخاتم الأنبياء الآتي بعده، ونوه باسمه، وذكر لهم صفته؛ ليعرفوه، ويتابعوه إذا شاهدوه؛ إقامة للحجة عليهم، وإحسانا من الله إليهم.

كما قال -تعالى-: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُخِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وروى محمد بن إسحاق: عن بعض أصحاب رسول الله ﷺ: أنهم قالوا: يا رسول الله! أخبرنا عن نفسك. قال: «دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى، ورأت أمي حين حملت بي كأنه خرج منها نور أضاءت له قصور بصرى من أرض الشام»^(١).

وقد روي عن العرياض بن سارية^(٢) وأبي أمامة^(٣) عن النبي ﷺ نحو هذا، وفيه: «دعوة أبي إبراهيم وبشرى عيسى».

وذلك أن إبراهيم لما بنى الكعبة؛ قال: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٩] الآية. ولما انتهت النبوة في بني إسرائيل إلى عيسى؛ قام فيهم خطيباً فأخبرهم أن النبوة قد انقطعت عنهم، وأنها بعده في النبي العربي الأمي، خاتم

(١) حسن - أخرجه ابن إسحاق في «السيرة» (١/ ١٧٥) - ومن طريقه الطبري في «جامع البيان» (١/ رقم ٢٠٧٩)، والحاكم (٢/ ٦٠٠) - بسند حسن.
وصححه الحاكم والذهبي، وحسنه المؤلف وشيخنا الإمام الألباني في «الصحيحة» (١٥٤٥).

(٢) حسن لغيره - أخرجه أحمد (٤/ ١٢٧)، وابن سعد (١/ ٧١)، والطبراني في «الكبير» (١٨/ رقم ٦٢٩ و٦٣٠)، والطبري في «جامع البيان» (١/ رقم ٢٠٧٧ و٢٠٧٨)، وابن حبان في «صحيحة» (١٤/ رقم ٦٤٠٤) بسند ضعيف لكن يشهد له ما قبله وما بعده.

(٣) حسن - أخرجه أحمد (٥/ ٢٦٢)، وابن سعد (١/ ٧١)، والطبراني في «الكبير» (٨/ رقم ٧٧٢٩) بسند حسن؛ كما قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ٢٢٥)، وشيخنا الألباني في «الصحيحة» (١٩٢٥).

الأنبياء على الإطلاق، أحمد، وهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم الذي هو من سلالة إسماعيل بن إبراهيم الخليل -عليه السلام-.

قال الله -تعالى-: ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ [٥٥]؛

يحتمل عود الضمير إلى عيسى -عليه السلام-، ويحتمل عوده إلى محمد ﷺ.

ثم حرص -تعالى- عباده المؤمنين على نصره الإسلام وأهله ونصرة نبيه ومؤازرته ومعاونته على إقامة الدين ونشر الدعوة، فقال: ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ؟ ﴾ أي: من يساعدني في الدعوة إلى الله؟ ﴿ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ﴾. وكان ذلك في قرية يقال لها: الناصرة، فسموا بذلك النصارى، قال الله -تعالى-: ﴿ فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ ﴾؛ يعني: لما دعا عيسى ابن مريم بني إسرائيل وغيرهم إلى الله -تعالى-؛ منهم من آمن ومنهم من كفر: وكان ممن آمن به أهل أنطاكية بكاملهم فيما ذكره غير واحد من أهل السير والتواريخ والتفسير؛ بعث إليهم رسلا ثلاثة، أحدهم سمعان الصفا، فآمنوا واستجابوا، وليس هؤلاء هم المذكورون في سورة يس؛ لما تقدم تقريره في قصة أصحاب القرية. وكفر آخرون من بني إسرائيل، وهم جمهور اليهود. فأيد الله من آمن به على من كفر فيما بعد وأصبحوا ظاهرين عليهم قاهرين لهم؛ كما قال -تعالى-: ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَى ابْنِي مَرْيَمَ وَرَافِعُكَ إِلَيْنِي وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ ﴾ [آل عمران: ٥٥]؛ فكل من كان إليه أقرب كان غالبا لمن دونه، ولما كان قول المسلمين فيه هو الحق الذي لا شك فيه من أنه عبد الله ورسوله؛ كانوا ظاهرين على النصارى الذين غلوا فيه وأطروه وأنزلوه فوق ما أنزله الله به، ولما كان النصارى أقرب في الجملة مما ذهب إليه اليهود فيه -عليهم لعائن الله-؛ كان النصارى قاهرين لليهود في أزمان الفترة إلى زمن الإسلام وأهله، والله -تعالى- أعلم.

ذكر خبر المائدة

قال الله - تعالى -: ﴿ إِذْ قَالَ الْحَوَارِثُوتُ يَٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١﴾ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتُنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٢﴾ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اٰللهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَآرْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٣﴾ قَالَ اللهُ إِنِّي مُنْزِلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٤﴾ ﴾ [المائدة: ١١٢-١١٥].

قد ذكرنا في «التفسير»^(١) الآثار الواردة في نزول المائدة عن ابن عباس وسلمان الفارسي وعمار بن ياسر وغيرهم من السلف، ومضمون ذلك: أن عيسى - عليه السلام - أمر الحواريين بصيام ثلاثين يوما، فلما أتموها؛ سألوا من عيسى إنزال مائدة من السماء عليهم؛ لياكلوا منها، وتطمئن بذلك قلوبهم أن الله قد تقبل صيامهم وأجابهم إلى طلبتهم، وتكون لهم عيدا يفطرون عليها يوم فطرتهم، وتكون كافية لأولهم وآخرهم لغنيهم وفقيرهم، فوعظهم عيسى - عليه السلام - في ذلك، وخاف عليهم ألا يقوموا بشكرها ولا يؤدوا حق شروطها، فأبوا عليه إلا أن يسألهم ذلك من ربه - عز وجل - فلما لم يقلعوا عن ذلك؛ قام إلى مصلاه ولبس مسحاً من شعر، وصف بين قدميه، وأطرق رأسه، وأسبل عينيه بالبكاء، وتضرع إلى الله في الدعاء والسؤال أن يجابوا إلى ما طلبوا.

فأنزل الله - تعالى - المائدة من السماء، والناس ينظرون إليها تنحدر بين غمامتين، وجعلت تدنو قليلا قليلا، وكلما دنت؛ سأل عيسى ربه - عز وجل - أن يجعلها رحمة لا نقمة، وأن يجعلها بركة وسلامة. فلم تزل تدنو حتى استقرت بين

يدي عيسى - عليه السلام - وهي مغطاة بمنديل ، فقام عيسى يكشف عنها وهو يقول: بسم الله خير الرازقين. فإذا عليها سبعة من الحيتان وسبعة أرغفة، ويقال: وخل، ويقال: ورماني وثمار، ولها رائحة عظيمة جدا، قال الله لها: كوني ! فكانت. ثم أمرهم بالأكل منها. فقالوا: لا نأكل حتى تأكل. فقال: إنكم الذين ابتدأتم السؤال لها ! فأبوا أن يأكلوا منها ابتداء، فأمر الفقراء والمحاييج والمرضى والزمنى وكانوا قريبا من ألف وثلاثمائة، فأكلوا منها فبريء كل من به عاهة أو آفة أو مرض مزمن، فندم الناس على ترك الأكل منها لما رأوا من إصلاح حال أولئك. ثم قيل: إنه كانت تنزل كل يوم مرة، فيأكل الناس منها، يأكل آخرهم كما يأكل أولهم، حتى قيل إنها كان يأكل منها نحو سبعة آلاف.

ثم كانت تنزل يوما بعد يوم؛ كما كانت ناقة صالح يشربون لبنها يوما بعد يوم. ثم أمر الله عيسى أن يقصرها على الفقراء أو المحاييج دون الأغنياء؛ فشق ذلك على كثير من الناس، وتكلم منافقوهم في ذلك؛ فرفعت بالكلية، ومسخ الذين تكلموا في ذلك خنازير.

فالجمهور أنها نزلت؛ كما دلت عليها هذه الآثار كما هو المفهوم من ظاهر سياق القرآن، ولا سيما قوله: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾؛ كما قرره ابن جرير^(١)، والله أعلم.

(١) في «جامع البيان» (٧/ ٨٧-٨٨).

ذكر رفع عيسى - عليه السلام -

إلى السماء في حفظ الرب

وبيان كذب اليهود والنصارى في دعوى الصلب

قال الله - تعالى -: ﴿ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكِيرِينَ ﴾ [١] إِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَى ابْنِي مَتْوًى وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ [٢] [آل عمران: ٥٤-٥٥].

وقال - تعالى -: ﴿ فِيمَا نَقُضُهُمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [٣] وَيَكْفُرُهُمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَنًا عَظِيمًا ﴾ [٤] وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴾ [٥] بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [٦] وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِمْ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾ [٧] [النساء: ١٥٥-١٥٩].

فأخبر - تعالى - أنه رفعه إلى السماء بعدما توفاه بالنوم على الصحيح المقطوع به، وخلصه ممن كان أراد أذيته من اليهود الذين وشوا به إلى بعض الملوك الكفرة في ذلك الزمان؛ فأمر بقتله، وصلبه، فحصره في دار بيت المقدس، فلما حان وقت دخولهم؛ ألقى شبهه على بعض أصحابه الحاضرين عنده؛ ورفع عيسى إلى السماء، ودخل الشرط؛ فوجدوا ذلك الشاب الذي ألقى عليه شبهه؛ فأخذوه ظانين أنه عيسى؛ فصلبوه، ووضعوا الشوك على رأسه إهانة له، وسلم لليهود عامة النصارى - الذي لم يشاهدوا ما كان من أمر عيسى - أنه صلب، وضلوا بسبب ذلك ضلالا مبينا كثيرا فاحشا بعيدا.

وأخبر - تعالى - بقوله: ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ [النساء: ١٥٩]؛ أي: بعد نزوله إلى الأرض في آخر الزمان قبل قيام الساعة؛ فإنه ينزل ويقتل الخنزير ويكسر الصليب ويضع الجزية ولا يقبل إلا الإسلام؛ كما بينا ذلك بما ورد فيه من الأحاديث عند تفسير هذه الآية الكريمة من سورة النساء؛ كما أوردنا ذلك مستقصى في كتاب «الفتن والملاحم»^(١) عند أخبار المسيح الدجال، فذكرنا ما ورد في نزول المسيح المهدي - عليه السلام - من ذي الجلال؛ لقتل المسيح الدجال، الكذاب الداعي إلى الضلال.

وهذا ذكر ما ورد في الآثار في صفة رفعه إلى السماء:

روى ابن أبي حاتم^(٢): عن ابن عباس؛ قال: لما أراد الله أن يرفع عيسى إلى السماء؛ خرج على أصحابه، وفي البيت اثنا عشر رجلاً منهم من الخواريين. يعني: فخرج عليهم من عين في البيت ورأسه يقطر ماء، فقال: إن منكم من يكفر بي اثنتي عشرة مرة بعد أن آمن بي. ثم قال: أيكم يلقي عليه شبيهي؛ فيقتل مكاني، فيكون معي في درجتي؟ فقام شاب من أحدثهم سناً، فقال له: اجلس، ثم أعاد عليهم؛ فقام الشاب، فقال: اجلس، ثم أعاد عليهم؛ فقام الشاب، فقال: أنا. فقال: أنت هو ذاك. فألقي عليه شبه عيسى، ورفع عيسى من روضة في البيت إلى السماء. قال: وجاء الطلب من اليهود، فأخذوا الشبه، فقتلوه، ثم صلبوه، فكفر به بعضهم اثنتي عشرة مرة بعد أن آمن به، واختلفوا ثلاث فرق؛ فقالت طائفة: كان الله فينا ما شاء، ثم صعد إلى السماء! وهؤلاء البعقوبية، وقالت فرقة: كان فينا ابن الله ما شاء ثم رفعه الله إليه! وهؤلاء النسطورية، وقالت فرقة: كان فينا عبد الله ورسوله ما شاء ثم رفعه الله إليه. وهؤلاء المسلمون.

(١) من «البداية والنهاية» (١٠/ ١٣٠ - وما بعدها).

(٢) في «تفسيره» (٤/ ١١٠/ ٦٢٣٣)، والنسائي في «السنن الكبرى» (٢/ ٤٢٥ -

٤٢٧/ ٦١١ - التفسير)، والطبري في «جامع البيان» (٢٨/ ٦٠) بسند حسن.

فتظاهرت الكافرتان على المسلمة، فقتلوهما فلم يزل الإسلام طامسا حتى بعث الله محمدا ﷺ.

قال ابن عباس: وذلك قوله تعالى:- ﴿ فَأَيُّدْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَاصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴾ [الصف: ١٤].

وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس على شرط مسلم^(١).

وقال الحسن البصري: وكان عمر عيسى -عليه السلام- يوم رفع أربعاً وثلاثين سنة.

وفي الحديث: «إن أهل الجنة يدخلونها جرداً مردأً مكحلين أبناء ثلاث وثلاثين»^(٢).

وفي الحديث الآخر: «على ميلاد عيسى، وحسن يوسف»^(٣).

(١) كذا قال المصنف-رحمه الله-! بل هو على شرط البخاري وحده؛ فإن مسلماً لم يخرج للمنهل بن عمرو.

(٢) حسن بشواهده- أخرجه أحمد (٢/٢٩٥ و٣٤٣ و٤١٥)، والطبراني في «الأوسط» (٥٤١٨)، و«الصغير» (٨٠٩) بسند ضعيف؛ فيه علي بن زيد بن جدعان، وهو سعي الحفظ. وله شاهد من حديث المقدم بن معدي كرب: أخرجه الطبراني في «الكبير» (٢٠/٦٦٣ و٦٦٤)، و«مسند الشاميين» (١٨٣٩)، والبيهقي في «البعث» (٤٢١ و٤٢٢) وسنده حسن في الشواهد. وآخر حديث معاذ بن جبل: أخرجه الترمذي (٢٥٤٥)، وأحمد (٥/٢٤٣)، والبيهقي (٤٢٣) بسند حسن في الشواهد.

وآخر من حديث أبي هريرة بنحوه: أخرجه الترمذي (٢٥٣٩) بسند حسن في الشواهد. وبالجملة؛ فالحديث حسن بمجموع ذلك.

(٣) حسن لغيره- أخرجه ابن أبي الدنيا؛ كما في «البداية والنهاية» (١٠/٥٧٤)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٣/٥٦)، والبيهقي في «البعث» (٤١٨) بسند ضعيف، ويشهد له حديث المقدم المتقدم.

ذكر صفة عيسى - عليه السلام -

وشمائله وفضائله

قال الله - تعالى -: ﴿ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ
الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ ﴾ [المائدة: ٧٥].

قيل: سمي المسيح؛ لمسحه الأرض، وهو سياحته فيها وفراره بدينه من الفتن
في ذلك الزمان؛ لشدة تكذيب اليهود له وافترائهم عليه وعلى أمه - عليهما
السلام -.

وقيل: لأنه كان ممسوح القدمين.

وقال - تعالى -: ﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَرِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا
بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ ﴾ [المائدة: ٤٦]، وقال - تعالى -: ﴿ وَلَقَدْ
آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ
الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ﴾ [البقرة: ٨٧].
والآيات في ذلك كثيرة جداً.

وقد تقدم^(١) ما ثبت في «الصحيحين»: «ما من مولود؛ إلا والشيطان يطعن في
خاصرته حين يولد فيستهل صارخاً؛ إلا مريم وابنها، ذهب يطعن، فطعن في
الحجاب».

وتقدم^(٢) حديث عبادة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من شهد أن لا إله إلا
الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبد الله ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله
وكلمته التي ألقاها إلى مريم وروح منه، والجنة حق؛ والنار حق، أدخله الله الجنة
على ما كان من العمل».

(١) مضي (ص ٤٥١).

(٢) مضي (ص ٤٧١).

وروى البخاري و مسلم من حديث أبي موسى، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أدب الرجل أمته فأحسن تأديبها، وعلمها فأحسن تعليمها، ثم أعتقها فتزوجها؛ كان له أجران. وإذا آمن بعيسى ابن مريم ثم آمن بي؛ فله أجران. والعبد إذا اتقى ربه وأطاع مواليه؛ فله أجران»^(١).

وتقدم^(٢) ما رواه البخاري: عن أبي هريرة؛ قال: قال النبي ﷺ: «ليلة أسري بي لقيت موسى - قال: فنعته - فإذا رجل (حسبته قال): مضطرب، رجل الرأس كأنه من رجال شنوءة». قال: «ولقيت عيسى فنعته النبي ﷺ فقال: ربعة، أحمر، كأنما خرج من ديماس - يعني: الحمام -، ورأيت إبراهيم وأنا أشبه ولده به» ثم قال^(٣): «عن ابن عمر؛ قال: قال النبي ﷺ: «رأيت عيسى وموسى وإبراهيم: فأما عيسى؛ فأحمر، جعد عريض الصدر. وأما موسى؛ فأدم، جسيم، سبط»^(٤)، كأنه من رجال الزط».

عن عبد الله بن عمر: ذكر النبي ﷺ يوماً بين ظهراي الناس المسيح الدجال، فقال: «إن الله ليس بأعور. ألا إن المسيح الدجال أعور العين اليمنى، كأن عينه عنبة طافية. وأراني الليلة عند الكعبة في المنام؛ فإذا رجل آدم كأحسن ما يرى من آدم الرجال، تضرب لفته بين منكبيه، رجل الشعر، يقطر رأسه ماء، واضعاً يديه على منكبي رجلين، وهو يطوف بالبيت، فقلت: من هذا؟ فقالوا: المسيح ابن مريم. ثم رأيت رجلاً وراءه جعداً قطعاً أعور عين اليمنى كأشبه من رأيت بابن

(١) أخرجه البخاري (٣٤٤٦)، ومسلم (١٥٤).

(٢) مضي (ص ٣٣٠).

(٣) أي: البخاري، والحديث في «صحيحه» (٣٤٣٨) بهذا السند، لكنه من مسند ابن عباس لا من مسند ابن عمر، وهذا هو الذي صوبه أهل العلم: أن الحديث من رواية مجاهد عن ابن عباس. ومن قال ابن عمر؛ فقد وهم، والخطأ عن هو دون البخاري.

(٤) أي: مسترسل الشعر.

قطن، واضعا يده على منكبي رجل يطوف بالبيت، فقلت: من هذا ؟ فقالوا:
المسيح الدجال»^(١).

قال الزهري: وابن قطن رجل من خزاعة هلك في الجاهلية.
فبين -صلوات الله وسلامه عليه- صفة المسيحين: مسيح الهدى، ومسيح
الضلالة؛ ليعرف هذا إذا نزل؛ فيؤمن به المؤمنون، ويعرف الآخر؛ فيحذره
الموحدون.

وروى البخاري: عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ؛ قال: «رأى عيسى ابن مريم
رجلا يسرق، فقال له: أسرت ؟ قال: كلا؛ والذي لا إله إلا هو. فقال عيسى:
آمنت بالله وكذبت عيني»^(٢).

وهذا يدل على سجية طاهرة؛ حيث قدم حلف ذلك الرجل - فظن أن أحداً
لا يحلف بعظمة الله كاذباً - على ما شاهده منه عياناً، فقبل عذره ورجع على
نفسه، فقال: آمنت بالله؛ أي: صدقتك وكذبت بصري لأجل حلفك.

وروى البخاري^(٣): عن ابن عباس؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «تَحْشَرُونَ حِفَاةَ
عِزَّةٍ غِرْلًا، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا
فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]؛ فأول الخلق يكسى إبراهيم، ثم يؤخذ برجال من
أصحابي ذات اليمين وذات الشمال فأقول: أصحابي! فيقال: إنهم لم يزلوا
مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم. فأقول كما قال العبد الصالح عيسى ابن مريم:
﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ
وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [١٠٤]، إِنَّ تَعَذُّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ
أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٠٥﴾ [المائدة: ١١٧-١١٨].

(١) أخرجه البخاري (٣٤٣٩ و ٣٤٤٠)، ومسلم (١٦٩).

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٤٤)، ومسلم (٢٣٦٨).

(٣) في «صحيحه» (٣٤٤٧).

وروى^(١) - أيضا - : عن ابن عباس سمع عمر يقول على المنبر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم؛ فإنما أنا عبد؛ فقولوا: عبد الله ورسوله».

وروى البخاري^(٢): عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ؛ قال: «لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة: عيسى، وكان في بني إسرائيل رجل، يقال له: جريج كان يصلي؛ إذ جاءته أمه، فدعته، فقال: أجيبها أو أصلي؟ فقالت: اللهم! لا تمته حتى تربه وجوه المومسات. وكان جريج في صومعته، فتعرضت له امرأة، وكلمته، فأبى، فأنت راعيا، فأمكنته من نفسها، فولدت غلاما فقيل لها: ممن؟ قالت: من جريج! فأتوه، وكسروا صومعته، فأنزلوه، وسبوه. فتوضأ، وصلى ثم أتى الغلام، فقال: من أبوك يا غلام؟ قال: فلان الراعي. فقالوا: أنبي صومعتك من ذهب؟ قال: لا؛ إلا من طين. وكانت امرأة ترضع ابنا لها في بني إسرائيل فمر بها رجل راكب ذو شارة، فقالت: اللهم! اجعل ابني مثله، فترك ثديها وأقبل على الراكب، فقال: اللهم لا تجعلني مثله. ثم أقبل على ثديها يمصه. قال أبو هريرة: كأني أنظر إلى النبي ﷺ يمص إصبعة. ثم مر بأمه؛ فقالت: اللهم! لا تجعل ابني مثل هذه! فترك ثديها، فقال: اللهم! اجعلني مثلها. فقالت: لم ذلك؟! فقال: الراكب جبار من الجبابرة، وهذا الأمة يقولون: سرقت وزنت، ولم تفعل».

وروى البخاري^(٣): عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أنا أولى الناس بابن مريم، والأنبياء أولاد علات^(٤)، ليس بيني وبينه نبي». وروى أحمد^(٥): عن أبي هريرة قال: قال رسول الله: «أنا أولى الناس بعيسى ذ-عليه السلام- والأنبياء إخوة أولاد علات، وليس بيني وبين عيسى نبي».

(١) في «صحيحه» (٣٤٤٥).

(٢) (٣٤٣٦)، وكذا أخرجه مسلم (٢٥٥٠).

(٣) (٣٤٤٣).

(٤) الضرائر. والمقصود بـ(أولاد علات): أي: أنهم أولاد لأب واحد من أمهات مختلفات، والمقصود: أن أصل دين الأنبياء واحد، وإن كانت شرائعهم مختلفة.

وروى أحمد: عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ؛ قال: «الأنبياء إخوة لعلات، ودينهم واحد، وأمهاتهم شتى، وأنا أولى الناس بعيسى ابن مريم؛ لأنه لم يكن بيني وبينه نبي، وإنه نازل؛ فإذا رأيتموه؛ فاعرفوه؛ فإنه رجل مربع، إلى الحمرة والبياض، سبط، كأن رأسه يقطر وإن لم يصبه بلل، بين ممصرتين^(١)؛ فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويعطل الملل حتى تهلك في زمانه كلها غير الإسلام، ويهلك الله في زمانه المسيح الدجال الكذاب، وتقع الأمانة في الأرض حتى ترتع الإبل مع الأسد جميعا والنمور مع البقر والذئاب مع الغنم ويلعب الصبيان والغلمان بالحيات لا يضر بعضهم بعضاً، فيمكث ما شاء الله أن يمكث، ثم يتوفى؛ فيصلي عليه المسلمون، ويدفنونه»^(٢).

ثم رواه أحمد^(٣) عن أبي هريرة؛ فذكر نحوه. وقال: «فيمكث أربعين سنة، ثم يتوفى ويصلي عليه المسلمون».

وسياأتي بيان نزوله -عليه السلام- في آخر الزمان في كتاب «الملاحم»^(٤)، كما بسطنا ذلك -أيضاً- في «التفسير»^(٥) عند قوله -تعالى- في سورة النساء: ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِمْ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ۝﴾ [النساء: ١٥٩]، وقوله: ﴿وَإِنَّهُمْ لَعِلْمٌ لِّلْسَاعَةِ...﴾ [الزخرف: ٦١] الآية، وأنه ينزل على المنارة البيضاء بدمشق، وقد أقيمت صلاة الصبح؛ فيقول له إمام المسلمين: تقدم يا روح الله! فصل! فيقول: لا؛ بعضكم على بعض أمراء

(١) في «المسند» (٢/٤٦٣)، وسنده صحيح على شرطهما.

(٢) أي: ثوبان ملونان بالصفرة.

(٣) صحيح - أخرجه أحمد (٢/٤٣٧)، وأبو داود (٤٣٢٤)، وابن حبان في «صحيحه» (١٥/٦٨٢٢ رقم)، والحاكم (٢/٥٩٥). وغيرهم بسند صحيح، وقد صححه الحاكم والذهبي والحافظ ابن حجر وشيخنا الألباني.

(٤) (٢/٤٠٦).

(٥) من «البداية والنهاية» (١٠/١٣٠).

(٦) (٢/٣٩٩-٤١٩).

تكرمة الله هذه الأمة، وفي رواية: فيقول له عيسى: إنما أقيمت الصلاة لك. فيصلبي خلفه، ثم يركب ومعه المسلمون في طلب المسيح الدجال، فيلحقه عند باب لد، فيقتله بيده الكريمة.

وذكرنا أنه قوي الرجاء حين بنيت هذه المنارة الشرقية بدمشق، التي هي من حجارة بيض، وقد بنيت -أيضاً- من أموال النصارى حين حرقوا التي هدمت وما حولها، فينزل عليها عيسى ابن مريم -عليه السلام-؛ فيقتل الخنزير، ويكسر الصليب، ولا يقبل من أحد إلا الإسلام. وأنه يخرج من فج الروحاء حاجاً أو معتمراً أو لثنتيهما، ويقيم أربعين سنة، ثم يموت؛ فيدفن.

وروى البخاري^(١) عن سلمان؛ قال: الفترة ما بين عيسى ومحمد ﷺ ستمائة سنة. وعن قتادة: خمسمائة وستون سنة. وقيل: خمسمائة وأربعون سنة. وعن الضحاك: أربعمائة وبعض ثلاثون سنة. والمشهور ستمائة سنة، ومنهم من يقول: ستمائة وعشرون سنة بالقمرية؛ لتكون ستمائة بالشمسية، والله أعلم.

وذكر غير واحد: أن الإنجيل نقله عنه أربعة: لوقا، ومتى، ومرقس، ويوحنا. وبين هذه الأناجيل الأربعة تفاوت كثير بالنسبة إلى كل نسخة ونسخة وزيادات كثيرة ونقص بالنسبة إلى أخرى!!

وهؤلاء الأربعة: منهم اثنان ممن أدرك المسيح ورآه، وهما: متى ويوحنا، ومنهم اثنان من أصحاب أصحابه، وهما: مرقس ولوقا، فالله أعلم.

وقد أنشد الشيخ شهاب الدين القرافي في كتابه: «الرد على النصارى» لبعضهم يرد عليهم في قولهم بصلب المسيح وتسليمهم ذلك لليهود؛ مع دعواهم أنه ابن الله -تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً-:

عجباً للمسيح بين النصارى وإلى أي والنسب نسبه
أسلموه إلى اليهود وقالوا إنهم بعد قتل صلبوه

فلذا كان ما يقولون حقاً وصحيحاً فأين كان أبوه
حين خلى ابنه رهين الأعداء أتراهم أرضوه أم أغضبوه
فلئن كان راضياً فاحمدوهم واشكروهم لأنهم وافقوه
ولئن كان ساخطاً فاتركوه واعبدوهم لأنهم غلبوه

فصل

[في اختلاف أصحاب المسيح]

اختلف أصحاب المسيح - عليه السلام - بعد رفعه إلى السماء فيه على
أقوال؛ كما قاله ابن عباس وغيره من أئمة السلف؛ كما أوردناه عند قوله:
﴿ فَأَيُّدْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَاصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴾ [الصف: ١٤] !.
قال ابن عباس وغيره: قال قائلون منهم: كان فينا عبد الله ورسوله فرفع إلى
السماء.

وقال آخرون: هو الله.

وقال آخرون: هو ابن الله.

فالأول هو الحق، والقولان الآخران كفر عظيم؛ كما قال: ﴿ فَأَخْتَلَفَ
الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [مريم: ٣٧].
وقد اختلفوا في نقل الأناجيل على أربعة أقاويل ما بين زيادة ونقصان
وتحريف وتبديل.

ثم بعد المسيح بثلاثمائة سنة حدثت فيه الطامة العظمى والبلية الكبرى:
اختلف البطارقة الأربعة وجميع الأساقفة والقساوسة والشمامسة والرهبان في
المسيح على أقوال متعددة لا تنحصر ولا تنضب، واجتمعوا وتحاكموا إلى الملك
قسطنطين باني القسطنطينية، وهم المجمع الأول، فصار الملك إلى قول أكثر فرقة
اتفقت على قول من تلك المقالات، فسموا الملكية، ودحض من عداهم وأبعدهم،
وتفردت الفرقة التابعة لعبد الله بن أريوس الذي ثبت على أن عيسى عبد من عباد

الله ورسول من رسله، فسكنوا البراري والبادي، وبنوا الصوامع والديارات والقلايات، وقنعوا بالعيش الزهيد، ولم يخالطوا أولئك الملل والنحل، وبنى الملكية الكنائس الهائلة؛ عمدوا إلى ما كان من بناء اليونان؛ فحولوا محاريبها إلى الشرق، وقد كانت إلى الشمال؛ إلى الجدي^(١).

(١) من النجوم.

بيان بناء بيت لحم على محل مولد المسيح، وبنيت أمه هيلانة القمامة؛ يعني: على قبر المصلوب، وهم يسلمون لليهود أنه المسيح، وقد كفرت هؤلاء وهؤلاء، ووضعوا القوانين والأحكام، ومنها مخالف للعتيقة التي هي التوراة، وأحلوا أشياء هي حرام بنص التوراة، ومن ذلك الخنزير، وصلوا إلى المشرق ولم يكن المسيح صلى إلا إلى صخرة بيت المقدس، وكذلك جميع الأنبياء بعد موسى، ومحمد خاتم النبيين صلى إليها بعد هجرته إلى المدينة ستة عشر أو سبعة عشر شهراً ثم حُوِّل إلى الكعبة التي بناها إبراهيم الخليل، وصوروا الكنائس ولم تكن مصورة قبل ذلك، ووضعوا العقيدة التي يحفظها أطفالهم ونساؤهم ورجالهم التي يسمونها بالأمانة، وهي في الحقيقة أكبر الكفر والخيانة، وجميع الملكية والنسطورية أصحاب نسطورس - أهل الجمع الثاني -، واليعقوبية أصحاب يعقوب البراذعي - أصحاب الجمع الثالث -، يعتقدون هذه العقيدة ويختلفون في تفسيرها.

وها أنا أحكيها - وحكي الكفر ليس بكافر - لأبث على ما فيها من ركة الألفاظ وكثرة الكفر والخبال المفضي بصاحبه إلى النار ذات الشواظ؛ فيقولون:

«نؤمن بإله واحد؛ ضابط الكل، خالق السماوات والأرض؛ كل ما يرى وكل ما لا يرى. وبرب واحد؛ يسوع المسيح، ابن الله الوحيد، المولود من الأب قبل الدهور، نور من نور، إله حق من إله حق، مولود غير مخلوق، مساو للأب في الجوهر الذي كان به كل شيء، من أجلنا - نحن البشر - ومن أجل خلاصنا نزل من السماء، وتجسد من روح القدس ومن مريم العذراء، وتأنس، وصلب على عهد فيلاطس النبطي، وتآلم، وقبر، وقام في اليوم الثالث كما في الكتب، وصعد إلى السماء، وجلس على يمين الأب، وأيضاً؛ فسيأتي بمجده ليدبر الأحياء والأموات، الذي لا فناء لملكه. وروح القدس الرب المحيي المنبثق من الأب مع الأب. والابن مسجود له. وبمجد الناطق في الأنبياء. كنيسة واحدة جامعة مقدسة يهولية. واعترف بمعمودية واحدة لمغفرة الخطايا، وأنه حي قيامة الموتى وحياة الدهر العتيد كونه. آمين»^(١)

(١) هذه وثيقة مصالحة على الكفر ومهادنة على الشرك ومؤلفة بين تناقضات النصراني - أخزاهم الله -، ولذلك فالمسيح عيسى ابن مريم - عليه السلام - بريء منها ومنهم، ونحن كذلك.

قال تعالى: ﴿ أَهْدَيْنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ۝ ﴾ [الفاتحة: ٧٠].

فهرس الموضوعات والفوائد

فهرس الموضوعات والفوائد

٥	* المقدمة
٩	* قصة آدم - عليه السلام -
٩	باب ما ورد في خلق آدم - عليه السلام - في القرآن الكريم
١٣	الملائكة الكرام يسألون عن حكمة خلق آدم - عليه السلام -
١٥	حسد إبليس لآدم - عليها السلام -
١٩	الملائكة الذين سجدوا لآدم
١٩	إبليس كان في السماء
٢٠	حواء - عليها السلام - وقصة خلقها
٢١	الشجرة التي نهى عنها آدم وزوجته - عليهما السلام -
٢١	حقيقة الجنة التي كان فيها آدم وزوجته - عليهما السلام -
٢٢	إبليس يوسوس لآدم وحواء - عليهما السلام -
٢٣	حواء - عليها السلام - والشجرة
٢٤	لباس آدم وحواء - عليهما السلام -
٢٥	ندم الأبوين - عليهما السلام - واستغفارهما
٢٥	إخراج آدم وحواء - عليهما السلام - من الجنة
٢٧	توبة آدم - عليه السلام -
٢٨	احتجاج آدم وموسى - عليهما السلام -
٣١	ذكر الأحاديث الواردة في خلق آدم - عليه السلام -
٣٣	مسألة الميثاق والاستنطاق بالتوحيد
٣٥	حسرة إبليس من توبة آدم - عليه السلام -
٣٥	مدة مقام آدم في الجنة
٣٦	ذكر قصة ابني آدم قابيل وهابيل
٣٩	قصة منكرة في وقوع آدم وحواء - عليهما السلام - في الشرك
٤٣	ذكر وفاة آدم ووصيته إلى ابنه شيث - عليه السلام -
٤٥	* قصة إدريس - عليه السلام -

٤٧	* قصة نوح - عليه السلام -
٤٨	قصة نوح - عليه السلام - في القرآن الكريم
٥٣	مدح نوح - عليه السلام - والثناء عليه
٥٥	المخراف ذرية آدم - عليه السلام - وعبادتهم الأصنام
٥٦	نوح - عليه السلام - أول رسول إلى أهل الأرض
٦١	يأس نوح - عليه السلام - من إيمان قومه
٦١	نوح - عليه السلام - يصنع السفينة
٦٤	نوح - عليه السلام - والظوفان
٧٠	الرد على منكري الطوفان
٧١	ذكر شيء من أخبار نوح نفسه - عليه السلام -
٧١	ذكر وصيته - عليه السلام - لولده
٧٣	* قصة هود - عليه السلام -
٧٣	قبيلة عاد ومساكنهم
٧٣	العرب العارية والمستعربة
٧٤	قصة هود - عليه السلام - في القرآن
٧٧	عاد أول من عبد الأصنام بعد الطوفان
٧٨	هود - عليه السلام - ينذر قومه
٨٣	هلاك عاد ونزول نقمة الله بهم
٨٥	بين عاد الأولى والآخرة
٨٩	* قصة صالح - عليه السلام - نبي ثمود
٨٩	قبيلة ثمود
٨٩	قصة صالح - عليه السلام - في القرآن
٩٢	أهل الكتاب لا يعرفون خبر عاد وثمود
٩٢	صالح يدعو قومه إلى توحيد الله وعبادته
٩٤	معجزة صالح - عليه السلام -
٩٥	ثمود عقرت ناقة الله
٩٧	هلاك ثمود ونزول عذاب الله بساحتهم
٩٩	خبر أبي رغال
١٠٠	هجرة صالح - عليه السلام - عن ديار العذاب

- ١٠١ ذكر مرور النبي ﷺ بوادي الحجر
- ١٠٣ * قصة إبراهيم الخليل - عليه السلام -
- ١٠٣ مولده ونسبه وهجرته
- ١٠٤ دعوة الخليل ﷺ لأبيه
- ١٠٥ تبرؤ الخليل ﷺ من أبيه عدو الله
- ١٠٦ ذكر الخلاف في اسم أبي إبراهيم - عليه السلام -
- ١٠٦ مناظرة الخليل لعبادة الكواكب
- ١٠٨ تكسير الأصنام ومناظرته عبادها
- ١١٣ حادثة الإحراق ولحمة إبراهيم - عليه السلام - من النار
- ١١٦ ذكر مناظرة إبراهيم الخليل مع من أراد أن ينازع الجليل
- ١١٨ ذكر هجرة الخليل - عليه السلام - إلى بلاد الشام
- ١١٩ قصة الجبار الذي أراد سارة زوجة الخليل بسوء وعصمة لها منه
- ١٢٢ رجوع الخليل - عليه السلام - إلى الأرض المقدسة
- ١٢٢ هجرة لوط - عليه السلام - إلى غور الأردن
- ١٢٢ بشارة الرب تبارك وتعالى لخليله إبراهيم
- ١٢٤ ذكر مولد إسماعيل - عليه السلام - مع هاجر
- ١٢٦ ذكر مهاجرة إبراهيم بابنه إسماعيل وأمه هاجر
- ١٣١ * قصة إسماعيل الذبيح
- ١٣٣ الأدلة التي تثبت أن إسماعيل هو الذبيح
- ١٣٧ ذكر مولد إسحاق - عليه السلام -
- ١٤١ ذكر بناء البيت العتيق
- ١٤٧ ذكر ثناء الله ورسوله الكريم
- ١٥٧ ذكر صفة إبراهيم - عليه السلام -
- ١٥٧ ذكر وفاة إبراهيم الخليل - عليه السلام -
- ١٥٩ * قصة لوط - عليه السلام -
- ١٥٩ نسبه عليه الصلاة والسلام
- ١٥٩ قومه الذي أرسل إليهم
- ١٦٠ قصة لوط في القرآن الكريم
- ١٦٤ دعاء لوط - عليه السلام - على قومه

- ١٦٥ مجادلة إبراهيم - عليه السلام - في قوم لوط
- ١٦٥ ضيف لوط - عليه السلام -
- ١٦٦ دفاع لوط - عليه السلام - من ضيفه
- ١٦٨ هلاك قوم لوط ونزول العذاب بهم
- ١٧٠ خبر زوجة لوط - عليه السلام - وما حل بها
- ١٧١ عقوبة من عمل قوم لوط
- ١٧١ وإنكم لتعمرون عليها مصبحين
- ١٧٣ * قصة مدين قوم شعيب - عليه السلام -
- ١٧٣ قصة شعيب - عليه السلام - في القرآن الكريم
- ١٧٥ قوم شعيب - عليه السلام -
- ١٧٥ دعوة شعيب قومه إلى التوحيد
- ١٨٠ إنذار شعيب - عليه السلام - قومه عذاب الله
- ١٨١ دعاؤه - عليه السلام - على قومه
- ١٨٢ هلاك قوم شعيب - عليه السلام -
- ١٨٣ أصحاب الأيكة هم قوم شعيب - عليه السلام -
- ١٨٤ لحمة شعيب - عليه السلام - ومن معه من المؤمنين
- ١٨٦ باب ذكر ذرية إبراهيم - عليه الصلاة والسلام -
- ١٨٦ * ذكر إسماعيل - عليه السلام -
- ١٨٧ ثناء الله على إسماعيل في القرآن
- ١٨٨ ثناء الرسول ﷺ على إسماعيل - عليه السلام -
- ١٨٩ أولاد إسماعيل - عليه السلام -
- ١٩٠ * ذكر إسحاق بن إبراهيم
- ١٩٠ أولاد إسحاق - عليه السلام -
- ١٩١ * قصة يوسف - عليه السلام -
- ١٩١ أهمية القرآن وإعجازه
- ١٩٣ إخوة يوسف يتآمرون عليه
- ١٩٦ يوسف - عليه السلام - في الحب
- ١٩٨ يوسف - عليه السلام - في بيت عزيز مصر
- ١٩٩ امرأة العزيز تراود يوسف - عليه السلام - عن نفسه

٢٠١	اجتماع نساء مصر عند امرأة العزيز
٢٠٣	يوسف - عليه السلام - في السجن
٢٠٨	رؤيا الملك
٢١٠	براءة يوسف الصديق
٢١٢	مجيء إخوة يوسف إلى مصر في طلب الميرة
٢١٥	يوسف الصديق وأخوه
٢١٧	وأعلم من الله لا تعلمون
٢١٩	قميص يوسف الصديق
٢٢٢	اجتماع الشمل وتأويل الرؤيا
٢٢٤	وتوفي مسلماً
٢٢٦	وفاة يعقوب - عليه السلام -
٢٢٧	وفاة يوسف - عليه السلام -
٢٢٩	* قصة أيوب - عليه السلام -
٢٢٩	قصة أيوب في القرآن
٢٣٠	بلاء أيوب - عليه السلام - وصبره
٢٣٣	لو أقسم على الله لأبره
٢٣٥	* قصة ذي الكفل
٢٣٥	باب ذكر أمم أهلكوا بعمامة
٢٣٧	* أصحاب الرس
٢٣٩	* قصة قوم يس
٢٣٩	* قصة أصحاب القرية في القرآن
٢٤٠	مؤمن أصحاب يس
٢٤١	هلاك أصحاب يس
٢٤٣	قصة يونس - عليه السلام -
٢٤٣	يونس - عليه السلام - في القرآن
٢٤٣	توبة يونس - عليه السلام -
٢٤٥	يونس - عليه السلام - في بطن الحوت
٢٥١	ذكر فضل يونس - عليه السلام -
٢٥٣	* ذكر قصة موسى الكليم عليه الصلاة والسلام

٢٥٣	استعباد فرعون لبني اسرائيل
٢٥٦	موسى - عليه السلام - من اليم إلى بيت فرعون
٢٥٨	رجوع موسى - عليه السلام - إلى حضن أمه
٢٥٩	انتصار موسى - عليه السلام - للإسرائيلي و قتل القبطي
٢٦١	تأمر القبط على موسى - عليه السلام -
٢٦٢	موسى - عليه السلام - في مدين
٢٦٤	رعيه الغنم وزواجه
٢٦٦	وجئت على قدر يا موسى
٢٧١	نبأ هارون - عليه السلام -
٢٧٢	دعوة موسى وهارون - عليهما السلام - لفرعون
٢٧٩	يوم الزينة
٢٨٧	فصل في تحريض كهراء القبط على إيذاء موسى وبني اسرائيل
٢٨٩	مؤمن آل فرعون
٢٩٦	الآيات البيّنات في عذاب آل فرعون
٣٠٣	ذكر هلاك فرعون وجنوده
٣١١	فصل فيما كان من أمر بني اسرائيل من هلاك فرعون
٣١٣	نكول بني اسرائيل عن قتال اسرائيل
٣١٧	فصل في دخول بني اسرائيل التيه
٣٢٠	سؤال الرؤيا
٢٢٥	قصة عبادتهم العجل في غياب كليم الله موسى - عليه السلام - عنهم
٣٣٥	* قصة بقرة بني اسرائيل
٣٣٩	* قصة موسى والخضر - عليهما السلام -
٣٤٤	ذكر الحديث الملقب بحديث الفتون
٣٥٧	ذكر بناء قبة الزمان
٣٦٠	* قصة قارون مع موسى - عليه السلام -
٣٦٦	باب ذكر فضائل موسى - عليه السلام - وشماله
٣٧٣	ذكر حجه - عليه السلام - إلى البيت العتيق
٣٧٥	ذكر وفاته - عليه السلام -
٣٧٦	* ذكر نبوة يوشع

- ٣٧٩ خروج بني إسرائيل من التيه
- ٣٨٤ ذكر قصتي الخضر وإلياس -عليهما السلام-
- ٣٨٤ * قصة الخضر -عليه السلام-
- ٣٨٥ الاختلاف في نبوة الخضر وولايته
- ٣٨٦ هل الخضر لا يزال حياً
- ٣٩٣ * قصة إلياس -عليه السلام-
- ٣٩٦ باب ذكر جماعة من أنبياء بني إسرائيل
- ٣٩٧ * قصة حزقيال
- ٣٩٩ * قصة اليسع -عليه السلام-
- ٤٠١ * قصة شمويل -عليه السلام-
- ٤٠٥ * قصة داود -عليه السلام-
- ٤٠٥ كان يأكل من كسب يده
- ٤٠٦ تسبيح داود
- ٤٠٨ اجتماع الملك والنبوة لداود -عليه السلام-
- ٤٠٨ توبة داود -عليه السلام-
- ٤١١ شيء من فضائله وأقواله
- ٤١٢ ذكر كمية حياته وكيفية وفاته
- ٤١٣ * قصة سليمان بن داود -عليهما السلام-
- ٤١٣ سعة علمه وعظيم ملكه
- ٤١٥ بين الهدهد وملكة سبأ
- ٤٢٠ الصافنات الجياد
- ٤٢٣ بناء بيت المقدس
- ٤٣١ ذكر وفاته وكم كانت مدة ملكه وحياته
- ٤٣٢ ذكر خراب بيت المقدس
- ٤٣٣ * ذكر شيء من خبر دانيال -عليه السلام-
- ٤٣٥ وهذا ذكر عمارة بيت المقدس بعد خرابها
- ٤٣٧ * قصة العزيز
- ٤٣٩ * قصة زكريا ويحيى -عليهما السلام-
- ٤٣٩ خبر زكريا ويحيى -عليهما السلام- في القرآن الكريم

٤٤٣	الملائكة تبشر زكريا ببيحي -عليهما السلام-
٤٤٦	من فضائل يحيى -عليه السلام-
٣٤٨	بيان سبب قتل يحيى -عليه السلام-
٤٤٩	* قصة عيسى ابن مريم -عليه السلام-
٤٥٠	ميلاد مريم -عليها السلام-
٤٥٢	مريم في كفالة زكريا
٤٥٣	اصطفاء الله لمريم -عليها السلام-
٤٦٠	ذكر ميلاد العبد الرسول
٤٧٢	باب بيان أن الله تعالى منزّه عن الولد
٤٨١	ذكر منشأ عيسى ابن مريم -عليهما السلام-
٤٨٢	بيان نزول الكتب الأربعة ومواقبتها
٤٨٢	نبذة من أخبار عيسى عليه السلام
٤٨٥	بشرى عيسى -عليه السلام- بمحمد ﷺ
٤٨٨	ذكر خبر المائدة
٤٩٠	ذكر رفع عيسى -عليه السلام-
٤٩٣	ذكر صفة عيسى -عليه السلام-
٤٩٩	في اختلاف أصحاب المسيح
٥٠١	بيان بناء بيت لحم والقمامة
٥٠٣	* فهرس المواضع والفوائد

تم بحمد الله وفضله